سفراء النبي

صلى الله عليه وسلم

تأليف

محمود شيت خطاب

اللواء الركن

الجزء الثاني

دار الأندلس الخضراء

للنشر والتوزيع

جدة

مؤسسة الريان

للطباعة والنشر والتوزيع

سفراء النبي

صلى الله عليه وسلم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع

حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري
ص.ب: ٤٢٣٤٠ - جدة: ٢١٥٤١ - هاتف/فاكس: ٦٨٢٥٢٠٩
المملكة العربية السعودية

مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٥١٣٦ السجل التجاري في بيروت رقم ٥ / ٧٤٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

السَّفارات النَّبويَّة في الدراسات الحديثة

مُسْتَهل

١ . جرت دراسات وبحوث في موضوع: (السَّفارات النبويّة) لا تُعدّ ولا تُحصى ، وكانت الرّسائل النبويّة التي أرسلها النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء وقادة الأمم والشّعوب والقبائل والجماعات في عصره ، صفحة بارزة من صفحات السِّيرة النَّبويَّة والتّاريخ الإسلامي ، لأنّ تلك الرّسائل تكشف عن وجه من وجوه التّطبيق العمليّ الملموس لعالميَّة الدعوة الإسلامية ، باعتبارها خاتمة الأديان والهداية الإلَهيَّة إلى الناس كافة .

وقد حظي موضوع السَّفارات النبوية والرسائل النبويّة التي هي جزء من السفارات النبويّة ، بما يستحقّه من عناية علماء الحديث ، والسِّيرة ، والتاريخ ، والأدب ، قديماً ووسطاً وحديثاً في دراساتهم وبحوثهم ومؤلفاتهم . ومع ذلك يبقى المجال مفتوحاً إلى مزيدٍ من الدراسات والبحوث والمؤلَّفات ، بخاصة فيما يتّصل بتفاصيل الوفادات ، ونصوص الرّسائل النبويّة ، والرّدود على تلك الرّسائل ، والآثار التي ترتّبت على تلك السَّفارات ، والعِبَر والدروس المستنبطة منها ، توصّلاً إلى التّجويد والاتقان ، وردّاً على التّشكيك والأوهام .

٢. وقد استجدّ في موضوع: السّفارات، خلال النصف الثاني من القرن العشرين أمران على جانب كبير من الأهمية:

أولهما: الدراسات التي نشرها قسم من المستشرقين، وتابعهم فيها بدون تمحيص قسم من الباحثين المستغربين من المسلمين، وهي تُشكِّك في السَّفارات النبويّة وفي صحّة ما ورد في نصوص الرّسائل النبويّة، إذ تزعم هذه الدراسات أنّ الرّسائل والسّفارات النبويّة هي من اختراع المؤلِّفين المسلمين، ولا صحّة لها في التّاريخ والواقع. وقد يترفَّق قسم من هؤلاء المستشرقين الباحثين، فيَقبلون بعضاً من الرّسائل والسَّفارات النبويّة وينكرون بعضها الآخر، ولكنّهم في مجموع ما دوّنوا من بحوث ودراسات ومؤلَّفات، يُشَكِّكُون في أخبار الرسائل النبويَّة والسَّفارات وما يتعلَّق بها من وثائق واتِّصالات وأحداث ومحادثات ونتائج وعِبَر.

وثانيهما: العثور على خمسة رقوق، يُظَنّ أنّها أصول خمس رسائل نبويّة من الرّسائل النّبويّة الرئيسة، وهي بترتيب العثور عليها: رسالة النبيّ ﷺ إلى المقَوْقِس عظيم القِبْط في مِصْر، ورسالته إلى المُنْذِر بن سَاوَى حاكم البحرين، ورسالته إلى النّجاشيّ ملك الأحباش في بلاد الحبشة، وكِسْرى عظيم فارس، وهِرَقْل عظيم الرُّوم.

وقد دارت حول هذه الرّقوق دراسات وبحوث ومناقشات، شارك فيها عدد من علماء المسلمين والمستشرقين، واختلفت الآراء حول توثيقها وصحّتها، ولكنّها في محصِّلتها أضافت إلى الدراسات الحديثة للسفارات والرَّسائل النبويّة بعْداً جديداً لم يكن معروفاً من قبل.

إنّ هذين الأمرين: تشكيك المستشرقين، واكتشاف أصول بعض الرَّسائل النبويَّة، يفتحان الباب على مصراعيه، لمزيد من الدراسة والمراجعة لهذا الموضوع المهم من مواضيع السِّيرة النبويّة العَطِرة[١].

(١) د. عز الدين ابراهيم - الدراسات المتعلّقة برسائل النبي ﷺ إلى الملوك في عصره - =

في المصادر والمراجع العربية الإسلاميّة

١ . القديمة:

أ. تُجمع كُتب الحديث الرئيسة على ذكر السفارات النبويّة والرسائل النبوية، فقد ذكر الإمام البخاري (ت٢٥٦ هـ) في صحيحه في باب: (اتّخاذ الخاتم ليختم به الشيء، أو ليكتب به إلى أهل الكتاب وغيرهم) ما نصّه: «عن أنس بن مالك قال: لما أرادَ النّبيّ ﷺ أن يكتبَ إلى الرُّوم، قيل له: إنَّهم لن يقرؤا كتابك إذا لم يكن مختوماً، فاتخذ خاتماً من فِضّة، ونقشه محمّد رسول الله، فكأنَّما أنظر إلى بياضه في يده »[١]، وهذا الباب هو من كتاب: (اللِّباس)[٢] من صحيح البخاري.

وأورد البخاري في صحيحه، خبر الكتابة إلى كسرى، في باب: (كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر)، ونصّه: «عن عبد الله بن عبّاس، أخبره أنّ رسول الله ﷺ، بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حُذافَة السَّهمِيّ، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأ مزّقه، فحسبتُ أنّ ابن المُسَيَّب قال: فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يُمَزَّقوا كلّ مُمزَّق »[٣]، وهذا الباب هو باب من أبواب كتاب: (المغازي)[٤] في صحيح البخاري. وقال ابن حجَر العَسْقَلاني شارح صحيح البخاري في شرح: « فلما قرأ مزّقه »، « وفيه مجاز، فإنّه لم يقرأه بنفسه، وإنّما قُرِىء عليه »[٥]، إذ كان كتاب

= مجلة المؤرخ العربي - العدد (٢٣) لسنة ١٩٨٥ - ص (٢٣٩ - ٢٤٠)، وقد اعتمدنا هذا البحث النفيس في هذه الدراسة بصورة رئيسة.

(١) فتح الباري بشرح البخاري (٢٧٣/١٠) - الهامش للجامع الصَّحيح.

(٢) فتح الباري بشرح البخاري (٢١٥/١٠ - ٣٣٥).

(٣) فتح الباري بشرح البخاري (٩٦/٨).

(٤) فتح الباري بشرح البخاري (٢١٧/٧ - ٤٠٤) و (٣/٨ - ١١٧).

(٥) فتح الباري بشرح البخاري (٩٦/٨).

النبي ﷺ إلى كسرى بالعربية، ولم يكن كسرى يُحسن العربية.

وأورد البخاري في صحيحه خبر الكتابة إلى هِرقْل والوفادة إليه في ثلاثة أبواب هي: (بدء الوحي)، و: (دعوة اليهود والنصارى وعَلاَمَ يُقَاتلون عليه) و: (تفسير سورة آل عمران).

ففي باب: (بدء الوحي) ورد ما نَصّه: «عن عبد الله بن عباس، أنّ أبا سفيان بن حَرْب أخبره، أنّ هِرَقْل أرسل إليه في ركب من قريش كانوا تُجّاراً بالشام في المدّة[1] التي كان رسول الله ﷺ مادَّ بها أبا سفيان وكفّار قريش، فأتوه وهم بإيْلِياء[2] فدعاهم وحوله عظماء الرُّوم، ثمّ دعاهم فدعا بالترجُمان، فقال: أيّكم أقرب نسباً بهذا الرّجل الذي يزعم أنّه نبيّ؟ قال أبو سُفيان: فقلت، أنا أقربهم، فقال: أدْنوه مني وقرِّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كَذَبني فكذِّبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأْثُروا عليّ كذِباً لكذبت عنه. ثم كان أوّل ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه مِنْ مَلِكٍ؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس اتّبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتدّ أحد منهم سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يَغْدِر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدّة لا ندري ما هو فاعل فيها - ولم يُمْكِنِّي كلمةٌ أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة - قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم

(١) في المدة: يعني مدة الصلح بالحديبية. انظر فتح الباري بشرح البخاري (١/٣٠).

(٢) إيلياء: بيت المقدس.

إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سِجَال، ينال منّا وننال منه. قال: فماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تُشركوا به شيئاً، واتركوا ما كان يعبد آباؤكم، ويأمرنا بالصّلاة والصِّدق والعفـاف والصِّلة. فقال للترجمان: قل له إني سألتك عن نسبه، فذكرت أنّه فيكم ذو نسب، وكذلك الرُّسل تُبعث في نَسَبِ قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله، فذكرتَ أن لا، فقلتُ لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقُلتُ رجلٌ يتأسّى بقولٍ قيل قبله وسألتك هل كان في آبائه مِنْ مَلِكٍ، فذكرتَ أن لا، فقلتُ لو كان من آبائه من ملكٍ، قلتُ رجل يطلب مُلْكَ أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنّه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذِّب على الله. وسألتك أشراف الناس اتّبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أنّ ضعفاءهم اتَّبعوه، وهم أتباع الرُّسل. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنّهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتمّ. وسألتك أيرتدّ أحد سَخْطةً لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تُخالط بشاشته القلوب. وسألتك هل يغدر، فذكرت لا، وكذلك الرُّسل لا تغدر. وسألتك بماذا يأمركم، فذكرت أنّه يأمركم أن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصّلاة والصِّدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً، فسيملك موضع قَدَمَيَّ هاتين، وقد كنتُ أعلم أنَّه خارج، لم أكن أظنّ أنّه منكم، فلو أعلم أني أخْلُصُ إليه لتجشَّمتُ لقاءه، ولو كنتُ عنده لغسلتُ عن قَدَمِه. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بُعِث به دِحْيَة إلى عظيم بُصْرَى، فدفعه إلى هِرَقْل، فقرأه، فإذا فيه: **بسم الله الرحمن الرحيم. من: محمّد عبد الله ورسوله. إلى: هِرَقْل عظيم الرُّوم. سلامٌ عن مَنْ اتّبع الهدى. أما بعد. فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلِمْ تَسْلَمْ يؤتِك الله أجركَ مرتين، فإن**

توليتَ فإن عليك إثم اليَرِيسِيين[1]، و﴿**يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون**﴾[2]. قال: قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصّخَب وارتفعت الأصوات وأخرجنا، فقلت لأصحابي: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كَبْشَة، إنّه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلتُ مُوقِناً أنّه سيظهر، حتى أدخل اللهُ عليّ الإسلام[3].

ونصّ ما ورد في باب: (دعوة اليهود والنّصارى وعلى ما يُقاتلون عليه، وما كتب النبيّ ﷺ إلى كسرى وقيصر والدّعوة قبل القتال): «قال أنس بن مالك: لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى الرُّوم، قيل له إنّهم لا يقرؤن كتاباً إلاّ أن يكون مختوماً، فاتّخذ خاتماً من فِضّة، فكأني أنظر إلى بياضه في يده، ونقش فيه: محمّد رسول الله»[4]. وقد ذكرنا ذلك في باب: (اتّخاذ الخاتم) الذي هو باب من أبواب كتاب: (اللّباس) من صحيح البخاري.

كما تكرّر حديث عبد الله بن عبّاس على قصة أبي سفيان بن حرب

---

(١) اليريسيين: جمع أريسي، وهو الأكّار، أي الفلاح، انظر فتح الباري بشرح البخاري (٣٦/١)، وفي الطبري (٦٤٩/٢) وابن الأثير (٢١٣/٢) وردت: عليك إثم الأكارين، أي الفلاحين.

(٢) سورة آل عمران، آية ٦٤.

(٣) صحيح البخاري - التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح (٨/١) - الحسين ابن المبارك - القاهرة - ١٣٤٧ هـ، وانظر هامش فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٣٠/١ - ٣٨). وابن أبي كبشة: أراد به النبي ﷺ، انظر التفاصيل في فتح الباري (٣٧/١)، وبنو الأصفر: هم الرّوم.

(٤) صحيح البخاري في هامش فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٧٨/٦).

مع هِرَقْل قَيْصَر الرُّوم في باب: (دعاء النبيّ ﷺ إلى الإسلام والنبوة وأن لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، وقوله تعالى: ﴿**ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب...**﴾[1]، وهو باب من أبواب كتاب: (الجهاد)[2] من صحيح البخاري.

والتكرار يدلّ على أهمية الخبر، وفي غير كتب الحديث الصحيحة المعروفة يدلّ التكرار على توثيق الخبر أيضاً، أما في كتب صحاح الحديث فالتوثيق متوافر على كلِّ حال.

ونصَّ ما ورد في باب: ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلاّ الله... الآية**﴾[3]، وهو باب من أبواب **تفسير سورة آل عمران ونصّ ما جاء فيه تكرار حديث عبد الله بن عبّاس على قصّة أبي سفيان بن حرب مع هرقل**[5].

وأورد البخاري في صحيحه بعث أبي موسى الأشْعَرِيّ ومُعَاذ بن جَبَل إلى اليمن، وذلك في باب: (بعث أبي موسى ومُعَاذ إلى اليمن قبل حَجَّة الوَداع)[6]، وهو باب من أبواب الجهاد من كتاب: (الجهاد) في صحيح البخاري. كما أورد ذهاب جرير بن عبد الله البَجَلِيّ إلى اليمن، في باب: (ذهاب جرير إلى اليمن)[7]، وهو باب من أبواب كتاب: (الجهاد) أيضاً في صحيح البخاري.

---

(١) صحيح البخاري في هامش فتح الباري بشرح البخاري (٧٨/٦ - ٧٩).
(٢) انظر التفاصيل في فتح الباري بشرح البخاري (٢/٦ - ١٣٤).
(٣) صحيح البخاري في هامش فتح الباري (١٦٠/٨).
(٤) فتح الباري بشرح البخاري (١٥٥/٨ - ١٧٧).
(٥) صحيح البخاري في هامش فتح الباري (١٦٠/٨ - ١٦٧).
(٦) انظر صحيح البخاري في هامش فتح الباري (٤٨/٨).
(٧) انظر صحيح البخاري في هامش فتح الباري (٦٠/٨).

ب. وورد في صحيح مُسْلِم (ت ٢٦١ هـ)، في باب: (كُتب النبي ﷺ إلى هِرَقْل ملك الشّام[١] يدعوه إلى الإسلام) ما نصّه: «عن ابن عبّاس، أنّ أبا سُفيان أخبره من فِيْهِ إلى فِيْهِ، قال: انطلقتُ في المدّة[٢] التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ، قال: فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتابٍ من رسول الله ﷺ إلى هِرَقْل يعني عظيم الرُّوم، قال: وكان دِحْيَة الكَلْبي جاء به، فدفعه إلى عظيم بُصْرى، فدفعه عظيم بُصْرى إلى هرقل، فقال هرقل، هل هاهنا أحد من قوم هذا الرّجل الذي يزعم أنّه نبيّ الله؟ قالوا: نعم. فَدُعيتُ في نفرٍ من قريش، فدخلنا على هرقل، فأَجْلِسنا بين يديه، فقال: أيّكُم أقرب نسباً من هذا الرّجل الذي يزعم أنّه نبيّ؟ فقال أبو سفيان، فقلت: أنا، فاجلسوني بين يديه وأجلسوا أصحابي خلفي. ثمّ دعا بترجمانه، فقال: قل لهم إني سائل هذا عن الرّجل الذي يزعم أنّه نبيّ، فإن كَذَبني فكذّبوه. قال: فقال أبو سفيان: وأيم الله لولا مخافة أن يؤثر عليّ الكذب لكذبتُ. ثم قال لترجمانه: سَلْهُ كيف حَسَبُهُ فيكم؟ قال، قلت: هو فينا ذو حَسَب. قال: فهل كان من آبائه مَلِك؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: ومَنْ يتبعه، أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قال، قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قال: قلت: لا، بل يزيدون. قال: هل يرتدّ أحد عن دينه بعد أن يدخل فيه سَخطَةً له؟ قال قلت: لا. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إيّاه؟ قال، قلت: يكون الحرب بيننا وبينه سِجالاً[٣]، يصيب منا ونصيب منه.

(١) قيصر الروم هرقل كان يومها ملك الشام أيضاً، لأن بلاد الشّام كانت من أملاكه.

(٢) انطلقت في المدة: يعني الصلح يوم الحُدَيْبِيَّة في أواخر سنة ست الهجرية، انظر شرح النووي على مسلم (٤/٢١٥).

(٣) سجالاً: أي نوباً، نوبة لنا، ونوبة له. وأصله من المُسْتَقِيْن بالسَّجِل، وهي الدلو الملأى، يكون لكل واحد منها سجل.

قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن من في مُدّة[1] لا ندري ما هو صانع فيها، قال: فوالله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه. قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟ قال قلت: لا. قال لترجمانه: قل له إني سألتك عن حَسَبِه، فزعمتَ أنّه فيكم ذو حَسَب، وكذلك الرُّسُل تُبعث في أحساب قومها. وسألت: هل كان في آبائه مَلِك؟ فزعمت أن لا، فقلت لو كان من آبائه ملك قلتُ رجل يطلب مُلْكَ آبائه. وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرُّسل. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فقد عرفتُ أنّه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثمّ يذهب فيكذب على الله. وسألتك: هل يرتدّ أحدهم عن دينه بعد أن يدخله سَخْطَةً له؟ فزعمتَ أن لا، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب. وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت أنّكم قد قاتلتموه، فيكون الحرب بينكم وبينه سِجالا، ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرُّسل تُبْتَلى ثمّ تكون لهم العاقبة. وسألتك: هل يغدر؟ فزعمتَ أنّه لا يغدر، وكذلك الرُّسل لا تغدر. وسألتك: هل قال هذا القول أحد قبله؟ فزعمت أن لا، فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله قلت رجل ائتمّ بقول قيل قبله. قال: ثمّ قال: بِمَ يأمركم؟ قلتُ: يأمرنا بالصّلاة والزّكاة والصِّلة والعفاف. قال: إن يكن ما تقول فيه حقّاً، فإنّه نبيّ، وقد كنتُ أعلم أنّه خارج، ولم أكن أظنّه أنّه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببتُ لقاءه، ولو كنت عنده لغسلتُ عن قدميه، وليبلغنّ ملكه ما تحت قدميَّ هاتين. قال: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ، فقرأه، فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم. من: محمد رسول الله ﷺ. إلى: هِرَقْل عظيم الرُّوم. سلام على مَنْ

(١) في مدّة: يعني مدّة الهدنة والصلح الذي جرى يوم الحديبيّة.

اتّبع الهُدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسْلِمْ تَسْلَم، وأسْلِمْ يؤتِك الله أجرك مرّتين، وإن تولّيتَ فإن عليك إثم الأريسيين، و:﴿يا أهل الكِتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنّا مسلمون﴾[١]. فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده، وكثُر اللَّغط، وأُمِر بنا فأُخرجنا. قال: فقلتُ لأصحابه حين خرجنا: لقد أَمِرَ[٢] أَمْرُ ابن أبي كَبْشَة، إنّه ليخافه ملك بني الأصفر. قال: فما زلتُ موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنّه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام »[٣]، وهذا الباب هو باب من أبواب كتاب: (الجهاد والسِّير)[٤] في صحيح مُسْلِم.

وورد في باب: كُتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفّار يدعوهم إلى الإسلام، وهو باب من أبواب كتاب: (الجهاد والسِّير) أيضاً في صحيح مُسْلِم ما نَصَّه: «عن أَنَس أن نبيَّ الله ﷺ، كتب إلى كِسْرَى وإلى قَيْصَر وإلى النّجاشيّ وإلى كلِّ جَبَّار يدعوهم إلى الله »[٥].

وكما اتَّفقَ الشيخان: البخاري ومُسْلِم في رواية حديث أبي سفيان بن حرب على قصّة رسالة النبي ﷺ إلى هِرَقل، اتّفقا أيضاً في: اتّخاذ النبي ﷺ خاتماً لمّا أراد أن يكتب إلى العجم، وهو حديث أَنَس بن مالك رضي الله عنه، قال: «كتب النبيّ ﷺ كتاباً، أو أراد أن يكتب،

---

(١) سورة آل عمران، آية ٦٤.

(٢) أمر: بفتح الهمزة وكسر الميم، أي عَظُم.

(٣) صحيح مسلم (٢١٥/٤ - ٢٢٠) وانظر شرحه في شرح النووي على مسلم في أسفل صفحات الصحيح.

(٤) انظر التفاصيل في صحيح مسلم (١٨٠/٤ - ٢٦٤).

(٥) انظر التفاصيل في صحيح مسلم (٢٢٠/٤).

فقيل له: إنّهم لا يقرؤن كتاباً إلاّ مختوماً، فاتّخذ خاتماً من فضّة نقشه: محّمد رسول الله، كأني أنظر إلى بياضه في يده »[1].

جـ. وأورد أحمد بن حَنْبَل (ت ٢٤١ هـ) في مسنده حديثاً لابن عبّاس في مسنده، وهذا نصه: « إنّ ابن عبّاس قال: بعث رسول ﷺ عبد الله بن حُذَافة بكتابه إلى كسرى، قال فدفعه إلى عظيم البحرين ليدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزّقه، قال فدعا عليهم رسول الله ﷺ بأن يُمَزَّقوا كل مُمَزَّق »[2].

وأورد أحمد بن حنبل في مسنده حديثاً لابن عباس في مسنده، فصلّ فيه خبر الكتابة إلى قيصر الرُّوم هِرَقل، بنحو ما ورد في البخاري ومُسْلِم[3].

وأورد في مسنده خبر الكتابة إلى النّجاشيّ وكسرى وقيصر، تحت عنوان: (حديث رسول قيصر إلى رسول الله ﷺ، وهذا نصّه: عن سعيد ابن أبي راشد مولى لآل معاوية، قال: « قدمت الشّام، فقيل لي: في هذه الكنيسة رسول قيصر إلى رسول الله ﷺ، قال فدخلنا الكنيسة، فإذا أنا بشيخ كبير. فقلت له: أنت رسول قيصر إلى رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم، قال قلت: فحدِّثني عن ذلك. قال: إنّه لما غزا تَبُوْك كتب إلى قيصر كتاباً وبعث به مع رجل يقال له دِحْيَة بن خليفة، فلما قرأ كتابه وضعه معه على سريره، وبعث إلى بطارقته ورؤوس أصحابه، فقال: إنّ هذا الرّجل قد بعث إليكم رسولاً وكتب إليكم كتاباً يخيِّركم إحدى ثلاث: إمّا أن تتّبعوه على دينه، أو تقروا له بخراج يجري له عليكم ويُقرَّكم على

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتّفق عليه الشيخان (٥٤٥).
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل (١/٢٤٣ - ٢٤٤).
(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل(١/٢٦٢ - ٢٦٣).

هيئتكم في بلادكم، أو أن تلقوا له بالحرب. قال: فنخروا نخرةً حتى خرج بعضهم من برانسهم، وقالوا: لا نتّبعه على دينه وندع ديننا ودين آبائنا، ولا نقرّ له بخراج يجري له علينا، ولكن نلقي عليه الحرب. فقال: قد كان ذاك، ولكني كرهتُ أن أُفتاتَ دونكم بأمرٍ». وبعث هِرَقل كتاباً إلى النبيّ ﷺ، فحمله من هرقل إلى النبيّ ﷺ رجل من العرب، فتسلّم النبيّ ﷺ كتاب هرقل وهو في موقع تبوك، في أيام غزوة تبوك[1].

د. وذكر التِّرْمِذِيّ (ت ٢٧٩ هـ) في جامعه خبر الكتابة إلى النّجاشيّ وكسرى وقيصر وكلّ جبَّارٍ في باب: (مكاتبة المشركين)، عن أنس بن مالك: «أن رسول الله ﷺ، كتب قبل موته، إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النّجاشيّ، وإلى كلّ جبّار في الارض، يدعوهم إلى الله، وليس بالنّجاشيّ الذي صلّى عليه»[2].

وذكر في باب: (كيف كان يكتب إلى أهل الشِّرك)، أنّ عبد الله بن عبّاس أخبره أنّ أبا سفيان بن حرب أخبره: «أن هرقل أرسل إليه في نفرٍ من قريش، وكانوا تجاراً بالشّام، فأتوه»، فذكر الحديث[3]. وهو نصّ حديث أبي سفيان الذي رواه عنه عبد الله بن عباس، والذي ورد ذكره قبل قليل.

وذكر في باب: (ما جاء في ختم الكتاب)، عن أنس بن مالك، قال: «لما أراد نبيّ الله ﷺ، أن يكتب إلى العجم، قيل له: «إن العجم لا

---

(١) انظر التفاصيل في مسند الإمام أحمد بن حنبل (٤/٧٤-٧٥).
(٢) الترمذي - جامع الترمذي (٢/٣٢٨) مطبعة لكنو الهند - ١٣٠٩ هـ.
(٣) جامع الترمذي (٢/٣٢٨).

يقبلون كتاباً إلاّ كتاباً عليه خاتم، فاصطنع خاتماً. قال: فكأني أنظر الى بياضه في كفّه هذا »[1].

وذكر في باب: (ما جاء في نقش الخاتم)، عن أنس بن مالك قال: «كان نقش خاتم النبيّ ﷺ ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر». وعن أنس بن مالك قال: «إنّ رسول الله ﷺ صنع خاتماً من وَرِق، فنقش فيه: محمّد رسول الله»[2].

وورد في باب: (ما جاء في ذكر خاتم رسول الله ﷺ)[3] عن أنس بن مالك ما يطابق ما ورد في نَصَّيْ الحديثين المذكورين في باب: (ما جاء في ختم الكتاب)، وفي باب: (ما جاء في نقش الخاتم) في جامع الترمذي، وقد ذكرنا هذين النّصّيْن قبل قليل، فلا مسوّغ لإعادة ذكرهما.

هـ. وجاء في سُنَن النّسائي (ت ٣٠٣ هـ) في: (صفة خاتم النبيّ ﷺ)، في كتاب: (الزّينة وتوابعه)، أنّ أنس بن مالك قال: «كان خاتم النبيّ ﷺ من فِضّة، فَصُّه منه». وقال: «أراد رسول الله ﷺ أن يكتب إلى الرُّوم، فقالوا: إنّهم لا يقرؤن كتاباً إلا مختوماً، فاتّخذ خاتماً من فضّة، كأني أنظر إلى بياضه بيده، ونقش فيه، محمد رسول الله»[4].

أما بقيّة أصحاب السُّنن: أبو داود[5] (ت ٢٧٥ هـ)، وابن ماجه[6] (ت ٢٧٣ هـ)، فقد أوردا الخبر مجملاً أيضاً.

---

(١) جامع الترمذي (٣٢٨/٢).
(٢) جامع الترمذي (٢٢٠/٢).
(٣) جامع الترمذي (٥٠١/٢).
(٤) النسائي - سنن النسائي - (٢٩١/٢) المطبعة الميمنية بمصر - ١٣١٢ هـ.
(٥) أبو داود - الحديث الرقم (٤٢١٤).
(٦) ابن ماجه - الحديث الرقم (٣٦٣٩/٣٦٤).

وصِدْق المحدِّثين وبخاصة الذين ذكرناهم مشهور، لا يختلف فيه المنصفون من مسلمين وغيرهم، ودقّتهم في تدوين الحديث، وشروطهم المعروفة في التدوين، تلك الشروط التي لا تزال وستبقى مثالاً للتحرّي والتثبيت والاستقامة والصّدق بما لا مثيل لها في نطاق التأليف في العالم كلّه، كلّ ذلك يجعل الشّك في السّفارات النبوية والرسائل النبويّة أو التّشكيك فيها لا قيمة لها موضوعياً ولا علمياً، ولا يقع فيها، منصف يتحرّى الحقّ والواقع بما يكتب أو يقول.

والعالمون المنصفون بأولئك المحدِّثين سِيْرَةً وتأليفاً على يقين بأنهم في القمة صدقاً ومنهاجا، وإذا لم يكن أولئك النّفر من المحدِّثين المؤلِّفين صادقين في التدوين، فليس هناك صدق ولا صادق بين المؤلِّفين، ومع ذلك يبقى الرد واجباً على المُتشكِّين والمُشَككين، لأن انحرافهم متعمّد، وحتى يُكشف زيفهم، ولئلا يشيع انحرافهم وينتقل إلى العقول بالعدوى جهلاً أو بعد علم لا ينفع النّاس ولا يمكث في الأرض، لأنّه مغلّف بالتعصّب والانحراف.

و. أما أمهات كُتب السِّيرة والتاريخ القديمة ففيها تفاصيل كثيرة، ولا يكاد يخلو مصدر مُعْتمد منها من ذكر سفراء النبيّ ﷺ ورسائله إلى ملوك ورؤساء عصره من العرب والأجانب.

وسأذكر ما جاء في قسم منها بحسب وفاة مؤلفيها.

جاء في سيرة ابن هشام (ت٢١٣ هـ) تحت عنوان: (خروج رُسُل رسول الله ﷺ إلى الملوك) ما نصّه: «وقد كان رسول الله ﷺ، بعث إلى الملوك رُسُلاً من أصحابه، وكتب معهم إليهم يدعوهم إلى الإسلام.

«قال ابن هشام: بلغني أنّ رسول الله ﷺ، خرج على أصحابه ذات يومٍ بعد عُمْرته التي صُدَّ عنها يوم الحُدَيْبيَّة فقال: «يا أيها الناس! إن الله قد بعثني رحمةً وكافةً، فلا تختلفوا عليَّ كما اختلف الحواريُّون على

عيسى بن مريم. فقال أصحابه: وكيف اختلف الحواريُّون يا رسول الله؟ قال: **دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما مَنْ بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلّم، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتثاقل، فشكا ذلك عيسى إلى الله، فأصبح المتثاقلون وكلّ واحد منهم يتكلّم بلغة الأمة التي بُعث إليها**». فبعث رسول الله ﷺ رسلاً من أصحابه، وكتب معهم كتباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام، فبعث دِحْيَة بن خليفة الكَلْبِيّ إلى قيصر ملك الروم، وبعث عبد الله بن حُذافة السَّهْمي إلى كسرى ملك فارس، وبعث عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْرِيّ إلى النّجاشيّ ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبي بَلْتَعة إلى المُقَوْقس ملك الإسكندرية، وبعث عمرو بن العاص السَّهْميّ إلى جَيْفر وعباد[1] ابني الجُلُنْدي الأَزْدِيَّيْن ملكي عُمان، وبعث سَلِيط بن عمرو أحد بني عامر بن لؤي إلى ثُمامة بن أُثال وهَوْذة بن عَلِيّ الحَنَفِيَّيْن ملكي اليَمامة، وبعث العلاء ابن الحضرميّ إلى المُنْذِر بن سَاوَي العَبْدي ملك البحرين، وبعث شُجاع ابن وَهْب الأسدي إلى الحارث بن أبي شِمَر الغَسّانِيّ ملك تخوم الشّام.

«وبعث شُجاع بن وَهْب إلى جَبلة بن الأَيْهم الغَسّاني وبعث المهاجر ابن أبي أُميَّة المخزومي إلى الحارث بن عبد كُلال الحِمْيَري ملك اليمن»[2].

قال ابن اسحق: «حدثني يزيد بن أبي حبيب المصري[3]، أنه وجد كتاباً فيه ذكر مَنْ بعث رسول الله ﷺ إلى البلدان وملوك العرب

---

(١) معظم المصادر يذكر الاسمان: جيفر وعبد ابني الجلندي.

(٢) سيرة ابن هشام - تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد - (٤/٢٧٨-٢٧٩)، وبتحقيق السقاء (٤/٢٥٤).

(٣) توفي سنة (١٢٨ هـ) انظر سيرته في: تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (١١/٣١٨-٣١٩).

والعجم، وما قال لأصحابه حين بعثهم قال: فبعثتُ به إلى محمد بن شِهاب الزُّهْري[1]، فعرفه. وفيه: أنّ رسول الله ﷺ، خرج على أصحابه فقال لهم: **إنّ الله بعثني رحمةً وكافةً، فأدّوا عني يرحمكم الله، ولا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريّون على عيسى بن مريم.** قالوا: وكيف يا رسول الله كان اختلافهم؟ قال: **دعاهم لمثل ما دعوتكم له، فأمّا مَنْ قَرَّب به فأحبّ وسلّم، وأمّا مَنْ بَعَّد فكره وأبى، فشكا ذلك عيسى منهم إلى الله، فأصبحوا وكلّ رجل منهم يتكلّم بلغة القوم الذين وُجِّه إليهم**»[2].

واعتنى قسم من المصادر الأولى بجمع نصوص الرّسائل النبوية، من ذلك ما دوّنه أبو عُبيد (القاسم بن سلام ت ٢٢٤ هـ) في كتابه: (الأموال)[3].

أما ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ) في طبقاته، فقد أفرد للسفارات النبوية والرّسائل النبويّة ثلاثاً وثلاثين صفحة تحت عنوان: (ذكر بعثة رسول الله ﷺ الرُّسل بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وما كتب به رسول الله ﷺ لناسٍ من العرب وغيرهم)[4]، ذكر فيها أخبار السّفارات النبوية وأخبار الكتب النبوية المرسلة إلى الملوك والرؤساء وإلى غيرهم من رؤساء الشعوب والقبائل، نحو مائة كتاب، غطّى فيها السّفارات النبوية الخارجية والداخلية، ورسائله إلى قسم من شيوخ

---

(١) توفي سنة (١٢٣ هـ أو سنة ١٢٤ هـ أو سنة ١٢٥ هـ)، انظر سيرته في تهذيب التهذيب (٩/٤٤٥-٤٥١)

(٢) سيرة ابن هشام (٤/٢٧٩-٢٨٠).

(٣) انظر الطبري (٢/٦٤٤-٦٥٧)، وانظر مراجع كتاب الوثائق السياسية للدكتور محمد حميد الله.

(٤) طبقات ابن سعد (١/٢٥٨-٢٩١).

القبائل العربية وتفصيلات ابن سعد في طبقاته وافية للغاية ومفيدة جداً.

وأورد اليعقوبي (ت بعد ٢٩٢ هـ) في تاريخه السفارة النبوية إلى كسرى عظيم فارس، وإلى قيصر عظيم الرُّوم، وإلى النّجاشيّ، وإلى الحارث بن أبي شَمِر الغسَّاني، وإلى المُقَوْقِس وإلى المنذر بن سَاوَى، وإلى رؤساء بنى حَنِيفة باليمامة وإلى الحارث بن عبد كُلال الحِمَيْري، وإلى رؤساء عُمان وغيرهم[١]. كما أورد أسماء رسله وقسماً من رسائله النبوية إلى رؤساء القبائل العربية يدعوهم إلى الإسلام[٢] وتفاصيل ما ذكره اليعقوبي، حول السفارات النبوية والرسائل النبوية مفيدة جدا.

أما الطبري (ت ٣١٠ هـ) في تاريخه: (تاريخ الرُّسُل والملوك)، فقد ذكر تحت عنوان: (ذكر خروج رسل رسول الله ﷺ إلى الملوك) في حوادث السنة السادسة الهجرية ما نصّه: «وفيها - أي في السنة السادسة الهجرية - بعث رسول الله ﷺ الرُّسُل، فبعث في ذي الحجّة ستة نفر: ثلاثة مصطحبين، حاطب بن أبي بَلْتَعة من لَخْم حليف بني أسد بن عبد العُزَّي إلى المُقَوْقِس، وشُجاع بن وَهْب من بني أسد بن خُزيمة - حليفاً لحرب بن أُميّة، شهد بَدْراً - إلى الحارث بن أبي شَمِر الغَسَّاني، ودِحْيَة بن خَلِيفة الكَلْبي إلى قيصر. وبعث سَلِيط بن عمرو العامري عامر بني لُؤيّ إلى هَوَذة بن علي الحَنَفِيّ، وبعث عبد الله بن حُذافة السَّهْمي إلى كِسْرى، وعمرو بن أُميّة الضَّمْري إلى النّجاشي»[٣]. ثم ذكر ما أورده ابن هشام في سيرته، كما ذكرناه قبل قليل، ثم أورد قصّة

---

(١) تاريخ اليعقوبي (٢/٦١-٦٢).

(٢) تاريخ اليعقوبي (٢/٦٤-٦٧).

(٣) الطبري (٢/٦٤٤).

أبي سفيان مع هِرَقل قيصر الرُّوم برواية عبد الله بن عباس كما ذكرتها مصادر الحديث النبوي الستة نصاً. كما ذكر الطبري سفارة شجاع بن وهْب إلى الحارث بن أبي شَمِر الغَسَّاني، وسفارة عمرو بن أمية الضّمْريّ إلى النّجاشي، وسفارة عبد الله بن حُذافة السَّهْمي إلى كسرى، وسفارة حاطب بن أبي بَلْتَعة إلى المقوقس(١).

وما جاء في تاريخ الطبري قيِّم للغاية ومفيد جداً، ولا يختلف عما جاء في كتب الحديث والمصادر الأخرى.

وذكر أبو جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ) في كتابه: (المحَبَّر) تحت عنوان: (رُسُل النبيّ ﷺ إلى الملوك والأشراف) ما نصّه: «أرسل النبيّ ﷺ جرير بن عبد الله البَجَلِيّ إلى ذي الكُلاع وذي عمرو، إلى اليمن... فأسلما.

«ووفد ذو الكُلاع على عمر، فأغزاه الشّام، فلم يزل بها حتى قُتل بِصفِّين مع معاوية.

«وأرسل صلى الله عليه وسلم دِحْية بن خليفة الكَلْبي إلى قيصر عظيم الرُّوم، فأخذ قيصر كتاب النبيّ ﷺ، فوضعه على خاصرته، ووصل دحية وقال: لو كان في بلادي لاتّبعته ونصرته.

«وأرسل صلّى الله عليه وسلم شُجَاع بن وَهْب الأسديّ إلى جَبلة بن الأَيهم الغسّاني.

«وأرسل حاطب بن أبي بَلْتَعة حليف بني أسد بن عبد العُزيّ إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، فأكرمه ووصله، وبعث إلى النبيّ ﷺ

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٢/٦٤٤-٦٥٧).

بمارية أم إبراهيم وأختها أمّ عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت الأنصاري، وببغلته وحماره.

«وأرسل عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْريّ إلى النّجاشيّ وهو أصحمة، فزوّجه أمّ حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت هاجرت مع عبيد الله بن جحش زوجها فتنصّر ومات على النصرانيّة، وعصمها الله هي فتمسّكت بالإسلام، ومهرها النّجاشيّ عن النبيّ ﷺ أربعمائة دينار، وبعث إليه بكسوة: قميص، وسراويل، وعمامة، وعِطاف سوادني من قرية يقال لها سُوان (أسوان) وهي آخر مدينة بمصر للإسلام ثلثي درب النُّوبة، وخُفَّين ساذجين، فتوضأ صلى الله عليه وسلم ومسح عليهما.

«وأرسل سَلِيط بن قيس[1] أخا بني عامر بن لؤيّ إلى أهل اليَمامة.

«وأرسل العلاء بن الحَضْرمي حليف بني أُمَيَّة إلى أهل البحرين، فأسلموا وبعثوا بخراجهم، فكان أول مال ورد المدينة خراج البحرين وهو سبعين ألفا.

«وأرسل عمرو بن العاص السَّهْميّ إلى جَيْفر وعبد ابني الجُلُنْدِيِّ بن المستكبر الأزديين بعمان، فأسلما وغلبا على عُمان.

«وأرسل عبد الله بن حُذافة السَّهْمي إلى كسرى هرمز، فلما قرأ كتاب النبيّ ﷺ قال: بدأ بنفسه قبلي! وقَدَّ كتابه سيوراً، فقال صلى الله عليه وسلم: **مزّق الله مُلْك فارس كل مُمَزَّق، فما أفلحوا بعد دعوته**»[2].

وابن حبيب في كتابه: (المُحَبَّر) يتوخّى الاختصار في المواد التي عالجها، لذلك اقتصر في هذا الموضوع، على ذكر السُّفراء النبويين، ولم

---

(١) كذا في الأصل، والمشهور سليط بن عمرو العامري.

(٢) المحبر (٧٥-٧٧).

يتطرق إلى الرسائل النبوية وهذا ما فعله ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ) في كتابه: (جوامع السيرة) أيضاً[١].

وما يقال عن ابن حبيب في: (المحبَّر)، يقال عن البلاذري (ت ٢٧٩ هـ) في كتابه: (أنساب الاشراف)، فقد ذكر تحت عنوان: (أسماء الرُّسل إلى الملوك)، أسماء السفراء النبويين فحسب دون ذكر الرّسائل النبوية أيضاً، فكان نصّ ما ذكره: «بعث رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بَلْتعة إلى المقوقس، وشُجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شَمِر، ودحْيَة بن خليفة الكلبي إلى قيصر، وسَليط بن عمرو العامري إلى هُوَذة ابن علي الحنفيّ، وعبد الله بن حُذافة السَّهْمي إلى كسرى، وعمرو بن أُميَّة الضَّمْريّ إلى النّجاشيّ، وذلك سنة سبع وهو أثبت من قول منْ قال في سنة ست»[٢].

وكلّ المصادر القديمة تثبت بما لا يدع الشك يخامر أحداً من الناس، أنّ السّفارات النبويّة والرّسائل النبويّة جزء لا يتجزأ من السيرة النبوية، وأن السفارات النبوية كانت التّطبيق العملي لعالمية الإسلام.

ولا يخلو مصدر من مصادر الحديث والتاريخ والسيرة من ذكر السفارات النبوية والرَّسائل النبوية بالتفصيل أو بالإيجاز، بحسب خطّة المؤلف في التأليف، وما ذكرناه من المصادر تمثل المصادر الرئيسة، ولكنها ليست كلّ المصادر على كلّ حال.

---

(١) جوامع السيرة (٢٩-٣١).
(٢) أنساب الأشراف (١/٥٣١).

٢ . الوسيطة:

أ. ذكر ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) في كتابه: (الكامل في التاريخ) ما ذكره الطبري في تاريخه بشيءٍ من الإيجاز غير المُخِلّ، فلا مسوّغ لإعادة ذكره هنا[١].

أما النَّوَوِي (ت٦٧٦ هـ) فذكر في كتابه: (تهذيب الأسماء واللُّغات) تحت عنوان: (فصل في رسله) ما نصّه: «أرسل صلى الله عليه وسلم عمرو ابن أُميّة الضّمْري إلى النّجاشيّ، فأخذ كتاب رسول الله ﷺ ووضعه على عينيه، ونزل عن سريره، فجلس على الأرض، ثم أسلم حين حضره جعفر بن أبي طالب وحسن إسلامه. وأرسل صلّى الله عليه وسلم دِحْيَة ابن خليفة الكلبيّ إلى هِرقل عظيم الرُّوم، وعبد الله بن حُذافة السَّهْمِيّ إلى كسرى ملك فارس، وحاطِب بن أبي بَلْتَعَة اللَّخْمِيّ إلى المُقَوقِس ملك الإسكندريّة ومصر، فقال خيراً وقارب أن يُسلم، وأهدى لرسول الله ﷺ مارية القبطيّة وأختها شيرين فوهبها رسول الله ﷺ لحسّان بن ثابت. وأرسل عمرو بن العاص إلى ملكي عُمان فأسلما وخليا بين عمرو وبين الصَّدقة والحكم فيما بينهم فلم يزل عندهم حتى تُوفي رسول الله ﷺ. وأرسل سَلِيط بن عمرو العامري[٢] إلى اليمامة إلى هَوْذة بن عليّ الحَنَفِيّ. وأرسل شُجاع بن وهْب الاسديّ إلى الحارث بن أبي شَمِر الغَسَّاني ملك البَلْقاء من أرض الشام، وأرسل المهاجر بن أبي أُميّة المخزومي إلى الحارث الحِمْيَريّ، وأرسل العلاء بن الحَضْرَمِيّ إلى المُنْذربن سَاوَى العَبديّ ملك البحرين فصدّق وأسلم. وأرسل أبا موسى الأشعري ومُعاذ بن جَبَل إلى جملة اليمن داعين إلى الإسلام، فأسلم عامة أهل اليمن ملوكهم

(١) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٢/٢١٠-٢١٥).

(٢) في الأصل: العلوي، وهو خطأ مطبعي واضح، والصواب ما ذكرناه في أعلاه.

وسوقتهم »[1]. وأوفى مَنْ عدّد رسل النبيّ ﷺ هو الإمام النووي، لأنّه أضاف إليهم أبا موسى الأشعري، وكان مصيباً في إضافته إليهم، لأنّ النبيّ ﷺ أرسله ومُعَاذ بن جَبَل إلى اليمن في واجب واحد في وقت واحد، فهما رسولا النبيّ ﷺ إلى اليمن كما قرّر الإمام النووي - وأخذتُ بهذا الرأي المصيب، وأضفت أبا موسى الأشعري إلى قائمة الرُّسل النبويين.

ولكنّ الإمام النوويّ لم يذكر جرير بن عبد الله البَجَلي مع جملة مَنْ ذكرهم من رسل النبيّ ﷺ، وذكره بينهم غيره من ثقات المصنِّفين في مصادرهم المعتمدة[2]، ولا شك في أنّ جريراً أحد رسل النبيّ ﷺ، فذكرته في الرُّسل أيضاً، وأضفت سِيْرته إلى سِيَرِهم.

ب. وتحدّث ابن سيد الناس (ت ٧٣٤ هـ) في كتابه: (عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسِّير) تحت عنوان: (ذكر بعثه صلّى الله عليه وسلم إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام) ما نصه: «بعث دِحية الكلبي إلى قيصر ملك الرّوم، وعبد الله بن حُذافة السَّهْمي إلى كسرى ملك فارس، وعمرو بن أُميّة الضَّمْرِي إلى النّجاشيّ ملك الحبشة، وحاطب بن أبي بَلْتَعة إلى المقوقس صاحب الإسكندريّة، وعمرو بن العاص إلى جيفر وعبد ابني الجُلُنديّ ملكي عُمان، وسَلِيط بن عمرو العامري إلى ثُمامة بن أُثال وهَوْذة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة. والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن سَاوَى العَبْديّ ملك البحرين، وشُجاع بن وهْب الأسدي إلى الحارث بن أبي شَمِر الغسّاني ملك تُخوم الشّام، ويقال: بعثه إلى جَبلة بن الأيهم الغسّاني، والمهاجر بن أبي أُميّة المخزومي إلى الحارث بن عبد كُلال

---

(١) تهذيب الأسماء واللّغات (١/ ٣٠).
(٢) انظر مثلا: طبقات ابن سعد (١/٢٦٥-٢٦٦) والمحبّر (٧٥).

الحميري ملك اليمن»[١]. ثم عاد ابن سيد الناس ليفصِّل ما أوجزه، فذكر تحت عنوان: (ذكر كتاب النبيّ ﷺ إلى قيصر وما كان من خبر دحية معه)، فتطرّق إلى قصة أبي سفيان بن حرب مع هرقل برواية عبد الله بن عباس، كما وردت في مصادر الحديث النبويّ الشريف، وقد ذكرناها من قبل، كما تطرق إلى نصّ الرسالة النبوية التي تسلمها هِرقل قيصر الرُّوم[٢].

وذكر تحت عنوان: (ذكر توجيه عبد الله بن حُذافة السَّهْمي إلى كسرى بكتاب النبيّ ﷺ)، فتطرّق إلى نصّ الكتاب النبوي الذي حمله عبد الله بن حذافة إلى كسرى وردّ فعل كسرى بعد تسلّمه الكتاب النبوي، ومصير كسرى ونهايته على يد ابنه[٣].

وذكر تحت عنوان: (ذكر إسلام النّجاشيّ وكتاب رسول الله ﷺ مع عمرو بن أُميّة الضَّمْريّ)، فتطرق إلى الكتاب النبوي إلى النجاشي، وجواب النجاشي وإسلام النّجاشيّ، وذكر أنه توفي سنة تسع الهجرية بالحبشة فصلّى عليه النبيّ ﷺ صلاة الغائب[٤].

وذكر تحت عنوان: (كتاب النبيّ ﷺ إلى المقوقس مع حاطب بن ابي بَلْتَعة)، فتطرّق إلى نصّ الكتاب النبوي، ومناقشة حاطب للمقوقس، وجواب المقوقس على الكتاب النبوي، وهديته للنبيّ ﷺ[٥].

وذكر ابن سيِّد الناس في كتابه أيضاً تحت عنوان: (كتاب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن سَاوَى العَبْدِيّ مع العلاء الحضرميّ بعد

---

(١) عيون الأثر (٢/٢٥٩).
(٢) انظر التفاصيل في: عيون الأثر (٢/٢٦٠-٢٦٢).
(٣) انظر التفاصيل في: عيون الأثر (٢/٢٦٢-٢٦٤).
(٤) انظر التفاصيل في: عيون الاثر (٢/٢٦٤-٢٦٥).
(٥) انظر التفاصيل في: عيون الأثر (٢/٢٦٥-٢٦٦).

انصرافه من الحُدَيْبِيَّة)، أن هذا الكتاب كان في كتب ابن عبّاس، وقد وُجد بعد موت ابن عبّاس في مخلّفاته، ويشمل نصّ الكتاب النبوي، وجواب المنذر على الكتاب النبويّ، وجواب النبيّ ﷺ على جواب المنذر، وقد أسلم المنذرِ وقسمٌ من بني قومه[1].

وأتى ابن سيد الناس على: (كتاب النبيّ ﷺ إلى جيفر وعبد ابني الجُلُندي الأَزديين ملكي عُمان مع عمرو بن العاص)، فذكر نصّه، وقصّة عمرو في سفارته، وإسلام ملكي عُمان وقسم من أهل عُمان[2].

وتطرّق إلى: (كتاب النبيّ ﷺ إلى هوذة بن علي الحَنَفِيّ صاحب اليمامة مع سَلِيْط بن عمرو العامري)، فذكر نص الكتاب النبويّ، وقصّة سليط في سفارته، وموت هوذة قبل إسلامه[3].

ثمّ تطرق إلى: (كتاب النبيّ ﷺ إلى الحارث بن أبي شَمِر الغَسَّاني مع شُجاع بن وَهْب)، فذكر نصّ الكتاب النبويّ، وقصّة شجاع في سفارته، وإصرار الحارث على كفره، وعودة شجاع إلى المدينة المنوّرة[4].

وبهذه الرسالة النبوية اختتم ابن سيِّد الناس دراسته في السّفارات النبويّة والرسائل النبوية، وهي دراسة مفيدة للغاية وموثّقة، خاصةً وأنّ ابن سيد الناس محدِّث فقيه ثقة، حسن التأليف والتصنيف.

جـ- وذكر ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) في كتابه: (البداية والنهاية) تحت عنوان: (كتاب بعث رسول الله ﷺ إلى ملوك الآفاق وكُتبه إليهم)، توقيتَ الواقدي في أنّ ذلك كان في آخر سنة ست (الهجريّة)، في ذي

---

(١) انظر التفاصيل في: عيون الأثر (٢/٢٦٦ - ٢٦٧).
(٢) انظر التفاصيل في: عيون الأثر (٢/٢٦٧ - ٢٦٩).
(٣) انظر التفاصيل في: عيون الأثر (٢/٢٦٩ - ٢٧٠).
(٤) انظر التفاصيل في: عيون الأثر (٢/٢٧٠ - ٢٧١).

الحجّة بعد عُمرة الحُدَيْبِيَّة. كما ذكر توقيت البيهقي فقال: «وذكر البيهقي هذا الفصل في هذا الموضع بعد غزوة مُؤْتَة»، ثم قال: «ولا خلاف بينهم أنّ بدء ذلك كان قبل فتح مكّة وبعد الحديبية لقول أبي سفيان لهرقل حين سأله: هل يغدر؟ فقال: لا، ونحن منه في مدّة لا ندري ما هو صانع فيها». وذكر توقيت محمد بن اسحاق، وهو أنّه كان ما بين الحديبيَّة ووفاته عليه السَّلام. ثم قال: «ونحن نذكر ذلك هاهنا وإن كان قول الواقدي محتملا».

وذكر قصة أبي سفيان بن حرب مع هرَقل قيصر الرّوم كما رواها المحدِّثون وغيرهم، وهو الحديث الذي رواه عبد الله بن عبّاس.

وذكر قصة الكتاب النبويّ إلى هرقل، وكيف قرأه على عظماء الرُّوم أو ذكر لهم مجمل ما جاء فيه، وأظهر لهم ميله إلى تصديقه، وكيف استنكر عظماء الرُّوم الإسلام، وكيف تراجع هرقل خوفاً على حياته وملكه منهم.

وذكر قصة أبي سفيان بن حرب مع هرقل برواية الإمام البخاريّ في صحيحه وبروايات أخرى مستوعبةً شاملة، ثم ذكر قصة دِحية في سفارته إلى هرقل، ومقاربة هرقل للإسلام، ورفض أتباعه متابعته.

وقد استوعب سفارة دحية بن خليف الكلبيّ إلى هرقل استيعاباً كاملاً، يفيد الباحث والمتعلِّم فوائد بغير حدود.

ثم تطرق إلى سفارة شجاع بن وَهْب إلى المنذر بن الحارث بن أبي شَمِر صاحب دمشق[1]، وقصّة شجاع في سفارته، ونصّ الكتاب النبوي إلى الحارث، وإصرار الحارث على معاندة الإسلام.

(١) كذا بالأصل، وفي ابن هشام وغيره: الحارث بن أبي شمر الغساني ملك تخوم الشام.

وتطرق إلى بعثه عليه الصلاة والسلام إلى كسرى ملك الفُرس، فذكر حديث البخاري في صحيحه عن ابن عبّاس، كما ذكـر الروايات الأخرى حول الموضوع بالتفصيل، كما ذكر قصة السفارة النبوية إلى كسرى والكتاب النبوي إليه، ومصير كسرى ونهايته على يد ابنه بعد إصراره على الكفر.

وأخيراً ذكر ابن كثير بعثه عليه الصلاة والسلام إلى المقوقس صاحب مدينة الاسكندرية، وقصة سفارة حاطب إليه، ومناقشة حاطب للمقوقس، وهدية المقوقس للنبيّ ﷺ.

واختتم بحثه بسفارة سليط بن عمرو إلى اليمامة، والعلاء الحضرميّ إلى البحرين وعمرو بن العاص إلى عُمان[1].

ودراسة ابن كثير في السفارات النّبويّة والرَّسائل النّبويّة دراسة مستوعبة شاملة، وبخاصة في استقطاب الأحاديث الواردة في الصِّحاح وغيرها حول السّفارات النبويّة والرَّسائل النّبويّة، ولا عجب فابن كثير محدِّث مفسِّر فقيه مؤرِّخ، ودراسته تفيد الباحث والمتتبِّع والأستاذ والطالب، بالرغم من اقتصارها على قسم من السّفارات النبوية دون أن يجمع شملها جميعاً، ودراسته أشبه بدراسة ابن سيِّد الناس في كتابه: (عيون الأثر)، ومن المرجّح أن ابن كثير استفاد من ابن سيِّد الناس كثيراً، أو أنّ مصادرهما واحدة.

د. وتحدّث القَلْقَشَنْدِيّ (ت ٨٢١ هـ) في كتابه: (صبح الأعشى)، في موضوع السّفارات النبويّة والرّسائل النّبويّة، فذكر نصّ الرّسائل النبوية إلى هرقل عظيم الروم، وإلى كِسْرَى أَبرويز ملك الفُرس، وإلى الـمُقَوْقِس

---

(١) انظر التفاصيل في: البداية والنهاية (٣٦٢/٤ - ٣٧٣).

صاحب مِصْر، وإلى النّجاشيّ ملك الحبشة، وإلى هَوْذة بن عليٍّ صاحب اليمامة، وإلى جَيْفَر وعَبْدٍ ابني الجُلُنْدِيّ[1]، ونصوص تلك الرسائل مفيدة جداً للباحثين والدارسين، وبخاصة في مقارنتها بالرسائل النبوية المماثلة الواردة في المصادر القديمة الأخرى.

والاختلاف بين ما ورد في صبح الأعشى لنصوص الرسائل النبوية، وبين ما ورد في أمثالها من الرسائل النبوية في المصادر القديمة الأخرى قليل للغاية، لأن مصادر القلقشندي التي اعتمدها في كتابه: (صُبح الأعشى) هي المصادر القديمة التي ذكرنا أمَّهاتها فيما سلف، بالإضافة إلى المصادر الوسيطة الأخرى التي اعتمدت هي الأخرى المصادر القديمة المعتمدة، ومع ذلك فالرجوع إلى: صبح الأعشى، لا يخلو من فوائد للدارسين والباحثين.

هـ. وتحدّث المقريزي (ت ٨٤٥هـ) في كتابه: (إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع) على السفارات النبوية والرسائل النبوية باقتضاب، ونص حديثه: «وفي هذه السنة السادسة (الهجرية)، بعث رسول الله ﷺ رسله إلى الملوك بكُتبه.

«فأرسل حاطب بن أبي بلتعة [عمرو، وقيل راشد] بن مُعاذ اللَّخْميّ إلى المقَوْقِس بمصر.

«وأرسل شُجاع بن وَهْب (ويقال: ابن أبي وَهْب) بن ربيعة بن أَسَد ابن صُهَيْب بن مالك بن كبير بن غَنْم بن دُوْدَان بن أسد بن خزَيمة الأسديّ إلى الحارث بن أبي شَمِر الغَسَّانِيّ.

«وأرسل دِحْيَة بن خليفة بن فَرْوَة بن فَضَالة بن زيد بن امرىء

---

(١) صبح الأعشى (٣٧٦/٦ - ٣٨٠).

القَيْس بن الخَزْج[1] (وهو زيد مناة) بن عامر بن بكر بن عامر الأكبر بن عَوْف بن عُذْرَة بن زيد اللّات بن رُفَيْدَة بن ثَوْر بن كلب الكَلْبِيّ، إلى قيصر الرُّوم.

«وأرسل سَلِيْط بن عمرو بن عبد شمس بن عبد وُدٍّ بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لُؤَيّ القُرَشِيّ العامري، إلى هَوْذَة بن عليّ الحَنَفِيّ، وإلى ثُمَامَة بن أُثَال، وهما رئيسا اليَمَامة.

«وبعث عبد الله بن حُذافة بن قيس بن عَدِيّ بن سعد بن سَهْم القُرَشِيّ السَّهْمِيّ، إلى كسرى ملك فارس.

«وأرسل عمرو بن أُمَيَّة بن خُوَيْلِد بن عبد الله بن إياس بن عُبَيْد بن ناشرة[2] بن كعب الضَّمْرِيّ، إلى النجاشي ملك الحبشة.

«وأرسل العلاء بن الحَضْرَمِيّ (واسمه عبد الله) بن عبَّاد (وقيل: عبد الله بن عمار، وقيل: عبد الله بن ضِمَار، وقيل: عبد الله بن عبيدة بن ضمار) بن مالك، وقيل: العلاء بن عبد الله بن عمار بن أكبر بن ربيعة بن مالك بن أكبر بن عُوَيْف بن مالك بن الخزرج بن أبي الصَّدِف، إلى المُنْذِر ابن ساوى ملك البحرين. وقيل: إن إرساله كان سنة ثمانٍ (الهجرية).

«فأما المقوقس ، فإنه قَبِلَ كتاب رسول الله ﷺ، وأهدى أربع جـوار، منهنّ مارية.

«وأما قَيْصَر (واسمه هِرَقْل)، فإنه قَبِلَ أيضاً الكتاب، واعترف بالنبوة، ثم خاف من قومه فأمسك.

«وأما الحارث بن أبي شَمِر الغَسَّانيّ، فإنه لما أتاه الكتـاب قال: أنا

---

(١) في الأصل: «الخزرج».
(٢) في الأصل: «عتيك بن باشرة».

سائر إليه (يعني محارباً)، فقال رسول الله ﷺ، وقد بلغه ذلك عنه: «بادَ مُلكُه».

وأما النجاشي، فإنه آمن برسول الله ﷺ واتَّبَعَهُ، وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وأرسل ابنه في ستِّين من الحبشة، فغرقوا في البحر.

«وبعث إليه رسول الله ﷺ أن يزوِّجه بأُمّ حَبِيْبَة بنت أبي سفيان ابن حرب - وكانت مهاجرة بالحبشة مع زوجها عبد الله بن جَحْشٍ[1] فتنصّر هناك - فزوّجه إياها، وقام بصداقها: أربعمائة دينار من عنده.

«وأما كسرى أَبَرْوِيْز بن هُرْمُز، فإنه مزّق الكتاب، فقال رسول الله ﷺ: «مزَّق الله مُلكه»، فسُلِّطَ عليه ابنه شيرَوَيْه فقتله.

«وأما هَوْذَة بن علي، فبعث وفداً بأن يجعل له رسول الله ﷺ الأمر بعده حتى يُسْلِم، وإلا قصده وحاربه فقال النبي ﷺ: «اللّهم اكفنيه!» فمات بعد قليل.

«وأما المنذر بن ساوى، فإنه أسلم وأسلم أهل البحرين»[2].

ومن الواضح، أن المقريزي، اقتصر على قسم من السفارات النبوية وعلى مجمل نتائج تلك السفارات، دون التطرق إلى نصوص الرسائل النبوية، ومع ذلك فهذا المجمل المركّز لا يخلو من فائدة للباحثين والدارسين، وبخاصة للذين يؤثرون الإيجاز على الإطناب.

و. أما ابن طولون (ت ٩٥٣ هـ) في كتابه: (إعلام السائلين عن كُتُب سيِّد المرسلين)، فقد ذكر كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة[3]

(١) الصواب: عبيد الله بن جحش.
(٢) إمتاع الأسماع - المقريزي - (٣٠٧/١ - ٣٠٩).
(٣) ابن طولون - إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين (٢-٦) - دمشق - ١٣٤٨ هـ.

في الكتاب الأول، وكتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى في الكتاب الثاني[١]، وكتاب النبي ﷺ إلى كسرى في الكتاب الثالث[٢]، وكتاب النبيّ ﷺ إلى قيصر في الكتاب الرابع[٣]، وكتاب النبي ﷺ إلى المقوقس في الكتاب الخامس[٤]، وكتاب النبي ﷺ إلى جيفر وعبد ابني الجُلُنْدِيّ في الكتاب العاشر[٥]، وكتاب النبي ﷺ إلى الحارث بن شَمِر الغَسَّانِي[٦] في كتابه الثاني عشر، وكتاب النبي ﷺ إلى هَوْذَة بن علي الحَنَفِيّ في الكتاب الثالث عشر[٧]، وكتاب النبي ﷺ إلى الحارث بن عبد كُلال في الكتاب الخامس عشر[٨]، فكانت الرسائل النبوية الخاصة بالسفارات النبوية التي ذكرها ابن طولون في كتابه: (إعلام السائلين) تسع رسائل نبوية حسب التسلسل المدون في الكتاب إزاء تلك الرّسائل هي: (١، ٢، ٣، ٤، ٥، ١٠، ١٢، ١٣، ١٥). أما بقية الرسائل وعددها سبع عشرة رسالة، فموجهة إلى غير الملوك والرؤساء، ولم يحملها سفـراء نبويون، فيكون مجموع الرسائل التي أوردها ابن طولون ستاً وعشرين رسالة نبوية.

وختم ابن طولون كتابه: (إعلام السائلين) بالرواية عن عمرو بن حزم[٩] رضي الله عنه لمجموعة من الوثائق النبوية حول عطايا رسول

---

(١) إعلام السائلين (٦ - ٨).
(٢) إعلام السائلين (٨ - ٩).
(٣) إعلام السائلين (١٠ - ١٩).
(٤) إعلام السائلين (١٩ - ٢١).
(٥) إعلام السائلين (٢٦ - ٣٠).
(٦) إعلام السائلين (٣٢ - ٣٤).
(٧) إعلام السائلين (٣٤ - ٣٥).
(٨) إعلام السائلين (٣٧ - ٣٨).
(٩) انظر سيرته المفصلة في كتاب: سفراء النبي ﷺ.

الله ﷺ لقسم من المسلمين، وقد أورد نصوص تلك الوثائق حول تلك العطايا[1].

وكتاب ابن طولون بالرغم من صغر حجمه، فإن فائدته كبيرة جداً، لأنه اختص بالرسائل النبوية وتفرغ لها، ولم يشغل نفسه بموضوع آخر أو باستطرادات لا مسوِّغ لها، لذلك كان كتابه مفيداً للغاية للدارسين والباحثين في الرسائل النبوية والسفارات النبوية، لأنه جمع فأوعى، واختصر الطريق لأولئك الدارسين والباحثين ومن المؤسف أن طبعته قديمة، فيها كثير من الأخطاء المطبعية وغيرها.

و. أما علي الحلبي (علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي ت ١٠٤٤ هـ) في كتابه: (إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون) المعروف بالسيرة الحلبيّة[2]، فقد تحدث تحت عنوان: (بيان كتبه صلى الله عليه وسلم التي أرسلها إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام) عن اتخاذه صلى الله عليه وسلم الختم، فقال: «ولما أراد صلى الله عليه وسلم أن يكتب للملوك، قيل له: يا رسول الله! إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا إذا كان مختوماً، أي ليكون في ذلك إشعار بأن الأحوال المعروضة عليهم ينبغي أن تكون مما لا يطلع عليها غيرهم، وفيه: إن هذا واضح، إذا كان الختم عليها بعد طيِّها، ويجعل عليها نحو شمع، ويختم فوق ذلك. والظاهر أن ذلك لم يكن، وحينئذ يكون الغرض من ذلك أمن التزوير لبعده مع الختم، فاتخذ صلى الله عليه وسلم خاتماً من فضّة»، والحلبي يُعلِّل في ذلك أسباب اتِّخاذ الخاتم.

وأعاد الحلبي ما ذكره المحدِّثون حول خاتم النبي ﷺ مع شيء من

---

(١) إعلام السائلين (٤٨ - ٥٢).

(٢) علي الحلبي - السيرة الحلبية - القاهرة - ١٣٢٠هـ.

التفصيل، كما أعاد ذكر ما قاله النبي ﷺ لأصحابه عن سفارات عيسى ابن مريم عليه السلام واختلاف الحواريين عليه[1]، وقد ذكرنا ذلك قبل قليل.

وتحدث تحت عنوان: (كتابه صلى الله عليه وسلم إلى قيصر)، على السفارة النبوية إلى هرقل وعلى السفير النبوي، وعلى حديث أبي سفيان ابن حرب مع قيصر، ونص الرسالة النبوية إلى هرقل مع شيءٍ من الشَّرح والتفاصيل[2].

وتحدث تحت عنوان: (كتابه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ملك فارس)، على السفارة النبوية إلى كسرى، ونص الكتاب النبوي، وموقف كسرى من سفير النبي ﷺ، ومصير كسرى[3]، بما لا يزيد عما ذكرناه بصدد ذلك.

وتحدث تحت عناوين: (كتابه صلى الله عليه وسلم للنجاشي ملك الحبشة)[4]، و: (ذكر كتابه إلى المقوقس ملك القِبْط)[5]، و: (ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم للمنذر بن سَاوَى العبدي بالبحرين على يد العلاء بن الحضرمي)[6]، و: (ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ملكي عُمان)[7]، و: (ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هوذة)[8]، و: (ذكر كتابه صلى الله عليه وسلم إلى الحارث بن أبي شمر

---

(١) السيرة الحلبية (٣/٢٤٠ - ٢٤٢).
(٢) السيرة الحلبية (٣/٢٤٢ - ٢٤٦).
(٣) السيرة الحلبية (٣/٢٤٦ - ٢٤٨).
(٤) السيرة الحلبية (٣/٢٤٨ - ٢٤٩).
(٥) السيرة الحلبية (٣/٢٤٩ - ٢٥٢).
(٦) السيرة الحلبية (٣/٢٥٢).
(٧) السيرة الحلبية (٣/٢٥٢ - ٢٥٤).
(٨) السيرة الحلبية (٣/ ٢٥٤ - ٢٥٥).

الغساني)[1] بما لا يزيد في جوهره عما ذكرناه، مع شيءٍ من الشرح والتوضيح.

ولا جديد في مجمل ما سجله الحلبي على السّفارات النبوية والرسائل النبوية، فهو قد جمع ما ذكره الأقدمون من محدِّثين ومؤرِّخين ومن سبقه منهم، ومع ذلك فالاطِّلاع على ما سرده لا يخلو من فائدة للباحثين والدّارسين والأساتذة والمتعلِّمين.

ومهما قيل في دقة المصادر القديمة وأمانتها، فإن المصادر الوسيطة بالرغم من تردّي الحالة السياسية والعسكرية للمسلمين عامة والعرب خاصة، فإن تلك المصادر اقتبست الدقة والأمانة من المصادر القديمة لأنها اعتمدت عليها، وتميّزت عليها بتنظيم البحوث والدراسات والتزامها بوحدة الموضوع بحشد المعلومات المتيسرة تحت عنوان واحدٍ واضح المعالم يدلّ على المحتوى والفَحْوى ولا يكاد يخرج عنه، بينما نجد المصادر القديمة تذكر الخبر الواحد في مواضع شتى متقاربة الموضوع أو متباينة، مما يؤدي إلى إنهاك الدارس والمتتبِّع في استخراج المعلومات وتصنيفها، بعكس المصادر الوسيطة التي حشدت المعلومات المتفرقة في صفحات متباعدة وتحت عناوين متنوعة في المصادر القديمة، وتنسيقها تحت عنوان واضح يدل على تلك المعلومات المتشابهة التي تناسب العنوان نصاً وروحاً.

وأريد أن أذكر أن المصادر الوسيطة أكثر تنظيماً وأقرب إلى التأليف الموضوعي من المصادر القديمة، وهذا يختصر الطريق على الباحث والمتتبِّع في بحوثه ودراساته، حين يستفيد كما ينبغي من المصادر الوسيطة دون أن يهمل المصادر القديمة.

---

(١) السيرة الحلبية (٣/٢٥٥ - ٢٥٦).

لقد ذهبت المصادر القديمة بفضل حشد المعلومات وضبطها وتوثيقها، وذهبت المصادر الوسيطة بفضل تنسيق تلك المعلومات، ووضعها تحت عناوين مناسبة تنمّ على محتوى المعلومات وفحواها، وتبويب تلك المعلومات وإخراجها للناس في كتب تضم علماً ينفع الناس ويمكث في الأرض.

وقد ظهرت في العصور الوسيطة المصادر الموسوعيّة والمؤلفات في مختلف العلوم والآداب والفنون، وبقدر ما كان التردي في الأوضاع السياسة والعسكرية سائداً في تلك العصور، كانت هناك صحوة فكرية لا غبار عليها أثمرت مؤلفات ذات قيمة علمية وأدبية وفنية عالية جداً، وأغنت الفكر العربيّ الإسلامي بما ألّفته من مصادر قيّمة كانت ولا تزال وستبقى ثروة لا تقدّر بثمن للفكر العربيّ الإسلامي الأصيل.

٣. الحديثة:

أ من الطبيعي أن تحذو كتب التاريخ والسيرة الحديثة والمؤلفات المختصّة بموضوع السّفارات النّبويّة والسُّفراء النّبويين والرّسائل النبويّة إلى الملوك حذو المصادر القديمة والوسيطة في الاهتمام بأخبار السّفارات والرّسائل النّبوية، وتتميّز معظم الكتب الحديثة بالاختيار والتّلخيص والاهتمام بإبراز المغزى الأساسي للسّفارات والرّسائل النبويّة، وهو تأكيد عالميّة الدّعوة الإسلاميّة.

ولا يخلو كتاب حديث في السيرة النّبوية من التطرّق إلى السّفارات والرّسائل النبويّة بشكل أو بآخر، والحديثُ عمّا جاء في تلك المراجع الحديثة كافة لا طائل من ورائه، لتشابه المعلومات الواردة فيها بصورة عامة مع اختلاف في طريقة العرض وأسلوبه.

ولعلّ التنويه بثلاثة كتب من المراجع الحديثة يُغني عن التنويه بسائرها: الأول السِّفر القيِّم الذي أخرجه الدكتور محمد حميد الله

بعنوان: (مجموعة الوثائق السياسيّة للعهد النبوي والخلافة الراشدة)، جمع فيه نصوص الرّسائل النبوية[1].

والثاني كتاب: (خاتم النّبيين ﷺ)، ذكر فيه السفارات والرسائل النبوية[2]، مع إبراز الدروس والعِبَر بصورة عامة، ومؤلِّفه الشيخ محمد أبو زهرة.

والثالث كتاب: (السيرة النبوية): للشيخ أبي الحسن الندوي، عرض فيه أخبار الوفادات، وتناول بالمناقشة النقدية المستنيرة بعض التفاصيل التي تحفل بها كتب التاريخ والسيرة الأولى، والتي لا يكفي نقلها دون نظر وتمحيص كافيين[3].

وسأذكر ما جاء في تلك المراجع الثلاثة وشيكاً بإيجاز.

ب. فقد ذكر الدكتور محمد حميد الله (ت١٤٠٢هـ) في كتابه: (مجموعة الوثائق السياسيّة للعهد النبويّ والخلافة الراشدة)، نصّ الرسالة النبوية إلى النّجاشي حول مهاجري الحبشة من المسلمين (التسلسل ٢٠/ألِف والتسلسل ٢١)، وقد ورد في الرّسالة النبوية (٢١) ما نصّه: **«وقد بعثت إليك ابن عمّي جعفراً، ونفراً معه من المسلمين، فإذا جاءك فأقْرِهم»**[4]. وقد أعطى النبيّ ﷺ ابن عمِّه جعفراً هذا الكتاب إلى النّجاشيّ وقت هجرة جعفر إلى الحبشة، طالباً من النّجاشي العادل

---

(١) محمد حميد الله - مجموعة الوثائق السياسية (٣) و(٤٢-٥٢) و(٧٢. وما بعدها) - القاهرة ١٣٧٦هـ - ط ٢.

(٢) محمد أبو زهرة - خاتم النبيين ﷺ - (١١٥٥/٢ وما بعدها) - طبعة مؤتمر السيرة بقطر - ١٣٩٩هـ.

(٣) أبو الحسن الندوي - السيرة النبوية (٢٣٣-٢٥٤) - القاهرة - ١٣٩٧هـ.

(٤) مجموعة الوثائق السياسية (٣) وانظر نص الرسالة النبوية في الوثيقة (٢١) في مجموعة الوثائق السياسية.

الاعتناء بحال اللاجئين الغرباء في بلاده من المسلمين، وهم المهاجرون الأولون إلى أرض الحبشة، كما دعاه النبيّ ﷺ إلى الإسلام.

وذكرُ العبارة: «... وقد بعثت إليك ابن عمّي جعفراً، ونفراً من المسلمين، فإذا جاءك فأقْرِهِمْ...»، لا يمكن أن تتعلّق بالكتاب المرسل في السنة السادسة الهجرية مع عمرو بن أُميَّة الضَّمْري، حيث كان قد مضى خمس عشرة سنة على هجرة جعفر إلى الحبشة[١]، وكان على وشك الرّجوع إلى دار الإسلام.

والمصادر التي لم تذكر هذه العبارة في متن الكتاب النبويّ متأخّرةٌ عن الطبري الذي ذكرها في تاريخه[٢]، فليس ذكرها سهواً من الطبري، بل عدم ذكرها سهو من الذين لم يذكروها من المتأخرين.

ولا أتفق مع الدكتور حميد الله، في أنّ الطبري الذي نصّ على تلك العبارة ليس على حقّ، وأنّ الحلبي والقسطلاني والقلقشندي الذين لم ينصّوا على تلك العبارة في الرِّسالة النبويَّة على حق، لأنّ الطبري متقدّم على الذين لم ينصّوا على تلك العبارة، وهم متأخرون عنه، فهو أقرب إلى سير الحوادث منهم، والمفروض أنّهم يرجعون إليه في مثل هذه الرِّسالة النّبويّة أسوةً بغيرهم من المؤرخين وكُتَّاب السِّيرة النّبوية الذين نقلوا نصّ تلك العبارة حرفياً. ومن المعقول جداً أن يوجِّه النبيّ ﷺ رسالة إلى النّجاشي مع ابن عمِّه جعفر، يُوصي بها النّجاشي بالمسلمين، فقد كان النبيّ ﷺ يحرص على أصحابه في حاضرهم ومستقبلهم، فلا يمكن أن يوجِّه مهاجرين من أصحابه إلى أرض الحبشة بدون رسالة نبويّة يوصي بها النجاشي خيراً بالمسلمين المهاجرين إلى أرضه.

---

(١) الهجرة الأولى إلى الحبشة في السنة الخامسة للنبوّة (السنة الثامنة قبل الهجرة).
(٢) الطبري (٢/٦٥٢).

وفي الرسالة النبويّة ذات التسلسل (٢٢)، ذكر الدكتور حميد الله الدعوة النبوية للنجاشي إلى الإسلام، وجواب النّجاشي على الرسالة النّبويّة يعلن فيها إسلامه، ونصّ الرسالة النّبوية طالباً تزويجه أمّ حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وجواب النّجاشي على تلك الرسالة النبوية حول تزويجه أم حبيبة، وجواب النجاشي على إعادة المسلمين المهاجرين من أرض الحبشة إلى المدينة المنورة[١].

وقد حمل تلك الرسائل النبويّة عمرو بن أُميَّة الضَّمْرِي.

وقد كان الكتاب النّبوي الذي حمله جعفر بن أبي طالب للنجاشي صاحب جعفر، والكتاب الثاني (التسلسل ٢٢) للنّجاشي صاحب عمرو ابن أُميّة[٢]. ويبدو أنّ النجاشي صاحب جعفر قد انتقل إلى رحمة الله، فخلف من بعده النّجاشي صاحب عمرو.

جـ. وأورد كتاب النبيّ ﷺ إلى هِرَقل عظيم الرُّوم، كما أورد كتاباً نبوياً آخر إلى قيصر الرّوم، وجواب قيصر الرّوم إلى النبيّ ﷺ، وكتاب النبيّ ﷺ إلى أسقف الرّوم[٣].

وقد جمع هذه الرّسائل من المصادر القديمة والوسيطة، ولم ينس المراجع الحديثة. وبخاصة بحوث المستشرقين وغيرهم، مما ييسِّر للباحث جوّاً علميًّا رائعا، ويدلّ على مبلغ الجهد الذي بذله الدكتور محمد حميد الله في هذه الدراسة المستفيضة المثمرة.

كما أورد كتاب النبيّ ﷺ إلى الحارث بن أبي شَمِر الغسَّانيّ[٤]، كما

---

(١) راجع الرسائل، التسلسل (٢٢ و٢٣ و٢٣/ألف و٢٤ و٢٥) في: مجموعة الوثائق السياسية (٤٦-٤٩).

(٢) البداية والنهاية (٣/٨٣).

(٣) راجع الرسائل في التسلسل (٢٦ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩) في: مجموعة الوثائق السياسية (٤٩-٥٢).

(٤) راجع الرسالة في التسلسل (٣٧) في: مجموعة الوثائق السياسية (٦٢-٦٣).

نوّه بكتاب رسول الله ﷺ إلى جبَلة بن الأيهم الغسَّاني ملك غسَّان يدعوه به إلى الإسلام، وجواب جَبلة بإسلامه[1]، ولم يَروِ نصّ الكتابين، لأنّ المصادر القديمة والوسيطة لم تذكر نصّي الكتابين.

ثم أورد كتاب النبيّ ﷺ إلى المقوقس عظيم القِبْط، وذكرّ جواب المقوقس على الكتاب النّبوي. وأدرج رواية أخرى عن نصّ الكتاب النبويّ إلى المقوقس، ورواية أخرى عن جواب المقوقس[2]. وقد تطرّق إلى مراجع المستشرقين وغيرهم حول ذلك، فقدّم بذلك رصيداً دسماً للباحثين والدارسين.

د. وذكر نصّ كتاب النبيّ ﷺ إلى كسرى عظيم فارس[3]، وذكر نصّ كتاب نبويّ آخر إلى كسرى[4]، والكتاب الأول هو المعتمد لأنّ المصادر الرئيسة سجّلته، ولا عبرة في الكتاب الثاني، ولكن الأمانة العلمية اقتضت تسجيله والتنويه به، وقد دوّن الدكتور حميد الله بعد الكتاب الثاني: «والظّاهر أنّه سهو من الراوي وإدغام بين كتابين: كتاب كسرى المذكور تحت رقم ٥٣، وكتاب إلى المنذر بن سَاوَى حسب رواية القلقشندي المذكورة تحت رقم ٥٩، فتنبّه».

وأورد جواب كسرى دون أن يروي نصّه، لأن المصـدر الذي نُقل عنه وهذا الكتاب لم يروِ نصّه[5].

كما أورد نصّ كتاب النبيّ ﷺ إلى الهُرْمُزان أحد عُمَّال كسرى[6]،

---

(١) راجع الرسالتين في التسلسل (٣٨ و٣٩) في: مجموعة الوثائق السياسية (٦٤).
(٢) راجع الرسائل في التسلسل (٤٩ و٥٠ و٥١ و٥٢) في: مجموعة الوثائق السياسية (٧٢-٧٥)
(٣) راجع الرسالة التسلسل (٥٣) في: مجموعة الوثائق السياسية (٧٦-٧٧).
(٤) راجع الرسالة التسلسل (٥٣/ألف) في: مجموعة الوثائق السياسية (٧٧).
(٥) راجع الرسالة التسلسل (٥٣/ب) في: مجموعة الوثائق السياسية (٧٨).
(٦) راجع الرسالة التسلسل (٥٤) في: مجموعة الوثائق السياسية (٧٨).

دون أن يبدي رأيه في هذا الكتاب. ولم يثبت أنّ النبيّ ﷺ كتب إلى الهرمزان، والثابت أنّه كتب إلى كسرى عظيم فارس وحده، فهو المسؤول الأول عن الأقوام التى تعيش تحت ظلّ حكمه، ومخاطبة الأصل تُغني عن مخاطبة الفرع.

هـ. وذكر نصّ كتاب النبيّ ﷺ إلى المنذر بن سَاوَى ملك البحرين[١]، وذكر نصّ كتاب نبويّ ثانٍ إلى المنذر بن ساوى أيضاً[٢]، وجواب المنذر بن ساوى للنبيّ ﷺ[٣]. ثم أدرج نصّ كتاب نبوي ثالث إلى المنذر أيضاً، ونصّ كتاب نبويّ إلى العلاء بن الحَضْرمي عن الزكاة، وكتاباً آخر إلى العلاء في استقدامه إلى المدينة المنورة مع مندوبين عن أهل البحرين، ونص كتاب نبويّ إلى أهل هَجَر في البحرين، ونص كتاب نبويّ إلى المنذر بن ساوى في مجوس هَجَر، ونص كتاب نبويّ إلى المنذر في دفع الجزية، ونصّ كتاب نبويّ إلى عامل النبيّ ﷺ في البحرين العلاء بن الحضرميّ، ونصّ كتاب إلى عامل كسرى في البحرين، ونصّ كتاب إلى أهل عُمان والبحرين، ونصّ كتاب إلى الهلال صاحب البحرين[٤]، وبذلك يكمل تسجيلاته المستفيضة حول الرّسائل النبويّة إلى البحرين وما حولها، وهي تسجيلات جمعت فأوعت بحقّ.

ولعلّ أهم ما جاء في تسجيلاته، هو حول الكتاب النّبوي الثاني (تسلسل ٥٧)، ودراسات المستشرقين وغيرهم حوله، بعد العثور على

---

(١) راجع الرسالة التسلسل (٥٦) في: مجموعة الوثائق السياسية (٧٩-٨٠).
(٢) راجع الرسالة التسلسل (٥٧) في: مجموعة الوثائق السياسية (٨٠-٨١).
(٣) راجع الرسالة التسلسل (٥٨) في: مجموعة الوثائق السياسية (٨١-٨٢).
(٤) راجع الرسالة التسلسل (٥٩) في: مجموعة الوثائق السياسية (٨٢-٨٣).
(٥) راجع الرسائل ذات التسلسل (٥٩/ألف و٥٩ ب و٦٠ و٦١ و٦٢ و٦٣ و٦٤ و٦٥ و٦٦ و٦٧) في: مجموعة الوثائق الساسية (٨٣-٩٠).

نسخة من الكتاب، وسنعود إلى أهمّ ما جاء على هذا الكتاب النبويّ من دراسات وشيكا.

و. وجاء الدكتور محمد حميد الله بنصّ كتاب النبيّ ﷺ إلى هَوْذَة بن عليّ، وجواب هوذة على الكتاب النّبوي[١]، ونوّه بالكتاب النبوي إلى ثُمامَة بن أُثال رئيس اليمامة[٢].

كما دوّن الرسالة النّبويّة إلى جيفَر وعبد ابني الجُلُنْدي رئيس عُمان[٣]، والكتاب النّبوي إلى هوذة في اليمامة وإلى جيفر وعبد ابني الجُلُنْدِيّ في عُمان، في هذا المرجع الوثائقي، لا يختلف في شيء ذي بال عمّا جاء في المصادر القديمة والوسيطة المعتمدة، وقد أفاض الدكتور حميد الله في تعداد المصادر والمراجع، مما لا يخلو من فائدة للدّارس والمتتبّع.

ز. وقد أورد كتابه عليه الصلاة والسلام لعمرو بن حزْم عامله وسفيره على اليمن[٤]، كما أورد ضميمة للنّص السّابق[٥]، وكتابه عليه الصلاة والسّلام إلى عمرو بن حزم أيضاً في تسمية ابن عمرو بن حزم وتكنيته[٦]، وهو مولود جديد لعمرو.

وقد أفاض الدكتور حميد الله ايضاً كعادته، في تعداد المصادر والمراجع التي رجع إليها في تلك الرسائل النبويّة، مما لا يخلو من فائدة كبيرة للدارس والمتتبّع.

---

(١) انظر الرسالتين في التسلسلين (٦٨ و٦٧ ألف) في: مجموعة الوثائق السياسية (٩١).
(٢) انظر الرسالة في التسلسل (٦٨/ب) في: مجموعة الوثائق السياسية (٩٢).
(٣) انظر الرسالة في التسلسل (٧٦) في: مجموعة الوثائق السياسية (٩٧).
(٤) انظر الرسالة في التسلسل (١٠٥) في: مجموعة الوثائق السياسية (١٣٧-١٤١).
(٥) انظر التسلسل (١٠٦) في: مجموعة الوثائق السياسية (١٤١-١٤٢).
(٦) انظر التسلسل (١٠٦/ألف، ب) في: مجموعة الوثائق السياسية (١٤٢-١٤٣).

وقد أدرجَ بعد ذلك الكتاب النبويّ إلى ملوك اليمن (إلى الحارث، ومَسروح، ونُعيْم بن عبد كُلاَل من حِمْيَر) في اليمن، وجوابهم للنبيّ ﷺ الذي قدم به على النبيّ ﷺ ومالك بن مُرارة الرّهاوي[1] دون أن يذكر نصّ الجواب، لأنّ المصادر المعتمدة لم ترو نصّه. كما أدرج جواب النبيّ ﷺ على كتاب ملوك اليمن، الذي حمله إليهم سفيره مُعاذ بن جَبَل وسفيره أبو موسى الأشْعري الذي كان مع مُعاذ في سفرته ومهمّته.

كما ذكر الكتاب النّبوي إلى عَرِيْب بن عبد كُلال دون أن يروي نصّه، وذكر الكتاب النبويّ إلى فَهَد الحِمْيري دون أن يروي نصّه أيضاً، والكتاب النبوي إلى عبدالعزيز بن سيف بن ذي يَزَن الحِمْيري دون أن يروي نصّه أيضاً.

كما ذكر نصّ الكتاب النّبوي إلى أقيال اليمن في الزكاة والدِيّات وغيرها، وإلى عُمْير شيخ من همْدان[2].

تلك هي مجمل ما أورده الدكتور محمد حميد الله في كتابه القيِّم: (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النّبوي والخلافة الراشدة)[3] حول السَّفارات والرّسائل النبوية وأجوبة الملوك والرؤساء عليها، مع ذكر

---

(١) هذا هو اسمه الكامل مالك بن مُرارة الرهاوي كما جاء في: مجموعة الوثائق السياسية (١٤٤) وفي المصادر والمراجع الأخرى.

(٢) انظر تسلسل الكتب النبويّة (١٠٧ إلى ملوك اليمن، و١٠٨ جوابهم للنبيّ ﷺ، و١٠٩ جواب النبيّ ﷺ لكتابهم، و١١٠ إلى عريب بن عبد كلال في اليمن، و١١٠/ألف إلى فهد الحميري، و١١٠ ب إلى عبد العزيز بن سيف بن ذي يزن الحميري، و١١٠/ج إلى أقيال اليمن في الزكاة والديات وغيرها، و١١١ إلى عُمَيْر شيخ من همْدَان)، في: مجموعة الوثائق السياسية (١٤٣-١٥٣).

(٣) الدكتور محمد حميد الله الحيدرآبادي - مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٣٧٦هـ ط٢.

المصادر العربية الإسلامية التي اعتمدها والمراجع العربية والإسلامية والأجنبية التي اعتمد عليها، بصورة مفصّلة شاملة، لا تكاد تترك شاردة ولا واردة إلا أشارت إليها ودلّت عليها، مع ذكر بعض التعليقات المفيدة في بعض الأحيان، كما أن مقدمة الطبعة الأولى ومقدمة الطبعة الثانية مفيدتان للباحثين والدارسين في هذا المجال، لتثبيت آراء قيِّمة للمؤلف.

وبالرّغم من أنّ الاعتماد على المراجع الأجنبيّة، وبخاصة مراجع المستشرقين بالذات لا تخلو من فائدة محدودة، إلاّ أنّ الدارس والباحث الذي ليست له خلفيّة واضحة المعالم جليّة القسمات في موضوع: السفارات النبويّة والرّسائل النبويّة، قد تورِّطه مراجع المستشرقين إلى الوقوع في الانحراف دون مسوِّغ، لأنّ كثيراً من المستشرقين، ولا أقول كلّ المستشرقين، يدأبون على التشكيك في كلّ ما يمتّ إلى العربية لغةً والإسلام ديناً، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

وقد يكون زرع هذا التشكيك متعمداً لغاية في نفس يعقوب، حوافزه صهيونية أو تبشيرية أو سياسية أصبحت معروفة للعرب والمسلمين بخاصة ولغير العرب والمسلمين بعامة، على الرغم من تغليفها بغلاف العلم والموضوعيّة والمنهجيّة، ولكن قد يكون هذا التشكيك غير متعمّد نتيجة لسوء الفهم في اللغة العربية أو في تعاليم الدين الحنيف، فلا يفهم أسرار العربية كما ينبغي إلا العربيّ الأصيل أو المسلم الحق، كما لا يفهم تعاليم الدين الحنيف من غير المسلمين إلاّ مَنْ حرص على التعلّم وأخلص في تعلمه، وتخلّى عن مقارنة دينه بالإسلام، لأنّ الإسلام ليس ديناً فحسب: بل منهج حياة بكلّ تفاصيلها ودقائقها.

وإذا كان التشكيك متعمداً أو غير متعمد، بالنتيجة تكاد تكون واحدة، هي تلويث العقول والقلوب بهذا التشكيك، وانتقاله بالعدوى

إلى عقول الآخرين وقلوبهم من طلاّب وأساتذة وقرّاء في أرجاء الوطن العربيّ ودار الإسلام.

لهذا ذكرتُ خطورة المراجع الاستشراقيّة وذكّرتُ بها، بالنسبة لمن لا خلفية له، واضحة المعالم جلّية القسمات، في موضوع: السّفارات والرّسائل النبوية، وأقصد بذلك دراسة هذا الموضع في مصادرنا الإسلامية أولاً دراسة متأنية عميقة مفصّلة، وبعد ذلك لا بأس من الإطّلاع على الدراسات الاستشراقية، أما قبل الإحاطة الشّاملة بالموضوع في مصادرنا الإسلامية المعتمدة، فقد تؤدي المراجع الاستشراقيّة حول: السّفارات والرسائل النبويّة. إلى بذر الشك والتشكيك في عقل العربّي والمسلم ونفسه، وهذا ما لا يريده الدكتور حميد الله ولا غيره من المسلمين لأيّ عربي مسلم.

وسنعرض لشيءٍ من التشكيك في مراجع المستشرقين، وكيف تسرّب إلى المراجع العربية الإسلامية.

وما تأثر الدكتور حميد الله بتشكيك تلك المراجع الاستشراقيّة، لأنّ له خلفية كاملة حول موضوع: السّفارات والرسائل النبوية. ولو لم يكن محصناً بتلك الخلفية، لما ثبت على الحق ودافع عنه، وهذا ما نريده للدارسين والباحثين من العرب والمسلمين.

لقد أدّى الدكتور حميد الله واجبه في سرد المصادر والمراجع، وبلغ في استقصائه مبلغاً يدلّ على حرصه وأمانته، وبقي عليّ أن أذكّر بالسم الذي دُسّ في العسل، لعلّ الذكرى تنفع المؤمنين.

وطالما خدعت مراجع الاستشراق عن الإسلام والعربية بعض الذين صدّقوا مسوح الموضوعيّة والمنهجيّة والعلمية التي تُظهر على تلك المراجع وتتظاهر بها، وهي تُخفي غير ما تُعلن، وليس المستشرقون كلّهم سواء، ولا نريد هنا غير المنحرفين منهم، أما المنصفون فهم معروفون،

وخدماتهم للفكر والعلم والتراث لا تُقدّر بثمن، ولكن ما أكثر المنحرفين منهم، وما أقل المنصفين!.

ح. والآن يأتي دور المرجع الثاني، وهو كتاب الشيخ محمّد أبي زهرة (ت ١٣٩٥ هـ)(١)، وعنوان الكتاب (خاتم النبيين ﷺ)(٢).

وبدأ الشيخ أبو زهرة حديثه على الرسائل النبوية تحت عنوان: (رسائل)، فقال: «وإنّه بعد الحُدَيْبِيَّة تفرّغ النبيّ ﷺ للدعوة، فلم يرسل سرايا للقتال، ولكن أرسل رسلاً للدّعوة إلى الإسلام، وتبليغ الدّعوة.

«قال الواقدي: في ذي الحجّة من سنة ست، بعث رسول الله ﷺ ستة نفرٍ مصطحبين: حاطِب بن أبي بَلْتَعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، وبعث شُجاع بن وَهْب إلى الحارث بن شَمِر(٣) الغسَّاني ملك عرب النصارى، ودِحْية بن خليفة الكلبيّ إلى قيصر هِرَقْل ملك الرُّوم، وبعث عبدالله بن حُذافة السَّهْميّ إلى كسرى ملك الفُرس، وبعث سَلِيْط ابن عمرو العامري إلى هَوْذة بن عليّ الحَنفيّ، وعمرو بن أُميَّة الضَّمْرِي إلى النَّجاشي ملك النّصارى بالحبشة، وهو أصحمة بن أَبْجر». ثم قال: «والذي نقوله هنا، هو أنّ النبيّ ﷺ وقد تفرّغ للتبليغ، ولم يعُد مقصوراً على الجزيرة العربية وما حولها، بل تجاوزها إلى الاقاليم الأخرى»(٤). وهو هنا ينصّ على بداية مرحلة الدعوة عالمياً إلى الإسلام، وسنوجز مراحل تطور الدّعوة الإسلامية بعد قليل.

وتحت عنوان: (بعث الرّسائل للملوك)، ذكر أنّ علماء السِّيرة

---

(١) توفي عليه رحمة الله في يوم الجمعة الأول من ربيع الثاني ١٣٩٥ هـ، الموافق ١٢ نيسان (أبريل ١٩٧٤م في داره بالقاهرة.

(٢) محمد أبو زهرة - خاتم النبيّين ﷺ - طبعة قَطَر - الدوحة - ١٤٠٠ هـ.

(٣) الصواب: الحارث بن أبي شمر الغساني.

(٤) خاتم النبيين (١٠٣٩/٢-١٠٤٠).

والصِّحاح اتفقوا على أنّ الإرسال إلى الملوك والأمراء، كان بعد الحُدَيْبِيَّة وقبل الفتح، ولكن اختلفوا أكان بعد صلح الحُدَيْبِيَّة أم كان بعد عُمْرَ القضاء، أم كان بعد مُؤْتَة. ثم قال: «والذي نختاره أنّه كان بعد عُمْرَة القضاء وقبل مؤتة»[1]، والجمهور على أنه كان بعد صلح الحديبية.

ثم جاء على ذكر كتابه إلى هرقل وأثره[2]، فلم يأت بجديد حول الموضوع.

وانتقل إلى كتابه لكسرى ملك الفرس[3]، فذكر ما ذكرته المصادر السّابقة، بأسلوب عصريّ مبسّط، وركّز على أثر الرسالة النّبوية في باذان نائب كسرى على اليمن وأتباعه من الفُرس في اليمن، إذ أسلم باذان وأسلم الأبناء من فارس الذين كانوا في اليمن[4].

وتحدّث بعد ذلك مباشرة عن الكتاب النبويّ إلى النّجاشي وجواب النجاشي على الكتاب النبويّ، وإسلام النّجاشي دون أن يكره أحداً من أتباعه على الإسلام[5].

وجاء دور الكتاب النّبوي إلى المقوقس، فأورد نصّ الكتاب النَّبوي، ومناقشة المقوقس للسفير النّبوي، وجواب المقوقس على الرسالة النبوية، وهدية المقوقس إلى النبيّ ﷺ[6]، دون أن يأتي بجديد أيضاً.

---

(١) خاتم النبيين (١١٥٥/٢).
(٢) خاتم النبيين (١١٥٧/٢).
(٣) خاتم النبيين (١١٦١/٢-١١٦٤).
(٤) خاتم النبيين (١١٦٤/٢).
(٥) خاتم النبيين (١١٦٥/٢-١١٦٦).
(٦) خاتم النبيين (١١٦٧/٢ - ١١٦٩).

ثم ذكر كتابه عليه الصلاة والسّلام إلى المنذر بن سَاوى، فأورد نصّ الكتاب النّبويّ[1]، دون أن يذكر تفاصيل الكتب المتبادلة بين النبي ﷺ والمنذر بن ساوى وغيره في البحرين، كما فعلت المصادر القديمة والوسيطة. واستنتج أنّ ابن عبّاس كان حريصاً على أن يكتب كتب النبي ﷺ ويحفظها في خزانة كتبه، وأنّه يعلن للناس ما يعلن وهو الأكثر، وقد يُبقي ما لا يُعلن. كما استدل على أن الجزية تفرض على اليهود والمجوس، ثم قال: «وفي الخبر ما يدل على فرض الجزية على الذين لا يؤمنون، إذا كانوا في ولاية مسلم، وهم هنا اليهود والنصارى والمجوس، وقد أجمع الفقهاء على فرض الجزية عليهم، وأجاز أبو حنيفة فرض الجزية على الوثنيين غير العرب قياساً على المجوس»[2]. وهكذا تتميّز تعليقات الشيخ أبي زهرة بالناحية الفقهية، فقد كان عليه رحمة الله من فقهاء العصر المعروفين.

وذكر بعده نصّ الكتاب النّبوي إلى مَلِك عُمان، ومناقشة السّفير النّبوي عمرو بن العاص لملك عُمان، وإسلام الملك. ويستنتج المؤلف عدّة استنتاجات من الكتاب النّبوي والمناقشة، منها: تغلغل الإسلام في نفس العربيّ شرقاً وغرباً، وأنّ أهل عُمان كانوا من النّصارى، وأنّه لا ولاية لغير المسلم على المسلم، وأنّ هِرَقْل كان واسع التفكير حرّ الفكر والرأي يُقَدِّر التّدين في غيره كما يقدِّرها في نفسه، وأنّ سفارة عمرو بن العاص كانت بعد فتح مكة، وأن عمرو بن العاص كان ذا فراسة قويّة[3]، وهي استنتاجات فقهية وعامة مفيدة جداً للدارسين والباحثين.

وكان آخر كتاب نبوي ذكره المؤلف هو كتاب النبيّ ﷺ إلى

---

(١) خاتم النبيين (١١٧٠/٢).
(٢) خاتم النبيين (١١٧١/٢).
(٣) خاتم النبيين (١١٧٢/٢ - ١١٧٦).

أصحاب اليمامة، فذكر نصّ الكتاب النبويّ، ونتيجة السفارة النبويّة[1].

وذكر بعده تحت عنوان: (المقصود من الرسالة المحمّدية)، ثلاثة استنتاجات[2]، تفيد الباحث والدارس كثيراً.

وختم دراسته بآراء فقهيّة حصيفة في الذمّي والجزية، وممن تؤخذ الجزية، وأن أخذ الجزية يعفى دافعها من القتال، وحكم المشركين العرب، وحكم المشركين من غير العرب، وأحكام أهل الذمة، وقد استنتج هذه الآراء من رسالة النبي ﷺ إلى المنذر بن سَاوَى، معتمداً على دراساته الفقهيّة المستفيضة، فجاء بآراء تفيد الباحثين والدارسين بعامة والفقهاء منهم بخاصة.

وقد اعتمد الشيخ أبو زهرة كتاب: (عيون الأثر) لأبي سيِّد الناس مصدراً رئيساً لتدوين ما دوّنه في السّفارات والرّسائل النبويّة، واقتفى أثره حتى في ترتيب تبويب السّفارات والرّسائل النبويّة وتسلسل تسجيلها أيضاً، كما اعتمد على المصادر القديمة والوسيطة الأخرى، ولكن بقي اعتماده بالدرجة الأولى على ابن سيِّد الناس، خاصة وأنّهما فقيهان يتّفقان في الميول والتفكير، ومع ذلك كانت للشيخ أبي زهرة في كتابه إضافات فقهيّة وأفكار جديدة على ابن سيِّد الناس، كما أنّ أسلوب أبي زهرة في عرض الأحداث والأفكار والآراء اسلوب عصريّ يتّسم بالجزّالة والبساطة والوضوح، لذلك كان في كتاب الشيخ أبي زهرة، إضافات جديدة للسيرة النّبوية، تستهوي القرّاء المُحْدثينْ والدارسين أكثر مما تستهويهم المصادر القديمة والوسيطة على أهميتها وجلالة قدرها.

---

(١) خاتم النبيين (١١٧٧/٢).
(٢) خاتم النبيين (١١٧٨/٢ - ١١٧٩).
(٣) خاتم النبيين (١١٨٠/٢ - ١١٨٣).

ط. أما الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه القيّم: (السِّيرة النّبوية)، فلا بدّ من ذكر أنّ النّدوي من علماء المسلمين في الهند، وهو أمين: (ندوة العلماء بلكناو)، وله في مجال الدراسات الإسلامية والفكر الإسلامي والدَّعوة الإسلاميّة مؤلّفات وبحوث كثيرة، وقد أغنى المكتبة الإسلامية العربيّة والهنديّة والإنكليزيَّة بمؤلفاته وبحوثه القيِّمة، وهي في مختلف قضايا الفكر والثَّقافة والفكر الإسلاميّ.

وتمتاز كتابات أبي الحسن في السِّيرة، كما هو الحال في كتاباته الإسلاميّة، بتزامل العقل والعاطفة، فهما يسيران معاً متجاورين، لا يجور بحثه العقليّ، أو نقده التّحليليّ، أو نفاذه إلى الحقائق، على أريج العاطفة والحبّ وحلاوة الإيمان.

والباحث في كتابه: (السِّيرة النّبويّة)، لم يُغلِّب العاطفة على العقل، وركّز في بحثه على ثلاثة عناصر، فكان للعواطف مدخل إلى النَّفس، وكان لتحرّي الحقّ مدخل إلى القلب، وكان الجهد العقليّ في تحليل النّصوص ونقدها وسوقها سوقاً رشيداً مدخلاً طبيعياً إلى العقل، فالنَّفس والقلب والعقل مداخل ثلاثة نجح الباحث في تحريكها وإدارتها وتوجيهها إلى حيث يريد لها من معرفة وتأثير واستمتاع.

تلك هي بعض سمات المؤلِّف، فماذا عالج في السيرة النبويّة، عن السَّفارات والرَّسائل النَّبويّة؟.

تحدّث تحت عنوان: (دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام)[1]، فبدأ بـ: (دعوة وحكمة)، فذكر: أنّه لما تم صلح الحُدَيْبيّة، وهدأت الأحوال، وجدت الدعوة الإسلامية متنفساً ومجالاً للتقدّم، فكتب رسول الله ﷺ، كُتباً إلى ملوك العالم وأمراء العرب، يدعوهم فيها إلى الإسلام وإلى

---

(١) انظر التفاصيل في: السيرة النبوية (٤٠٢ - ٤١١) - لبنان - صيدا - ١٣٩٩ هـ.

سبيل ربِّه بالحكمة والموعظة الحسنة. واهتمّ اهتماماً كبيراً، فاختار لكلّ، واحد منهم رسولاً يليق به[1]، ويعرف لغته»[2]. والمؤلف يبدي رأيه بأن سفراء النبي إلى الملوك الأجانب من غير العرب كانوا من الذين يعرفون لغة الملك الذي حمل كلّ واحد منهم الرسالة النّبوية إليه، وهو رأي حصيف لولا وجود نصوص ذكرناها في مكانها، تنص على أن أولئك الملوك استعانوا بالمترجمين، ولم يخاطبوا السفراء النّبويين بصورة مباشرة.

وذكر المؤلف في الهامش رقم (١): «نرجِّح أنّ هذه الرّسائل وجِّهت في شهر ذي الحجّة سنة ست (الهجرية) بعد صلح الحُدَيْبِيَّة، كما قال الواقدي، وهو يوافق ٦٢٧م، فإنّ في مقدمة هؤلاء الملوك الإمبراطور الإيراني «كسرى أبرويز»، ومن المقرر أنّه مات في مارس ٦٢٨م، ومن هنا يتقرّر أن صلح الحديبيّة في أوائل سنة ٦٢٧م، وكان من الصعب وصول الرسالة الموجّهة إلى هرقل كذلك، إذا كانت وجِّهت في سنة ٦٢٨م، لأنه كان قد توجّه في هذه السنة إلى أرمينيا. انظر فتح العرب لمصر - بتلر (١٣٩-١٤٠)[3]»، وهو تعليل سديد لتوقيت الرسائل النّبويّة.

ثم يورد تحت عنوان: (الكتب التي أُرسلت إلى الملوك)، نصّ كتاب النبيّ ﷺ إلى هِرَقْل[4]، ونصّ كتابه إلى كسرى أبرويز[5]، ونصّ كتابه إلى النجّاشي ملك الحبشة[6]، ونصّ كتابه إلى المقوقس عظيم القبْط[7].

---

(١) انظر بحث: سمات سفراء النبي ﷺ، في خاتمة هذا الكتاب.
(٢) السيرة النبويّة للنّدوي (٣٢٣).
(٣) السيرة النبويّة للنّدوي (٣٢٣).
(٤) السيرة النّبوية للندوي (٣٢٤ - ٣٢٥).
(٥) السيرة النّبويّة للنّدوي (٣٢٥).
(٦) السيرة النبوية للنّدوي (٣٢٥ - ٣٢٦).
(٧) السيرة النبوية للندوي (٣٢٦).

وذكر النَّدوي أنّه عُثر على نصوص هذه الكتب الأربعة في فترات تاريخيّة مختلفة، وظهرت في بعض الصحف والمجلّات الإسلامية، وأُخذت لها صور كثيرة[1].

ثم تحدّث المؤلف تحت عنوان: (مَنْ هم هؤلاء الملوك)، على هرقل[2]، وعلى كسرى أبرويز[3]، وعلى المقوقس[4]، وعلى النّجاشيّ، فذكر أنّ بلاد الحبشة لم تزل تسمّى من قديم الزمان بالحبشة (Abyssinia) أو أثيوبيا (Ethiopia)، وهي بلاد من أفريقيا الشرقيّة، واقعة في الجنوب الغربي من البحر الأحمر، ولا يمكن تقدير حدودها في العصر الذي نتحدّث عنه.

وقال المؤلف: «ويقول «De Lacy O' Leary» في كتابه: (العرب قبل محمّد): كانت الحبشة منذ ٥٢٢م حتى ظهور الإسلام مسيطرة على تجارة شرق البحر الأحمر، وأفريقيا، بل لعلها كانت مسيطرة على تجارة الهند أيضاً»[5].

وقال المؤلف: «كان ملك الحبشة يلقّب دائماً بـ (النّجاشي) (Nagusa- Nagasht)» ثم تحدّث عن النّجاشي الذي كتب إليه رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام، فيقول: «مما لا شك فيه، أنّ هناك شخصيتين متمايزتين: الأول هو الذي هاجر إليه المسلمون من مكّة، وكان فيهم جَعْفر بن أبي طالب، وذلك سنة خمس من النّبوة.........

---

(١) الهامش (٢) من (٣٢٦) في سيرة النبوية للندوي (٣٢٦)، وذكر أنه من شاء الاطلاع على هذه الصور. فعليه بكتاب Mohammad Rasulullah للدكتور حميد الله، طبع حيدر آباد - الهند - ١٩٧٤م.

(٢) السيرة النبوية للندوي (٣٢٧ - ٣٣٠).

(٣) السيرة النبوية للندوى (٣٣٠ - ٣٣٣).

(٤) السيرة النبوية للندوى (٣٣٣ - ٣٣٥).

(٥) «Arabia Before Mohammad» (London 1937) P 120.

أما النّجاشي الذي كتب له النبي ﷺ كتاباً يدعوه إلى الإسلام، فهو كما مال إليه الحافظ ابن كثير هو النجاشي الذي ولي بعد المسلم صاحب جعفر... وهو النجّاشي الذي صلّى عليه رسول الله ﷺ، وذلك في رجب سنة تسع منصرف تبوك»[1].

وقد أضاف المؤلف معلومات جديدة بذلك على ما ذكره كُتّاب السِّيرة الذين سبقوه، ولم أطلع على كتاب الندوي قبل كتابة هذه الفقرة من هذه الدراسة، وقد كتبت على الملوك والأمراء دراسة أشمل من دراسة النّدوي، لأنّها شملت الملوك والأمراء، وكانت الدراسة عن الملوك أكثر تفصيلاً[2]، وقد أضفت المعلومات الواردة عن النجّاشي الواردة في أعلاه نقلاً عن الندوي، لأنني لم أكن قد انتبهت إليها في حينه.

ويتحدّث المؤلّف تحت عنوان: (كيف تلقّى هؤلاء الملوك هذه الرسائل الكريمة)[3] حديثاً يوجز فيه ما قاله غيره ممّن سبقوه، ولا يأتي بجديد يتميّز به عنهم. ثم يتحدّث تحت عنوان: (حوار بين هرقل وأبي سفيان) حديثاً يقتبسه من صحيح البخاري، وليس فيه جديد أيضاً.

ويتكلّم المؤلّف تحت عنوان: (مَنْ هم الأريسيون)[4]، وقد وردت كلمة (الأريسيين) أو (اليريسيين) في الكتاب النبوي الموجّه إلى هرقل وحده، ولم ترد في كتاب من الكتب التي أرسلت إلى غيره.

---

(١) صحيح مسلم - طبع مصر (١٦٦/٥)، وانظر السيرة النبوية للندوي (٣٣٥-٣٣٨).
(٢) انظر مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب.
(٣) السيرة النبوية (٣٣٨).
(٤) السيرة النبوية (٣٤٠ -٣٤٣).
(٥) السيرة النبوية (٣٤٣ - ٣٤٩).

لـذلـك يرجّـح المؤلـف أنّ المراد بالأريسيين هم أتبـاع: (أريوس ٢٨٠ م - ٣٣٦ م Arius) وهو مؤسس فرقة مسيحيّة كان لها دور كبير في تاريخ العقائد المسيحيّة والإصلاح الديني، وقد شغلت الدولة البيزنطية والكنيسة المسيحية زمناً طويلاً. وآريوس هو الذي نادى بالتوحيد[1].

ولأن هذه الدراسة جديدة، فيها إضافة لدراسات الرسائل النبويّة، فاقتبستها في شرح الرسالة النبوية إلى هرقل الواردة في مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب، تحت عنوان: (إلى قيصر الرُّوم وأسقفهم)، لتكون مرجعاً في شرح كلمة: (الأريسيين) أو (اليريسيين) في الرسالة النبوية إلى هرقل أينما وجدت في هذا الكتاب.

ودراسة المؤلِّف مفيدة للغاية للباحثين والدارسين.

ويختم المؤلِّف هذه الدراسة بعنوان: (رسائل إلى أمراء العرب)[2]، وهي دراسة مختصرة جداً لا جديد فيها.

إنّ دراسة المؤلف في هذا الكتاب، فيها إضافات جديدة، وهي مفيدة للغاية بالنسبة للدارسين والباحثين والأساتذة والطلاب.

د. وهكذا حشد الدكتور حميد الله الوثائق النبويّة، وسهر على حشدها وتدقيق مراجعها ومصادرها تدقيقاً موفّقاً، فقدم للدارسين والباحثين أجل الخدمات، ويسّر لهم البحث والدرس واختصر لهم الطرق والوقت اختصاراً لا يقدّر بثمن، عليه رحمة الله.

كما عنى أبو زهرة بالاستنباطات الفقهية بخاصة في دراسته للسيرة، فقدم للفقهاء أولاً ولغيرهم من الدارسين والباحثين ثماراً يانعة من

---

(١) السيرة النبوية (٣٤٥).

(٢) السيرة النبوية (٣٤٩ - ٣٥٠).

دراساته الحصيفة السديدة، ولا عجب، فقد كان عليه رحمة الله من أبرز فقهاء المسلمين في عصره، وكنت في القاهرة معاصراً لتأليف كتابه، وكان مشغولاً به مهتماً بجمع مواده، كأنّه لم يُخلق إلاّ من أجل تأليفه، وكان يناقش كلّ مَنْ يتّصل به في معضلاته مناقشة حماسيّة واعية، وكنت أزوره بداره في حيّ الزيتون بالقاهرة، فألمس ما يبذله من جهد في تأليفه ومناقشة أبحاثه.

أما الشيخ الندوي، فهو زميلي في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وكنت أميل إليه كثيراً ويميل إليّ، لأنني أجد عملَه كلّه خالصاً لوجه الله تعالى، وطالما حدّثني عن كتابه حديث المحب الهائم برسول الله ﷺ، وما ألّف كتابه إلاّ تعبيراً لحبّه العميق ووجده برسول الله ﷺ، وقد ردّ على المستشرقين ردًّا علمياً بدون أن يذكر أسماءهم، فحسبه أن يعيد الحق إلى نصابه، وأن يرشد المتشكّكين. وقد أعانه على الإجادة في كتابه، علمه الواسع، وقراءته المستمرة، ومعرفته باللّغات الأجنبية وبخاصة الإنكليزية، فهو يؤلّف بهذه اللغة كما يؤلّف بالعربية والأوردية لغته الأصلية في الهند.

وأشهد أن الندوي لم يؤلّف من أجل السّمعة أو المال، فقد كان ولا يزال يعتبر العلم عبادة من أجلّ العبادات، فإذا بارك الله له في كل ما خطّت يده ونفع به المسلمين وجعل علمه ينفع الناس ويمكث في الأرض، فهذا هو سر كلّ ذلك: لم يكتب للسمعة ولا للمال، بل لله وحده عزّ وجلّ. أطال الله عمره، وأبقاه ذخراً للإسلام والمسلمين في كلّ مكان.

والخلاصة، أننا نستطيع أن نتوصّل بعد هذا الاستعراض للدراسات المتعلّقة بالسّفارات والرسائل النبويّة في مصادرنا ومراجعنا الإسلاميّة قديمها ووسيطها وحديثها، إلى نتيجتين واضحتين.

الأولى: هي أنّ موضوع السفارات والرسائل النّبويّة في مجموعه موثّق في مصادرنا توثيقاً يرفعه إلى مستوى المسلّمات التاريخية والحقائق الدينية التي لا تقبل الشك ولا التشكيك. وهذا يشمل خبر الكتابة إلى الملوك والأمراء في عصر النبيﷺ، والسَّفارات النبويّة التي رافقتها. وهذا لا ينفي أن تشتمل هذه الأخبار على تفاصيل تستحق إعادة النظر والتمحيص الموضوعيّين، بقصد معرفة صحيحها من غيره. ولكن في إطار التسليم بصحّة الخبر العام، فقد أولى الدارسون هذا الموضوع اهتمامهم البالغ على مدى العصور، وأعطى ما يستحق من العناية في التدوين والتمحيص.

والثانية: هي أنّ المصادر القديمة اهتمت بالتدوين والتوثيق اهتماماً فائقاً، وتوخت الصِّدق والأمانة في التدوين والتوثيق. بينما اهتمت المصادر الوسيطة بالتجميع والتوفيق ووضع المواد المتشابهة تحت عناوين مناسبة تعطي صورة واضحة لفحوى ومحتوى تلك المواد المتشابهة. بينما اهتمّت المراجع الحديثة بالتلخيص والتحليل واستخراج الدروس والعبر تارة، وبالشرح والتوضيح والتحليل واستخراج الدروس والعبر تارة أخرى. وما زالت الحاجة ماسة إلى مزيد من الدراسات التوثيقيّة وجهود الترجيح وبخاصة في التفاصيل، ويزيد من ضرورة ذلك المبحثان اللّذان جدًّا في موضوع السفارات والرسائل النبوية[1]: مبحث التشكيك، ومبحث الرسائل النبوية التي عُثر عليها والتي جرت عليها دراسات مختلفة متفاوتة الأهمية والدّقّة والنتائج.

---

(١) د. عز الدين ابراهيم - الدراسات المتعلقة برسائل النبيﷺ - مجلة المؤرخ العربي العدد ٢٣ - ص(٢٤٤).

السِّيرة في دراسات المُستشرقين

١. السِّيرة بصورة عامة:

سأقتصر على ما سجّله المستشرقون حول السِّيرة النبوية، مما يظهر انحرافهم عن الحق والصّواب، وسأذكر آراء بعض الذين لا يُتّهمون بكره المستشرقين وبغضهم، بل يميلون مع المستشرقين ويتقبّلون أفكارهم بقبول حسن، وآراء مَنْ يتَّفق معهم ديناً ويختلف عنهم إنصافا.

ولن أردّ عليهم هنا برأيي فيهم، إذ لا أستطيع أن أسكت عن الذين يعادون العربية لغةً والإسلام ديناً، فالعربية لغتي والإسلام ديني، وسأدافع عنها ما حييتُ، ولكنني سأسكت عنهم في هذه الدراسة، دون أن أكتم شعوري الحقيقيّ تجاههم، حتى تكون دراستي هذه موضوعيّة ما استطعت إلى ذلك سبيلا، ولأن انحراف اولئك الحاقدين على السِّيرة النَّبويّة أوضح من أن يردّ عليهم مَنْ لا يقيم لآرائهم المتحيِّزة المنحازة وزناً، بحيث لم يتقبّلها حتى مَنْ كان هواه معهم أمس، واليوم وغداً، فردّ عليها رداً مناسباً، ولم يتقبلها المنصفون من المستشرقين وغيرهم من بني دينهم، فأنصفوا السِّيرة النبوية، وقالوا كلمة الحق والإنصاف فيها، فمن العبث إنكار ضوء الشمس في رابعة النهار.

واعني بالمستشرقين في هذه الدراسة، الكُتّاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية واللغة العربية، مع علمي باتِّساع الدراسات الشرقيّة حتى شملت أدياناً ولغات وثقافات غير الإسلام وغير العربية.

وأعني بالمستغربين في هذه الدراسة، الكُتّاب العرب والمسلمين، الذين ينقلون ما يكتبه المستشرقون إلى العربية، ويعزون ما ينقلونه إلى المستشرقين تارةً وإلى أنفسهم تارات أخرى، دون تحقيق وتمحيص وبحث ودراسة، فيسمِّون أفكار العرب والمسلمين بأخطاء ما أنزل الله بها من

سلطان، بقصد وسوء نيّة مرّة، وعن غير قصد وحسن نيّة مرات أخرى.

رأى الفونس دينيه[1]، أنّه من المتعذّر، إن لم يكن من المستحيل، أن يتجرّد المستشرفون من عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة، وأنّه لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبيّ والصحابة مبلغاً يغشى على صورتهم الحقيقيّة، من شدّة التحريف فيها. ورغم ما يزعمون من اتّباعهم لأساليب النقد البريئة، ولقوانين البحث العلميّ الجاد، فإنّا نلمس من خلال كتاباتهم، محمّداً يتحدّث بلهجة ألمانية إذا كان المؤلّف ألمانيا، ومحمّداً يتحدّث بلهجة إيطالية إذا كان الكاتب إيطاليا، وهكذا تتغيّر صورة محمد بتغيّر جنسيّة الكاتب، وإذا بحثنا في هذه السّيرة عن الصورة الصحيحة، فإنّا لا نكاد نجد لها من أثر[2]!

وهو يرى أنّ المستشرقين يقدّمون إلينا صوراً خيالية، هي أبعد ما تكون عن الحقيقة! إنّها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخيّة التي يؤلّفها أمثال (ولتر سكوت) و(إسكندر دياس)، وذلك لأن هؤلاء يصوّرون أشخاصاً من أبناء قومهم، فليس عليهم إلاّ أن يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة. أما المستشرقون فلم يمكنهم أن يلبسوا الصورة الحقيقية لأشخاص السيرة، فصوّروهم حسب منطقهم الغربيّ وخيالهم العصريّ[3].

---

(١) ولد في باريس سنة ١٨٦١م، وعاش فناناً بطبعه. ألّف كتاب: (محمد رسول الله مع صديقه الجزائري سليمان إبراهيم، وترجمه إلى العربية المرحوم الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق وابنه محمد عبد الحليم محمود، وأسلم دينيه، ومات بباريس سنة ١٩٣٩م ودفن ببلدة بو سعادة في الجزائر، انظر مقدمة كتاب: (محمد رسول الله) للشيخ عبد الحليم محمود (٥ - ٤٩) - القاهرة - ١٩٥٦م.

(٢) محمد رسول الله - المقدمة (٢٨).

(٣) محمد رسول الله - المقدمة - (٢٨ - ٢٩).

ويذكر دينيه، أن الد كتور سنوك هير غرنجة يقول بحق في نهاية نقده لكتاب المستشرق جريم: «إننا نرى أن الأستاذ جريم لو اقتصر على درس السِّيرة النَّبوية القديمة وبحثها في عمق، لكان أفضل، وإن الثمار التي يمكن أن يجنيها من مثل هذا الدّرس لهي أجدر ببلوغ الغاية التي توخّاها، ولكنه ظنّ أن هذا عمل ليست له أهمية كبيرة، وأراد أن يُطرف الناس بنبأ جديد، فأخفق في وضع السِّيرة النّبوية التي حاول فيها أن يطبع محمّداً بطابع الرّوح الاشتراكيّ، وفي جعل محمّد اشتراكياً، وفي أن تقود الاشتراكية نفسها محمّداً لأن يضع الدين الذي أتى به».

ويعلّق دينيه على رأي جريم بقوله: «إن الاشتراكية الإسلامية - لا الاشتراكية الحديثة كما يتصوّرها جريم!- ثمرة من ثمار الرسالة الإسلامية، وليست الرسالة الإسلامية ثمرة الاشتراكية»[1].

ويتطرقّ دينيه إلى تخبّط المستشرقين، فيذكر: «لنضرب الآن بعض الأمثلة للنتائج التي توصّل إليها المستشرقون في أبحاثهم التي يزعمونها علمية صحيحة، وسنضرب بعضاً ببعض لتنهار، ولو كانت علميّة حقة لما اختلفت، ولما تعارضت، ولما كان مصيرها التلاشي»[2].

ويتساءل دينيه:

١ . كيف كان خُلق محمد؟ وما هو السرّ في تأثيره العظيم على أبناء وطنه؟

ويجيب على هذا التساؤل فيقول: يجيب عن هذا السؤال دوزي: «لعل رسول الله - كما كان يلقّب نفسه - لم يكن أسمى من مواطنيه، ولكن من المؤكد أنه لم يكن يشبههم. وكان صاحب خيال في حين أن

---

(١) محمد رسول الله - المقدمة (٢٩).
(٢) محمد رسول الله - المقدمة (٢٩).

العرب مجردون من الخيال، وكان ذا طبيعة دينية، ولم يكن العرب كذلك »[1].

ولا يرضى القس لامانس بهذا، فيصرخ: «كان محمد - رغم معايبه (معاذ الله) يفتن البدوي الذي كان يرى ذاته في شخص النبيّ العربيّ، كما يدعوه القرآن، وفي هذا التفاعل، أو في هذه المطابقة التامة بين محمد وبيئته، نجد أولاً وقبل كل شيء السرّ في هذا السلطان الضخم الذي كان لمحمد على مواطنيه »[2].

٢ . سؤال آخر: ماذا كانت ميول محمّد قبل البعثة؟

يرى دوزي، أن محمداً كان سوداويّ المزاج، يلتزم الصمت، ويميل إلى التنزّهات الطويلة فريداً، وإلى التأمّلات المستغرقة في شعاب مكة الموحشة.

ويرد القسّ لامانس ضارباً بكلّ حقيقة عرض الحائط قائلا: «كلا، ليس هناك ما يُثبت اعتكاف محمّد وعزلته، فذلك لا يتّفق مع نفرة محمد من الوحدة، وكراهيته المشهورة للنسك »[3].

٣ . وسؤال ثالث: ما هي العوامل في بعثة محمد ورسالته؟ إنها نوبة الصّرع كما يفتري نولدكه.

ولكن المستشرق دو غوية، يعتقد أن هذا بعيد الاحتمال، ويعلّل ذلك بأن الحافظة في المصروعين تكون معطّلة، على حين أن حافظة محمّد كانت غاية في الجودة كلما هبط عليه الوحي[4].

---

(١) دوزي - مسلمو الأندلس (١٨/١).
(٢) لامانس - مهد الإسلام (٤ و ٥).
(٣) لامانس - هل كان محمد صادقاً - ص (١).
(٤) دوغوية - مباحث شرقية - ص (١)، وانظر رد الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه: (حياة محمد) على مثل هذه الافتراءات حول إصابة النبيّ ﷺ بالصرع.

ويذكر اسبرنغر، بإصابة محمّد بنوع من نوبات الصّرع »[1].

ولكن سنوك هير غرنجه يرى أن هذه الأسس التي يراد أن تقام عليها البعثة أسس واهية، ويقول: « يجب أن نُقِرّ بأن قيمة محمد إنما هي في ما يميّزه عن سائر المستيريين ».

ويدلي المستشرق جريم بدلوه هو الآخر، فيرى أن الآراء الاشتراكية لا الآراء الدينية هي التي قادت محمّداً إلى الرسالة.

أما مستنده في ذلك: فهو تشديد محمد في الزكاة التي يسميها جريم ضريبة، ولما كان القول بذلك في مكة أسهل من التنفيذ، فقد حاول النبيّ - فيما يزعم - أن يؤثّر في المكيين بتخويفهم من يوم الحساب، متّخذاً الإكراه الروحاني وسيلة للبذل والسخاء[2].

ولكن سنوك هير غرنجه يردّ على جريم، ويرى أن رأي جريم واستشهاده، كل ذلك غريب، سواء نظرنا إلى المنقول في السِّيرة، أو نظرنا إلى ظروف البيئة العربية إذ ذاك، وينهار تحت قلم سنوك - الرأي القائل بأن الإسلام في الأصل أقرب إلى أن يكون اشتراكية نشأت عن بؤس ذلك الزمن وفقر بنيه من أن يكون ديناً!!.

بيد أن سنوك هيرغرنجة يزعم - ولا بدّ له من الزّعم، لأنه لا بدّ له من التعليل - أن الباعث على رسالة محمد إنما هو: فزعه العظيم من يوم القيامة والحساب، وتفكيره المتواصل في مصيره، وفي الجنّة والنار.

وإرادة الإغراب في المستشرقين قوية جامحة، وقد بلغ القمة في الإغراب المستشرق مرجليوث: لقد خطّأ كل الآراء التي ذكرناها، وأراد أن يأتي ببدع من القول يتناسب مع القرن العشرين الميلادي، فرأى أن

---

(1) اسبرنغر - حياة محمد وعمله (٢٠٧/١) قال: « إنها نوبات هيستيريا باسم شوت لاين ».

(2) جريم - محمد - ص (١٥).

الباعث على بعثة الرسول هي أعمال الشعوذة[1]. لقد عرف محمد خدع الحواة وحيل الروحانيين، ومارسها في دقة وفي لباقة، وقد كان يعقد في دار الأرقم جلسات روحانية، وكان المحيطون به يؤلّفون جمعية سرية، تشبه الماسونية، ولهم إشارات تعارف مثل: «السّلام عليكم»، وعلامات يتميّزون بها كإرسال طرف العمامة بين الكتفين!!.

أرأيتم المدى الذي يصل إليه المستشرقون في تخبّطهم واضطرابهم وتعصّبهم وإرادتهم الإغراب؟! أهذه آراء عالم أو مؤرخ أم هي آراء مخبول ممرور!!.

٤ . ما هي أسباب موت الرسول عليه الصلاة والسلام؟

يعتصر القسيس لامانس خياله حتى يخرج برأي يشفي شيئاً من غليله ضد الإسلام، ضارباً بالمعقول، وبالتاريخ، وبالحقيقة عرض الحائط، فيقول: «كان لمحمّد شهيّة قوية جيدة، وقد كثّفت جسمه الملذّات وخدّرت أعضاءه، فأصبح مهدّداً بداء السكتة».

وعلى الضد من ذلك تماماً، يرى المستشرق بينيه سنغلة: «ان رؤى محمد كانت في بعض الأحيان أثراً لضعفه الشديد من الجوع، ولقد كان يسمع أثناء صومه ما يشبه مواء القطط أو أصوات الأرانب... ولقد مات بحمى هاذية استمرت يومين»[2].

---

(١) كتب المستشرق مرجليوث كتاباً عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، أتى فيه بكلّ غريب وبكلّ باطل. وظهرت كراهيته للإسلام من خلال هذا الكتاب ظهوراً بشعاً، ومن مزاعمه المضحكة مثلاً: أن محمداً ﷺ سافر إلى مصر، لأن كلامه عن مصر يدل على معرفة تامة بها!! ويردّ عليه المستشرق نولدكه فيقول: إن محمد لم يكن يعلم أن المطر قليل في مصر قلّة مطلقة. ولو كان سافر إليها لعلم تلك الحقيقة التي لا تخفى على أحد.

(٢) محمد رسول الله – المقدمة (٢٩ – ٣٤).

ويعارض هذا وذاك المستشرق كليمان هيار، فيرى أن قد ظهرت على محمّد أعراض التهاب رئوي، فخارت قواه بسرعة عظيمة، وتوفي في الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ هجريّة[١].

أما القسيس بارود، فإنه يرى أن محمّداً مات مسموماً بيد امرأة يهودية[٢].

فهل نستطيع بعدما رأينا ما سبق، أن نعتمد على آراء المستشرقين، مع أن ما ذكرناه من اختلافهم قليل من كثير، ويهدم بعضه بعضا، ومن اليسير أن نحقّق فيه المثل العربي: «لا تكسر الجوزة إلا على جوزة»، فنبطل تراث المستشرقين كله في السيرة النبوية، ضاربين بعضه ببعض، فإذا هو زاهق[٣].

إن الرسول ﷺ عند قسم من المستشرقين صاحب رقّة تحرمه القدرة على القتال، ودليلهم على ذلك أنه اشترك في حرب الفجار[٤] بتجهيز السِّهام فقط ولم يشترك في الطِّعان. وهو عند قسم من المستشرقين صاحب قسوة تغريه بالقتل وإهدار الدماء من غير جريرة، وحجتهم في ذلك قتل أسيرين بعد غزوة بدر وقتل قسم من يهود بعد غزوة الأحزاب.

ولو لم يكن الهوى وحده هو الذي يثير هذا النقد المغرض، لما حدث مثل هذا التناقض بين أقوال المستشرقين[٥].

---

(١) كليمان هيار - تاريخ العرب - (١٨١/١).
(٢) الأب باردو - علامات محمد ما هي وما قيمتها - ص (١٧١).
(٣) محمد رسول الله - المقدمة (٣٥).
(٤) انظر التفاصيل في: ابن الأثير (٥٨٨/١ - ٥٩٥) وأيام العرب في الجاهلية (٢٢/١ - ٣٣٠).
(٥) الرسول القائد (١١) - ط ٥.

ويقترح دينيه - وهو على حق - المنهج الذي يجب أن يُتَّبع في دراسة السِّيرة، فيقول: «إن الصرح الذي شيده المستشرقون في سيرة الرسول، إنما هو صرح من الورق قد أُقيم على شفا جرفٍ هارٍ، والسبب في ذلك واضح، ذلك أن المستشرقين لم يتّبعوا الخطة المُثلى فيما ينبغي أن يعتمدوا عليه في السِّيرة النّبويّة. إن كاتب السِّيرة النبوية يجب عليه أولاً أن يتجرّد عن الشهوة والهوى والعصبيّة، ويبدأ في دراسة الموضوع نافضاً عن رأسه كل ما أوحته إليه الكنيسة من أباطيل عن الإسلام، وكل ما غرسته في نفسه من ترهات خاصة، بمؤسِّس الدين الإسلامي..... وإذا لم يفعل ذلك، فإن ما يكتبه سيكون لا محالة وَهْمٌ وباطل. ويجب عليه ثانياً، أن يعتمد على الأخبار الصحيحة التي رواها المسلمون أول عهدهم بالتدوين، يجب عليه أن يعتمد على سيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، وعلى البخاري ، ومسلم، وعلى تاريخ الطبري، وقبل ذلك وبعده على القرآن».

«ويجب عليه ثالثاً، أن يدرس البيئة العربية في مهدها الأصلي: مكّة، والمدينة، والطائف، وغيرها، حتى ينجلي له الغامض ويتّضح له المبهم وتستقيم له الفكرة. إن البيئة العربية الحالية تكاد ترينا رأي العين أشخاص الأخبار التي رويت في السِّيرة: سيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، بل إننا نكاد نتعرّف فيها على هذه الشخصيات في أصغر إشاراتها وأبسط أفكارها. أما إذا قرأنا هذه الأشخاص في كتب المستشرقين، فإننا لا نكاد نعرفها لشدّة التحريف في تصويرها، وكثيراً ما نلقى - لولا الأسماء العربية - صعوبة في فهم أن هؤلاء المسلمين الذين يتحدّث عنهم المستشرقون رجال من العرب، وذلك لبعد العقلية التي نسبت إليهم عن العقلية التي كانوا عليها[1]. وقد قال رينان في كتابه :

(١) محمد رسول الله - المقدمة - (٣٥ - ٣٦).

(حياة المسيح): «حقًّا إن لسِيَر محمّد العربية، مثل سيرة ابن هشام، ميزة تاريخية أكبر من الأناجيل»[1]، وهذا يكفي رداً على المستشرقين الذين يبتعدون عن الصورة الواقعية التي رسمتها كتب السِّيرة القديمة[2].

ويختم دينيه كتابه القيِّم: (الشّرق كما يراه الغرب) بهذه الآراء التي نورد بعضاً منها، فذكر أن الدكتور سنوك هير غرنجه أصاب في قوله: «إن سِيَر محمّد الحديثة، تدلّ على أن البحوث التاريخية مقضيّ عليها بالعقم إذا سخِّرت لأيّة نظرية أو رأي سابق». ويقول: «هذه حقيقة يجمل بمستشرقي العصر جميعاً أن يضعوها نصب أعينهم، فإنها تشفيهم من داء الأحكام السابقة التي تكلِّفهم من الجهود ما يجاوز حد الطاقة، فيصلوا إلى نتائج لا شك خاطئة!!. فقد يحتاجون في تأييد رأي من الآراء إلى هدم بعض الأخبار، وليس هذا بالأمر الهيِّن، ثم إلى بناء أخبار تقوم مقام ما هدموا، وهذا أمر لا ريب مستحيل»[3].

ويقول الدكتور جواد علي: «آخذ على بعض المستشرقين تسرعهم في إصدار الأحكام في تاريخ الإسلام، وتأثرهم بعواطفهم، لأخذهم بالخبر الضعيف في بعض الأحيان وحكمهم بموجبه، ولإصدارهم أحكاماً بنيت على الألفاظ المشتركة أو التشابه، مع قولهم بوجوب استعمال النقد، وباحتراسهم في الأمور، ووجوب التأكد من معرفة الأخذ قبل الحكم عليه... وآية ذلك أن معظم المستشرقين النصارى هم من طبقة رجال الدين أو من المتخرجين من كليات (اللاّهوت)، وإنهم ان تطرّقوا إلى الموضوعات الحساسة عن الإسلام، حاولوا جهد إمكانهم إلى ردِّها إلى أصل نصرانيّ. وطائفة المستشرقين من يهود وخاصة بعد تأسيس

---

(١) رينان - حياة المسيح (٩) - ط ١٣.
(٢) محمد رسول الله - المقدمة (٣٦).
(٣) محمد رسول الله - المقدمة (٤٧ - ٤٨).

(إسرائيل) وتحكّم الصهيونية في غالبيتهم، يجهدون أنفسهم لردّ كل ما هو إسلامي وعربي لأصل يهودي، وكلتا الطائفتين في هذا الباب تبع لسلطان العواطف والأهواء »[1].

ويمضي الدكتور جواد علي فيقول: « إن كثيراً من المستشرقين غالوا في كتاباتهم في السيرة النبوية، وأجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك في السِّيرة. وقد أثاروا الشكّ حتى في اسم الرسول ﷺ، ولو تمكّنوا لأثاروا الشك حتى في وجود النبيّ. وطريقة مثل هذه دفعتهم إلى الاستعانة بالشّاذ والغريب، فقدّموه على المعروف المشهور. استعانوا بالشاذ ولو كان متأخراً، أو كان من النوع الذي استغربه النقدة وأشاروا إلى نشوزه، تعمّدوا ذلك لأن هذا الشاذ هو الأداة الوحيدة في إثارة الشك. ومهما قالوا في نسبة التاريخ الصحيح في سيرة الرسول ﷺ، فإن سيرة الرسول هي أوضح وأطول سيرة نعرفها بين سِيَر جميع الرسل والأنبياء »[5]. ويقول: « فلقد كان كيتاني ذا رأي وفكرة، وضع رأيه وكوّنه في السيرة قبل الشروع في تدوينها، فلما شرع بها استعان بكلّ خبر من الأخبار ظفر به، ضعيفها وقويّها، وتمسّك بها كلّها، ولا سيما ما يلائم رأيه، لم يبال بالخبر الضعيف، بل قوّاه وسنده وعدّه حجّة، وبنى حكمه عليه. ومن يدري؟ فلعلّه كان يعلم بسلاسل الكذب المشهورة والمعروفة عند العلماء، ولكنه عفا عنهم وغضّ نظره عن أقوال أولئك العلماء فيها، لأنه صاحب فكرة يريد إثباتها بأية طريقة كانت، وكيف يتمكن من إثباتها وإظهارها وتدوينها إن ترك تلك الروايات وعالجها معالجة نقد وجرح وتعديل على أساليب البحث الحديث؟! »[3].... « إن كيتاني، وهو من

---

(١) تاريخ العرب في الإسلام (١/٨ - ٩).
(٢) تاريخ العرب في الإسلام (١/٩ - ١١)..
(٣) تاريخ العرب في الإسلام (١/٩٥).

كبار المستشرقين الأوائل الذين كتبوا عن حياة الرسول ﷺ، كان يعتمد منهجاً (معكوساً) في البحث يذكّرنا بكثير من المختصين الجدد في حقل التاريخ الإسلامي، والذين يعملون وفق منهج خاطىء من أساسه، إذ إنهم يبيِّتون فكرة مسبَّقة، ثم يجيئون إلى وقائع التاريخ لكي يستلّوا منها ما يؤيِّد فكرتهم، ويستبعدوا ما دون ذلك»[1].

ويحدِّثنا الدكتور صالح أحمد العلي، كيف أن بداية الحركة الاستشراقية في مواقفها الظنيّة والعاطفية من حياة الرسول ﷺ، قد كانت جانفت العلم كثيراً، ثم بدأت تعتدل شيئاً فشيئاً: «لقد تناول المستشرقون الغربيون حياة الرسول ﷺ فيما تناولوا من الأبحاث عن التاريخ الإسلامي. ولا شك أن التعصب والتحامل كانا يطغيان على كتابات المستشرقين القدامى، نظراً لتأثرهم بروح التعصب الديني الذي كان مسيطراً ومتبلوراً بتأثير الحروب الصليبية، ونظراً لضعفهم باللّغة العربية، وقلّة المصادر المتوفرة لديهم. غير أنه لم يخل الغرب منذ أوائل العصور الحديثة من مفكرين معتدلين امتدحوا الإسلام[2]، ولكن منذ القرن التاسع عشر بدأ الاهتمام بدراسة المخطوطات العربية وطبعها، وأخذ المستشرقون يدرسون تاريخ الشرق لذاته متّبعين الطريقة العلميّة التي كانت قد قطعت شوطاً كبيراً في التقدّم من الغرب.... ومع أن فريقاً منهم لم يتعمّد كل ذلك، إلا أن عدداً غير قليل كان يتميّز بسعة الاطلاع، وبُعد النظر، وعمق التّفكير، مما ساعدهم على إنتاج مباحث تستثير التفكير والتقدير، رغم أنه لا يمكن القول بأن أحكامهم نهائية»[3].

---

(١) تاريخ العرب في الإسلام (١/٩٥).
(٢) انظر عنهم: تور اندريه - محمد (٢٤٣ - ٢٤٧).
(٣) محاضرات في تاريخ العرب (١/٢٥٥ - ٢٥٦).

ويحدِّثنا المستشرق البريطاني المعاصر مونتكمري واط في كتابه: (محمّد في مكّة)، كيف: «أن عزيمة محمّد في تحمل الاضطهاد من أجل عقيدته، والخلق السامي للرجال الذين آمنوا به، وكان لهم بمثابة القائد، وأخيراً عظمة محمّد في منجزاته الأخيرة، وكلّ ذلك يشهد باستقامته التي لا تتزعزع، فاتِّهام محمّد بأنه دجال يثير من المشاكل أكثر مما يحلّ، ومع ذلك فليس هناك شخصية كبيرة في التاريخ حطّ من قدرها في الغرب كمحمّد، فقد أظهر الكُتّاب الغربيون ميلهم لتصديق أسوأ الأمور عن محمّد، وكلّما ظهر أي تفسير نقدي لواقعة من الوقائع ممكناً قبلوه». ثم يقدم واط قاعدة منهجيّة تكاد تكون بديهة من بداهات المنهج الأساسيّة، إلا أنها في موقف الغربيين إزاء شخصية محمّد تضيع ويوقف العمل بها..... » فإذا أردنا أن نصحِّح الأغلاط المكتسبة من الماضي بصدده، فيجب علينا في كلّ حالة من الحالات، لا يقوم الدليل القاطع على ضدِّها، أن نتمسّك بصلابة بصدقه، ويجب علينا ألاّ ننسى أيضاً أن الدليل القاطع يتطلّب لقبوله أكثر من كونه ممكناً، وأنه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه»[١].

وفي موضع آخر يضرب واط بالمستشرق الفرنسي لامانس مثلاً على الانحرافات المنهجيّة التي يمارسها كثير من المستشرقين، وبخاصة ذلك (الخطأ) الذي سبق ذكره والذي يقوم على جعل الوقائع التاريخيّة مجالاً انتقائياً للتدليل على فكرة مسبّقة أو اتِّجاه محدّد سلفاً. إن لامانس: «للأسف يتجاوز الأدلّة كثيراً في ناحية أخرى، إذ إن طريقته العابثة في المعالجة ليست طريقة علميّة، فهو يرفض هذا الرأي ويقبل الآخر حسب أفكاره الخاصة ومعتقداته، دون أن يعبأ بالموضوعية. ففي عبارة:

---

(١) محمد في مكة (٩٤).

« الأحابيش وعبيد أهل مكّة » تجد أن (الواو) تفسيريّة تشير إلى أن الأحابيش من ضمن العبيد، بينما تجد في عبارة: (الأحابيش ومَن أطاعهم - أي القرشيين - من قبائل كِنَانَة وأهل تِهامة) أن (الواو) تدل على تمييز تام. ولكن، لماذا يفعل لامانس ذلك؟! يبدو أنه يؤكّد حقيقة النّظر التي يحاول التدليل عليها »[1].

ودرمنغم يشير هو الآخر، وبوضوح أشدّ، إلى الأزمنة المنهجيّة التي تعرّض معظم المستشرقين الغربيين عن حياة الرسول ﷺ لأخطاء لن يغفرها العلم، وكيف أنها في العقود الأخيرة - بدأت تخف تدريجياً: « إن سيرته - يقول درمنغم - تحاط في زماننا بكثير من التحفّظات، ولا ريب في مجاوزة النقد للمدّ أحياناً على وجوه مختلفة مع الأسف، ولكن من المؤكّد أنه لا يحدّث اليوم عن حياة بتعابير ووجهات نظر كالتي جاءت في كتب التراجم الأخيرة التي ظهرت في المكتبة الفرنسية منذ خمسين سنة، ككتاب واشنجتون أرفنج ». ويمضي درمنغم إلى القول، بأنه: « جدّ في البحث العلمي بين العلماء في القرن التاسع عشر ومنهم كوسان وديرسفال وموير وميثل ومرجليوث ونولدكه وشيرنجر وهيرغرنجه ودوزي، ثم تناوله أي النبيّ ﷺ - مؤخراً كيتاني وماسنيون ومونته وكازانوفا وبيل وهوار وهوداس وأرنولد ومارسين وغريم وكولدزيهر وغودفروا ومونبيه وغيرهم. ومن المؤسف حقاً أن غالى بعض هؤلاء المتخصصين في النقد أحياناً، فلم تزل كتبهم عامل هدم على الخصوص. ومن المحزن ألا تزال النتائج التي انتهى إليها المستشرقون سلبية ناقصة، ولن تقوم سيرة على النّفي. وليس من مقاصد كتابي أن يقوم على سلسلة من المجادلات المتناقضة..... ومن دواعي الأسف أن كان الأب لامانس، الذي هو من أفضل المستشرقين المعاصرين، من أشدِّهم تعصباً، وأنه شوّه كتبه الرائعة

---

(١) محمد في مكة (٢٤٢ - ٢٤٣).

الدقيقة وأفسدها بكرهه للإسلام ونبيّ الإسلام، فعند هذا العالم اليسوعي أن الحديث إذا وافق القرآن كان منقولاً عن القرآن، فلا أدري كيف يمكن تأليف التاريخ إذا اقتضى تطابق الدليلين تهادمهما بحكم الضرورة، بدلاً من أن يؤيِّد أحدهما الآخر»[١].

وهذا يقودنا إلى موقف بعض المستشرقين من القرآن الكريم مصدراً أساسياً من مصادر السِّيرة، فقد نفى بعض هؤلاء الكثير من أحداث السيرة، ما دامت لم ترد في القرآن الكريم، كأن القرآن الكريم كتاب تاريخيّ خاص بتفاصيل حياة محمد عليه الصلاة والسلام!! وهذا مكّن هؤلاء من عملية انتقاء مغرضة ذات طابع سلبيّ معاكس، وهي التشكيك ورفض كلّ رواية لا ترد مؤيداتها في القرآن الكريم، إذا كان في هذه الرواية تمجيد للنبيّ ﷺ، أو إذا كان في نفيها تأكيد لصدق وجهات النظر الاستشراقية[٢]. مثلاً نجد أن شيرنجر يرى أن اسم النبيّ ورد في أربع سور من القرآن، هي: آل عمران، والأحزاب، ومحمّد، والفتح، وكلها سور مدنية، ومن ثم فإن لفظة (محمد) لم تكن اسم علم للرسول قبل الهجرة، وإنما اتخذه بتأثير قراءته للإنجيل واتّصاله بالنصارى[٣]، وإذا كان النبيّ ﷺ قد التقط اسم: (محمّد) من خلال قراءاته لنبوءات الانجيل، فأين ذهب إذاً (محمد) الحقيقي الذي بشر به العهدان القديم والجديد؟؟

وهنالك مثل آخر، هو أن إسرائيل ولفنسون يشير، بصدد مهاجمة المسلمين يهود بني النَّضِير، إلى أن مؤرخي المسلمين، يذكرون سبباً آخر لإعلان الحرب على هذه الطائفة اليهودية، ذلك هو محاولتهم اغتيال

---

(١) حياة محمد - المقدمة (٨، ١٠-١١).

(٢) د. عماد الدين خليل - دراسة في السيرة - (١٨) - بيروت - ١٣٩٤ هـ.

(٣) تاريخ العرب في الإسلام (٧٨/١) وهوامشها.

الرسول ﷺ : « ولكنّ المستشرقين - يقول ولفنسون - ينكرون صحّة هذه الرواية ويستدلون على كذبها، بعدم وجود ذكرٍ لها في سورة الحشر التي نزلت بعد إجلاء بني النّضير..... والذي يظهر لكلّ ذي عينين، أن بني النّضير لم يكونوا ينوون الغدر بالنبيّ واغتياله على مثل هذه الصورة، لأنهم كانوا يخشون عاقبة فعلتهم هذه من أنصاره، ولو أنهم كانوا ينوون اغتياله غدراً لما كانت هناك ضرورة لإلقاء الصّخرة عليه من فوق الحائط، كان باستطاعتهم أن يفاجئوه وهو يحادثهم، إذ لم يكن معه غير قليل من أصحابه »[1]. ويبدو أن ولفنسون يُغفل هنا مسألة التركيب النّفسي لليهودي وتجنّبه المعروف لأيّة مجابهة حقيقيّة ما استطاع إلى ذلك سبيلا!!.

إننا في مجال الانتقاء والتفسير والنّفي الاعتباطي الذي يمارسه المستشرقون، نرجع مرة أخرى إلى عبارة واط الذكيّة التي قالها في هذا الصّدد، لكنّه لم يلتزم العمل بها دائماً!!..... « إذا أردنا أن نصحّح الأغلاط المكتسبة من الماضي حول وجود محمّد، فيجب علينا في كلّ حالة من الحالات لا يقوم الدليل القاطع على ضدّها، أن نتمسّك بصلابة صدقه، ويجب ألاّ ننسى أيضاً أن الدليل القاطع يتطلّب لقبوله أكثر من كونه ممكناً، وأنه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه »[2].

وفضلاً عن هذا، نجد أن الطّابع العلماني، الوضعيّ للمناهج الغربية في تعاملها مع السِّيرة النبوية بخاصة والتاريخ الإسلامي بعامة، قد أوقع المستشرقين في خطأ آخر، مفاده أن الرسول ﷺ، لم يكن يخطو خطوة واحدة، وهو يعلم مسبّقاً ما الذي يليها! أي أن نشاطه كانت توحي به

---

(١) تاريخ اليهود (١٣٥ - ١٣٧).
(٢) محمد في مكة (٩٤).

الظروف الراهنة ومطالبها ولوازمها. وأبرز مثلٍ في هذا المجال، ما ذكره فلهاوزن وعدد من رفاقه حول محليّة الدعوة الإسلامية في عصرها المكيّ، وإنها لم تنتقل إلى المرحلة العالمية في العصر المدني إلا بعد أن أتاحت لها الظروف ذلك، ولم يكن الرسول ﷺ ليفكّر بذلك من قبل، وما قالوه حول اعتماد الرسول عليه الصلاة والسلام أسلوب (اللّاعنف) في العصر المكيّ وتحوّله إلى القوّة بعد أن شكّل دولة في المدينة وتجمّع حوله المقاتلون: «لقد كان في وسع محمد - يقول فلهاوزن - من طريق عقيدة تتجاوز دائرة معتنقيها الدائرة التي ترسمها رابطة الدم، أن يحطّم رابطة الدم هذه، لأنها لم تكن بريئة من العصبيّة وضيقها، ولا كانت ذات صبغة خارجيّة عارضة، هذا هو الذي جعلها لا تتّسع لقبول عنصر غريب عنها، ولكنّ محمداً لم يرد ذلك. ومن الجائز أيضاً أنه لم يكن يستطيع أن يتصوّر إمكان رابطة دينية في حدود غير حدود رابطة الدم»[1].

ويرفض سير توماس أرنولد في كتابه: (الدّعوة إلى الإسلام)، هذه الرؤية الخاطئة فيقول: «من الغريب أن ينكر بعض المؤرخين أنّ الإسلام قد قصد به مؤسسه في بادىء الأمر أن يكون ديناً عالمياً برغم هذه الآيات البينات[2]، ومن بينهم السير وليم موير إذ يقول: إنّ فكرة عالميّة الرسالة قد جاءت فيما بعد، وإنّ هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيّدها، لم يفكّر فيها محمّد نفسه، وعلى فرض أنّه فكّر فيها، فقد كانت الفكرة غامضة، فإن عالمه الذي كان يفكّر فيه إنّما كان بلاد العرب، كما أنّ هذا الدين الجديد لم يتهيأ إلا لها، وأنّ

(١) الدولة العربية وسقوطها (٤).

(٢) يستشهد أرنولد بالآيات التالية: سورة ٣٦ آية ٦٩-٧٠، سورة ٢١ آية ١٠٧، سورة ٢٥آية ١. سورة ٢٤ آية ٧. سورة ٦١ آية ٩... الخ..

محمداً لم يوجِّه دعوته، منذ بُعث إلى أن مات، إلاّ للعرب دون غيرهم. وهكذا نرى أنّ نواة عالمية الإسلام قد غرست، ولكنّها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك، فإنّما يرجع هذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج »[١].

وفي مكان آخر يقول أرنولد: «لم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب، بل إنّ للعالم أجمع نصيباً فيها، ولم يكن هناك غير إله واحد، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد، يُدعى إليه الناس كافة »[٢].

ولم يقف أرنولد وحده بمواجهة هذا الخطأ الواضح، إنما هناك كولدزيهر[٣] ونولدكه[٤] وسنهاو[٥] الذي يؤكِّد: «إنّ الرسالة الإلهية ليست مقصورة على العرب، بل إنّ إرادة الله تشمل جميع المخلوقات، ومعنى ذلك خضوع الإنسانية كلّها خضوعاً مطلقاً. وقد كان لمحمّد بوصفه رسولاً من الله، حقّ المطالبة بهذه الطّاعة، وقد كان عليه أن يطالب بها، وهذا ما ظهر من أوّل الأمر جزء لا ينفصل من جملة ما أراد تحقيقه من مبادىء.. »[٦].

---

(١) The Caliphate: pp. 43–44. وكيتاني آخر من يؤكّد هذا الرأي، انظر Arnali dell Islam عن أرنولد: الدعوة إلى الإسلام – هامش (٢) ص (٤٩–٥٠).

(٢) المصدر السابق (٤٨).

(٣) عن أرنولد: الدعوة إلى الإسلام – هامش (١) ص (٤٨) Voles Nngen uber den Islam, p 25.

(٤) عن المصدر السابق – نفس الصفحة والهامش Wzkm, Vol xxi. pp 303–308 pp 203–204.

(٥) عن المصدر السابق – نفس الصفحة والهامش.

(٦) أرنولد – الدعوة إلى الإسلام – هامش (١) ص (٤٨).

ويرفض أرنولد الخطأ الآخر الذي يرى أنّ محمّداً قد تحوّل إلى القوّة بمجرّد أن واتته الظروف، وهو رأي قد صرّح به - نقلا عن فلهاوزن- بعض الباحثين، ولا سيما ميور عندما تحدّث عن مذبحة بني قُرَيْظة قال: «إن الدَّعائم التي سار عليها محمّد قُدماً كانت سياسيّة محضة، إذ إنّه لم يكن قد أقرّ حتى ذلك الحين طريقة إكراه الناس على اعتناق الإسلام أو معاقبتهم على رفضه»[1]. إذ يقول أرنولد: «إنّما المهمّ أن نتبيّن كيف أنّ محمداً، عندما رأى أنّه على رأس جماعة مسلّحة من أتباعه، لم يتحوّل دفعة واحدة، كما قد يريدنا البعض على الاعتقاد، من داعية مسلم إلى متعصّب يحمل سيفه بيده ويفرض دينه على كلّ مَن استطاع، وقد أكّد الكتّاب الأوروبيون على ذلك مراراً»[2].

غير أنّ أسوأ نموذج يمكن أن نجده لهذا الانحراف المنهجيّ، حول مسألة تأثّر الرسول ﷺ بالظروف الراهنة، وتحرّكه وفق مستلزماتها، ما ذكره بندلي جوزي أحد روّاد التّفسير الماديّ للتاريخ الإسلامي، في كتابه: (من تاريخ الحركات الفكريّة في الإسلام) حيث يقول: «إنّ سياسة النبيّ مع المكيين قد تغيّرت كثيراً في المدينة تحت تأثير عوامل جديدة ولأسباب عديدة أوجدتها الظروف وأدّى إليها الاختيار وحبّ النبي لوطنه الأصليّ وأهله وذويه إلى غير ذلك من الانفعالات النفسيّة التي ظهرت بعد موقعتي بدر وأُحد وحصار المدينة، وكان من نتائجها أنّ النبي أخذ يُلطِّف سياسته نحو إخوانه المكيين، كما أنّ أصحاب السلطة في مكة رأوا - بعدما أصابهم في موقعة بدر، وبعد ما لحق تجارتهم من الخسائر - أن يتساهلوا في أمور كثيرة مع النبيّ على شروط

---

(١) أرنولد - الدعوة إلى الإسلام - هامش (١) ص (٥٤).
(٢) أرنولد - الدعوة إلى الإسلام (٥٣-٥٤).

تضمن لهم بقاء الكعبة والحجّ وعُكاظ على ما كانت عليه قبل الإسلام، وأن يشملهم بالعفو - إلا بعض أشخاص - ويشركهم في عمله الجديد الذي أخذوا يتوقّعون منه خيراً لأنفسهم - وربما كان من شروط التفاهم أن يبقى النبي في المدينة وألاّ يتعرّض في كلامه لأمورهم المالية، فكانت الحُدَيْبيَّة وسياسة (تأليف القلوب) أو بعبارة أخرى سياسة التّسامح والتّساهل المتبادل، فصار الناس (يدخلون في دين الله أفواجا) لا عن اعتقاد بصحة الدين الجديد الذي لم يكونوا يعرفون عنه إلا الشيء القليل، بل عن رغبة تفي التقرّب من أصحاب السُّلطة الجُدد، وحفظاً لمراكزهم القديمة وثروتهم المجموعة في أجيال. يُخيّل لي - يقول جوزي - أنّ من جملة الشروط التي اتفق عليها الطرفان في الحديبية أو في زمان ومكان آخرين، أن يكف النبيّ عن الطعن في الملأ المكيّ، وأن لا يحرِّض صعاليك العاصمة الحجازيّة وأرقاءها عليه، وهذا على ما يظهر لي أحد أهمّ أسباب خلوّ السّور المدنية، وسيّما تلك التي نزلت في الدور الأخير، من العبارات القارصة والطعن في سُكان مكة[1]، وهناك سبب آخر لا يقلّ خطورة عن الذي ذكرناه الآن، وهو أن حالة النبي الاجتماعيّة في المدينة تغيّرت - كما هو معلوم - تغيّراً ظاهراً أدّى إلى تغيير نفسيّته. فكان من نتائج هذا التغيير ومن الأسباب التي ذكرنا بعضها وغيرها مما لم نذكر، أنّ بعض إصلاحات النبيّ الاجتماعيّة والدينيّة جاءت مبتورة، وفيها شيء مما يدعوه الأوروبيون: التساهل»[2].

---

(١) هذه غاية ما يمكن أن يصل إليه مؤرخ من خروج على مستلزمات البحث العلميّ، وعبث صريح بالوقائع التاريخية، وإلاّ ففي أي زمان ومكان وضعت هذه الشروط! وأين هي من شروط صلح الحديبيّة التي تواترت بنصوصها الحرفية في المصادر والمراجع كافة؟.

(٢) من تاريخ الحركات الفكريّة في الإسلام (٤٩-٥٠).

ويقول بروكلمان: «وكان على محمّد أن يعوِّض خسارة (أُحُد) التي أوصلت مجده العسكري من طريق آخر، ففكّر في القضاء على يهود، فهاجم بني النّضير لسبب واهٍ»[١].

ويقول: «وفي سنة ٦٢٨م (٧هـ) حاول النبيّ أن يعوّض فشله الظّاهري في الحديبية، فقاد المسلمين في حملة على المستعمرة اليهودية الغنيّة في خيبر»[٢].

ويقول دوزي: «كان محمّد يشاطر بني جلدته نظرتهم (القائمة على الاحتقار) إلى اليمنيين والزرّاع، حتى ليؤثر عنه أنّه سمع رجلاً ينشد بيتاً يشير فيه إلى أنّه حِمْيريّ وليس من أسلافه من ربيعة ولا مُضَر، فقال له ما معناه: أُفٍّ لك، إنّ هذا نسب يبعدك عن الله ورسوله. ويقال ايضاً إنّه رأى محراثاً في بيت رجل من أهل المدينة، فذكر له أنّه ما دخل دار قوم إلا دخلها الذل. إلاّ أنه لما يئس من حمل أهل جنسه من التجار والبدو على اعتناق مبادئه، ولما رأى أنّه مهدد في حياته منذ أن مات عمّه وحاميه أبو طالب، فقد اضطر لتناسي هذه النظرة وقبول كلّ مساعدة من أيّ جانب صدرت عنه، فرحّب بوفود عرب المدينة الذين عطفوا عليه وأكرموه لما أنزل به المكّيون من الاضطهاد والتنكيل»[٣]. «وطال أمد النضال بينهم وبين مشركي مكة حتى استغرق ثماني سنوات، نشرت خلالها جيوش المسلمين الرُّعب في شتى بقاع شبه الجزيرة، مما حمل كثيراً من القبائل على اعتناق الدين الجديد... وانتهى الأمر أخيراً بفتح مكّة، الذي يصوِّر الذروة التي آلت إليها قوّة محمّد. ففي هذا اليوم تطلّع أهل المدينة للأخذ بثأرهم من

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية (٥٢).
(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية (٥٦).
(٣) تاريخ مسلمي الأندلس (١/٢٧).

هؤلاء التجار المتكبرين الساخرين بهم.. غير أن احلامهم تلاشت، إذ أمر الرسول قوّاده باصطناع الرأفة البالغة، وساعده المكّيون - صامتين - في تحطيم أصنامهم المنصوبة في الكعبة... تعبدها شتى القبائل التي اعترفت بمحمد رسولاً لله، والغيظ يملأ قلبها، وكتمت في نفسها الانتقام إلى يوم تسنح لها فيه الفرصة من هؤلاء الأجلاف: يهود المدينة(!!) الذين دنّسوا الشّرف بغزوهم لبلدهم. وبعد أن تمّ فتح مكّة، رأت القبائل الباقية على شركها عدم جدوى المقاومة، واعتنقت الإسلام تحت عامل الخوف من حرب مهلكة، إذ كان قوّاد محمّد يدعون للدين، حاملين القرآن في يدٍ والسيف في أُخرى»[١].

ويقول فلهاوزن: «ولم يبقَ الإسلام على تسامحه - بعد بدر، بل شرع في الأخذ بسياسة الإرهاب في داخل المدينة، وكانت إثارة مشكلة المنافقين علامة على ذلك التحوّل... أما يهود فقد حاول أن يُظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد، وفي غضون سنوات قليلة أخرج كلّ الجماعات اليهوديّة أو قضى عليها في الواحات المحيطة بالمدينة، حيث كانوا يكوّنون جماعات متماسكة كالقبائل العربيّة، وقد التمس لذلك أسباباً واهية...»[٢].

ويقول مرجليوث: «عاش محمّد في السنين الست، بعد هجرته إلى المدينة، على التلصّص والسّلب والنّهب، ولكن نهب أهل مكة قد يبرِّره طرده من بلده ومسقط رأسه وضياع املاكه، وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهوديّة بالمدينة، فقد كان هناك على أي حال سبب ما - حقيقياً كان أم مصطنعا - يدعو إلى انتقامه منهم، إلاّ أن خَيْبر التي

---

(١) تاريخ مسلمي الأندلس (١/٢٧-٢٨).
(٢) الدولة العربية وسقوطها (١٥-١٦).

تبعد عن المدينة كلّ هذا البعد، لم يرتكب أهلها في حقّه ولا في حقّ أتباعه خطأً يعتبر تعدّياً منهم جميعاً، لأنّ قتل أحدهم رسول محمّد لا يصحّ أن يكون ذريعة للانتقام... وهذا يبيّن لنا التطور العظيم الذي طرأ على سياسة محمّد، ففي أيامه الأولى في المدينة، أعلن معاملة اليهود كمعاملة المسلمين، لكنّه الآن (بعد سنة ٦ هـ) أصبح يخالف تماماً موقفه ذاك، فقد أصبح مجرّد القول بأنّ جماعة ما غير مسلمة يُعتبر كافياً لشنّ الغارة عليها... وهذا يفسّر لنا تلك الشّهوة التي سيطرت على نفس محمّد، والتي دفعته على شنّ غارات متتابعة، كما سيطرت على نفس الاسكندر من قبل ونابليون من بعد... إن استيلاء محمّد على خَيْبر يبيّن لنا إلى أي حدٍ قد أصبح الإسلام خطراً على العالم»[1].

ويقول نولدكه: «لو أنّ القبائل العربيّة استطاعت أن تعقد بينها محالفات حربية دقيقة ضدّ محمّد للدفاع عن طقوسهم وشعائرهم الدينيّة والذّود عن استقلالهم، لأصبح جهاد محمّد ضدّهم غير مُجْدٍ، إلاّ أنّ عجز العربيّ عن أن يجمع شتات القبائل المتفرّقة قد سمح له أن يخضعهم لدينه، القبيلة تلو القبيلة الأخرى، وأن ينتصر عليهم بكلّ وسيلة، فتارة بالقوة والقهر، وتارة بالمحالفات الودّية والوسائل السلميّة»[2]. «كان محمّد لا يتحرّج من اختيار الوسائل التي تضمن له النجاح والظفر في الوقت الذي كان خيالياً، ولم يكن له سلطان على خياله وعواطفه»[3].

---

(١) مرجليوث، محمد وقيام الإسلام (٢٦٢-٢٦٣)، عن فتحي عثمان - أضواء على التاريخ الإسلامي (١٦٩ ـ ١٧٠).

(٢) تاريخ العالم للمؤرخين (١١/٨)، عن فتحي عثمان - أضواء على التاريخ الإسلامي (١٧٠).

(٣) عن فتحي عثمان - أضواء على التاريخ الإسلامي (١٧١-١٧٢).

ويقول بندلي جوزي: «لا شك أنّ النبي العربيّ لم يقصد بأقواله وأفعاله في مكّة والمدينة إلى أن يستأصل أسباب السّرّ الاجتماعيّ ويقتل جميع جراثيمه، كما يحاول أن يفعل اليوم جماعة الاشتراكيين على اختلاف أسمائهم ونزعاتهم. بل كانت غايته الكبرى أن يخفّف من وطأة تلك الأمراض على بعض طبقات الناس ممّن خلقوا بعد قسمة الأرزاق أو وقعوا في الفقر والرقّ لأسباب لم يقوَ على مقاومتها. وإلاّ فلو أراد أن يقتل جراثيم الأمراض الاجتماعية كلّها لكان لجأ بعد أن أصبح صاحب الأمر والنّهي في جزيرة العرب، إلى وسائل غير تلك التي ذكرناها. وما مثل النبيّ من هذا الوجه إلا كمثل سائر الأنبياء الذين سبقوه، ولا سيما أنبياء بني اسرائيل، أي أنه فضّل الوسائل الأدبيّة - إلاّ فيما ندر من الظروف - على غيرها من الطرق التي لجأ اليها بعصرنا بعض مصلحي وسياسي أوروبا كلينين وموسوليني وغيرهما.. وعليه يمكننا أن نقول: إنّ محمداً أجاد في وصف الأمراض الاجتماعيّة العربية وتعدادها أكثر منه في علاجها واستئصال جراثيمها... »[1].

ويقول مونتكمري واط: «إنّ زيارة محمّد لِحراء، وهو جبل قريب من مكة، بصحبة عائلته أو بدونها، ليست مستحيلة، ويمكن أن يكون ذلك للفرار من أتون المدينة خلال فصل الصيف للذين لا يستطيعون التوجّه إلى الطائف، ويمكن للتأثير اليهودي - المسيحي ولا سيما مثل الرهبان، أو تجربة شخصية لمحمّد، أن يكون قد أثار في نفسه الحاجة للخلوة والرغبة فيها»[2]. «تعتبر كلمة ناموس مشتقة من كلمة (Nomos) اليونانيّة، وهي تعني إذن: (الشريعة) أو (الكتب المقدسة)، وهذا يتفق تماماً مع ذكر موسى، وقد أبدى وَرَقة (ورقة بن نَوْفَل)

---

(١) من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام (٤٤-٤٥).
(٢) محمد في مكة (٨١).

ملاحظة بعد أن أخذ محمّد يتلقى الوحي، وهي تعني أنّ ما نزل على محمّد مماثل لكتب اليهود والمسيحيين المقدّسة. كما أنّ محمّداً سمع ما يوهمه بأنّه مؤسِّس أمّة ومشرِّع لها، وإذا كان محمّد، كما يبدو، متردداً بطبعه، فإن هذا التّشجيع بإقامة بناء ضخم على تجاربه يرتدي أكبر أهميّة لتطوّره الداخليّ... وقد تأثرت التعاليم الإسلاميّة الّلاحقة كثيراً بأفكار ورقة»[1].

وفي مكان آخر من كتاب واط نقرأ هذه العبارات: «ادّعى كيتاني أنّ سكّان المدينة رضخوا بمحمّد ككاهن أعلى فقط، لأنّهم كانوا بحاجة إلى الاستقرار الداخليّ في المدينة، وليس لأنهم يقبلون تعاليم القرآن بأكملها، وبعضهم كانوا مسلمين حقاً.. ومن الممكن أيضاً أن يكون محمّد، نوعاً ما، حاملاً للأفكار اليهوديّة المسيحيّة في القرآن، بألفاظ عربيّة جاهلية، ولهذا أساء فهمها - كما يقول كيتاني - ولكنّ المدنيين الذين كانوا يدافعون عن محمّد كانوا يفهمون مبادىء الإسلام الأساسية ويؤمنون بها. فالله خالق الكون وسيِّد العالم، وهو الحكم في اليوم الأخير، ومحمّد حامل رسالة الله إلى العرب. وكان المسلمون يقيمون مجتمعاً جديداً في المدينة، وكان هذا المجتمع يتطلّب أساساً فكريّاً واضحاً ومحدَّدا. ومن الممكن أن يكون القليل من المسلمين في المدينة يدفعه حماسة دينية قويّة، ولكنّهم كانوا جميعاً مؤمنين بالروابط الدينيّة، ليشاركوا في بناء مجتمع يقوم على هذه الروابط بدلاً من روابط النّسب»[2].

ويقول واط: «لم يكن الإسلام حركة رجال من طبقة مستضعفة من حثالة الناس أو من طفيليين صعاليك حطّوا رحالهم في مكّة، ولم يستمد

---

(١) محمد في مكة (٩٢-٩٣).
(٢) محمد في مكة (٢٣٤-٢٣٥).

الإسلام قوّته من رجال الدرجة السفلى من السّلم الاجتماعي، بل من أولئك الذين كانوا في الوسط وأدركوا الفرق بينهم وبين أصحاب الامتيازات في الذروة، فأخذوا يقنعون أنفسهم بأنّهم أقلّ امتيازاً منهم، فنشأ صراع ليس بين الملاكين والمعوزين، بل بين الملاّكين والذين هم أقلّ منهم»[1].

ويقول: «وكان الاشخاص الذين اتّصل بهم محمّد (في الطّائف)، وهم عبدياليل وإخوته، ينتمون لقبيلة عمرو بن عُمَير المنتمية للأحلاف، فكانوا بذلك أنصار قريش، وربما راود محمّداً الأملُ باستمالتهم إليه بالتلويح لهم بتحريرهم من سيطرة مخزوم المالية»[2].

أما الأب لامانس، فقد ضاق ذرعاً برؤية الإسلام ينتشر شيئاً فشيئاً، ويبسط ظلّه يوماً فيوماً على أنحاء المعمورة، فيضيق صدر الأب لامانس، فإذا به يسخط حتى على القدر نفسه ويقول: «لماذا جاء القرآن فجأة، ليقضي على التأثير اللّطيف الذي كان الإنجيل قد أخذ يحدثه في ابن البادية!!».

ولم يقتصر حقد لامانس على السِّيرة النبوية، فقد شمل حقده الذي انطلق كعاصفة هوجاء يحطِّم كلّ أخبار المسلمين: أبا بكر، عمر، عثمان، علياً، فاطمة، حفصة، وغيرهم، وغيرهم.

أما إذا تحدّث عن أعداء الإسلام، كأبي جهْل، وأبي لَهَب، أما إذا ما تحدث عن المنافقين، فإنه يشيد ما شاء له هواه، ويمدح ما أمكنه المدح، ويطري ما وسعه الإطراء ويلبسهم ثوب الفضيلة لامعاً خلاّبا.

---

(١) محمد في مكة (١٥٩-١٦٠).
(٢) محمد في مكة (٢٢١) عن لامانس - الطائف (٢١٢ و٢١٧).

المنافقون هم أبطال الوطنية عند هذا القسيس. وإذا تساءلت: مَنْ هو هذا الدخيل الذي لم تُنْبِتْهُ الجزيرة العربية، والذي يقف أمامه «أبطال الوطنية القومية»، فإنك لا تجد من هذا القسيس إلاّ صمتا!! أكان محمد فارسيّاً غازياً للجزيرة العربية؟ أكان روميّاً يهاجمها؟ أم هو عربيّ يحبّ وطنه ويعمل على جمع شتاته في وحدة تكون قدوة ومثلاً أعلى لكلٍّ من يشرئب بصره نحو الكمال؟.

وإذا أردنا أن نعدِّد أخطاء لامانس، فإننا لا نقف عند حد، إنّه مثلاً يتعمد أن يعطي للألفاظ معنى آخر غير المعنى الذي تعطيه لغوياً أو اصطلاحياً، وكأنه بذلك موكل بقلب الحقائق.

إن الردّة» في نظره معناها «الانفصال»، و«المرتدون» هم «الانفصاليون». و«المنافقون» هم «المشككون»، وهم «ابطال الوطنية القومية». وإذا قرأت في القرآن الآية القرآنية الكريمة: ﴿إنَّ الله مع الصابرين﴾[1]، فسترى أنّ لامانس يشرحها شرحاً أبعد ما يكون عن السموّ وعن المكانة العليا التي هي لله تعالى في الإسلام، إنه يفسّرها بـ: «إن الله مع السّاكتين على سياسة محمّد المتناقضة».

وهذا القسيس يفسد متعمِّداً الصور التاريخيّة، إنه يحدِّثنا عن مكّة والمدينة في عهد الرسول، فيعطينا صورة أوروبية حديثة، وكأنه يحدثنا عن باريس ولندن. وعندما يتحدث عن الماليين، في الجزيرة العربية: بنك مكة، مليار، النقابة القرشية، الضريبة على الدّخل، طبقة العمال، جائزة مونتينيون، إبلاغ الرسالة إلى محلّ الإقامة، ديوان ذي الجلال، وزارة الله، إلى آخر هذه التعبيرات الحديثة التي تفسد الصورة ولا تصوِّر الحقيقة.

---

(١) سورة البقرة، آية ١٥٣.

ومع ذلك، فلامانس جرىء، إنه جرىء جرأة نادرة، وتتمثل هذه الجرأة في أنّه إذا لم يعثر خلال أبحاثه الطويلة، على خبرٍ واحد يؤيِّد زعمه وهواه، استغنى عن الخبر، وثبت على مزاعمه الباطلة التي يسوقها إلى القراء برشاقة بالغة، وأحياناً يقول: «إنّ هذا أمر عُني رجال الحديث والأخبار بكتمانه».

وبينما يحترم المسلمون السيد المسيح عليه السّلام ويجلّونه، نجد أن لامانس يصف مؤسِّس الإسلام بأبشع ما يمكن أن يظهره الحقد والكراهية، حتى كأننا نسمع أسلوب رهبان القرون الوسطى الذين لم يكن في جعبتهم إلا السّباب والشتائم[1].

إنّه لمن الغريب حقاً - والأمر كذلك - أن يفتتن قسم من المسلمين بالمستشرقين، مع ما يرون من كراهيتهم للإسلام وتعصّبهم ضدّه، وجهلهم أو تجاهلهم من أجل حاجات في أنفسهم، إنّهم يشكّكون ويخطئون جهلاً أو متجاهلين. لقد وصل بهم الأمر إلى تجريد الرسول ﷺ من اسمه، زاعمين أنّه لم يُدْع محمّداً قط، وأنّ حقيقة اسمه ستظل من الألغاز التي لا حلّ لها، وحجتهم أنّ كلمة محمّد نعت ذو معنى خاص، لذلك يؤكّدون أنّه لقب ليس إلاّ[2].

كذلك يزعم بعض المستشرقين، أنّ «الرحمن»، اسم علم لله!! ويترجمون البسملة ترجمة تدلّ على هذا الرأي السقيم: باسم الإله «الرحمن» الرحيم.

ولما كانت ثلاثة أرباع أسماء الأعلام العربية نعوتاً، فأنت ترى ما في دراسة الأعلام من منابع غزيرة تصدر عنها مخيلة المستشرقين[3].

---

(١) محمد رسول الله - المقدمة (٣٧-٤٦)، وانظر كتاب لامانس - هل كان محمد صادقا.

(٢) هوار - تاريخ العرب (١/ ٩٠).

(٣) الشرق في نظر الغرب - دينية - تعريب عمر فاخوري - نقلاً من: محمد رسول الله (٤٦).

أما أبو بكر رضي الله عنه، فقد سمي «أبو بكر» لأنّه ابو البنت البكر!! والصعيد معناها: السعيد، كما في دائرة المعارف البريطانية.

ولعلّ فيما ذكرناه ما يخفّف من غلواء الإعجاب بالمستشرقين[1].

وقد ضربنا بعض الأمثلة، للنتائج التي توصل إليها المستشرقون في أبحاثهم التي يزعمونها علميّة صحيحة، ولو كانت علمية حقا لما اختلفت ولما تعارضت، ولما كان مصيرها التلاشي.

وأتوقّف عن سرد هذه النماذج للأخطاء الموضوعيّة التي قادت إليها الثغرات العديدة في مناهج البحث الاستشراقية لسيرة الرسول ﷺ، فهي كثيرة لا يحصيها عَدّ. وانتقل إلى جواب هذا السؤال: هل يستحق الاستشراق والمستشرقون منا هذا الجهد في دارسة مؤلفاتهم والبحث في مناهجهم؟ والجواب بلا تردد: نعم، على أن تكون الدراسة والبحث بحذر ووعي شديدين، وعلى أن نعرف كيف ندرسهم وما نأخذ منهم وما ندع.

وقضايا السِّيرة النبوية بخاصة والقضايا الإسلامية بعامة، ولغة القرآن الكريم أيضاً، العرب والمسلمون أولى الناس بتعليمها للناس كافة، وهم أقدر الناس على فهمها، والمطلوب أن يتحمل العرب والمسلمون هذا الواجب بكفاية واقتدار، وليس المطلوب من غيرهم تحمّل هذا الواجب، فقد أثبتت الأحداث والأيام أنّهم لم يكونوا أمناء في دراساتهم ولم يكونوا محايدين ولا علميين من قريب أو بعيد.

إن القاعدة في المستشرقين الذين ألّفوا في الإسلام والعربية الانحراف والتعصّب، والاستثناء فيهم الأمانة والحياد.

وتلك آثارهم تدل عليهم، فانظروا قبل ذلك وبعد ذلك إلى الآثار.

---

(١) محمد رسول الله - المقدمة (٤٦).

٢. السّفارات والرَّسائل النّبويّة بصورة خاصة:

أ. تظهر حملة التشكيك في صحة السفارات والرّسائل النبويّة في كتابات قسم من المستشرقين، نخصّ بالذكر منهم المستشرق الانكليزي السير وليام ميور في كتابيه: (حياة محمد)(١) و(الخلافة)(٢)، والمستشرق الايطالي ليون كيتاني في كتابه: (حوليات الإسلام)(٣)، والمستشرق اليهودي مرجليوث في كتابه: (محمد)(٤).

ولكن قسماً آخر من المستشرقين، لم يساير هذه الحملة التّشكيكية، بل سلّم بصحة السفارات والرّسائل النّبوية وأكّد عالمية الدعوة الإسلامية، كما فعل المستشرق الإنكليزي سير توماس أرنولد في كتابه: (الدّعوة إلى الإسلام)(٥)، والمستشرق الالماني نولدكه الذي ذهب إلى حدّ التّسليم بأصالة الوثيقة التي عثر عليها في مطلع هذا القرن والتي يترجّح أنّها رسالة النبيّ ﷺ إلى المُقَوْقِس عظيم القِبْط(٦).

وفي كتاب: (فتح العرب لمصر)(٧) لالفرد بتلر الذي عرّبه محمد فريد أبو حديد(٨)، ذكر المؤلف ما نصّه: «وكان النبيّ قبل ذلك، رأى أنّه قد آن له أن يرسل إلى أمراء العالم يدعوهم إلى الإسلام، فبعث كتباً إليهم

---

(١) وليام ميور - حياة محمد (٣٥٤-٣٥٧). The Life of Mahomed, pp. 354-357.

(٢) وليام ميور - الخلافة (٤٣-٤٤). The Caliphate, pp. 43-44.

(٣) ليون كيتاني - حوليات الإسلام (١/٧٢٥) وما بعدها Caetani, Annali dell Jslam p. 25.

(٥) مرجليوث - محمد (٣٦٤) وما بعدها. Margoliouth, Mohammed, pp. 364.

(٥) توماس أرنولد - الدعوة إلى الإسلام (٤٨) وما بعدها.

(٦) دبلوماسية محمد (٨٣).

(٧) Batler, M, Arab Conquest of Egypt, pp. 139.

(٨) الفريد ج بتلر - فتح العرب لمصر - تعريب محمد فريد أبو حديد (١٢٤-١٢٨) مطبعة دار الكتب بالقاهرة - ١٣٥١ هـ.

في سنة ٦٢٧م وختمها بخاتمه على ما جرت عليه عادة أهل الشرق، وكان نقش ذلك الخاتم: «محمد رسول الله»، وكانت الكتب جميعها تدعو إلى الدخول في الإسلام والشهادة بأن محمداً عبد الله ورسوله، وأرسلت تلك الكتب إلى أمراء اليمن وعُمان واليمامة والبحرين، وإلى الحارث (ابن أبي شَمِر الغساني) أمير العرب على حدود الشّام، وإلى (جرج) وسمي (المقوقس) في الكتاب خطأ، وهو حاكم الإسكندرية ونائب الملك في مصر، وإلى نجاشي الحبشة، وإلى كسرى ملك الفرس، وإلى هرقل ملك الروم. فأما أمراء العرب فقد ردّ اثنان ردّاً حسناً وأسلما وهما أمير اليمامة وأمير البحرين. وأما أمير اليمن وعُمان فقد ردّا ردّا فاحشا، فدعا عليهما النّبي. وأما النجاشي، فقد أجاب جواباً حسناً ولم يُبعد ولكنه لم يسلِم[١]، ولعلّ هذا موضع لأن نقول إن الحبشة هي البلاد التي لم يفتحها الإسلام دون كلّ البلاد التي أرسل النبي إليها الرّسل. وأما عظيم القبط فقد وعد أن يرى لنفسه رأياً في الأمر وأكرم الرسول وهو حاطب بن أبي بَلْتعة اللَّخمي، وبعث معه هدية عظيمة كان فيها جاريتان: مارية وشيرين، وبغلة سمّاها النبي (دلدل) ويزعم بعضهم خطأ أنها أول بغلة عرفت في بلاد العرب، وكذلك كان بين ما أهدي حماراً اسمه (نفور)[٢] ومقداراً من المال. فأما مارية فقد أسلمت وتزوجها النبي عليه الصلاة والسّلام وأحبّها وماتت سنة ٦٣٦م فلم تشهد فتح مصر وخضوعها للعرب.

«وأما ردّ كسرى فقد كان على طريقة أخرى: إذ شقّ كتاب النبيّ ومزّقه وهو غضبان قد تولى كبره، وكتب إلى بإزان[٣] عامله على إقليم

---

(١) أخطأ المؤلف في ذلك، إذ إنّ النجاشي قد أسلم كما هو معلوم، يراجع بحث إسلام النجاشي في هذا الكتاب.

(٢) اسمه: يعفور.

(٣) الصواب أن اسمه باذان لا بازان.

حِمْير يأمره: ابعثْ إليّ برأس هذا الرّجل الذي بالحجاز، فقال النبي عندما بلغه ما فعله كسرى بكتابه: مزّق ملكه! فكانت نبوءة ودعوة عليه، وما مضى بعد ذلك إلا زمن قصير حتى تحقّقت.

«أما ما كان من أمر هرقل، فلسنا ندري ما كان يدور في نفسه، إذ هو خارج من مواكب الاحتفال عند مقدمه إلى عاصمة ملكه بعد فتوحه في آسيا، أو عندما كان يسير وفي ركابه الظفر يشقّ بلاد الشّام نحو بيت المقدس، حاملاً معه الصليب الأعظم، أكان عند ذلك يذكر ما وقع له وهو في معسكره منذ حين، إذ طلع عليه جماعة من فرسان البدو وعليهم رئيسهم (دِحْية بن خليفة) الكلبيّ يحمل إليه كتاب النبيّ؟ ولا شك أنّ الأمبراطور قد سمع بما أجاب به من قبل ملك الفرس، ولعلّه كان عند ذلك قد أتاه مقتل رسول النبي في مُؤْتة(١)، ولكنه مع ذلك أرسل ردّاً حسناً، حتى أن بعض مؤرخي العرب خلق من ذلك قصّة منمقة سخيفة عجيبة، يذكر بها إسلام هرقل، ولم يكن شيء أبعد من ذلك الأمر عنه. وماذا عسى كان يدفعه إلى تصديق ما أتى به زعيم عربي لم يعرفه، وذلك في حين كان ملكاً سيِّد الكتائب الكثيرة التي عركتها الحرب فأصبحت ضارية صعبة المراس»(٢).

لقد اعترف بتلر بالسّفارات والرسائل النبويّة من حيث المبدأ، ولكنّه أخطأ في التفاصيل أخطاء واضحة نبّهت على قسم منها في الهامش، والدارس للذي دوّنه بتلر يلمح حماسته الشديد في رفض إسلام النجاشي، وإسلامه حق لا ريب فيه، ولكنه لا يقرّه بتلر لأن النجاشي

---

(١) لا يمكن أن يكون المقصود هو دحية الكلبي، فإنّه عاد إلى النبيّ عليه الصلاة والسلام بعد أن أدى رسالته إلى قيصر، وقد استشهد سفير نبوي في تبوك، ولكن بعد عودة دحية من واجبه، فاختلط ذلك على المؤلف.

(٢) فتح العرب لمصر (١٢٤ - ١٢٨).

مسيحيّ وبتلر مسيحي، فهو يدافع بالحق أو بالباطل عن دينه تلقائيا. ولكن درجة حماسته تصاعدت حين ذكر ادعاء بعض مؤرخي العرب بأن هرقل قد أسلم، لأن هرقل كان زعيم العالم المسيحي يومئذ، وإسلامه يزعزع الكيان المسيحي في حينه، وجمهور مؤرخي العرب لم يدّعوا أن هرقل أسلم حتى يغضب بتلر هذه الغضبة المضريّة، ومن المحتمل أن بتلر افتعل الادعاء بإسلامه كذباً ليظهر شعوره دفاعاً عن دينه متعصباً تعصباً أعمى، وما ذكره مؤرخو العرب والمسلمين، هو أن هرقل عامل الرسول النبوي بالحسنى، ولم يعامله بالقسوة، وأراد أن يتأكّد من حقيقة النبيّ ﷺ وحقيقة رسالته، فسأل أبا سفيان بن حرب ومَن معه من تجار قريش عن ذلك، وانتهى الأمر عند هذه الحدود. ومعاملة هرقل لـرسول النبيّ ﷺ الموفد إليه بالحسنى دليل على رجاحة عقله واتّزانه وحصافته، وسؤاله عن حقيقة النبيّ ﷺ وحقيقة دعوته من قومه الذين يعرفون حق المعرفة دون أن يؤمنوا برسالته ويتّبعوه، دليل آخر على رجاحة عقله واتّزانه وحصافته، كما أن معاملة الرُّسل بالحسنى والحفاظ على حياتهم وأمنهم مظهر حضاري لا شك فيه، وكان من تقاليد العرب في الجاهليّة أن الرّسل لا يُقتلون، فلما جاء الإسلام أقرّ هذا المبدأ وأمر بتطبيقه نصًّا وروحاً. وأرى أن مسلك هرقل في تصرّفه مع السفير النّبوي كان مسلكاً حضارياً، ولا مسوّغ لاعتراض بتلر على ذلك التصرّف بحجة أو بأخرى، ولا أن يحمله فوق ما يحتمل، ولكنه لم يستطع أن يتخلّى عن تحيّزه الدينيّ وانحيازه لعاطفته الدينيّة، أسوة بغيره من المستشرقين، ولو أنه أقلّ منهم تحيّزاً وانحيازاً، فهو على الأقل قد أقرّ بالسّفارات النبويّة من حيث المبدأ، ولم ينكرها أو يتنكّر لها كغيره، أما ما وقع فيه فـي التفاصيل من أخطاء، فلا يفهم تاريخ العرب والمسلمين كما ينبغي كالعرب والمسلمين، والادعاء المخالف لا يُقرّه الواقع ولا البحث العلميّ الدقيق.

ب. واعترف واشنجتون أرفج في كتابه: (حياة محمد) بالسّفارات النّبوية، فقال: «...... فقد رأى أيضاً (يريد النبي ﷺ) أن يتّبع الوسائل السلميّة الدبلوماسيّة، فأرسل كتباً إلى بعض الملوك والأمراء يدعوهم إلى اعتناق الإسلام.

«من أبرز الملوك الذين كتب الرسول إليهم، خسرو الثاني كسرى فارس، وهرقل قيصر الرُّوم، وكانت قد نشبت حروب طويلة بين الرومان والفُرس من أجل السّيطرة على الشّرق الذي تداول كلّ من الفريقين الحكم فيه طوال القرون الماضية. وفي إحدى هذه الحروب، تقدّم خسرو على رأس ثلاثة جيوش يبلغ عددهم خمسين ألفاً من ذوي الحراب الذهبيّة، وتمكّنوا من الاستيلاء على فلسطين وبعض المقاطعات الغنيّة التّابعة للرومان، وأعلن خسرو نفسه حاكماً علىفلسطين، وحمل معه الصليب المقدّس إلى فارس، كما غزا أفريقيا فاستولى على ليبيا ومصر، وامتدّت فتوحاته وانتصاراته إلى قرطاجنة.

«وسط هذه الانتصارات، قدم رسول من محمّد يحمل كتاباً إليه. واستدعى خسرو أحد كُتّابه، وأمره بقراءة الكتاب الذي جاء فيه: **(من محمد رسول الله. إلى كسرى عظيم فارس. سلام على مَنْ اتّبع الهُدى وآمن بالله ورسوله، وأدعوك بدعاية الله عزّ وجلّ، فإني رسول الله إلى الناس كافة، ولأنذر مَنْ كان حيًّا ويحق القول على الكافرين. وأسلم تسلم، فإن تولّيت فإن إثم المجوس عليك).**

«غضب كسرى إذ كتب الرسول اسمه قبل اسم كسرى، وقال: يكتب إليّ هذا وهو عبدي! وأمسك بالخطاب وقطعه إرباً إربا، وكتب إلى حاكمه باليمن: ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين: فليأتياني به. وحينما علم الرسول بتمزيق كسرى لكتابه قال: «مزّق الله ملكه».

«أما كتاب الرسول إلى هرقل، فقد قبله القيصر قبولاً حسنا. وجاء في هذا الكتاب: (**من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل قيصر الروم: السّلام على مَنْ اتّبع الهدى. أما بعد، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن تتولى فإن إثم الأريسيين عليك: يا أهل الكتاب، تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا الله، ولا نُشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**).

«يقال إن قيصر تلقّى الخطاب بقبول حسن، وأكرم وفادة الرسول الذي حمل إليه الخطاب، فمنحه كثيراً من الهدايا. ولما كان قيصر مشغولاً بحروبه مع الفُرس، فإنه لم يتخذ قراراً حاسماً بشأن هذا الكتاب، فقد شغلته هذه الحروب عن قبائل الصحراء.

«بعث الرسول كتاباً آخر إلى المقوقس، حاكم مصر، الذي بعثه هرقل إلى مصر لجمع الجزية ليستعين بها على الحروب المستمرّة بين الفُرس والرومان. وأحسن المقوقس استقبال رسول محمّد، وقال له: قد كنت أعلم أن نبيًّا قد بقي، وقد كنت أظنّ أن مخرجه الشَّام، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله، فأراه قد خرج في العرب في أرض جهدٍ وبؤس، والقبط لا تطاوعني في اتِّباعه، ولا أحبّ أن يُعلم بمحاورتي إياك!.

«وبعث المقوقس إلى محمّد كثيراً من الهدايا، منها بعض الجواهر الكريمة والحرير المصري، والعسل، والزبد، وبغلة شهباء تسمى دلدل، وبغل أشهب يسمى يعفور، وزوج من الخيل، ولكن أهم هذه الهدايا جاريتين شقيقتين هما: مارية وسيرين»[١].

---

(١) واشنجتون أرفنج - حياة محمـد - ترجمة وتعليق الدكتور على حسني الخربوطلي (٢٠٥ - ٢٠٨) - دار المعارف بمصر - ١٩٦٠م.

وبصرف النظر عن الاختلافات الواردة في نصيّ الكتابين النبويين إلى كسرى وقيصر مع نصيها الواردين في المصادر العربية الإسلامية المعتمدة، وبصرف النظر عن المعلومات الواردة خطأً في التفاصيل أو في عدم دقّتها، إلا أن واشنجتون أرفنج سلّم بالسفارات النّبويّة من حيث المبدأ، ولكنه ذكرها بإيجاز مُخِلٍّ، ولعلّ عذره هو صغر حجم كتابه فهو لا يتّسع للتفاصيل والاسهاب.

جـ. أما المستشرق ر.ڤ. بودلي في كتابه: (الرسول) الذي ترجمه محمد محمّد فرج وعبدالحميد جُوْدَة السَّحار، فقد أقرّ بالسَّفارات النّبويّة إقراراً كاملاً من حيث المبدأ أيضاً، وأخطأ في التفاصيل كما أخطأوا، فقال: «لم يعش محمد ليرى عظمة الامبراطورية الإسلامية، ولم يكن عنده في أثناء حياته أية أصول حقيقية تجعله يشعر بأنه ستكون هناك مثل هذه الامبراطورية، ولكنه كان يؤمن بها بنفس الطريقة التي آمن بها بالوحي الذي يوحى إليه لما كان يتبعه أربعة فقط. والآن وقد رأى إسلام الأفراد والقبائل الذي أعقب عودته من الحُدَيْبِيَّة، أصبح مقتنعاً بأن الوقت الذي سيتهيأ فيه العالم للإسلام ليس ببعيد، ومن الحقيقي أن هناك بعض جماعات محليّة تُعارض سلطانه، ولكنه سيعاملها بلباقةٍ، وإن الذين يفكِّر فيهم الآن هم الشعوب الخارجة عن دولته، وكان يحسّ أن هذه الشعوب إنما كانت في حاجة إلى كلمة ترغيب لتصبح مسلمة.

«فاختار لذلك الرّسل، لتنطلق لتُقدِّم ذلك التَّرغيب، وتروي بعض الأحاديث[1]، أن سفراء محمّد قد وجدوا أنهم قد مُنِحُوا هِبَة خارقة في اللّغات، بنفس الطريقة التي وجد رسل المسيح أنفسهم قادرين على التحدّث بلغات كثيرة في يوم العنصرة، وهذا ما قد حدث، فإن محمداً قد

---

(١) يقصد الأحاديث النبويّة.

اختار مندوبيه من بين مَنْ كانوا تجّاراً رُحّلاً، فإن هؤلاء الرجال قد كانوا في الخارج، فهم يعرفون عادات الغرباء، فلن يصبحوا في حيرة وارتباك في بلاد الغُربة، كما قد يصبح أبو بكر وعمر إذا وجدا أنفسهما خارج أوضاع الصحراء التي ألفاها، وإنهم ليمكنهم أن يفصحوا عمّا يجول في أنفسهم للرُّوم والفُرس واليونان.

«كان لمحمّد ختم كبير من فضّة، نُقش عليه: «محمد رسول الله»، فأعطاه السفراء، فكان كاعتماد لهم، وكان الختم فكرة بسيطة لا فنّ فيها. وقد كان موضوع تسلية عظيمة لعبد الله بن أُبَيّ وأصحابه، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يصبح يعني بعد ذلك أكثر مما يعني النّسر الروماني.

«وقد ذهب الرّسول الأول إلى هرقل، وقد أُوقف في بُصْرى، وأخذ حاكم بُصْرى الرِّسالة وقدّمها للأمبراطور، وقد اهتمّ هرقل بالختم الفِضيّ، ونادى المترجم فترجم له الرِّسالة، وما كان أشدّ دهشة حينما سمع بدعوة المسيح ومريم واعتناق الدين الحقّ، دين التّوحيد، فاحتفظ هرقل بالكتاب والختم، حبًّا في الاستطلاع، ولم يتّخذ أي إجراء آخر[1].

«وذهب السّفير الثاني إلى البلاط الفارسيّ، وقد قُتل كسرى، قتله ابنه شيرويه، وهو الذي استلم وثيقة محمّد الغريبة[2]. وقد أثارت الرِّسالة الشّاه، فقد جاء فيها: (من محمد بن عبد الله رسول الله، إلى كسرى (كان

---

(١) انظر كيف فهم هذا المستشرق ختم الكتاب بالخاتم النبوي الذي كان بإصبعه، فجعل السفير النبوي يحمل هذا الختم الفضي، ويسلمه إلى هرقل الذي يحتفظ به حبّاً في الاستطلاع! لو وقع مؤلّف عربي مسلم بهذا الخلط العجيب، لأصبح أضحوكة لمن هبّ ودب!

(٢) لم يكن كسرى قد قتل بعد. وهو الذي تسلّم الرسالة النّبويّة لا ابنه الذي قتله بعد ذلك بقليل. كما زعم هذا المستشرق.

يعتقد أنه لا زال على قيد الحياة) عظيم الفرس......). وقد أطار صواب شيرويه جرأة عربيّ الصحراء على وضع اسمه قبل اسم الشاه، فمزّق الرِّسالة، وكتب إلى باذان وهو على اليمن: وهناك في المدينة مجنون من قريش يزعم أنه نبيّ، فردّه إلى عقله، أو ابعث اليّ برأسه[1].

«فهزّ محمد كتفيه استهزاءً لما بلغه هذا، وكان كلّ ما قاله حين بلغه أن كسرى شق كتابه: «مزّق الله ملكه». وقد تحقّقت النبوءة سريعاً، ففي أقلّ من عشرين سنة، كانت فارس دولة ممزّقة تحت حكم المسلمين، وكان حاكمها أحد الرجـال الذين درّبهم الرجل المجنون.

«وقابل زعيم بني حَنِيْفَة، وهي قبيلة مسيحيّة في وسط جزيرة العرب، الرّسل بالترحاب، وأعطاهم هدايا، وأظهر أنه على استعداد للدخول في الإسلام إذا كان له نصيب في الحكم، فأجاب محمّد بأنه ما كان ليعطيه شقّ تمرة إذا سألها، ولعنه النّبِيّ. والظّاهر أن لعنته كانت فعّالة، فما لبث الزّعيم الطّموح عاماً بعد ذلك حتى مات.

«وقد أمضى الرُّسل في الحبشة وقتاً طيِّباً، فقد صادق النّجاشي المسلمين منذ أيام الوحي الأولى، وقد وجدوا عنده ملجأً، وكان هناك إلى الآن ستّون مسلماً يعيشون في بلاطه، كان منهم جعفر بن أبي طالب وأخو عليّ من أبيه[2]، وإنّ هذا لم يمنع محمّداً أن يرسل إلى النّجاشيّ نفس الرسالة التي بعثها إلى الرومان والفُرس. وقد قيل: إنّ النجّاشي

---

(١) لم يكتب كسرى مثل هذه الرسالة إلى باذان، بل كتب إليه: «ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين، فيأتياني به، انظر التفاصيل حول ذلك في السفارة إلى كسرى.

(٢) هذا خطأ، فجعفر وعليّ أخوان من الأب والأم، فأمها فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، انظر التفاصيل في سيرة: جعفر بن أبي طالب، في الجزء الأول من هذا الكتاب (سفراء النبي ﷺ).

قد قَبِلَ الإسلام، ولكن لا يوجد ما يثبت ذلك تاريخياً[1]، فحين كان الأحباش يحترمون محمّداً وما ينادي به أعمق الاحترام، كانوا مسيحيين نسطوريين. وقد كانت عقائدهم الأساسية تختلف في قليل عن عقائد المسلمين، وإنّ الأحباش إلى الآن مسيحيّون، وإنّ ما حدث بين المسلمين والأحباش كان صفاء ووداً كلّه.

«وكان أمام السّفير مهمّة أخرى في الحبشة، فقد كان هناك مسلمات كثيرات يعشن في أديس أبابا، كانت أُمّ حَبِيْبَة بنت أبي سُفيان من بينهنّ، وكانت أرملة عُبَيْد الله بن جَحْش، وهو أحد المؤمنين الأولين، وأحد المهاجرين الأولين من مكّة، كانت أُمّ عُبَيْد الله أخت عبد المُطّلب، وعلى ذلك فقد كان ابن عـم لمحمد، وكان أخا زينب الذي سبب طلاقها من زيد وزواجها من محمد تلك الضّجة، فإذا لم يكن في كلّ ذلك روابط عائلية كافية، فإنّ محمّداً قد شاء أن يُضيف إلى ذلك رباطاً آخر بزواجه من قريبته الأرملة، لقد كان يهدف إلى إذلال أبي سفيان[2] فيقوي بذلك مركزه في مكّة، وقد يفسخ أبو سفيان هذا الرباط، ولكن ذلك يجعله يسلم بأنّ الخطيب المنبوذ زوج ابنته، وإنّ كلّ ما قاله أبو سفيان لما بلغه هذا الزواج: ذلك الفحل لا يقرع أنفه.

«وقد سرّت أم حبيبة لزواجها من محمّد، وقد خطب النّجاشي على رسول الله ﷺ، فلما تم ذلك تأهّب جعفر واللّاجئون الآخرون لصحبة العروس إلى المدينة.

«وأُرسل رسولُ آخر إلى مصر، وقد تسلّم الحاكم الروماني رسالة محمّد في احترام، واستقبل الرُّسل بما يجب لهم من إكرام، ولم يعتنق الإسلام.

---

(١) وهذا خطأ أيضاً، فقد أسلم النجاشي وكلّ المصادر العربية الإسلامية تذكر إسلامه، انظر بحث: إسلام النّجاشي في: سفراء النبي ﷺ.

(٢) وهذا خطأ أيضاً، فقد كان يهدف إلى جمع الصفوف بالمصاهرة، لا إلى إذلال أحد.

وقبل أن يبدأ الرّسل العودة، بعث معهم بهدايا قيّمة لزعيمهم، كان من ضمنها حلى، وتيل مصر، وعسل، وزبد، وبغلة بيضاء، وحمارة، وفرس أصيلة، وقد بعث مع هذه الهدايا التقليدية بجاريتين أُختين قبطيتين، على جانب عظيم من الجمال، هما مارية وسيرين........»[1].

ومهما يكن من أمرٍ، فإنّ هذا المستشرق اعترف بالسّفارات والرسائل النّبويّة اعترافاً كاملاً من حيث المبدأ، ووافق ابن سعد[2] والسّيوطي[3] في أنّ السّفراء النّبويين أصبحوا وكل واحد منهم يعرف لغة الملك الموفد إليه، وكان ذلك على سبيل المعجزة[4]. وحين لا استبعد حدوث المعجزة ووقوعها، لأن سيرة النبي ﷺ وسيرة الأنبياء قبله مليئة بالمعجزات وخوارق العادات، وإنكارها من المكابرة، ولكنني أرجّح أنّ ذلك كان مبنيًّا على الحكمة وحسن الاختيار من رسول الله ﷺ، فلم يكن مَنْ يُحسن اللُّغة الرُّوميَّة والفارسية ولغة الأقباط في مصر ولغة أهل الحبشة غريباً، لكثرة اختلاط العرب بهذه الأمم الأربع وكثرة رحلاتهم التجارية إلى هذه الأقطار وتنقلاتهم فيها، وكانت القضية محدودة في هذه اللُّغات الأربع، إذ كانت لغة أمراء الجزيرة العربية ورؤساء القبائل الذين كتب إليهم رسول الله ﷺ كتبه، ودعاهم إلى الإسلام، اللّغة العربية[5]، ولكن الغريب في الأمر كلّه هو تسليم هذا المستشرق بأنّ ما حدث كان على سبيل المعجزة. بل ذهب هذا المستشرق إلى مدى أبعد فقد سلّم بالنبوءة الخاصة بكسرى، فطبّقها على مصير الإمبراطورية

---

(١) ر. ف. بودلي - الرسول - ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار (٢٣٤-٢٣٧) - القاهرة - بلا تاريخ.

(٢) طبقات ابن سعد (٢٥٨/١).

(٣) الخصائص الكبرى للسيوطي (١١/٢).

(٤) طبقات ابن سعد (٢٥٨/١) والخصائص الكبرى (١١/٢).

(٥) السيرة النبوية للندوي (٣٢٣ - ٣٢٤)، الهامش (٢) في ص (٣٢٣).

السّاسانية التي انهارت بسرعة بالفتوح الإسلاميّة، بينما طبقها المؤلفون المسلمون المعتمدون على كسرى أبرويز فحسب، في مصيره الذي حاق به على يد ولده، فكانت النبوءة عامة بالنسبة لهذا المستشرق أصابت الإمبراطوريّة السّاسانية كلّها، وكانت النبوءة خاصة بالنسبة للمصادر الإسلامية المعتمدة أصابت كسرى وحده. كما سلّم بالنبوءة التي حاقت بأمير اليمامة وبني حنيفة كما سلّمت بها المصادر الإسلامية المعتمدة، ويبدو أنّ هذا المستشرق اعتمد كتاب الخصائص الكبرى للسّيوطي في تأليف هذا الفصل من كتابه، واستسلم للمعلومات الواردة فيه استسلاماً كاملاً. ولكنّه حين اصطدم بخبر إسلام النّجاشي، نكص على عقبيه نكوصاً يدلّ على عصبيّته وتعصّبه وانحيازه وتحيّزه، ولا يدلّ على الاتّزان العلمي والبحث الموضوعي، فقال ما نصه: «وقد قيل: إنّ النّجاشيّ قد قَبِل الإسلام، ولكن لا يوجد ما يثبت ذلك تاريخياً، فحين كان الأحباش يحترمون محمّداً وما ينادي به أعمق الاحترام، كانوا مسيحيين نسطوريين»[1]، وقد ثبت إسلام النجاشي في كلّ المصادر التاريخية الإسلامية وغير التاريخية أيضاً، بدون استثناء، وإسلامه حظي بإجماع المصادر المعتمدة التي نصّت على إثباته، ولكنّ أنكره بودلي بعصبيّة ظاهرة دون إقامة الدليل على أسباب إنكاره واستنكاره أيضاً، إلاّ أن يكون النّجاشي مسيحياً نسطورياً، كأن المسيحي النسطوريّ لا يعتنق الإسلام.

كما أنّ بودلي وقع في أخطاء تاريخية نبّهنا على بعضها في مكانها، وهذه الأخطاء تدل على ضعفه في التاريخ الإسلامي، ولو وقع بمثل أخطائه مؤرخ عربيّ مبتدىء، لاعتبرت أخطاؤه دليلاً على جهله الفاضح بأبسط البحث والتدقيق.

---

(١) الرسول - بودلي (٢٣٦).

وعلى الرغم من أن بودلي عاش بين العرب المسلمين في الصحراء سبع سنين في خيمة من خيام البدو: «أصبحت الخيمة المصنوعة من وبر الجمل داري، والبدو أصدقائي، والصحراء المترامية بلادي.... سمعت القرآن في اللّغة العربية المكية العظيمة، واحسست دون أن أصبح مسلماً روعة هذا الدين الذي يخلي بين العبد وخالقه في الصحراء. وسمعت عن محمد، الرجل الذي وحّد حفنة من القبائل المتنافرة المتنافسة، وجعلهم دعامة إمبراطورية من أعظم إمبراطوريات العالم.... »[١]. هكذا تهيأت له أسباب فهم تاريخ الإسلام والمسلمين، ولكنّه لم تتهيأ له أسباب التخلي عن تعصّبه لدينه، فجعلته ينحاز لدينه إذا مَسّ دينه أحد بسوء أو بما يظنّ أنّه سوء، وينصف في القضايا الأخرى ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، بما هداه إليه عقله أولاً، وبحثه المحدود عن الحقيقة ثانياً وأخيراً.

د. ويختلف المستشرقون في أمر السفارات والرسائل النّبوية، وقد ذكرت قسماً من الذين يرون أنها صحيحة، ومنهم بالإضافة إلى مَن ذكرنا بيوري صاحب التآليف العديدة في تاريخ الرُّوم[٢]، والمستشرق البريطاني سير توماس أرنولد في كتابه: (الدعوة إلى الإسلام)[٣]، والمستشرق الألماني نولدكه[٤] وغيرهم كثير.

ولكن قسماً من المستشرقين يُشكّكون في صحة السّفارات والرّسائل النبويّة، نخصّ بالذكر منهم المستشرق البريطاني السير وليام ميور في كتابيه: (حياة محمد) و (الخلافة)[٥] والمستشرق الإيطالي ليون كيناني في

---

(١) الرسول (٣).

(2) Burry, J. B., Const, of Later Roman Empire, 11, 261.

(٣) الدعوة إلى الإسلام (٤٨) وما بعدها.

(٤) دبلوماسية محمد (٨٣).

(٥) وليام ميور - حياة محمد (٣٥٤ - ٣٥٧)، والخلافة (٤٣ - ٤٤).

كتابه: (حوليات الإسلام)[1]، والمستشرق اليهودي مرجليوث في كتابه: (محمد)[2].

والحجّة الرئيسة لمن يعترض على صحّة السّفارات والرسائل النّبوية، أنّ ابن اسحق أقدم مَنْ كتب في السِّيرة النّبويّة لا يذكرها. ولكن لا يخفى أن سكوت المصادر لا يُتّخذ حجّة إلاّ بشروط معيّنة[3]، والبحث في صحّة الرسائل النّبوية يستوجب الرجوع إلى القرآن الكريم نفسه، لنرى إذا كان المراد به رسالة للعالمين أو رسالة خاصة بالعرب، وهو في نظرنا رسالة للعالمين دون ريب، والنبيّ الذي حمل هذه الرسالة بادىء ذي بدء إلى أفراد قلائل من أقربائه، أرادها في النّهاية قوّة تسيطر على العالم أجمع»[4].

أما قول كيتاني وغيره، في أنّ القرآن أُريد به رسالة للعرب دون سواهم، فإنّه قول ضعيف لا يركن إليه[5].

ويمكن تلخيص حجج المشككين والمتشككين التي ذكرت أهمها وشيكاً وذكرت ردّ أحد غير المسلمين عليها، فلا بأس من ذكر الأهم والمهم من تلك الحجج وهي:

أولاً: دعواهم بأنّ الإسلام يخصّ الجزيرة العربيّة، وخبر السفارات والرّسائل النبوية يخرج به عن نطاقه المحلّي إلى نطاق عالميّ.

---

(١) Annali dell Jslam.

(٢) Mohammed, pp. 364.

(٣) أسد رستم - مصطلح التاريخ (١٩٠ - ١٩٢).

(٤) د. أسد رستم - الروم - (٢٣٦/١ - ٢٣٧)، وانظر التفاصيل في:
Goldziher, I. , Die Religion des Islam – die Religion des Orients. 111, 106.

(٥) Grimmne, H, Mohammed, L, 123; Caetani, L., Stedi di Storia Orientale, III, 236, 257.

ثانياً: دعواهم بأنّ الرسول ﷺ كان في حالة ضعف سياسيّ وعسكريّ لا يمكنه تحدي قوّة العالم بالسّفارات والرّسائل النبوية.

ثالثاً: الزّعم بأنّ ابن أسحق لم يذكر قصّة الرّسائل النبويّة، والاستدلال بذلك على ضعف التوثيق التاريخي للأخبار.

رابعاً: اشتمال أخبار السّفارات النبويّة على تفاصيل وُصفت بأنّها أسطوريّة، مما يدعو إلى رفض الأخبار برمتها.

خامساً: اشتمال بعض الرّسائل النّبويّة على آية قرآنية، قيل إنّ نزولها قد تأخر عن تاريخ إرسال تلك الرسائل بنحو سنتين[1].

ولا غرابة في هذا التشكيك لصدوره عن مستشرقين معروفين بتعصبهم على الإسلام ونبي الإسلام، ولكنّ الغرابة في انتقال هذا التشكيك نصاً وروحاً إلى بعض الكتّاب المسلمين، فقد نقلوا حملة التشكيك إلى المكتبة العربية[2]، وإلى الجامعة العربية، وإلى أجهزة الإعلام العربية، أو نُقل جزء من هذا التشكيك إلى المكتبة العربية[3] وإلى مجالات الكلمة المقروءة والمسموعة، مما أدى إلى تسميم العقول والقلوب بغير حقّ ظلماً وعدوانا.

لذلك أصبح السّكوت عن التشكيك والمشككين لا مسوّغ له، مهما تكن دوافع إظهار الحق وإزهاق الباطل، في الردّ على التشكيك

---

(١) د. عز الدين ابراهيم - الدراسات المتعلّقة برسائل النبي ﷺ إلى الملوك في عصرة - مجلة المؤرخ العربي - العدد (٢٣) لسنة ١٩٨٣ - ص (٢٤٥).

(٢) د. نبيه عاقل - تاريخ العرب القديم وعصر الرسول - ص (٥٣٧) وما بعدها، وانظر دبلوماسية محمّد ص (٥٧) وما بعدها.

(٣) محمد عبد الله عنان - مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام - ص (١٧٣) حول التشكيك بإسلام النجاشي - القاهرة - ١٣٧١هـ - ط٣.

والمشكّكين: حرصاً على عقول وقلوب العرب والمسلمين من التلوث، أو نشراً للعلم من أجل العلم، فالحكمة ضالة المؤمن، والحق أحق أن يُتّبع، وإذا أمكن إخفاء الحقيقة ساعة، فمن المستحيل إخفاؤها إلى قيام السّاعة.

وبصرف النّظر عما كتبه العرب والمسلمون في الردّ على التّشكيك والمشكّكين بالرغم من أهمية ما كتبوه وأصالته وصدقه، إلاّ أنّ كثيراً من المستشرقين المنصفين الذين نوهنا بأسماء قسم منهم، أقرّوا بالسّفارات والرّسائل النبويّة وردّوا على المستشرقين غير المنصفين الذين شكوا في أمرها وشكّكوا في صحّتها. ولست أجهل أنّ قسماً غير قليل من العرب والمسلمين متأثرون بالمستشرقين ليس إلى حدّ الاعجاب فحسب، بل إلى حدّ الانبهار، وإلى هؤلاء المبهورين بالمستشرقين من العرب والمسلمين أتساءل: إذا كان انبهاركم حقاً بالمستشرقين، فلماذا تؤثرون الهدامين منهم على المنصفين؟ ولماذا تقتبسون أقوال المشكّكين منهم ولا تقتبسون أقوال المصدّقين؟

بين اليقين والشّك

١ . عالميّة الإسلام:

بدأ الإسلام بمكّة المكرّمة، وهي بلد سكّانه من العرب، وفيه بيت الله الحرام، وقد تطوّرت الدعوة الإسلامية كما نصّ على ذلك القرآن الكريم، فبدأ النبي ﷺ بعشيرته، قال تعالى: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾[١]، ثم بقومه وبلده، قال تعالى: ﴿**ولتنذر أم القرى ومن**

(١) سورة الشعراء، آية ٢١٤.

حولها﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾[2]، ثم كانت الدعوة عالمية: ﴿إن هو إلاَّ ذكر للعالمين﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وانزلنا إليك لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وما هو إلاَّ ذكر للعالمين﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للنّاس بشيراً ونذيراً﴾[6]، وقال تعالى: ﴿قل يا أيها النّاس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾[7]، وقال تعالى: ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾[8]، وقال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾[9].

ثم إن النِّداء المتكرِّر في القرآن الكريم إلى بني آدم، وإلى أهل الكتاب، بل وإلى الإنس والجِنّ، لا يُبْقي أيّ شبهة في أنّ رسالة الإسلام عالمية التوجيه.

وما يقال عمّا ورد في القرآن الكريم، حول عالميّة الإسلام، يقال عمّا ورد في الحديث النّبوي الشريف، فالأحاديث النّبوية الصحيحة حول هذا الموضوع كثيرة جدا.

---

(١) سورة الأنعام، آية ٩٢.
(٢) سورة الزخرف، آية ٤٤.
(٣) سورة يوسف، آية ١٠٤.
(٤) سورة النحل، آية ٤٤.
(٥) سورة القلم، آية ٥٢.
(٦) سورة سبأ، آية ٢٨.
(٧) سورة الأعراف، آية ١٥٨.
(٨) سورة الفرقان، آية ١.
(٩) سورة الفتح، آية ٢٨.

وقد كوّن الإسلام من المسلمين أُمّة واحدة، وَحْدَتُها قائمة على العقيدة، وهدفها الصّالح العام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتفاضل فيها يجري تبعاً لمدى تأدية الرسالة، قال تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾(١).

إنّ الدعوة الإسلامية كانت قائمة في أساسها على العقيدة، وعلى الشريعة والمُثُل العُليا، وهي إنسانية في أساسها عالمية في نطاقها، وهي للعالمين كافة لا لأمة من الأمم ولا لجنس من الأجناس، هدفها إقامة مجتمع عالميّ تكون فيه كلمة الله هي العليا، تنظّم مجتمعاً يتحلّى بعقيدة موحدة الأساس، ومبادىء أخلاقيّة شاملة للعصور، وهي مفتوحة لجميع البشر دون شرط ولا قيد: «خير المسلمين مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده»(٢).

تلك هي النّصوص أو على الأصح جزء من النّصوص والتعاليم التي تدل بوضوح لا يحتاج معه إلى دليل، على عالميّة الإسلام. فإذا تتبّعنا التطبيق العملي لوضع عالميّة الإسلام في حيّز التطبيق وجدنا أنّ السفارات والرّسائل النبويّة كانت مجرّد مقدّمة لسياحة الإسلام في العالم: دعوة، وحضارة، وجيوشاً. وإذا أخذنا بلاد الشّام والرّوم مثلاً، فإنّه لم تمض سنة على الوفادات النبويّة والرّسائل، حتى كانت غزوة (مُؤتَة)(٣) في بلاد الشّام بأدنى البَلْقاء في جمادى الأولى سنة ثمان الهجرية. وكان سبب

---

(١) سورة الحجرات، آية ١٣.

(٢) حديث نبوي شريف، وهو حديث صحيح، رواه الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص. انظر مختصر الجامع الصغير للمناوي (١٢/٢).

(٣) مُؤتة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشّام. انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٠/٨). وهي بأدنى البلقاء. والبلقاء دون دمشق. انظر طبقات ابن سعد (١٢٨/٢).

هذه الغزوة المباشرة أنّ رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عُمَيْر الأزدِي[1] أحد بني لِهْب إلى ملك بُصْرَى بكتاب، فلما نزل مُؤْتَة عرض له شُرَحْبِيْل بن عمرو الغَسَّانيّ فقتله، ولم يُقْتَل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فاشتدّ ذلك عليه فندب الناس فأسرعوا وعسكروا بالجُرْف[2]، وهم ثلاثة آلاف، فقال رسول الله ﷺ: «**أمير الناس زيد بن حارثة**[3]، **فإن قُتل فجعفر بن أبي طالب**[4]، **فإن قُتل فعَبد الله بن رَوَاحة**[5]، **فإن قُتِل فليَرتَضِ المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم**»[6]. وهناك عند مُؤْتَة الواقعة على حُدود البلقاء إلى الشّرق من الطرف الجنوبي للبحر الميِّت، التقى المسلمون بقوات الرُّوم المتفوِّقة على المسلمين تفوّقاً ساحقاً.

ومهما تكن الخاتمة التي لقيتها معركة مؤتة، فإنّ نتائجها وآثارها كانت بعيدة المدى، فبينما رأى الرُّوم تلك المعركة غارة من الغارات التي اعتاد البدو شنَّها للنَّهب والسَّلب، كانت تلك المعركة في الحقيقة معركة من نوع جديد، لم تقدِّر دولة الرّوم أهميتها وخطورتها، فهي حرب منظَّمة كانت لها مهمّة خاصة جعلت المسلمين يتطلعون جدياً لفتح أرض الشّام[7].

---

(١) انظر سيرته المفصلة في كتاب: سفراء النبي ﷺ.

(٢) الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشّام، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٨٧).

(٣) زيد بن حارثة الكلبي: انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة النبي ﷺ.

(٤) جعفر بن أبي طالب: انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة النبي ﷺ وسفراء النبي ﷺ.

(٥) عبد الله بن رواحة: انظر سيرته المفصلة في كتاب: قادة النبي ﷺ.

(٦) طبقات ابن سعد (٢/١٢٨).

(٧) الفاروق القائد (٥٧) - ص ٤.

وفي العام التالي، أي في السنة التاسعة الهجرية (٦٣٠م)، قاد النبي ﷺ غـزوة تَبُوك[١]، ليصاول الرُّوم وحلفاءهم في عقر دارهم، فأظهر قوّة المسلمين، ثمّ عاد إلى المدينة المنوّرة ظافراً منتصرا، بعد أن أسلم عدد لا يستهان به من حلفاء الرّوم، وصالح الذين لم يُسلموا منهم النبيّ ﷺ على الجزية، وتخلّوا عن حلفائهم الرُّوم، وأصبحوا موالين للمسلمين[٢].

وفي السنة الحادية عشرة الهجريّة (٦٣٢م)، أعدّ النبيّ ﷺ جيشاً بقيادة أُسامة بن زيد بن حارثة الكلبيّ[٣] لمهاجمة الرُّوم في عقر دارهم، غير أنّ النبيّ ﷺ التحق بالرفيق الأعلى في ربيع الأول من تلك السنة (كانون الأول - ديسمبر - أول ٦٣٢م) قبل توجّه جيش أُسامة إلى هدفه، فترك عليه الصّلاة والسّلام لخلفائه خطّة واضحة المعالم، وولّى وجوههم شطر قِبْلَة عيَّنَها لهم.... وهكذا وقف الرّسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام، بثاقب نظره على أن أشد الأخطار التي يمكن أن تحلّ ببلاد العرب وتناوىء دعوته، إنّما موطنها أرض الشّام حيث الروم وعمّالهم الغساسنة، وقد أثبتت حوادث الفتح الإسلامي في بلاد الرُّوم صدق هذه الإشارة، فكان الرُّوم أشدّ المحاربين عناداً[٤].

وكان أوّل عمل نفذّه أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، بعد توليه الخلافة، إنفاذ بعث أسامة، فأدّى أسامة واجبه وعاد إلى المدينة منتصرا.

---

(١) تبوك: موضع بين وادي القرى والشام، وهو حصن به نخل وزروع وعين جارية، انظر معجم البلدان (٢/٣٦٥).

(٢) انظر التفاصيل في: الرسول القائد (٣٩٥ - ٤٠٣) - ط ٥.

(٣) انظر ترجمته في: قادة فتح أرض الشام ومصر (٣٣ - ٥١).

(٤) الفاروق القائد (٥٧ - ٥٨).

لقد كان الرسول ﷺ المخطِّط الأول للفتح الإسلاميّ، فهو الذي رسم بنفسه الخطّة التمهيديّة التي حملت جيوش المسلمين على فتح أرض الشام وتأسيس أول ركن لدولة الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية على شواطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقية، ذلك أنّ الرّسول عليه الصّلاة والسلام إلى جانب تبليغه الدعوة الإسلاميّة إلى قادة العالم في وقته، كان قائداً ماهراً يقظاً يدعم التبليغ بالتطبيق العمليّ، لتكون كلمة الله هي العليا في العالم.

وقد أكمل أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما فتح الشّام ومصر وكانتا قلعتي الرّوم في الشرق.

وكان عهد الفاروق عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، هو عهد الفتح الإسلاميّ الذّهبي، فقد حالف النصر فيه أعلام المسلمين، فامتدّت دولتهم حتى جاوزت أفغانستان إلى حدود الصين شرقاً، والأناضول وبحر قزوين شمالاً، وتونس وما وراءها من أفريقية الشمالية غرباً، وبلاد النوبة جنوباً[١]، وكل هذا الفتح أُنجز خلال عشر سنوات[٢].

إنّ الادعاء بخصوصيّة الإسلام لجزيرة العرب، وعدم عالميته، والاعتلال بذلك على عدم صحّة أخبار السّفارات والرّسائل النّبويّة، منهج خاطىء في الاستدلال التاريخي، يكشف الدوافع الحقيقيّة لحملة التّشكيك برمّتها. ذلك أنّه لا يُحكم على الوقائع التاريخية، إثباتاً أو نفياً، بما يتصوّره الباحث عن طبيعة الدين الذي ترتبط به هذه الوقائع، بل العكس هو الصحيح، وهو أنّ الوقائع نفسها مثبّتة أو منفية استناداً على التحقيق التاريخي المجرّد، هي التي تدل الباحث على الطبيعة الحقيقية للدين.

---

(١) د. محمد حسين هيكل - الفاروق عمر (٢/٢٠٠).
(٢) انظر التفاصيل في: الفاروق القائد (٩٣ - ٩٤).

ويبدو أنّ الذين زعموا أنّ الإسلام لجزيرة العرب وليس للعالم، أخذوا بالآية الكريمة: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾[١]، ولم يأخذوا بالآيات الكريمة التي تدل بصراحة ووضوح على عالميّة الإسلام، والتي نزلت بعد الآية الكريمة: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾، وهو يشير إلى تطور الدعوة الإسلاميّة: إنذار العشيرة، وإنذار قومه في مكّة ومَنْ حولها، ثم دعوة العرب في جزيرتهم، ثم دعوة الناس في العالم؛ والاقتصار على دعوة العرب في جزيرتهم بعد نزول الآيات الكريمة التي تأمر بإشاعة الدعوة لتكون عالمية، دليل على سوء نية الباحث أو جهله، أو سوء نيته وجهله معا.

وأيّ باحث منصف، يتدارس آيات القرآن الكريم والحديث النّبوي يشك أو يُشكّك في عالمية الإسلام، لا يمكن أن يتجاهل هذه الحقيقة الواضحة التي لا يمكن الاختلاف فيها، لذلك أيّد صحّة السّفارات والرسائل النبويّة مستشرقون كثيرون قبل بتلر صاحب كتاب فتح مصر، وبيوري صاحب التآليف العديدة في تاريخ الروم[٢]. «والنبي الذي حمل هذه الرسالة بادىء ذي بدء إلى أفراد قلائل من أقربائه، أرادها في النهاية قوة تسيطر على العالم أجمع»[٣]. أما قول غريمّه وكيتاني في أنّ القرآن أريد به رسالة العرب دون سواهم فإنه قول ضعيف لا يركن إليه[٤].

---

(١) سورة الزخرف، آية ٤٤.

(2) Butler, M, Arab Conguest of egypt, 139; Bury, J. b., Const, of Later Roman Empire, 11, 261.

(٣) انظر تفصيل هذا في بحث للمستشرق كولدزيهر:

Goldziher, Die Religion des islam – Die Religion des Orients, 11, 106.

(٤) د. أسعد رستم – الروم (١/٢٣٧).

إنّ وقائع التاريخ، تؤكد أنّ الإسلام قُدِّر له أن يصل إلى العالمين كما ذكرت، دعوة، وحضارة، وجيوشاً، فكيف يمكن أن تستلّ من هذا السياق المتتابع من الأحداث واقعية السّفارات النبويّة والرّسائل النبوية، فتُكَذّب؟!

وإذا أكدت عالمية الإسلام نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشّريف ووقائع التاريخ، فماذا يمكن أن نسمي إنكار عالميّة الإسلام بعد كل هذا الوضوح في النصوص أولاً، ومَنْ ثَمّ وضع تلك النصوص في مجال التطبيق العملي دعوةً وحضارة وفتوحا؟!

إنّ عالمية الإسلام لا تحتاج إلى دليل، لأنه واضح وضوح الشّمس، وإنكار عالميته وصمة عار في جبين منكريه، ووصمة عار في جبين مَن يصدِّقهم كائناً مَن يكون.

٢. معنويات الرِّسالة:

أما الدعوة بأنّ الرسول عليه الصّلاة والسّلام، كان في حالة ضعف سياسيّ وعسكري في أيام السَّفارات والرّسائل النّبوية، وأنه في ضعفه السياسي والعسكري لا يمكن أن يتطلّع إلى تحدّي القِوى العظمى من حوله وبخاصة كسرى فارس وإمبراطور الرُّوم، وهما أقوى قوتين عالميتين في حينه دون منازع، فدعوى لا يمكن التّسليم بصوابها.

فلم تكن في السّفارات النّبويّة أي تَحَدٍّ لسلطتي كسرى وقيصر في شيء، وكلّ ما في الأمر هو عرض الإسلام عليهما، ولهما حريّة الاختيار في الاستجابة للدعوة أو رفضها.

ومع ذلك، فإنّ أصحاب الرسالات من الأنبياء والرّسل، يتحلون بمعنويات عالية، تستسهل الصعب، تجتاز العقبات، وليس في حسبانها إلاّ تحقيق هدفها في نشر الدعوة. وقد استشهد قسم من الأنبياء والرّسل

وعُذِّب قسم منهم، وعُوملوا معاملة قاسية من قومهم، فما وهنوا ولا استكانوا، ولم يكن النبيّ عليه الصّلاة والسّلام بدعاً من الأنبياء والرّسل الذين سبقوه ولا أقل منهم جهاداً واستبسالاً في نشر الإسلام. إنّ الأنبياء والرّسل يبلِّغون رسالة الله ويصدرون عن أمره تعالى، ولا تهاون في رسالة الله تعالى وتبليغ أوامره مهما يتهدّدهم الخطر أو يتحملوا من صِعاب، فلا مجال في مقارنة معنويات الأنبياء والرّسل بغيرهم من سائر الناس.

وبالنسبة للنبي ﷺ بالذّات، فقد تعرّض بعد بعثته لأخطار جسام قبل إيفاده سفراءه إلى الملوك والأمراء، ولعلّ السّفارات النّبويّة من أقلّها خطراً عليه وعلى الإسلام.

لقد كانت التقاليد السّائدة في حينه، أنّ السّفراء لا يُقتلون، ولم يُقتل للنبي ﷺ غير سفير واحد، أما سائر سفرائه فقد سَلِموا وعادوا إلى المدينة بعد قيامهم بواجباتهم كاملة في سفارتهم. فأين الخطر المحدق بحياة هؤلاء السفراء النّبويين، إذا قارنا ذلك الخطر المتوقّع بالخطر الذي كان يتهدّد الإسلام والمسلمين قبل نشوب القتال في غزوة بدر الكبرى مثلاً التي كانت في السنة الثانية الهجرية؟؟

لقد بلغ تَعداد المسلمين الذين قاتلوا في بدر (٣٠٥) مجاهدين، وكان تعداد المشركين (٩٥٠) مقاتلاً.

وكان مع المسلمين فَرَسان فقط، وكان مع المشركين مائتا فرس.

والنتيجة أنّ تفوّق المشركين على المسلمين في العدَد والعُدَد تفوّق ساحق، وبخاصة في المقاتلين، إذ كان المسلمون ثلث المشركين، وفي الخيل التي كانت تعتبر العُدّة الضاربة في الحروب القديمة، وسبباً من الأسباب الحاسمة لانتصار المتفوق بها على خصمه.

وكان عليه الصلاة والسّلام يدرك الأخطار المحدقة بالمسلمين والإسلام

من جراء تفوق المشركين الساحق على المسلمين، لذلك كان يردِّد في دعائه: «**اللّهم إنْ تُهلِك هذه العِصابة لا تُعبد بعدها في الأرض**». ومع ذلك أقدم النبي ﷺ على خوض هذه المعركة الحاسمة بشجاعة فائقة وإقدام نادر، ثقة بالله تعالى وبنصره.

فأين أخطار قبول الزج بالمسلمين في معركة غير متكافئة لصالح المشركين على المسلمين كغزوة بدر الكبرى، تلك الأخطار المصيرية التي تودي في حالة انتصار المشركين على المسلمين في تلك المعركة الحاسمة، إلى القضاء المبرم على الإسلام والمسلمين نهائياً وإبادة المسلمين عن بكرة أبيهم؛ أين أخطار تلك الغزوة المصيرية، من أخطار إيفاد السفراء إلى الملوك والأمراء، والتي لا تزيد في أسوأ الأحوال والاحتمالات، على قتل السفراء الذين لا يزيد عددهم على عدد أصابع اليدين، فلا يؤثّر في مصير المسلمين، في حاضرهم ومستقبلهم في شيء.

والذي يقبل أن يزج بالمسلمين في غزوة بدر في تلك الظروف القاسية والأخطار المحدقة ويُقدم على خوض معركتها مُقْبلاً غير مُدبر، لا يمكن أن يتأخر عن مهمة كالّسفارات والرّسائل النبوية، لأنّ أخطار السّفارات والرّسائل النبوية لا يمكن أن تُعَدّ شيئاً مذكوراً بجانب أخطار الاقدام على غزوة بدر الكبرى، مهما اختلفت الموازين والمقاييس المادية والمعنوية.

والذين تتبعوا بالدراسة والفهم حياة النبي ﷺ منذ مبعثه حتى موعد إرسال السّفراء النبويين إلى الملوك والأمراء، يلمس بوضوح أنّ الصعاب والعقبات التي تخطّاها عليه الصّلاة والسّلام، والأخطار والأهوال التي تقبلها صابراً محتسباً، هي أكبر وأعظم من الأخطار المتوقّعة من السّفارات النّبوية، فالذي لم يكترث بكل تلك المعضلات الهائلة التي صادفته قبل إيفاد سفرائه، لا يمكن أن يُحجم في حال من

الأحوال عن إيفاد سفرائه أو يكترث بأخطار السّفارات النبوية المحتملة.

ومع ذلك، فقد كان في وقت إيفاد السّفارات أقوى مما كان عليه قبل إيفادها، وحياته العملية في ميداني السّلام والجهاد خير دليل على ذلك.

ثم إن الدعوة إلى الإسلام بطريق السّفارات والرسائل النبوية، هي من أعمال النبوّات ومن صميم واجبهم، وليست من قبيل التّحدي العسكري أو السياسي، فتخضع لمقاييسه الدنيوية. وقديماً دعا موسى عليه السّلام فرعون وهو في قمة تألهه، كما واجه عيسى عليه السّلام بني إسرائيل من يهود وواجه الرومان، فما وجدنا من باحثي الغرب مَن استغرب ذلك عليهما.

تُرى! أكان موسى وعيسى عليهما السّلام قويين حين واجها ما واجها من أخطار جسام!!

كما أن الإسلام بعد صلح الحُدَيْبِيَّة، أي بعد السنة السّادسة الهجرية، لم يعد ضعيفاً كما كان من قبل فالحديبية كانت بداية المدّ الإسلامي من المدينة المنوّرة إلى داخل الجزيرة العربية وخارجها. وأعقبت الحديبية عُمْرَة القضاء ثم فتح مكّة المكرّمة، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام متثبتاً من موقفه متأكداً من نصر الله، يتحلّى بالمعنويات العالية التي لم تفارقه لحظة في حياته، وقد بشّره الله سبحانه وتعالى بالفتح القريب. ويظهر هذا التثبيت واضحاً في رسالة النبي ﷺ إلى هَوْذة بن عَليّ أمير اليمامة في شرقي الجزيرة العربية، إذ يقول فيها: «**واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر**»(١)، أي إلى أقصى حد تصل إليه الركائب، ومثل هذا القول لا يصدر عن ضعيف، بل يصدر عن واثق

---

(١) القلقشندي (٦/٣٧٩).

بالله ثقة بغير حدود، يتحلّى بالمعنويات العالية التي يؤجّجها الدين الحنيف والعقيدة الراسخة والثقة بالله تعالى.

ولا صحّة لادعاء ميور[1] وأمثاله، «بأن الدولة الرومانية الشرقية، كانت تعاني من التمزّق المذهبي بين الملكانيين واليعاقبة والنسطوريين»، لذلك كانت الإمبراطورية ضعيفة، وأنّ القوى العُظمى: الرّوم، والفرس، والحبشة، لم تكن بالقوى المتخيلة لها في حينه، إذ تتابعت الحروب بين الروم وفارس، ومنيت فارس بهزيمة على يد هرقل في الأشهر التي سبقت عام الرّسل النّبويين[2]!! فالواقع أن الاختلافات المذهبية كان لها أثر محدود على الروم، ولذلك انتصروا على الفرس، ولو كان لتلك الاختلافات أثرها الفاعل لما انتصر الروم على الفرس؛ كما أنّ الفرس كانوا يُحكمون من ملك يُعتبر من أعظم الأكاسرة، وقد انتصر على الرّوم انتصارات عظيمة، وهدّد القسطنطينية بالسّقوط في يديه، كما أن الروم كانوا يحكمون من امبراطور يُعتبر من أعظم أباطرتهم، إذ قاد الإمبراطورية إلى النصر واستعاد البلاد التي استولت عليها فارس، والادعاء بضعف الدولتين العظميين في حينه: الروم، وفارس، وبضعف الحبشة، هدفه سلب الإسلام أثره وتأثيره في العرب، بحيث جعلهم يفتحون بلاد فارس كافة ويقضون على الامبراطورية الساسانية من جهة، ويفتحون أهم البلاد

---

(١) وليام ميور - حياة محمد (٣٥٤).

(٢) كنت من الذين صدقوا هذا الادعاء قبل ثلاثين سنة، والآن ظهر لي خطأ هذا الرأي وبعده عن الواقع لذلك كتبت ما كتبت في رده وتصويبه.

التي كانت تحت حكم الإمبراطورية البيزنطية: أرض الشّام، ومصر، وليبيا، وتونس. وإلاّ لو كانت الفرس والرّوم والأحباش ضعفاء، فأين كان العرب قبل الإسلام، ولماذا لم يفتحوا بلداً صغيراً أو كبيراً من بلادهم، بل لماذا كان المناذرة في العراق، والغساسنة في الشام، وعرب اليمن، يدينون للفرس والروم والأحباش ويخضعون لحكمهم وسيطرتهم، إذا كان الروم والفرس والأحباش ضعفاء!!

إنّه انتصار الإسلام، لا انتصار العرب فحسب، وهذا هو واقع التاريخ، والادعاء بضعف الروم والفرس والأحباش ضعفاً هيأ للعرب فتح بلادهم، ليس ثناء على عبقرية العرب كما يُظن، بل غمط لأثر الإسلام في العرب وأثره في النصر.

إنّهم بهذا الإدّعاء لا يحبّون العرب، ولكنهم يكرهون الإسلام، وكان الثناء على العرب حرّياً أن يسرّني باعتباري عربياً أصيلاً لا من قوارير، ولكن العاطفة شيء، وواقع التاريخ شيء آخر، وما مدح العرب مَنْ ذمَّ الإسلام بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة.

لقد كان الروم والفرس أقوياء، وكان الأحباش أقوياء أيضاً، حين تسلموا الرسائل النبوية واستقبلوا سفراء النبي ﷺ، ومبادرة النبي عليه الصلاة والسّلام بدعوتهم إلى الإسلام وهم في أوج قوتهم دليل على صدق نبوّته وعلى عالمية الإسلام، وعلى تمتّعه بالمعنويات العالية التي هي معنويات الأنبياء والرسل، تلك المعنويات التي تبذل قصارى جهدها في تبليغ رسالة الله، غير مكترثة بحسابات الزمان والمكان، والقوّة والضعف، والنجاح والاخفاق، فعليها التبليغ وحده، والباقي على الله.

٣. التوثيق التاريخي:

لعلّ من أغرب ما أورده المشكّكون في أمر السّفارات والرسائل النّبويّة، ما زعمه كيتاني من أنّ ابن هشام في سيرته النّبويّة، لم يورد

لابن إسحق مصدره الرئيس خبراً عن الرسائل النبوية، واعتبر ذلك سكوتاً من ابن اسحق، وبالتالي إضعافاً للخبر(١).

ولست أدري أيّة طبعة لابن هشام اعتمد عليها كيتاني لأنّ الطبعة التي بتحقيق السّقا قد أوردت خبر السَّفارات النَّبويّة والرّسائل النّبويّة بروايتين: أحدهما لابن هشام بسنده عن أبي بكر الهُذَلِيّ، والثانية لابن اسحق بسنده عن أبي حبيب المصري(٢).

وما يقال عن السيرة النبوية بتحقيق السّقا، يقال عن السيرة النبوية بتحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد(٣).

على أنّ خبر السّفارات النبوية والرّسائل النبوية، قد استفاض كما ذكرتُ ذلك، في كتب السِّيرة جميعاً، بل وفي كتب الحديث كافة، ومنها أُمّهات كُتب الحديث التي تعلو كتب السِّيرة في مقام التوثيق كما هو معلوم.

كما أن السَّفارات والرّسائل النّبويّة لها توثيقات من غير هذا الوجه، لا يستطيع كيتاني وأمثاله التّشكيك فيها بحماسة واندفاع، لأنّها غير إسلاميّة!!

من ذلك، أنّ المراجع التاريخية غير العربية والإسلاميّة، المختصّة بتاريخ الجهات التي راسلها النبيﷺ قد أكّدت هذه الأخبار. فخبر الكتابة إلى هرقل يذكره جيبون في كتابه المعروف: (انهيار الدولة الرومانية وسقوطها)، مستنداً في ذلك إلى مصادر يونانية متعدِّدة(٤).

---

(١) كيتاني (٧٢٥/١)، وانظر: J.A.S. Jammary 1940, P. 59.

(٢) ابن هشام – السيرة النبوية – تحقيق السقا (٢٥٤/٤ – ٢٥٥).

(٣) السيرة النبوية – تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد (٢٧٨/٤ – ٢٧٩).

(4) Gibbon., Decline and fall of the Roman Empire, ch. 50.

وانظر بوجه خاص مصادره التي اعتمدها في إبراز الخبر.

وخبر الكتابة إلى المقوقس، أورده أبو صالح الأرمنيّ في كتابه: (كنائس مصر وأديرتها) الذي كتبه في القرن السّادس الهجري[١].

ولا يجوز التقليل من أهميّة الشهادة التي توردها هذه المراجع وأمثالها، ذلك لأنّها تذكر مصادر لأخبارها غير المصادر العربية والإسلامية، ثم إنّها لا يمكن أن تُقرّ خبراً آتياً من مصدر عربي إسلامي لو وجدت ما يعارضه في مصادرها المحلية؛ بل لو أنها لم تقتنع به اقتناعاً كاملاً وكان متواتراً مشهوراً لا غبار عليه، لما اثبتته في كتبها دون الشك أو التشكيك فيه، وبخاصة وهي غير إسلامية لا علاقة لها بالحادث والحديث.

ومن التوثيقات أيضاً، أن بعض التفصيلات التي تضمّنتها أخبار السَّفارات والرّسائل النَّبويّة، قد أكّدها الواقع والعيان. مثال ذلك ما ورد من أن المقوقس أهدى رسول الله ﷺ جاريتين هما مارية وسيرين أو (شيرين)، فالمعروف بلا خلاف أنّ رسول الله ﷺ قد تزوّج مارية وأنجب منها ابنه ابراهيم الذي توفي عام تَبُوك، وأنّ سيرين قد تزوجها حسَّان ابن ثابت شاعر النبي ﷺ فأولدها عبد الرحمن بن حَسَّان، فهو وابراهيم ابن رسول الله ﷺ ابنا خاله[٢].

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما ورد في صحيح البخاري، من أنّ النبي ﷺ دعا على كسرى أن يمزّقه الله تعالى كما مزّق الرِّسالة النّبويّة، وقد ثبت تاريخياً أنّ كسرى أَبَرْوِيز (٥٩٠م - ٦٢٨م) الذي عناه النبي ﷺ قد قتله ابنه شيرويه وتولى العرش مكان أبيه في نفس التاريخ الذي أوردته المصادر العربية والإسلامية[٣]، ولم يرق لمارجليوث التوافق بين الواقع

(١) أبو صالح الأرمني - كنائس مصر وأديرتها - تحقيق إيفات - ص (١٠٠).
(٢) أسد الغابة (٦/٢).
(٣) الطبري (٢/٢١٥-٢٢٩)، وانظر ايران في عهد الساسانيين (٤٢٧-٤٧٧) وتاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء (٥٣-٥٤).

التاريخي وبين مدلول الدعاء النّبوي وما ذكرته المصادر العربية الإسلامية حول هذا التوافق، فعلل الأمر بأنّ عيون الرسول (عليه الصلاة والسّلام) المبثوثة في كل مكان، قد نقلت إليه الخبر[٣]. وكل مَنْ له عقل، يعرف أنّ ذلك لا يمكن أن يحدث في العصور الغابرة قبل خمسة عشر قرنا، وحتى في العصر الراهن، بعد تطوّر الوسائط السلكيّة واللّاسلكية، وانتشار أجهزة المخابرات، لا يمكن أن يكون لايه دَولة من الدول عيون مبثوثة في كلّ مكان!!

والعجيب أنّ كيتاني قد قال في ابن اسحق ما لم يقله مالك في الخمر، واتّهمه بالكذب والتزوير خلافاً للواقع، فهو لا غبار على ثقته وصدقه، ولكن كيتاني يحتج بابن اسحق حين يريد أن يثبت سموم الشك والتشكيك في صحة الشّفارات النّبويّة و الرسائل النبوية، فكيف نوفّق بين التشكيك في صدق ابن إسحق كما زعم كيتاني وأضرابه كذباً - والاحتجاج بابن اسحق في نفس الوقت؟!

ومع ذلك، فقد كذب كيتاني بادعائه بأنّ ابن اسحق لم يذكر قصّة الرسائل النبويّة، فقد ذكرها ابن اسحق، وهذه هي السِّيرة النبوية لابن هشام، في مختلف طبعاتها، تسجل كذب كيتاني وأضرابه الصّريح.

ويبقى هذا السؤال: لماذا يُقدم هؤلاء على تحمّل أوزار مثل هذا الكذب الصريح! أيمكن أن نطلق على الكذب المكشوف غير هذه الصفة المخجلة التي يجب أن يترفّع عنها العلماء؟ ثم أيمكن أن نُلبس مثل هذا الكذب ثوب الدراسات الموضوعيّة والبحوث العلمية والمنهجيّة في التأليف؟

ولا نستكثر على كيتاني وأمثاله مثل هذا الكذب المكشوف، فكلّ

---

(١) مارجليوث - محمد (٣٦٨) انظر: Browne, Literary History of Persia, Vol. I, P.: 183.

دراساتهم مشحونة بالاكاذيب المبطنة أو المكشوفة، ولكنّنا نستكثر على المبهورين بهم من الدارسين العرب والمسلمين أن يبقوا مبهورين بهم بالرغم من انكشاف أمرهم، ويعتبروا مؤلفاتهم مراجع معتمدة لهم، وفيها ما فيها من تشكيك وتضليل وضلال وكذب وافتراء.

٤ . التفاصيل الأسطوريّة:

أما رفض أخبار السّفارات والرّسائل النبوية جملةً وتفصيلاً، لاشتمالها على تفاصيل لا يثبت بعضها للتمحيص التاريخي، فغريب جداً، لأن المفروض أن يبقى أصل الخبر ثابتاً ومُسَلَّماً به ما دامت الأدلّة قد قامت على صحّته، ثم يجتهد الباحث في تمحيص التفاصيل. وهذا المنهج في التّحقيق هو الذي يتّبعه علماء المسلمين في دراسة أخبار السِّيرة النّبويّة وغيرها، إذ من المعلوم أنّ في السِّيرة النّبوية أخباراً أساسيّة قد ثبتت إما بالكتاب، وإما بالسُّنّة، وإما بالدّليل التاريخيّ الواضح. فهذه هي أصول السِّيرة النّبويّة وأخبارها المعتمدة، وفيها بعد ذلك أخبار وتفاصيل يجتهد الباحث في دراستها، فيوثّق أو يرجّح أو يتحفّظ وفقاً للأدلة المنطقية دون تحيّز أو انحياز.

ومن الأمثلة التي أُثيرت في هذا الصّدد، مسألة السّفراء الذين أوفدهم النبي ﷺ، وكيف أنّهم أصبحوا بعد ليلة التّكليف بالسّفارة وقد عرفوا لغات من أُرسلوا إليهم عن غير سبق تعلّم. يقول المشكّكون: إن هذا الخبر ورد هكذا في طبقات ابن سعد الذي يصرّح بأن ما حدث كان معجزة للنبيّ ﷺ، كما أن هذا الخبر ورد عند غير ابن سعد أيضاً، وهم يستبعدون الخبر ويعتبرونه من صُنع الرُّواة مُضَاهَاةً لخبر مشابه على السيِّد المسيح عليه السّلام، وقد أرسل حواريين لنشر تعاليمه، فأصبحوا أيضاً وقد تعلّموا لغة مَن أُرسلوا إليهم[1].

(١) دبلوماسية محمد (٥٨).

وقد علّق الأستاذ الشيخ الندويّ على ذلك فقال ما نصه: « يشير كلام ابن سعد في الطبقات والسيوطي في الخصائص الكبرى، إلى أنّ ذلك كان على سبيل المعجزة، فجاء فيما ساقاه من الرواية:.... فأصبح كلّ واحد يتكلّم بلغة البلاد التي أرسل إليها.....

« والمؤلف حين لا يستبعد وقوع المعجزة، فسيرة الرسول ﷺ وسيرة الأنبياء قبله مليئة بالمعجزات وخوارق العادات، وإنكارها من المكابرة - يرجّح أنّ ذلك كان مبنياً على الحكمة وحسن الاختيار من رسول الله ﷺ، فلم يكن وجود مَنْ يحسن اللّغة الروميّة، واللغة الفارسيّة، ولغة الأقباط في مصر، ولغة أهل الحبشة، غريباً: لكثرة اختلاط العرب بهذه الأمم الأربع، وكثرة رحلاتهم التجارية إلى هذه الأقطار وتنقلاتهم فيها؛ وكانت القضيّة محدودة بهذه اللّغات الأربع، إذ كانت لغة أمراء الجزيرة العربية ورؤساء القبائل الذين كتب إليهم رسول الله ﷺ كتبه، ودعاهم إلى الإسلام، اللّغة العربيّة »[1].

ولكنّ هذا الخبر، في سيرة ابن هشام، معزوٌ إلى حواريي المسيح عليه السّلام وليس إلى سفراء النبي ﷺ، إذ يقول ابن هشام: « .... فقال أصحاب الرسول: وكيف اختلف الحواريّون على عيسى بن مريم؟ قال: **دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما مَنْ بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلّم، وأما مَنْ بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتثاقل، فشكا ذلك عيسى إلى الله، فأصبح المتثاقلون وكلّ واحد منهم يتكلّم بلغة الأمّة التي بُعث لها** »[2]. فالذين أصبحوا يتكلّمون لغات مَن أُرسلوا إليهم، وفقاً لهذا النصّ، هم الحواريون بلا لبْس. فإذا قبلنا رواية ابن هشام هذه، وحملنا

---

(١) السيرة النبوية (٣٢٣ - ٣٢٤).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٤/٢٥٤ - ٢٥٥).

ما عداها من الروايات عليها، انتهت المسألة، ولم تقم شبهة التقليد[1]، لأن ابن هشام توفي سنة (٢١٥ هـ) وابن سعد توفي سنة (٢٣٠ هـ) وابن هشام متقدم على ابن سعد في التأليف.

وقضية (التقليد) التي لا يكاد قسم من المستشرقين يجدون تشابهاً بين الإسلام والمسيحية، أو يسمعون قولاً قاله النبي ﷺ يشابه قول السيد المسيح عليه السّلام، أو يجدون عملاً عمله النبي ﷺ يوافق ما عمله السيد المسيح عليه السّلام، إلاّ واتّهموا الإسلام بالتقليد وأنّه مقتبس من النّصرانية. ونسُوا أنّ مصدر الدينين السماويين هو الله تعالى، فأبقى ما أبقى من تعاليم المسيحية ونسخ ما نسخ بحكم التّطور الزمني، وليبقى الإسلام صالحاً لكلّ زمان ومكان، وليكون النبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين. وما يقال عن وجود بعض التشابه بين تعاليم الإسلام وتعاليم المسيحية، يقال عن وجود بعض التشابه بين الأديان السماوية الأخرى، لأنّ مصدرها واحد، والتغيير بين السّلف والخلف تغيير بحكم التطور الزمني، فليس هناك تقليد كما يظن قسم من المستشرقين عن حسن نية أو عن سوء نيّة، فالله أعلم بالسّرائر. ومن الأمور الدينية التي لا تتطور، وبقيت على ما كانت عليه منذ آدم عليه السّلام أوّل الأنبياء، إلى النبي ﷺ هي عقيدة التوحيد، فهذه الحقيقة الأزلية باقية خالدة، فما قلّد الأنبياء بعضهم بعضاً في هذه العقيدة الخالدة والحقيقة الأزلية الباقية، بل هي من عند الله يوحي بها إلى أنبيائه ورسله بالتّعاقب، فلا يُقال: إنّ اعتناق عقيدة التوحيد تقليد. ولو أنّ النبي ﷺ قلّد السيد المسيح حقاً، لما ذكر السيد المسيح عليه السلام واخفى أمر تقليده، ولكنّه جاهر بها، لأنها ليست من عنده بل من عند الله سبحانه وتعالى،

---

(١) المؤرخ العربي (٢٥١ - ٢٥٢) - العدد (٢٣) - ١٩٨٣).

فالمصدر واحد، والوحي واحد، وليس هناك مُقَلِّد ومُقلَّد بين الأنبياء، وليس هناك تقليد، كما يصرّ عليه قسم من المستشرقين خطأً لا مسوِّغ له.

وفي حادثة السفارات النّبويّة بالذات، التي ذكر النبيّ ﷺ أنّه كان ما يشابهها في سفارات السيد المسيح، اجتهد بعض المؤلفين المسلمين فجعلوا منها معجزة للنبي ﷺ كما كانت معجزة للسّيد المسيح عليه السّلام في حينه، بينما اعتبرها بعض المؤلفين المسلمين للعبرة فحسب وليس فيها معجزة،لأن قسماً من حواريي السيد المسيح عليه السّلام تثاقلوا وخالفوا،ولم يكن بين سفراء النبي ﷺ تثاقل ولا خلاف، فليس في الأمر معجزة لإيقاف المتثاقلين والمخالفين عند حدودهم، وحثّهم على التنفيذ، فالأمر كلّه اجتهاد من المؤلفين وحدهم، ولست مع الذين اعتبروا في الأمر معجزة، مع اعترافي الصادق وإيماني العميق بمعجزات الأنبياء، لأن سياق الخبر لا يدل على وجود معجزة من المعجزات، كما لا مسوِّغ للمعجزة في حالة السّفراء النّبويين، لأنه لم يتثاقل منهم أحدٌ ولم يُخالف، ولكن إذا اعتبرنا في الأمر معجزة، فلماذا يُقرّ هذه المعجزة أولئك المستشرقون المشكّكون للسيد المسيح عليه السلام، ولا يُقرّونها للنبي ﷺ!!

هكذا بكل بساطة، يصح لدى قسم من المستشرقين، أن يكون هناك شتاء وصيف، في زمن واحد، ومكان واحد، وهم مستعدون على إثبات وجود النّقيضَيْن، بأساليبهم في البحث العلمي المزعومة، وبمناهجهم في الدراسات التاريخية المفتعلة، ما دام ذلك يؤمّن لهم تفريغ حقدهم الدفين على الإسلام والمسلمين، ويزرع الشك والتّشكيك في عقول الدارسين والباحثين.

وعلى فرض توجيه هذا الخبر الذي ذكره النبي ﷺ عن عيسى عليه

السّلام، إلى سفراء النبي ﷺ، فإنّ معظم مَن راسلهم النبي ﷺ كانوا عرباً من الجزيرة العربية، فإن المسألة تبقى محصورة في أربعة سفراء إلى كسرى، وهرقل، والمقوقس، والنّجاشي، وقد استدعى هرقل الترجمان، كما استدعى المقوقس كاتباً يعرف العربية لكتابة الردّ، فلا يستبعد أن يكون قد قام بالترجمة أيضاً.

أما السّهْمِي، فقد وجّه أولاً إلى المنذر بن سَاوَى حاكم البحرين ليُيَسِّر له قدومه على كسرى، فلا يستبعد أن يكون المنذر قد زوّده بمن يترجم له، وإلاّ فهل في معرفة أحد العرب بلغة فارس المتاخمة للبلاد العربية ما يدعو إلى العجب!

أما الضّمري الذي اختير سفيراً للحبشة، فقد كثرت أسفاره إلى أرض الحبشة، فلا يستبعد أن يكون على إلمام بالحبشية.

وقد كان للفرس والرُّوم والاقباط والأحباش، علاقات مباشرة بالعرب، لا يستطيع أن ينكرها أحد: علاقات اقتصادية في التجارة بخاصة، وعلاقات سياسية في تحالف الغساسنة مع الرّوم، والمناذرة مع الفرس، وعرب اليمن مع الأحباش، فليس من المعقول ألاّ يكون مع كسرى وقيصر والنجّاشي والمقوقس مَن يترجم لهم من العربية إلى لغاتهم، فلا مشكلة من ناحية التفاهم المطلق بين سفراء النبي ﷺ، وهؤلاء الملوك من غير العرب.

وسواء أصحّت رواية ابن هشام التي تصرف الخبر عن سفراء النبي ﷺ، أم جرى اختيار السّفراء النّبويين عن حسن تدبير، فَوُجِّه إلى كلّ جهة السّفير الذي يعرف لغتها، أم أنّ القصّة تنطوي على معجزة للرسول ﷺ تشبه معجزة السيد المسيح عليه السّلام، فإنّ الموضوع برمّته من أمور التّفصيلات، التي إن صحّت وإنلم تصحّ، فلا تأثير لها في صحّة أصل خبر السفارة، إذ يبقى الخبر صحيحاً في الحالتين، فالأصل باق

حتى في حالة الاختلاف في التفاصيل[1].

وما يقال عن قصّة اللّغات، يُقال عن سائر التّفصيلات.

٥. اختلاف التّوقيت:

والحجة الأخيرة التي أطلقها المستشرق (ڤيل Weil) ولكن عمّقها مَنْ تابعه من باحثي الغرب[2].

وخلاصتها، أنّ إيفاد السّفراء النّبويين قد وقع في نهاية السنة السادسة الهجريّة، أو أوائل السنة السابعة الهجرية. ومع ذلك، فإن ثلاثاً من الرّسائل النّبويّة، وهي رسائله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل والمقوقس والنّجاشي، قد تضمّنت آية كريمة، يقال إنّها نزلت في السنة التاسعة الهجرية في وفد نصارى نَجْران، وبها يحصل التناقض الذي يدعو إلى الشّك.

والآية الكريمة التي يشير إليها أصحاب هذا الرأي، هي الآية (٦٤) من سورة آل عمران، وهي قوله تعالى: **﴿قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾**[3].

والمصدر الذي يعتمدونه لبيان نزول الآية الكريمة في وفد نجران في السنّة التاسعة الهجريّة، وهو تفسير الطبري (ت ٣١٠ هـ)وتفسير ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ)، ويستبعد المشكّكون القول بتعدّد النزول.

---

(١) المؤرخ العربي - العدد (٢٣) لسنة ١٩٨٣ - (٢٥٠ - ٢٥٢).
(٢) انظر وليام ميور - حياة محمد - (ص ٣٥٧ الهامش)، ودبلوماسية محمد (١١).
(٣) سورة آل عمران، آية ٦٤.

أما أنّ إيفاد السُّفراء النّبويين إلى الملوك والأمراء قد حدث في السنة السّادسة الهجريّة، فقول وارد، وبه قال ابن سعد والواقدي، وحدّدا لذلك شهر ذي الحجّة من تلك السنة، وإن كان لقسم من المؤرخين اجتهادات أخرى في تقدير الزّمن، إذ لا يستبعد ابن كثير التوقيت الذي ذكره ابن سعد والواقدي ويعتبره محتملاً، ولكنّه يوسّع المدة فيقول: «إن بدء ذلك كان قبل فتح مكة وبعد الحُدَيْبيَّة»، وابن اسحق يعتبر التوقيت: «فيما بعد الحديبية ووفاة الرّسول»، وفي دراسة للشيخ محمد أبو زهرة رجّح المدة بين عُمْرة القضاء في السنة السّابعة الهجريّة وغزوة مُؤْتة في السنة الثامنة الهجريّة[1]. والذي يتلخّص لنا من ذلك أنّ الإيفاد قد استغرق زمناً، وأنّه بعد الحديبية على أي حال، مما يجعل السنة السّادسة الهجريّة واردة في معرض هذا البحث، ولو باعتبارها لبدء السّفارات النبويّة، وفيها حُرِّرت الرّسائل النبويّة أو بعضها.

وأما أنّ آية آل عمران التي وردت في الرّسائل النبويّة قد نزلت في وفد نصارى نَجْران في السنة التاسعة الهجرية، فقول غير مُسَلّم به، لأن الطبري الذي اعتمد عليه أصحاب هذا الرأي قد ذكر ثلاثة أقوال في سبب النزول.

أولها: أنها نزلت في يهود.

وثانيها: أنّها نزلت في نصارى نجران.

والثالث: وهو الراجح لديه، أنها نزلت في يهود والنّصارى جميعاً.

وقال أبو جعفر الطبري: «يعني بذلك جلّ ثناؤه، قل يا محمّد لأهل

---

(١) طبقات ابن سعد (١/٢٥٨) والسيرة لابن كثير (٣/٢٩٤)، وخاتم النبيين للشيخ محمد أبو زهرة (٢/١١٥٥).

الكتاب، وهم أهل التوراة وأهل الانجيل...»، وقال بعضهم: «نزلت في يهود بني إسرائيل الذين كانوا حوالي المدينة»، وذكر قتادة: «أنّ نبيّ الله ﷺ دعا يهود أهل المدينة إلى الكلمة السواء»[١]. وقال: «بل نزلت في الوفد من نصارى نجران»[٢]، وهو رأي من بين آرائه الثلاثة، لم يرجِّحه على الرأيين الآخرين، ولم يركِّز عليه تركيزه على الرأيين الآخرين.

أما ابن كثير في تفسيره[٣]، فيؤكّد، أنّ الخطاب: ﴿قل يا أهل الكتاب﴾ يعمّ أهل الكتاب من يهود ونصارى ومَن جرى مجراهم[٤]، وسأنقل نص ما قاله ابن كثير لفائدته: «هذا الخطاب يعمّ أهل الكتاب من اليهود والنّصارى ومَن جرى مجراهم، ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ﴾، والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال ههنا، ثم وصفها بقوله: (سواء بيننا وبينكم)، أي عدل ونصف نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسّرها بقوله: (أن لا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً)، لا وثَناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيء، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرُّسل، قال تعالى: ﴿وما أَرْسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا

---

(١) تفسير الطبري (٣/١٩٣-١٩٥) - القاهرة - بلا تاريخ، وتفسير الطبري بتحقيق شاكر (٦/٤٨٣-٤٨٥).

(٢) تفسير الطبري (٣/١٩٤) وتفسير الطبري بتحقيق شاكر (٦/٤٨٤).

(٣) ابن كثير - تفسير ابن كثير - مطبعة المنار بمصر - ١٣٤٣ هـ.

(٤) تفسير ابن كثير (٢/١٥٩).

(٥) سورة الأنبياء، آية ٢٥.

الطاغوت﴾[1] ثم قال تعالى: ﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾. وقال ابن جُريج: يعني يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله. وقال عِكْرمة: يسجد بعضنا لبعض، ﴿فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾، أي فإن تولّوا عن هذا النصف وهذه الدّعوة فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم. وقد ذكرنا في شرح البخاري عند روايته عن طريق الزُّهري عن عبيد الله بن عبدالله بن عُتْبة بن مسعود عن ابن عبّاس عن أبي سفيان في قصته حين دخل على قيصر، فسأله عن نسب رسول الله ﷺ وعن صفته ونعته وما يدعو إليه، فأخبره بجميع ذلك على الجليّة، مع أنّ أبا سفيان إذ ذاك كان مشركاً لم يُسلم إلاّ بعد، وكان ذلك بعد صلح الحديبيّة وقبل الفتح كما هو مصرّح به في الحديث، ولأنّه لما سأله: هل يغدر؟ قال: فقلت لا، ونحن منه في مدّة لا ندري ما هو صانع فيها، قال: ولم يمكنني كلمة أزيد فيها شيئاً سوى هذه. والغرض إنّه قال: ثم جِيء بكتاب رسول الله ﷺ، فقرأه فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمّد رسول الله.

إلى: هرَقل عظيم الرّوم.

سلام على مَن اتّبع الهدى. أما بعد، فأسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن تولّيت فإنما عليك إثم الأريسيين، و﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أن لا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون﴾.

---

(١) سورة النحل، آية ٣٦.

«وقد ذكر محمد بن إسحق وغير واحد، أنّ صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران. وقال الزُّهـري: هم أوّل مَن بذل الجزية، ولا خلاف أنّ آية الجزية نزلت بعد الفتح، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هرقل في جملة الكتاب، وبين ما ذكره محمد بن إسحق والزُّهَيْريّ؟ والجواب من وجوه: (أحدها) يحتمل أنّ هذه الآية نزلت مرتين، مرّة قبل الحديبية، ومرّة بعد الفتح. (الثاني) يحتمل أنّ صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلى هذه الآية، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك، ويكون قول ابن إسحق إلى بضع وثمانين آية ليس بمحفوظ، لدلالة حديث أبي سفيان. (الثالث) يحتمل أنّ قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية، وأنّ الذين بذلوه مصالحة عن المباهلة لا على وجه الجزية، بل يكون من باب المهادنة والمصالحة، ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك على وفق ذلك، كما جاء فرض الخمس والأربعة أخماس وفق ما فعله عبدالله بن جحش في تلك السريّة قبل بدر، ثم نزلت فريضة القسم على وفق ذلك (الرابع) يحتمل أنّ رسول الله ﷺ لما أمر بكتب هذا في كتابه إلى هرقل لم يكن نزل بعد، ثم أنزل القرآن موافقة له صلى الله عليه وسلم كما نزل بموافقة عمر ابن الخطّاب في الحجاب، وفي الأسارى، وفي عدم الصّلاة على المنافقين، وفي قوله: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلّى﴾[1]، وفي قوله: ﴿عسى ربّه إنْ طلّقكنّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكنّ﴾[2] الآية»[3]، وعلى ذلك فإن ابن كثير يرى أنّ الآيات التي نزلت في وفد نجران من سورة آل عمران انتهت بالآية (٦٣)، أي السّابقة للآية المدروسة وهي الآية

(١) سورة البقرة، آية ١٢٥.
(٢) سورة التحريم، آية ٥.
(٣) تفسير ابن كثير (٢/١٥٩-١٦١).

(٦٤) من سورة آل عمران. كما يرى احتمال نزول هذه الآية (٦٤) مرتين: مرة قبل الحديبيّة، ومرّة بعد الفتح.

والاحتمالات الأخرى التي ذكرها ابن كثير حول هذه الآية الكريمة واضحة.

وقد ذكر الإمام البَغَوِيّ (ت٥١٦ هـ) في تفسيره، نصّ كتاب النبيّ ﷺ إلى هرقل، وذكر الآية الكريمة في صلب الكتاب النّبويّ أيضاً[١].

وفي تفسير: (الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، للزمخشريّ (ت٥٢٨ هـ)، ذكر في تفسير: ﴿يا أهل الكتاب﴾، قيل هم أهل الكتابين، وقيل وفد نجران، وقيل يهود المدينة[٢]، فإذا قصد بها أهل الكتابين أو يهود المدينة، فمن المرجّح نزول الآية قبل الحديبيّة، لأنّ يهود المدينة بخاصة كانوا على خلاف مع المسلمين ومع النبيّ ﷺ، وقد تعاونوا مع مشركي قريش على المسلمين، وحشدوا الأحزاب في غزوة الخندق، وكانوا مع الأحزاب على المسلمين في أيام حصار المدينة، وكان للنبيّ ﷺ على يهود حروب معروفة، فمن المعقول نزول آية تعرض عليهم شروطاً تُقرّ السّلام وتضع نهاية للحرب والشّغب، ولم يتطرّق الزمخشري في تفسيره إلى رسالة النبيّ ﷺ إلى هرقل.

وذكر القرطبي (ت٦٧١ هـ) في تفسيره: (الجامع لأحكام القرآن) في تفسير: ﴿قل يا أهل الكتاب﴾، «الخطاب في قول الحسن وابن زيد والسُّدِّي لأهل نجران. وفي قول قَتَادة وابن جُريج وغيرهما ليهود المدينة،

---

(١) البغوي - تفسير البغوي (٢/١٥٩-١٦١) - مطبوع في أسفل صفحات تفسير ابن كثير - مطبعة المنار بمصر - ١٣٤٣ هـ.

(٢) الزمخشري - تفسير الكشاف (٣٠٨/١) - مطبقة بولاق بالقاهرة - ١٣١٨ هـ ط٢.

خوطبوا بذلك لأنّهم جعلوا أحبارهم في الطّاعة لهم كالأرباب. وقيل: هو لليهود والنّصارى جميعاً»، ثم ذكر نصّ الكتاب النّبوي إلى هِرَقل، وذكر الآية الكريمة في نص الكتاب النّبوي[1]، دون أن يثير شكاً أو شبهة حول توقيت تلك الآية الكريمة.

إنّ القول بأنّ تلك الآية الكريمة قد نزلت في السنة التّاسعة الهجرية قول ضعيف، وحتى الذين ذكروه لم يرجّحوه. والرّاجح أنّها قد نزلت قبل ذلك، مما ينفي التناقض المزعوم في توقيت السّفارات. والمقرر عند علماء التفسير، أنّه إذا كان النّازل واحداً والأسباب متعدّدة، أخذ بأرجح الأسباب، لا بأضعفها، كما فعل أصحاب هذه الشّبهة.

وأما استبعاد أصحاب الشّبهة القول بتعدّد نزول هذه الآية مرّة قبل السنة التاسعة الهجرية، ومرّة في السنة التّاسعة الهجريّة، وهو ما قال به بعض العلماء، ووصف أصحاب الشّبهة تعدّد النزول بأنّه من تخيلات علماء المسلمين، فيدلّ على عدم تفهمّهم الكامل لمعنى: (تعدّد النزول). ويكفي في هذا الموضع أن نقتبس قول الزركشيّ في كتابه: (البرهان): «وقد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه وتذكيراً عند حدوث سببه، خوف نسيانه»[2]، أي أنّ الآية الكريمة تنزل في مناسبتها الأولى، ثم تجد مناسبة ثانية فتنزل، بمعنى إعادة تطبيقها على الظرف الجديد، للحكمة التي ذكرها الزركشي وذكرها غيره من علماء المسلمين[3].

ولا أتّهم المستشرقين المشكّكين بأنهم يحبّون أن يصطادوا بالماء العكر، ولكن ذلك هو الحق الذي لا ريب فيه، والذي يقرّره

---

(١) القرطبي - الجامع لأحكام القران (٤/١٠٥-١٠٦) - مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة - ١٩٣٦م.

(٢) الزركشي - البرهان (١/٢٩)، والزرقاني - مناهل العرفان (١/١٠٩) وما بعدها.

(٣) المؤرخ العربي - العدد (٢٣) سنة ١٩٨٣م - (٢٥٤-٢٥٥).

المستشرقون المنصفون أيضاً، فما دام الأمر يعينهم على التّشكيك، فهم يضخِّمون الأمر ويقوّون الضّعيف ويوهنون القوي، وما عملهم هذا بعلم ولا ببحثٍ علميّ، بل هو تضليل مفضوح وضلال مبين.

وإذا كان هذا الواقع معروفاً في نطاق ضيِّق من الباحثين العرب والمسلمين في النصف الأخير من القرن الرابع عشر الهجري، فقد اتّسع هذا النطاق في بداية القرن الخامس عشر الهجري، ولم يقتصر على الباحثين العرب والمسلمين فحسب، بل شمل كثيراً من المستشرقين المنصفين، وأوّل الغيث قطر ثم ينهمر.

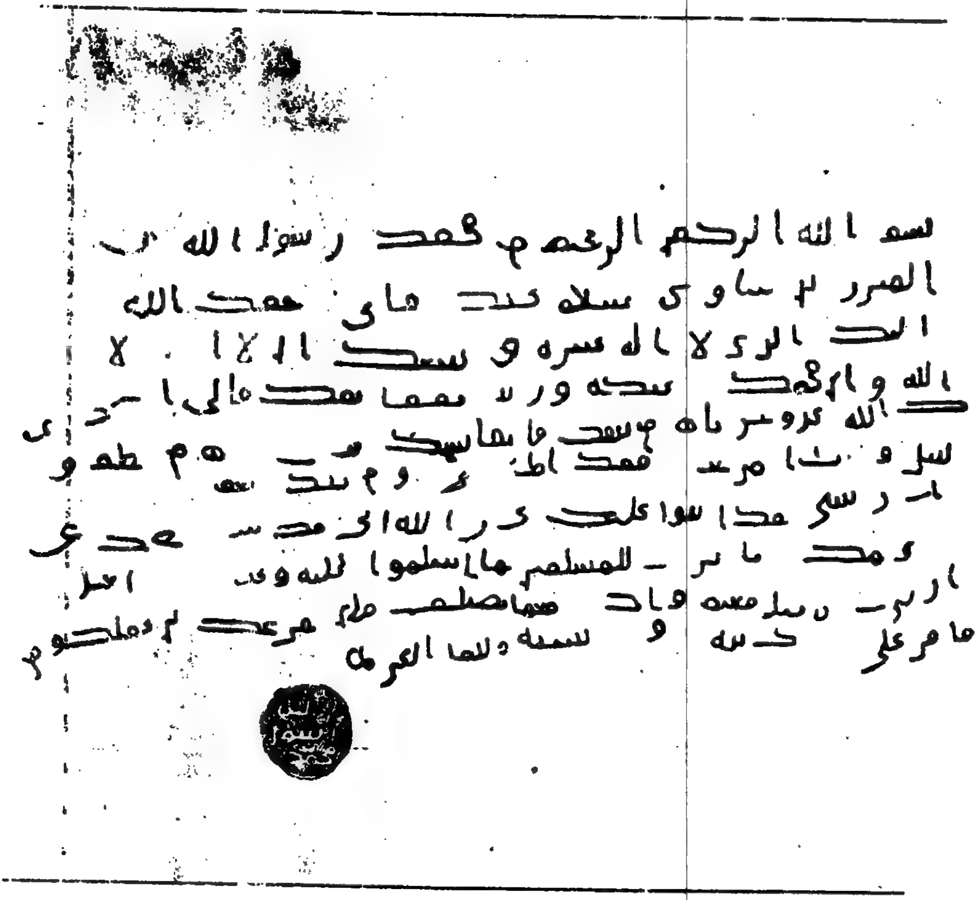

صورة من أصل الرسالة الموجهة إلى المقوقس وجدت في كنيسة قرب أخميم في صعيد مصر: توجد في تاريخ جرجي زيدان ومجلة الهلال ١٩٠٤م، ومجموعة الوثائق السياسية.

الرَّسائل النّبويّة المكتشفة ودراستها

١ . الرسائل المكتشفة

أ. الرسالة النّبوية إلى المقوقس:

لم تذكر المصادر القديمة شيئاً عمّا آلت إليه أصول الرَّسائل التي أرسلها النبيّ ﷺ إلى الملوك والأمراء في أيامه، باعتبار انّها استقرّت لدى الجهات التي أرسلت إليها، إلاّ ما كان من إشارة السُّهيليّ من علماء القرن السّادس الهجريّ، إلى انتقال رسالة هرقل إلى بعض ملوك أسبانيا[1]، وتابع هذه الإشارة فيما بعد، عالم مغربيّ معاصر، هو الشيخ عبد الحيّ الكتاني[2].

إلاّ أنه منذ سنة (١٢٦٧هـ= ١٨٥٠م)، بدأت بعض الرّسائل النبويّة الموجّهة إلى الملوك والأمراء في الظهور، فاكتشفت منها حتى الآن خمسة رقوق لرسائل نبويّة، دارت حولها دراسات لبيان مدى صحّتها.

ففي سنة (١٢٦٧هـ = ١٨٥٠م) كان المستشرق الفرنسي بارتليمي (Barthelemy) يفحص بعض الكتب والأناجيل الموجودة في أحد

---

(١) السّهيلي - الروض الأنف (١٩٧/٣).

(٢) عبد الحيّ الكتاني - التراتيب الإدارية (١٤٦/١).

الأديرة بناحية إخْمِيمْ في صعيد مصر، فعثر على رقّ جلديّ قديم، اتّضح بالدراسة أنّه رسالة النبيّ ﷺ إلى المقوقس عظيم القِبْط في مصر، وأسهم بلين (Belin) في تحقيق الرّسالة ومقارنة نصّها بما ورد في الأصول، ثم اعلن بعد ذلك عن الثقة في أصالة المخطوط، ونشرت عن ذلك دراسة في المجلّة الآسيوية سنة (١٢٧١هـ ١٨٥٤م)[1]، ثم في مجلة الهلال المصريّة الصادرة سنة ١٩٠٤م[2]، ومجلة الإسلام (إسلاميك ريفيو Islamic Review) التي تصدر في قصبة ووكنك بإنكلترا، والصّادرة في كانون الثاني وشباط (يناير وفبراير) من سنة ١٩١٧م. كما نشر المرحوم الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي بحثاً مفصلاً عن صحة أصل هذه الرِّسالة النبويّة في (مجلة عثمانية) الصّادرة في حيدرآباد الدكن في شهر تموز (يونيو) من سنة ١٩٣٦م، وللرسالة النّبوية إلى المقوقس صورة الأصل منشورة برفقة تلكَ المجلات المذكورة.

وقد اهتمّ الخليفة العثماني السلطان عبد المجيد في الأمر، فاقتنى مخطوط تلك الرِّسالة النبويّة وأمر بحفظ المخطوط في صندوق ذهبيّ معروض حتى اليوم في الغرفة التي تضمّ ما نُسب إلى النبيّ ﷺ من آثار في متحف قصر باب المِدْفع (سراي طوپ قاپور) باستنبول (القُسْطَنْطِينيَّة).

والرِّسالة تبدو داكنة ورقيقة، وقد أصابها تشقّق في وسطها، ولكنّها ما زالت مقروءة.

---

(١) جورنال آسياتيك (Journal Asiatique) باريس ١٨٥٤م - ص (٤٨٢-٤٩٨).
(٢) كتبها جرجي زيدان الصادرة في تشرين أول وتشرين ثاني وكانون أول (أكتوبر ونوفمبر وديسمبر).

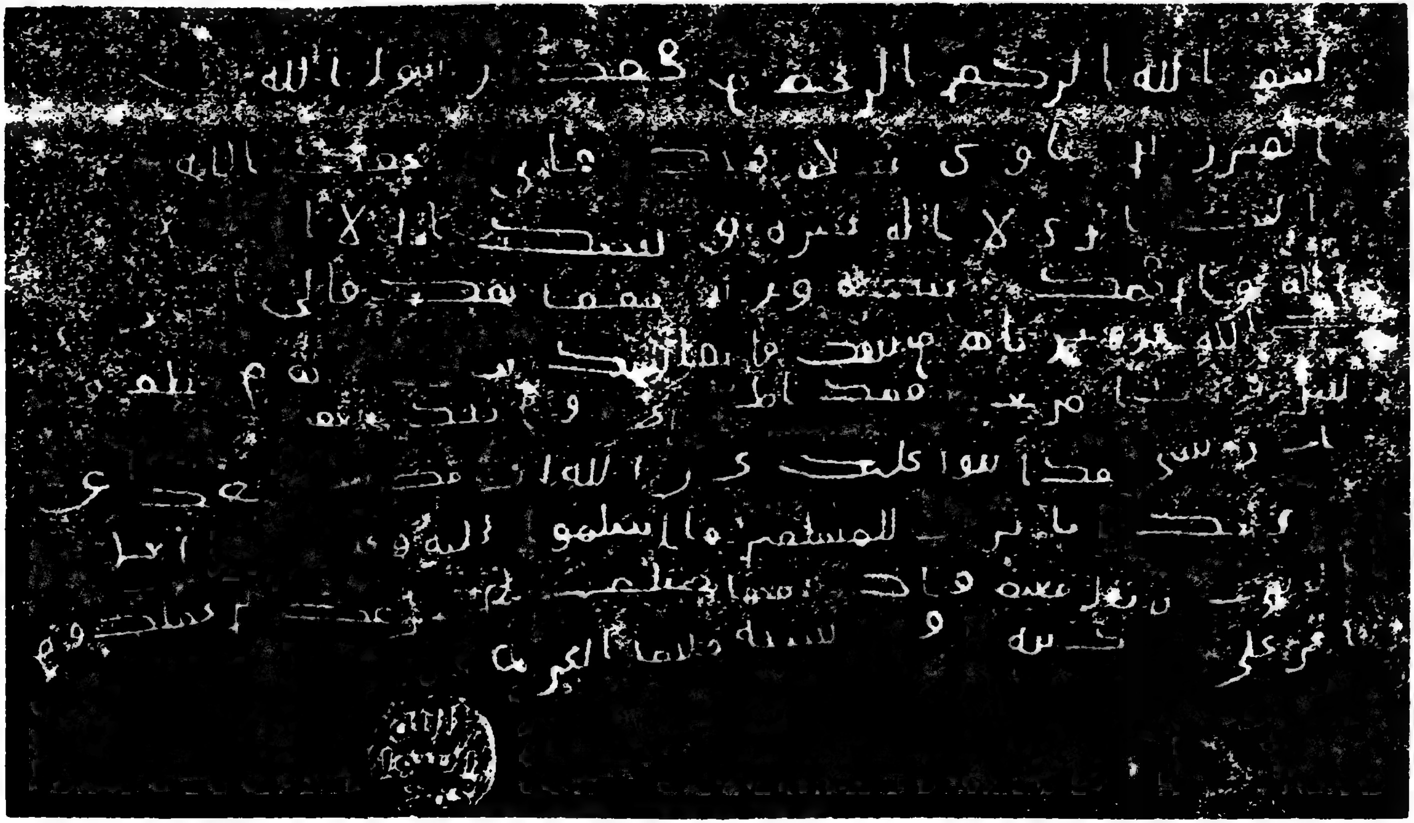

كتاب النبيّ ﷺ إلى المنذر بن ساوى.

وقد أثار اكتشاف هذه الرِّسالة النَّبويّة ردود فعل قويّة بين المستشرقين، فمنهم مَنْ وثقها مثل نولدكه، ومنهم مَنْ رفضها ورفض قصّة الرّسائل النّبويّة مثل كيتاني، كما ذكرنا ذلك في هذه الدراسة.

وأهمّ الدراسات التي صدرت في هذا الموضوع، عن عالم مسلم، هي دراسة المرحوم الدكتور محمد حميد الله سنة ١٩٥٥ م في مجلة (Arabica).

ب. الرِّسالة النَّبوية إلى المُنْذر بن سَاوَى:

وفي سنة (١٢٨٠ هـ= ١٨٦٣ م) نشر الدكتو بوش (Busch) الألماني مقالاً في مجلة المستشرقين الألمان، أعلن فيه العثور على مخطوط جلديّ يحتمل أن يكون أصل الرِّسالة النّبوية إلى المنذر بن سَاوَى أمير البحرين، وقد حمل هذا المخطوط إلى وزير المعارف العثماني كمال أفندي، ولكن قيل: فإنّ درجة توثيقه لم تبلغ مبلغ سابقه.

وقد نشر صورة هذه الرِّسالة النّبوية المستشرق الألماني فلايشر[1]، وكتب المرحوم الدكتور محمد حميد الله عن صحة هذه الرِّسالة النبوية مقالاً في المجلة العثمانية الهنديّة الصادرة في شهر حزيران (يونيو) من سنة ١٩٣٦ م، وفي مجلة (اسلاميك كلچر Islamic Culture) الصادرة في حيدر آباد الهندية خلال شهر تشرين أول (اكتوبر) من سنة ١٩٣٩ م[2].

ولا نعرف الآن مكان هذا المخطوط، ولكن يُظنّ أنّه لدى آل القوتلي أو آل المرادي في دمشق[3]. وقد أمر سمو أمير البحرين الحالي بنقش صورة هذه الرسالة النّبوية على قطعة من الرّخام تُثبَّت في مطار البحرين الدّوليّ.

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية (يب - المقدمة).

(٢) مجموعة الوثائق السياسية (يج - المقدمة) و(٨٠).

(٣) الكتاني - التراتيب الإدارية (١٦٦/١).

والملاحظ أنّ خطّ هذه الرَّسالة النّبويّة يشبه إلى حدّ كبير خطّ الرِّسالة النّبويّة المحفوظة في استنبول (القُسطنطينيّة) في متحف قصر باب المِدْفع (سراغ طوب قابو)، فلو ثبتت أصالة هذه الرِّسالة النّبويّة، فهي وسابقتها بلا شك مكتوبتان بيد واحدة، وإلاّ فإنّ كاتب رسالة المنذر بن سَاوَى قد احتذى بمهارة صفات الخط في رسالة المقوقس[1].

جـ. الرِّسالة النّبويَّة إلى النَّجاشيّ:

وفي سنة (١٣٥٩ هـ ١٩٤٠ م) نشر المستشرق البريطاني دانلوب (Dunlop) مقالاً في مجلّة الجمعية الآسيويّة الملكيّة، أعلن فيه أنّه تحصّل على رقّ جلديّ يملكه تاجر سوريّ، يظنّ أنّه رسالة النبي ﷺ إلى النجّاشي ملك الحبشة وذكر أنّ التاجر السّوري تحصّل على المخطوط من قسِّيس أثيوبيّ جاء إلى دمشق أيام الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ م - ١٩٤٥ م).

وقد نشر دانلوب صورة المخطوط وأوصافه، ولكنّه أكّد شكّه في صحّته، بعد أن استشار عدداً من خبراء المتحف البريطاني والمستشرقين وغيرهم. وإن كان قد نقل أيضاً رأي المرحوم الدكتور محمد حميد الله في احتمال كون المخطوط صورة من أصل قديم.

وقد أعاد دانلوب المخطوط إلى مالكه، ولا علم لنا بمكانه وبالذي يملكه[2].

---

(١) المؤرخ العربي - العدد الثالث والعشرين لسنة ١٩٨٣ - (٢٥٦).
(٢) المؤرخ العربي - العدد الثالث والعشرون لسنة ١٩٨٣ - (٢٥٧)، وانظر (Jras) - لندن - كانون الثاني (يناير) ١٩٤٠ م، وبحث للدكتور - محمد حميد الله بالهندية - رسول أكرم كي سياسي زندلكي - كراتشي - ١٣٧٠ هـ.

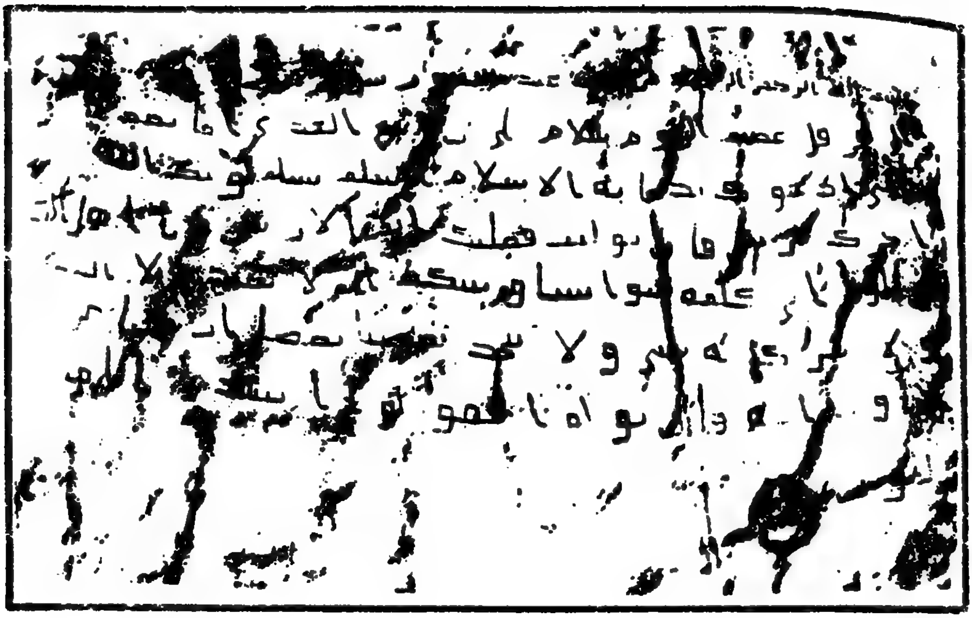

د. الرِّسالة النّبويّة إلى كسرى:

وفي شهر أيّار (مايو) من سنة (١٣٨٣ هـ = ١٩٦٣ م) نشر الدكتور صلاح الدين المنجِّد مقالاً في جريدة الحياة البيروتيّة، أعلن فيه الكشف عن رسالة النبي ﷺ إلى كسرى ملك فارس، وذكر أنّ الأصل الجلدي لهذه الرِّسالة النّبويّة محفوظ لدى هنري فرعون أحد الوزراء اللبنانيين السابقين المعروف بهوايته لجمع الآثار والتحف.

وقد اطّلع الدكتور عز الدين إبراهيم على أصل هذه الرِّسالة النّبويّة وهو محفوظ بين لوحتين زجاجيتين، وفيه تمزيق واضح من أعلى الوسط يتّجه إلى يمين الرِّسالة وإلى أسفلها، وقد خيِّط هذا التّمزيق بمهارة للمحافظة على مظهر الرِّسالة النّبويّة.

وقد ورث هنري فرعون هذه الرِّسالة النّبويّة مع مخطوطات أخرى من والده الذي كان قد اشتراه من أحد الأتراك في وقت من أوقات الاضطرابات السياسية في تركيا.

وبعد دراسة مستفيضة من الدكتور المنجِّد لنصّ الرِّسالة النّبويّة وصفات الخط والرق، أعلن ترجيح صحّة المخطوط وأصالته.

هـ. الرِّسالة النّبويّة إلى هرقل[٢]:

وفي سنة (١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م) كشف النقاب عن وثيقة خاصة هي الرِّسالة النَّبويَّة إلى هِرَقل إمبراطور الرُّوم، كانت لمدة غير قصيرة في حيازة الملك عبد الله بن الحسين ملك الأردن الأسبق، ثم آلت بعد وفاته إلى أرملته الأميرة ناهدة حجازي. وقد رغبت الأميرة حجازي حين

---

(١) المؤرخ العربي - العدد الثالث والعشرون لسنة ١٩٨٣ - (٢٥٧).
(٢) المؤرخ العربي - العدد الثالث والعشرون لسنة ١٩٨٣ - (٢٥٧ - ٢٥٨).

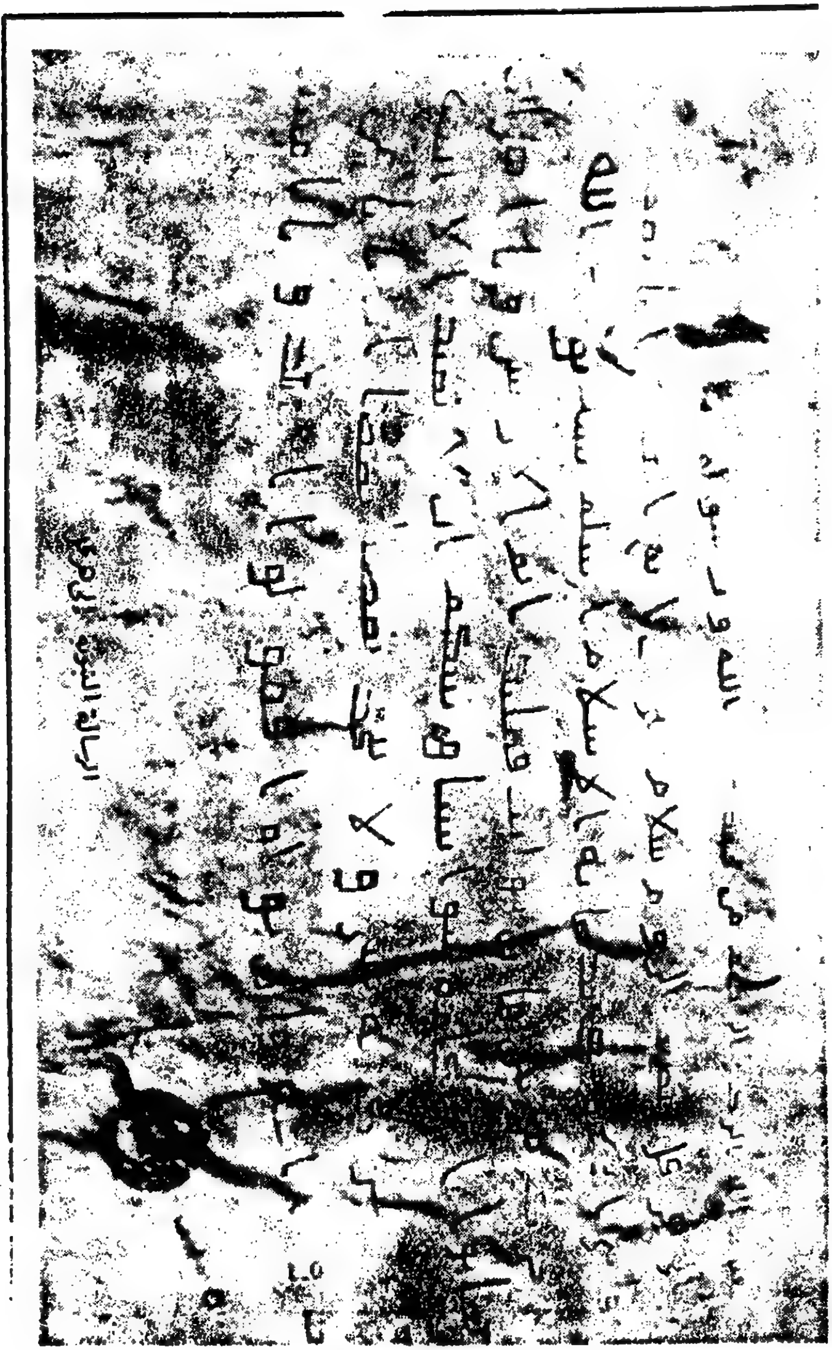
الرسالة النبوية إلى هرقل

تقدّمت بها السنّ، أن تحفظ الوثيقة لدى أحد الحكّام المسلمين، فعلمت بذلك حكومة الكويت وحكومة الإمارات العربية المتَّحدة، وأُجريت بسبب ذلك ثلاث دراسات عنها:

الأولى: في لندن مقرّ إقامة الأميرة، أعدّها الأستاذ ياسين حامد صفدي، رئيس قسم المخطوطات العربية بالمتحف البريطاني.

والثانية: في الكويت، أعدّتها لجنة من الأساتذة الدكتور حسين مؤنس والدكتور شاكر مصطفى والدكتور محمود علي مكي.

والثالث: في أبو ظبي أعدّها الأستاذ الدكتور عز الدين إبراهيم.

درس الاستاذ صفدي نصّ الرِّسالة النّبويّة وصفات الجلد والخط، وانتهى إلى تأكيد أصالتها.

ودرست لجنة الكويت السّند الذي وصلت به الرِّسالة النّبويَّة عبر التاريخ، وكذلك صفات الخط، وانتهت إلى الشك بالوثيقة وعدم استبعاد كونها مزوّرة.

وقد راجع الأستاذ الدكتور عز الدين إبراهيم في دراسته موضوعي المتن والسَّند اللذين دُرسا من قبل، وأضاف بُعْداً جديداً في الدراسة هو الفحص المختبري الموسَّع، متعاوناً في ذلك مع خبراء المتحف البريطاني في لندن وخبير الجلد الدكتور ريد (Reed) من جامعة ليدز في إنكلترا.

واشتمل الفحص على دراسةٍ لخصائص الرقّ بالمكبِّرات وتحت الأشعّة فوق البنفسجيّة، وخصائص الحبر، وكذلك على فحص الانكماش الجلدي لتقدير عمر الوثيقة، وهي طريقة تختلف عن الفحص الكربوني المعروفة.

وانتهى الدكتور عز الدين إبراهيم، بأن الوثيقة قديمة جداً، إذ يزيد عمرها على ألف سنة، وبأنّها قد تكون أصيلة، كما قد تكون نسخة قديمة عن الأصل، ونشر نتيجة دراسته في جريدة الاتِّحاد بأبو ظبي في شهر

أيار (مايو) سنة ١٩٧٤م، كما نشرت جريدة العَلَم المغربية في عددها الصادر في ١٧ كانون الثاني من سنة ١٩٧٥م محاضرة الدكتور عز الدين حول هذه الرِّسالة النّبوية.

وهذه الرِّسالة النّبويّة، قد أصبحت الآن في حيازة الملك حسين بن طلال بن عبد الله بن الحسين، ملك الأردن[1]، وهذه هي نسخة من صورتها الشمسيّة.

إنّ اكتشاف هذه الوثائق في العصر الحديث، مع اتِّضاح أنّ بعضها صحيح، يضيف بُعداً جديداً في دراسات الرّسائل النّبويّة، إذ يساعد على توثيقها وتأكيد مدلولاتها.

ز. مصير الرسالة النبوية إلى هرقل:

أورد الحافظ السهيلي[2]، أنّ هرقل قيصر الروم، حين أتاه كتاب الرسول ﷺ وضعه في قصبة من ذهب، وأن الروم لا يزالون يتوارثون هذا الكتاب، كابراً عن كابر، حتى آل إلى «أدمونش» الذي تغلب على طليطلة وبعض بلاد الأندلس، ثم انتقل بعده إلى حفيده لابنته المعروف بـ «ابن السلطنة».

وقد ذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه: فتح الباري، «أنبأنا غير واحد، عن القاضي نور الدين ابن الصائغ الدمشقي أنه قال: حدثني سيف الدين فلج المنصوري، قال: أرسلني الملك المنصور قلاوون إلى ملك المغرب بهدية، فأرسلني ملك المغرب إلى ملك الفرنج في شفاعة فقبلها، وعرض عليّ الإقامة عنده، فامتنعت. فقال: لأتحفنّك بتحفة

(١) المؤرخ العربي - العدد الثالث والعشرون لسنة ١٩٨٣ - (٢٥٧ - ٢٥٨).
(٢) الروض الأنف (٢/٣٢).

سنية، فاخرج لي صندوقاً مصبغاً بذهب، فأخرج منه مقلمة من الذهب، فأخرج منها كتاباً قد رأيت أكثر حروفه، فقال: هذا كتاب نبيّكم إلى جدي الأعلى قيصر، وما زلنا نتوارثه إلى الآن، وأوصانا آباؤنا أنّه ما دام هذا الكتاب عندنا لا يزال الملك فينا، فنحن نحفظه غاية الحفظ ونعظّمه، ونكتمه عن النصارى ليدوم الملك فينا»[1].

وهذا يؤيد ما وقع في حديث سعيد بن أبي راشد، من أنّ النبي ﷺ عرض على التنوخي رسول هرقل: الدخول في الإسلام، فامتنع، فقال عليه السّلام: «يا أبا تنوخ! إني كتبت إلى ملككم بصحيفة فليمسكها، فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير».

ويؤيّد ذلك ما روي عن النبي ﷺ لما جاء جواب كسرى قال: «مزّق الله ملكه[2]، ولما جاء، كتاب قيصر قال: ثبت الله ملكه»[3].

وقد نشرت مجلة الأسبوع العربي بتاريخ ١٩٧٧/٢/٢٥م، أنّ الملك حسين بن طلال ملك الأردن، حصل على النسخة الأصلية لرسالة النبي ﷺ إلى قيصر الروم هرقل، فأرسل الرسالة إلى المتحف البريطاني وإلى جامعة ليدز حيث تولّت الأشعة تحت الحمراء (Infra Rouge) معاينة حبر الرسالة، وأعطى خبراء علم تطوّر الخطوط رأيهم في المخطوطة، وأكدوا في تقرير محفوظ في الديوان الملكي الأردني، أنها تعود إلى القرن السابع الميلادي، وأنها هي الرسالة الأصليّة التي وجّهها النبي ﷺ إلى هرقل.

وفي مجلة الحوادث[4]، أن الدكتور صلاح الدين المنجّد ذكر أنّ رسالتين

---

(١) انظر نظام الحكومة النبوية - الجزء الأول - عبد الحي الكتاني.

(٢) الطبري (١٥٧٣/٣).

(٣) ابن الأثير، أسد الغابة - (١٥٨/٢).

(٤) الحوادث - العدد ١٠٦٧ - ١٩٧٧/٤/٢٢.

مهمتين موجودتان الآن في بيروت: الأولى موجهة إلى كسرى أبرويز أو كسرى الثاني ملك الفرس التي شقّها نصفين ورماها أرضاً، فالتقطها حاملها عبدالله بن حُذافة السَّهمي وضمّها إلى صدره. والثانية إلى النجاشيَ ملك الحبشة. والرسالتان جزء من التراث الإسلامي محفوظتان لدى هنري فرعون. وفيما يتعلّق بالرسالة الموجّهة إلى ملك الفرس قال صلاح الدين المنجد: وهو من خبراء علم تطوّر الخطوط في العالم: «أنه يعدّ دراسة لها استغرقت عدة شهور، وهو يرجّح صحّتها».

فكيف وصلت هذه الرسالة إلى هنري فرعون؟

كان في المسجد الأموي مكان يعرف بقبّة الخزنة، وكان يودع فيها جميع المصاحف والصكوك والمخطوطات الثمينة التي تعود للتراث الإسلامي. ولم يكن هناك من يهتم بهذه الوثائق حتى قام الإمبراطور غليوم الثاني ملك ألمانيا بزيارة دمشق، فأحبَّ السلطان عبدالحميد الثاني، وكان ذلك من ١٩١٠ - ١٩١٤م، أن يحيطه بأعظم تكريم، ففتح له قبة الخزنة وأمر بأن يسمح له باختيار ما يريده من الوثائق، ففعل، فغادرت مجموعة ثمينة من الوثائق المخطوطات الجامع الأموي لتستقر في متحف برلين. فانتهز أحد خدام الجامع فتح قبة الخزنة، وأخذ لنفسه بعض الوثائق، وكان قد سمع بشغف فيليب فرعون، والد هنري فرعون، بالتراث الإسلامي، فحمل إليه بعض ما وقعت عليه يداه واستعان هنري فرعون لتجميل قصره بخبير فرنسي، فعرض على الخبير ما عنده من المخطوطات، فاستوقفت الخبير الرسالة النبوية إلى كسرى، وحاول شراءها، ولكن هنري فرعون اعتذر عن بيعها، وحملها إلى أصدقائه من مدير المتاحف في أوروبا، فنصحوه بعرضها على صلاح الدين المنجّد، ليؤكد صحتها أو زيفها.

وعندما أخضعها المنجد للمعاينة والتوثيق، قال: «إنّه يرجّح أنها الرسالة نفسها التي وجّهها محمد رسول الله ﷺ إلى ملك الفرس.

وقد حمل هنري فرعون رسالتي النبي ﷺ إلى كسرى والنجاشي إلى الملك حسين بن طلال ملك الأردن[1].

٢. منهاج الدراسة المقترح

أ. وقد أتاحت للدكتور عز الدين ابراهيم دراسته للوثيقة النّبويّة إلى هِرَقل خبرة عملية في دراسة الوثائق النّبوية بخاصة، فقدّم منهاجاً مقترحاً للدراسة في مجال الرّسائل النّبويّة، يصلح أن يكون دليلاً لمثل هذه الدراسات، والباب مفتوح على مصراعيه لاقتراحات إضافيّة تنفع الباحثين والدارسين المسلمين وغير المسلمين أيضاً.

وهذا هو رأي الدكتور عز الدين ابراهيم الذي أؤيّده فيه تأييداً كاملاً.

ينبغي التأكيد بأنّ الباحث المسلم، يُقبل على دراسة الرّسائل النّبويّة، ما اكتُشف منها وما لم يُكتشف، من منطلق الثّقة. فأصل الخبر بالنسبة له ثابت، ونسبة شيء إلى رسول الله عليه الصّلاة والسّلام من قول أو خبر أو رسالة، يخضع لديه لقواعد التّحقيق الصّارمة التي تستهدي بقول النبي ﷺ: «مَنْ كذب عليّ متعمّداً[2]، فليتبوأ مقعده من النار»[3]، فهو لا يتعسّف الأمر في إثباتٍ أو نفيٍ، ولا يصطنع من

(١) المؤرخ العربي - العدد الثالث والعشرون ١٩٨٣ - (٢٥٧-٢٥٨).

(٢) أخبر عني بشيء على خلاف ما هو عليه.

(٣) رواه البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجة وأحمد في مسنده عن الزبير بن العوّام، ورواه مسلم عن أبي هريرة، ورواه الترمذي عن عليّ بن أبي طالب، ورواه أحمد في مسنده وابن ماجة عن جابر وعن أبي سعيد، ورواه الترمذي وابن ماجة عن ابن مسعود، ورواه أحمد والحاكم عن خالد بن عرفطة وعن زيد بن أرقم، ورواه أحمد عن سلمة بن الأكوع وعن عقبة بن عامر وعن معاوية بن أبي سفيان، ورواه الطبري عن =

الأدلّة إلاّ ما يصحّ، ولا ينسب إلى رسول الله ﷺ ما ليس منه. كما أنّه من جهة أخرى يعتزّ بما يعثر عليه من أدلّة التراث والتاريخ، فلا يفرّط فيه، ولا يخفي أمره عن الناس بياناً للحقيقة.

وهذا يدعونا إلى إعادة النّظر في المنهج الذي اتُّبع حتى الآن، في تحقيق الرّسائل النّبويّة، سواء من قِبَل الباحثين المسلمين، أم من قِبل المستشرقين، بقصد ضبطه وتجويده، لمضاعفة الثّقة بنتائجه.

وبتأمّل هذا المنهج، نجد أنّه باستثناء الرّسالة النّبوية إلى هرقل، التي وُجِّهت إليها دراسات متنوِّعة، فإنّ الدارسين يركِّزون على محتوى الرّسائل النّبوية، بمقابلتها بما ورد في الأصول من النّصوص، وعلى هيئة الرّقوق وما تظْهر من علامات القِدم، وصفات الخط، ومدى توافقه مع ما عُرِف من خطوط الوثائق القديمة.

ولا شكّ، في أنّ هذا المنهج، بعناصره الثلاثة، يُعين إلى حدٍّ كبير على تقويم الوثائق المكتشفة، خاصة ما كان في حالةٍ لا تمكّن من فحوص أخرى، كما هو الحال مع وثيقة قصر باب المِدفع (سراي طوب فابو) التي قَدِمَتْ جداً، وأصبحت معرضة لمزيد من التّشقّق، وربما التّفتّت لو زاد مسّها أو تكرّر نقلها.

= السّائب بن يزيد وعن سلمان بن خالد الخُزاعي وعن صهيب وعن طارق بن أشيم وعن طلحة بن عبيد الله وعن ابن عباس وعن ابن عمر وعن عتبة بن غزوان وعن العرس ابن عميرة وعن عمّار بن ياسر وعن عمران بن حُصين وعن عمرو بن حريث وعن عمرو بن عبسة وعن عمرو بن مرّة الجهنيّ وعن المغيرة بن شعبة وعن يعلى بن مرّة وعن أبي عبيدة بن الجرّاح وعن أبي موسى الأشعري، ورواه الطبراني في الأوسط عن البراء وعن معاذ بن جبل وعن نبيط بن شريط وعن أبي ميمون، ورواه الدارقطني في الإفراد عن أبي رمسة وعن ابن الزبير وعن أبي رافع وعن أم أيمن، ورواه الخطيب وابن عساكر وابن صاعد وأبو مسعود بن الفرات والبزار وابن عدي وابو نعيم والحاكم والعقيلي وابن الجوزي، حديث صحيح، انظر: مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٣١٤/٢-٣١٥).

وهناك وثائق تاريخيّة لها أهميّة بالغة لدى العالم الغربي والمسيحي، لم يجر عليها من الدّراسات التوثيقيّة أكثر مما ذكرنا، وأعني بوجه خاص الأناجيل الأربعة المعتبرة وهي أقدم ما عُثر عليه من أناجيل، والتي يوجد منها ثلاثة في المتحف البريطاني في لندن وواحد في الفاتيكان بروما[١].

إلاّ أنّ هذا المنهج وحده لا يُعتبر كافيا، ولا بدّ من تعزيزه بأمرين:

أولها: دراسة مستفيضة للسّند الذي وصلت الوثيقة المكتشفة، وفقاً له، إلى أيدي مكتشفيها.

وثانيها: تطبيق وسائل البحث المختبري التي تقدّمت في أيامنا هذه إلى حدّ كبير. والاتّجاه الحديث الآن لدى المحقّقين، هو استخدام هذه الوسائل، وهذا ما اتّبع أخيراً في تحقيق مخطوطات البحر الميت التي يملكها الأُردن[٢]، وما يطالب المحقّقون بتطبيقه على (ثوب تورينو) الذي ادُّعي من قديم أنّه ثوب المسيح عليه السّلام يوم إدّعاء الصّلب.

وأرى أنّ الفحص المختبري يجب أن يسبق بقيّة الفحوص الأخرى، ليتقرّر أولاً ما يسميه الباحثون: عذرية الوثيقة المفحوصة، ويقصدون بذلك كونها أصيلة لغرضها، وليست رقاً قديماً قد غُسل بالمواد الكيماويّة ثمّ أعيدت الكتابة عليه، ثمّ لتقرير العمر الزمنيّ التّقريبيّ للوثيقة. والوثيقة التي لا تثبت عذريّتها وقدمها، لا تستحق أن تُعرض لما عدا ذلك من الدراسات، لأنّها تكون بكلّ تأكيد مزوّرة.

---

(١) هذه الأناجيل معروفة في المتحف البريطاني بالأسماء الآتية:

- codex Alexandrinus.
- Codex sinaiticus.
- Codex Vaticanus and Frangments of unknown gospel.

(٢) انظر محمود العابدي - مخطوطات البحر الميت.

وإنّني إذ أدعو إلى ذلك، أُدرك تماماً، أنّ الفحص المختبري لا يزال قاصراً، وأنّ تقدير العمر الزّمنيّ ما زال تقريبياً، ولكن هذا كلّه لا يُسوِّغ إهدار هذه الوسيلة من وسائل التّحقيق.

على أنّ الوثيقة المزوّرة لا تخلو من قيمة تاريخية إذ ثبت قِدمها، وأنّ تزويرها ليس حديثاً. ذلك أنّها تشير إلى صفات كانت شائعة في عصر تزويرها، كما أنّها قد تكون نسخةً من أصلٍ أقدم منها، ولعلّ هذا ما قصد إليه الدكتور محمد حميد الله في تعليقه على الرق الذي يُظنّ أنّه الرِّسالة النّبويّة إلى النجّاشي.

وعلى ضوء ما ذكرنا، ونظراً لقلّة ما نعلمه عن الفحوص التي أجراها المستشرق بوش على الرسالة النّبويّة إلى المنذر بن سَاوَى، والمستشرق دنلوب على الرِّسالة النّبويّة إلى النّجاشيّ، فنرى أنّ هاتين الرِّسالتين النّبويَّتين يجب أن تُدرسا من جديد[1].

ب. وينبغي أن أذكر، أنّ المسلم بالجنسيّة أو بالوراثة أو بالموقع الجغرافي، أي المسلم الجغرافي، لا يكتفي بالتشكيك الذي دسّه قسم من المستشرقين في مؤلفاتهم، بل يحاول فلسفة هذا التّشكيك وتعريبه، ونشره في العربية عن جهل في أكثر الأحيان، وعن علم ملغوم في أحيان أخرى، محاولاً إثبات تحرّره وانطلاقه وانفتاحه وتفتّحه.

والأخطر من ذلك، أنّ أمثال هؤلاء المسلمين بالجنسيّة، ينقلون أفكار المستشرقين المشكِّكين من مؤلفاتهم المريبة، التي لم يريدوا بها وجه الله ولا وجه العلم ولا الحق والإنصاف، بل أرادوا تحقيق نيّاتهم الخبيثة المبيّنة في مهاجمة الإسلام وزعزعة عقيدة المسلمين، فيعزو أولئك المسلمون المقلدون ما نقلوه تارة إلى أصحابه من المستشرقين، وفي هذا أقلّ

---

(١) المؤرخ العربي - العدد الثالث والعشرون لسنة ١٩٨٣ - (٢٥٩ - ٢٦١).

الضررين وأسهل الخَطَرَيْن، لأن الذي يقرأ آراءهم أو يسمعها يتشكّك بها على الأقل فيحاول أن يطلع على الحقيقة بشكل أو بآخر. ويعزو أولئك المسلمون المقلّدون تارة أخرى ما نقلوه من المستشرقين إلى أنفسهم، كأنّهم هم أصحاب الآراء الأصليّون، وكأن تلك الآراء من بنات أفكارهم لا من بنات أفكار المستشرقين المشكّكين، وفي هذا أكثر الضررين وأصعب الخَطَرين، لأنّ الذي يقرأ آراءهم أو يسمعها من المسلمين، يظنّ بها خيراً ولا يتشكّك بها، على اعتبارها بأنّها آراء إسلاميّة لا مستوردة، والحَذِر يُؤْتى من مأمنه كما يقول المثل العربي القديم. ولكن الأدهى من ذلك وأَمَرّ، هو اقتباس قسم من المستشرقين، تلك الآراء المنقولة منهم، باعتبارها آراء إسلامية تؤيِّد اتّجاههم في التّشكيك وتشهد على سلامتها، وهم يعلمون أنهم مصدر تلك الآراء، ولكنّهم يتغاضون عن ذلك.

لذلك ليس كلّ باحث مسلم مؤهّلاً لدراسة الرّسائل النّبويّة والوثائق التي تخصّ الإسلام والمسلمين، بل المسلم المؤهل لذلك هو المسلم الحق، العالم، المتين في علمه، الذي يقول الحق لوجه الحق وحده. أما المسلم الجغرافي، فليس مؤهلاً لمثل هذه الدراسة، حتى ولو كان عالماً كبيراً، لأنّ احتمال انحرافه لسبب من الأسباب وارد، والواقع خير دليل.

بل المسلم الجغرافيّ ليس مؤهلاً للدراسات الإسلامية عامة، ما دام يقتفي آثار المستشرقين المنحرفين ويقلّدهم بانحرافهم دون تمحيص.. فهو مستسلم لهم استسلاماً كاملاً، وخطره على الفكر الإسلامي أعظم من خطر المستشرقين المنحرفين، وهو بذلك مستشرق صغير جداً، كما - أقول لقسم منهم حين ألمس تقليدهم الأعمى للانحراف واستسلامهم المطلق للمنحرفين، أو هو مُسْتغرب، على وزن مستشرق، لأنه مسلم بالجنسية ولكن عقله مستورد من الغرب.

من هؤلاء المسلمين الجغرافيين من شكّك بالسّفارات والرّسائل

النبويّة جملة وتفصيلا، ومنهم من شكك بجزء منها، خالف فيه إجماع المسلمين كالتشكيك في إسلام النّجاشي مثلاً، وهذا ما تطرقنا إليه من قبل، فلا جدوى من إعادة ذكره من جديد.

هؤلاء المسلمون الجغرافيون، غير مؤهلّين للدراسات الإسلامية بعامة، لأنّهم مقلدون للمنحرفين من المستشرقين الذين لا يلتزمون بالحق ولا بالواقع ولا بأساليب البحث العلمي السّلمية، وسيّان أن يقوم المستشرقون المنحرفون بهذه الدراسات أو يقوم بها المسلمون الجغرافيون، والفرق الوحيد بين الدراستين هو سمة التقليد الواضحة في دراسات المسلمين الجغرافيين، بما فيها من تطرّف في الانحراف، كأنّهم ملكيّون أكثر من الملك، كما يقول المثل العربيّ المعروف.

وللمسلمين الملتزمين من العلماء، أن يستعينوا بالخبراء الأجانب عند الحاجة إلى ذلك، وإلاّ فالاستعانة بالخبراء المسلمين أولى وأجدى.

والغريب أنّ الهيئات العالمية مثل اليونسكو - وهي هيئة دولية تشترك فيها الدول الإسلامية، تستكتب المستشرقين بوصفهم متخصّصين في الإسلاميات، للكتابة عن الإسلام والمسلمين في الموسوعة الشاملة التي تصدرها عن تاريخ الجنس البشري وتطوّره الثقافي والعلمي، وقد ثبت وقوع أولئك المستشرقين في أخطاء جسيمة جعلت ماكتبوه لا قيمة له من الناحية العلمية من ناحية، وأدّت إلى تذمّر المثقفين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها من جهة ثانية، والأجدر بمثل هذه الهيئات العالمية أن تستكتب العلماء المسلمين الملتزمين، فأهل مكّة أدرى بشعابها. أما أن تستكتب هذه الهيئات العالمية المستشرقين، أو تستكتب المستغربين من المسلمين الجغرافيين، الذين هم مقلّدي المستشرقين ومن المستسلمين لهم والمبهورين بنتاجهم والمرتبطين بهم بصلات مريبة في أكثر الأحيان، فإن ذلك من باب وضع الشيء في غير مكانه، وإعطاء القوس

لغير باريها، وتحيز للانحراف وانحياز إليه لا يأتي بخير ولا يؤدي إلى خير، كما حدث في دراسات المستشرقين للقضايا الإسلامية في الموسوعة الشّاملة التي ذكرناها قبل قليل.

وليست بي حاجة إلى أن أُنبِّه إلى أنّني لا أريد في استكتاب العلماء المسلمين الملتزمين، أن يقولوا غير الحقّ في دراساتهم الإسلامية، أو أن يزجوا الثناء العاطر للمسلمين والإسلام بمناسبة وبغير مناسبة وبحقّ وبغير حقّ، فذلك ما لا أريده ولا يريده غيري من العلماء المسلمين. وما أريده ويريده غيري، هو قول الحقّ ولا شيء غير الحقّ، والابتعاد عن الانحراف والتّشكيك، ووضع الأمور في نصابها، والفهم السليم للإسلام ديناً والعربية لغةً، لتكون النتائج علماً ينفع الناس ويمكث في الأرض.

والعالم المسلم الملتزم، من أوّل مزاياه الصِّدق في حياته العملية والنظرية. أما بالنسبة للالتزام بالصِّدق بالنِّسبة لأقوال النبيّ ﷺ وأفعاله، فهو ما لا يمكن أن يحيد عنه العالم المسلم الملتزم قيد أنملة في مختلف الظروف والأحوال، حتى ولو قُرض بالمقاريض ونشر بالمناشير، لأنّ الأمر خطير للغاية، فذلك أهون عليه من أن يتبوّأ مقعده من النّار.

وما سرّني إعلان المستشرق الفرنسي بارتليمي عن اصالة الرقّ الجلديّ القديم الذي اتضح بالدراسة أنّه رسالة النبيّ ﷺ إلى المقوقس، وما سرّني توثيق المستشرق نولدكه لهذه الرِّسالة النّبويّة.

ولا ساءني شكّ المستشرق دانلوب في المخطوط الجلدي الذي قبل وأنه رسالة النبيّ ﷺ إلى المنذر بن سَاوَى حاكم البحرين، لأنّ الخبر موثّق في المصادر الإسلامية المعتمدة وغير الإسلامية المنصفة أيضاً، ولا يحتاج هذا الخبر إلى مزيد من التوثيق، وبخاصة من المستشرقين الذين لا يلتزمون بقول الحق دائما.

كما أنّ دراسات المستشرقين - وبخاصة المنحرفين منهم، يكتنفها

غبار كثيف. وما نحتاجه اليوم هو الدراسات التي لا غبار عليها، بأقلام علماء مسلمين ملتزمين.

والمطلوب هو أن يثبت علماء المسلمين وجودهم بالدراسات الجادة، فهذه بضاعتهم رُدّت إليهم، وصيانتها بالدراسة الواعية من أوّل واجباتهم، فهم أحقّ بحمل أعبائها بجدارة واقتدار.

الصِّراع الحضاري
الدّاء والدواء

١ . الجذور التاريخيّة للاستشراق:

لكي يتبيّن للعرب والمسلمين بوضوح وجلاء، أسباب انحراف الدراسات الاستشراقية الخاصة بالعربية لغةً وبالإسلام ديناً، عن الطريق السَوِيّ، واهتمامها بغرس بذور الشكّ والتشكيك في نفوس العرب والمسلمين وعقولهم معاً في أمر لغتهم التي هي لغة القرآن الكريم، وبدينهم الذي يدينون به عقيدةً وتشريعاً ومُثُلاً عُليا وحضارةً، لا بدّ من معرفة الجذور التاريخية للاستشراق، وأهداف المستشرقين في دراساتهم الاستشراقية، وماذا على العرب والمسلمين أن يفعلوه في مصاولة هذا الصِّراع الحضاري بينهم وبين الدراسات الاستشراقية؟!.

الاستشراق هو علم الشّرق، أو علم العالم الشّرقي[١]، وكلمة: (مستشرق) بالمعنى العام تطلق على عالم غربيّ يشتغل بدراسة الشّرق كلّه: أقصاه ووسطه وأدناه، في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه. ولكنّنا هنا لا نقصد هذا المفهوم الواسع، وإنما يعنينا هنا المعنى الخاص لمفهوم: (الاستشراق) الذي يعني الدراسات الغربية المتعلّقة بالشّرق الإسلاميّ،

---

(١) الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية (ص ١١) - رودي بارت - ترجمة د. مصطفى ماهر - القاهرة - ١٩٦٧م.

في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجهٍ عام. وهذا المعنى هو الذي ينصرف إليه الذّهن في عالمنا العربيّ الإسلاميّ، عندما يطلق لفظ: (استشراق) أو (مستشرق)، وهو الشائع أيضاً في كتابات المستشرقين المعنيين[١].

ومن الصّعب تحديد تاريخ معيّن لبداية الاستشراق، وإن كان بعض الباحثين يشير إلى أنّ الغرب النّصراني يؤرّخ لبدء، وجود: (الاستشراق الرّسميّ)، بصدور قرار مجمع (ڤيينا) الكنسيّ في سنة ١٣١٢م بإنشاء عدد من كراسي اللّغة العربيةفي عدد من الجامعات الأوروبية[٢]. ولكن الإشارة هنا إلى: (الاستشراق الرّسميّ)، تدل على أنه كان هناك استشراق غير رسميّ قبل هذا التاريخ.

وليس هناك من شك، في أنّ الانتشار السّريع للإسلام في المشرق والمغرب، قد لفت إليه بقوّة أنظار رجالات اللاّهوت النّصرانيّ، ومن هنا بدأ اهتمامهم بالإسلام ودراسته.

ولا يتّفق الباحثون الأجانب على مدّة معيّنة من الزّمن لبداية الاستشراق، فقسم منهم يذهب إلى أنّ بدايته ترجع إلى مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، بينما يرى: (رودي بارت[٣] Rudi paret) أنّ بدايات الدراسات الإسلامية العربيّة تعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي الذي تمّت فيه لأول مرّة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللّغة

---

(١) د. محمود حمدي زقزوق - الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري - (١٨) - كتاب الأمة - الدوحة - ١٤٠٤هـ.

(٢) الاستشراق - إدوارد سعيد (٨٠).

(٣) رودي بارت: مستشرق ألماني معاصر، وصاحب أحدث ترجمة ألمانية لمعاني القرآن الكريم.

اللاّتينية، كما ظهر أيضاً في القرن نفسه أوّل معجم لاتيني - عربيّ(١) وما ذهب إليه بارت سبقه إليه المستشرق جوستاف دوجا في كتابه: (تاريخ المستشرقين في أوروبا من القرن الثاني عشر حتى القرن التاسع عشر)، الذي صدر في باريس في نهاية الستينات من القرن الماضي(٢).

وهناك من الباحثين مَن يجعل بداية الاستشراق قبل ذلك بقرنين، أي في القرن العاشر الميلادي، بدءاً من الرّاهب الفرنسي جربر دي أورالياك (٩٣٨م - ١٠٠٣م) الذي قصد الأندلس، وتتلمذ على أساتذتها في إشبيليّة وقرطبة، حتى أصبح أوسع علماء عصره في أوروبا ثقافة بالعربية والرياضيّات والفلك، ثم تقلد فيما بعد منصب البابوّية في روما باسم سلفستر الثاني (٩٩٩م - ١٠٠٣م)(٣).

ولكن مفهوم: (مستشرق)(٤) لم يظهر في أوروبا إلاّ في نهاية القرن الثاني عشر، فقد ظهر في إنكلترا في سنة ١٧٧٩م، وفي فرنسا في سنة ١٧٩٩م، وأدرج مفهوم: (الاستشراق Orientalism) في معجم الأكاديميّة الفرنسية في سنة ١٨٣٨م.

وليس المهم هو: متى ظهر مفهوم: (مستشرق) أو: (استشراق)، وإنما المهم هو: متى بدأت الدراسات العربيّة الإسلامية - سواء بالقبول أو الرّفض -، أما المصطلح ذاته فلا يعني شيئاً أكثر من إقرار أمر واقع.

وأرى أن هذه الدراسات بدأت ببداية الإسلام، فليس من المعقول أن يبقى النصاري بعيدين عن دراسة الدين الجديد، وبخاصة بعد التماس

---

(١) بارت - الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية (٩).

(٢) د. زقزوق - الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (٢٠).

(٣) العقيقي -المستشرقون (١/ ١٢٠) - ط ٣ - دار المعارف بالقاهرة - ١٩٦٤م واسم هذا المستشرق (جربردي أورالياك Jerbert de oraliac).

(٤) مستشرق: (Orientalism).1

المباشر بين المسلمين والمسيحيين بالسّفارات النّبويّة إلى هِرَقل والمقوِقس والنّجاشي في نهاية السنة السادسة الهجرية، وتوالت على النّطاق العسكريّ في مُؤْتَة في السّنة الثامنة الهجريّة وغزوة تَبُوْك في السنة التاسعة الهجرية؛ وعلى النّطاق السياسي في وفود أهل نَجْران النّصارى إلى النبيّ ﷺ في السّنة التّاسعة الهجريّة، والمعاهدات التي عقدها الرّسول عليه الصلاة والسلام مع نصارى منطقة تبوك وما حولها في السّنة التّاسعة الهجرية، ثمّ ازداد مدّ هذا التماس بين النصارى والمسلمين بعد انتقال النبيّ ﷺ إلى الرّفيق الأعلى في مجال الفتح الإسلامي العظيم، الذي شمل خلال سنين معدودة أرض الشام (سورية، لبنان، فلسطين، الأردن) ومصر وليبيا وشمالي أفريقية التابعة للرّوم النصارى قبل الفتح الإسلامي. فليس من المعقول ولا من المنطق أن يبقى علماء النصارى وبخاصة رجال الدين المسيحي منهم بعيدين عن دراسة الظّاهرة الإسلامية التي أصبحت تهدِّدهم في عقر دارهم، وضياعُ تلك الدراسات عن الإسلام أو اختفاؤها لا يعني عدم وجودها. لذلك نرى أنّ الدراسات الإسلامية والعربية من علماء النصارى بدأت ببداية الإسلام، ولكن تسجيلها تأخّر من المستشرقين الذين أرّخوا لتلك الدراسات، والمطلوب هو اكتشاف الدراسات الاستشراقية المبكِّرة للإسلام والعربية.

والواقع أنّ المؤرخين الأجانب للدراسات الاستشراقية، أرّخوا كما يبدو - للدراسات الرسميّة التي برزت للعيان بوضوح، أما الدراسات الفرديّة، التي أجراها علماء المسيحيين وبخاصة رجال الدين منهم، فلم تحظ بما تستحق من دراسات، مع أنها حرية بالبحث والتتبع والتدقيق.

ولكن اشتد أُوار تلك الدراسات نتيجة للصِّراع الذي دار بين العالمين الإسلامي والمسيحيّ في الأندلس وصقلّية، كما كان للحروب الصليبية أثر كبير في اشتداد أوار تلك الدراسات.

لهذا يمكن القول بأنّ تاريخ الاستشراق في مراحله الأولى، هو تاريخ للصراع بين الإسلام والمسيحيّة، ثم اشتد هذا الصراع بين العالم النّصراني الغربي والشرق الإسلامي على الصعيدين الديني والعقائدي في القرون الوسطى[١]، فقد كان الإسلام كما يقول (ساذرن Southern) يمثّل مشكلة بعيدة المدى بالنسبة للعالم النصراني في أوروبا على المستويات كافة.

فباعتباره مشكلة عمليّة، استدعى الأمر إلى اتّخاذ اجراءات معيّنة كالصليبيّة والدعوة إلى النّصرانية والتبادل التجاري، وباعتباره مشكلة لاهوتيّة تتطلّب بإلحاح العديد من الاجابات على العديد من الأسئلة في هذا الصّدد، وذلك يقتضي معرفة الحقائق التي لم يكن من السّهل معرفتها. وهنا ظهرت مشكلة تاريخية صار من المتعذّر حلّها، كما ندر إمكانية تناولها دون معرفة أدبيّة ولغويّة يصعب اكتسابها، وصارت المشكلة أكثر تعقيداً بسبب التعصب والرّغبة القويّة في عدم معرفتها خشية الدنس[٢]. ويقصد تعصب المسيحيين وخشيتهم من تعرّضهم للدّنس الذي يحيق بهم من جرّاء دراساتهم الإسلامية!!!.

وما وصل إلينا من كتابات النصارى في القرون الوسطى، يدلّ على الاغراق في الجهل والتعصّب الأعمى، فهناك حكايات في وصف الإسلام مغرقة في الخيال والضلال، اخترعها خيال الكُتّاب، مثل انشودة رولاند الشهيرة (The Song of Roland) وغيرها من آثار أدبية تصف المسلمين بأنّهم عُبّاد أصنام، أو أنهم يعبدون آلهة ثلاثة هي: (تيرفاكان

---

(1) C.E. Bosworth: Orientalism and Orientalists (In: Arab Islamic Bibliography) 1977 Great Britain.

(٢) ساذرن - نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى - ترجمة د. علي فهمي خشيم و د. صلاح الدين حسني (١٧) - طرابلس - ١٩٧٥م.

Tervagan، ومحمّد، وأبولّلو). وقد اعترف أعلم المؤلفين المسؤولين عن هــذا الأدب، وهو (جيبيــير دي نوجنــت Guibert de Nogent (ت١١٢٤م) بأنّه لا يعتمد في كتاباته عن الإسلام على أيّة مصادر مكتوبة، وأشار فقط إلى آراء العامة، وأنه لا يوجد لديه أية وسيلة للتمييز بين الخطأ والصواب، ثم قال مسوِّغاً كتاباته غير العلميّة عن الإسلام ونبيِّه: «لا جناح على المرء إذا ذكر بالسّوء مَنْ يفوق خبثه كلّ سوء يمكن أن يتصوّره المرء»[1].

وقد أطلق ساذرن على هذه العصور في كتابه: (نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى) عنوان: (عصر الجهالة)، وهو عصر كان أبعد ما يكون عن روح العلم والموضوعيّة، وفي ذلك يقول: «على أنّ الشيء الوحيد الذي يجب ألاّ نتوقعه في تلك العصور، هو الروح المتحرِّرة الأكاديميّة، أو البحث الإنساني الذي تميّز به الكثير من البحوث التي تناولت الإسلام في المائة سنة الأخيرة»[2].

وقد كانت هناك في القرن الثاني عشر الميلاديّ بعض المحاولات للتعرّف على الإسلام بقدر من الموضوعيّة، ولكن مع الهدف الواضح المعلن، وهو محاربة هذه التعاليم الإسلامية (الإلحادية). ومن أجل ذلك قام بطرس الموقر (ت١١٥٦م) رئيس رهبان كلوني بتشكيل جماعة من المترجمين في إسبانيا، يعملون كفريق واحد، من أجل الحصول على معرفة علميّة موضوعية عن الدين الإسلاميّ. وقد كان بطرس الموقّر وراء ظهور أوّل ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللّغة اللاتينيّة في سنة

---

(١) د. زقزوق - الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (٢٢-٢٣).

(٢) ساذرن - نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى - ص (١٥، ١٧، ٤٨، ٤٩). وانظر أيضاً تراث الإسلام (١/٣٤).

١١٤٣م، تلك الترجمة التي قام بها الإنكليزي (روبرت أوف كيتون Robert of Ketton)[١].

وقد حاول بطرس الموقّر الذي كان يعتبر الإسلام هرطقة نصرانيّة، أن يجد مسوّغا للجهود التي يقوم بها في مجال الترجمة من أجل التعرّف على الإسلام، حتى يحظى هذا العمل بالقبول لدى إخوانه النصارى، فقال: «إذا كان هذا العمل يبدو من النوافل الزائدة لأنّ العدو ليس عرضة للهجوم بمثل هذا السّلاح، فإني أردّ بأنّ في بلاد ملك عظيم تكون بعض الأشياء للدفاع وبعضها للزيْنة وبعضها لكليهما معاً. إنّ سليمان المسالم صنع الأسلحة للدفاع، ولو أنّها لم تكن ضروريّة في زمانه. وداود صنع الزينات للهيكل، ولو أنّه لم تكن هناك وسائل لاستعمالها في عصره[٢]... وكذلك الحال مع هذا العمل، فإذا لم يكن بالإمكان تنصير المسلمين به، فمن حقّ العالم على الأقل أن يساند إخوانه الضعفاء في الكنيسة الذين يسهل افتضاحهم بأشياء صغيرة»[٣].

ولم تجد (الموضوعيّة) التي كان يبحث عنها بطرس الموقّر تجاوباً في ذلك الزّمان، على أنّها لم تكن موضوعيّة بالمعنى الصّحيح، وإنّما يمكن أن تُعدّ (موضوعيّة موجّهة) ان صحّ التعبير.

ويقول رودي بارت: «حقيقة أنّ العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط كانوا يتّصلون بالمصادر الأولى في تعرّفهم على الإسلام، وكانوا يتّصلون بها على نطاق واسع، ولكن كلّ محاولة لتقويم هذه المصادر على

---

(١) تراث الإسلام (١/٣٧-٣٩).

(٢) هكذا ورد في النصّ، وهو مخالف لما ورد في القرآن الكريم من أنّ داود هو الذي كان يصنع الأسلحة، وما هو معروف من أنّ سليمان هو الذي صنع الزينات للهيكل.

(٣) ساذرن (٥٦-٥٧) وتراث الإسلام (١/٣٨).

نحوِ موضوعيّ نوعاً ما، كانت تصطدم بحكم سابق يتمثّل في أنّ هذا الدين المعادي للنصرانيّة لا يمكن أن يكون فيه خير. وهكذا كان الناس لا يولون تصديقهم إلاّ لتلك المعلومات التي تتّفق مع الرأي المتخذ من قبل، وكانوا يتلقّفون بينهم كلّ الأخبار التي تلوح لهم مُسيئة إلى النبيّ العربيّ وإلى دين الإسلام»[١].

ويمكن القول بصفةٍ عامة، بأنّه كان هناك في هذا الوقت من عمر الزّمن، أي في القرون الوسطى، اتّجاهان مختلفان للاستشراق فيما يتعلّق بالأهداف والمواقف ازاء الإسلام: الأول هو الاتجاه اللاهوتي المتطرّف في جدله العقيم، ناظراً إلى الإسلام من خلال ضباب كثيف من الخرافات والأساطير الشعبيّة. والثاني، وكان نسبياً بالمقارنة إلى الاتجاه الأول أقرب إلى الموضوعيّة والعلميّة، ونظر إلى الإسلام بوصفه مهد العلوم الطبيعية والطب والفلسفة، ولكنّ الاتّجاه الخرافي ظلّ حيّاً حتى القرن السابع عشر الميلادي وما بعده[٢]. ولا يزال هذا الاتجاه حيّاً للأسف في العصر الحاضر في كتابات قسم من المستشرقين عن الإسلام ونبيّ الإسلام[٣].

٢. أهداف الاستشراق:

أ. الاستشراق والتنصير:

إذا كان الاستشراق لا يقوم إلاّ على أساس معرفة اللّغات الشرقيّة التي هي الوسيلة للتعرّف على عقائد الشّرق وحضاراته، فإنّ التّنصير يتفق مع الاستشراق في هذا الصّدد، ويحتّم أيضاً معرفة لغات مَنْ يُراد

(١) بارت - ص (٩-١٠).
(٢) انظر: (Bosworth) في بحثه الذي سبقت الإشارة إليه.
(٣) د. زقزوق - الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (٢٦).

تنصيرهم. وقد كان هناك اقتناع تام لدى دعاة التّنصير في القرن الثالث عشر الميلاديّ بضرورة تعلّم لغات المسلمين، إذا أُريد لمحاولات تنصير المسلمين أن تؤتي ثمارها بنجاح، وقد كان هذا الاقتناع - الذي تُرجم فيما بعد إلى خطّة عمل - عاملاً مهماً بالنسبة لتطوّر الاستشراق. ولم يكن من السّهل في ذلك الزّمان فصل الاستشراق عن التنصير أو عن الدافع الدينيّ بصفة عامة، فالدافع الديني كان هو السبب الأول في نشأة الاستشراق.

وقد كان من بين الدّعاة المتحمسين الذين طالبوا بضرورة تعلّم لغات المسلمين لغرض التنصير (روجر بيكون ١٢١٤م - ١٢٩٤م) الذي كان يرى أنّ التّنصير هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها توسيع رقعة العالم المسيحيّ ولبلوغ هذا الغرض لا بدّ من توفّر شروط ثلاثة هي:

أولاً: معرفة اللّغات الضرورية.

ثانياً: دراسة أنواع الكفر وتمييز بعضها عن بعض.

ثالثاً: دراسة الحجج المضّادة حتى يمكن دحضها[١].

وقد شارك بيكون في أفكاره (رايموند لول Raymond Lull - ١٢٣٥م - ١٣١٦م) الذي ولد في جزيرة ميورقة الاسبانية، وتعلّم العربيّة على يد عبدٍ عربيّ، وكانت له جهود في إنشاء كراسي لتدريس اللّغة العربيّة في أماكن مختلفة، وكان الهدف من كلّ هذه الجهود في ذلك العصر وفي العصور التالية هو التنصير، وهو إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام واجتذابهم إلى الدين المسيحيّ[٢].

---

(١) ساذرن (٧٦) وزقزوق (٢٧-٢٨).

(٢) رودي بارت (٩).

وقد صادق مجمع ڤيينا الكنسيّ في سنة ١٣١٢ م على أفكار بيكون وأفكار لول بشأن تعلّم اللّغات الإسلاميّة، وتمّت الموافقة على تعليم اللّغة العربيّة في خمس جامعات أوروبية هي جامعات: باريس، وأكسفورد، وبولونيا، وسلمنكا، بالإضافة إلى جامعة المدينة البابويّة (Kurie) وقدّر لرايموند لول أن يعيش حتى يشهد تحقيق حلم طالما نادى به، وكان يعتقد أنّ الوقت بذلك قد حان لإخضاع المسلمين عن طريق التنصير، وبذلك تزول العقبة الكبيرة التي تقف في سبيل تحويل الإنسانية كلّها إلى العقيدة الكاثوليكية(١).

وقد ساعد على تقدّم الدراسات الاستشراقية في نهاية العصر الوسيط، تلك الصّلات السياسية مع الدولة العثمانية التي اتسعت رقعتها حينذاك، وكان للروابط الاقتصادية لكلّ من إسبانيا وإيطاليا مع كلّ من تركيّة وسوريّة ومصر أثر كبير في دفع حركة الدراسات الاستشراقية.

وفي القرن السادس عشر الميلادي وما بعده، أدّت النّزعة الإنسانية في عصر النهضة الأوروبية إلى دراسات أكثر موضوعيّة عن ذي قبل؛ ومن ناحية أخرى شجعت البابويّة دراسات لغات الشرق، من أجل مصلحة التنصير.

وفي سنة ١٥٣٩ م، تمّ إنشاء أوّل كرسيّ للّغة العربية في الكوليج دي فرانس في باريس، وشغل هذا الكرسي (جيوم بوستل Postel Guillaume ت ١٥٨١ م)، وقد أسهم كثيراً في إثراء دراسات اللّغات والشّعوب الشرقيّة في أوروبا. وقد سار على نهجه تلميذه (جوزيف اسكاليجر Joseph Scaliger ت ١٦٠٩ م).

---

(1) JohannFueck: Die Arabischon Studien in Europa, Leipzig 1955 P. 21–22.
نقلاً عن د. زقزوق (٢٨).

ولكنّ عمل بوستل لم يكن أبداً منقطع الصِّلة بجهود التنصير، فهو يذكِّر بقرار مجمع ڤيينا الكنسيّ، ويُجمل قيمة معرفة اللّغة العربية بقوله: «... إنّها تفيد بوصفها لغة عالميّة في التعامل مع المغاربة والمصريين والسوريين والفُرس والأتراك والتتار والهنود، وتحتوي على أدب ثريّ، ومَن يجيدها يستطيع أن يطعن كلّ أعداء العقيدة النّصرانية بسيف الكتاب المقدّس، وأن ينقضهم بمعتقداتهم التي يعتقدونها. وعن طريق معرفة لغة واحدة هي العربية، يستطيع المرء أن يتعامل مع العالم كله».

وقد كان يتباهى بأنّه يستطيع عبور آسيا وبلوغ الصين دون مترجم(١).

وفي سنة ١٥٨٦م، أصبح من السّهل طباعة الكتب العربية في أوروبا عن طريق المطابع التي أقامها الكاردينال فرديناند المديسي Ferdinand de Midici دوق تسكانيا الكبير، وقد تم حينذاك طباعة كتب عربية مختلفة من بينها مؤلفات ابن سينا في الطب والفلسفة(٢).

وفي القرن السّابع عشر الميلاديّ، بدأ المستشرقون في جمع المخطوطات الإسلامية، و أُنشئت كراسي للّغة العربية في أماكن مختلفة. ومن الجدير بالذكر، أنّ قرار إنشاء كرسيّ اللّغة العربية في جامعة كمبردج سنة ١٦٣٦م قد نصّ صراحة على خدمة هدفين: أحدهما تجاريّ، والآخر تنصيريّ، فقد جاء في خطاب للمراجع الأكاديميّة المسؤولة في جامعة كمبردج بتاريخ ٩ أيار (مايو) ١٦٣٦م إلى مؤسِّس هذا الكرسيّ ما يلي:

---

(١) المرجع السابق (٣٩-٤٠) وإدوارد د سعيد (٨١).

(٢) Boswert, op. cit. وأيضاً Johan fuek: op. p. 53 - 54.

« .... ونحن ندرك أننا لا نهدف من هذا العمل إلى الاقتراب من الأدب الجيد بتعريض جانب كبير من المعرفة إلى النور، بدلاً من احتباسه في نطاق هذه اللّغة التي نسعى لتعلّمها، ولكننا نهدف أيضاً إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقيّة، وإلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدّعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن في الظلمات ».

ومن هذا يتّضح أنّه قد كان هناك تجاوب متبادل بين الاستشراق والتنصير.

ومن بين الشخصيات التي كان لها أثر كبير في إرساء دعائم الدراسات الاستشراقية العربية في أوروبا المستشرق (توماس إربنيوس Thomas Erpenius ١٥٨٤م - ١٦٢٤م) الذي كان أوّل استاذ يشغل كرسيّ اللغة العربية في جامعة ليدن (١٦١٣م)، وقد استطاع عن طريق جهوده العلمية ومؤلفاته في النحو العربيّ أن يجعل لهولندا مكان الصدارة في الدراسات العربية في أوربا لما يقرب من قرنين من الزمان.

أما موقفه من الإسلام، فإنّه على الرّغم من أنّه كان يرى أنّ القرآن يُعدّ قمّة من حيث اللغة، إلاّ أنه كان يرى فيه من حيث المضمون تقليداً للكتاب المقدس. وكان رأيه في النبي ﷺ وتعاليمه متفقاً تماماً مع ذلك النفور الذي كان سائداً حينذاك في الغرب إزاء النبي ﷺ وتعاليمه(١).

إنّ دراسة قوائم المستشرقين منذ كان الاستشراق حتى اليوم، يظهر أن معظم المستشرقين كانوا من المبشرين، وهذا يكفي دليلاً على صلة الاستشراق بالتنصير.

---

(١) Johan fuek: op. cit. p. 68 - 69

ب. الاستشراق والاستعمار:

كان للمدّ الاستعماري في العالم الإسلامي دور كبير في تحديد طبيعة النظرة الأوروبية إلى الشرق، وخصوصاً بعد منتصف القرن التّاسع عشر الميلاديّ. وقد أفاد الاستعمار من التراث الاستشراقي، ومن ناحية أخرى كان للسيطرة الغربية على الشرق دورها في تعزيز موقف الاستشراق، وتواكبت مرحلة التقدّم الضخم في مؤسسات الاستشراق وفي مضمونه مع مرحلة التّوسع الأوروبي في الشّرق[1].

وقد شهد القرن التاسع عشر الميلادي استيلاء المستعمرين الغربيين على مناطق شاسعة من العالم الإسلاميّ.

ففي سنة ١٨٥٧ م تم استيلاء الإنكليز سياسياً على الهند، وأصبحت الهند بذلك تابعة للتاج البريطاني رسمياً، بعد أن كانت حتى ذلك الحين واقعة تحت نفوذ شركة الهند الشّرقية منذ القرن السّابع عشر الميلادي. وفي سنة ١٨٥٧ م أيضاً، تم استيلاء فرنسا على الجزائر كلّها بعد أن كان الفرنسيون قد بدأوا غزوها سنة ١٨٣٠ م. كما احتلّت هولندا قبل ذلك - في بداية القرن السّابع عشر الميلادي - جزر الهند الشرقية (اندونوسيا) عن طريق شركة الهند الهولنديّة. واحتلّ الفرنسيون تونس سنة ١٨٨١ م والمغرب سنة ١٩١١ م، واحتل الإيطاليون ليبيا سنة ١٩١١ م. واحتل الإنكليز العراق سنة ١٩١٧ م وكذلك فلسطين والأُردن، كما احتل الفرنسيون سورية ولبنان أيضاً. وظلّ الاستعمار يقطّع أوصال البلاد الإسلاميّة شيئاً فشيئاً ويضعها تحت سيادته، حتى استطاع في النهاية أن يطوّق العالم الإسلامي من الشرق والغرب، وبعد

---

(١) تراث الإسلام (١/٨٣) والاستشراق لإدوارد سعيد (٧٢).

الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م - ١٩١٨م) كان العالم الإسلامي كلّه تقريباً خاضعاً لنفوذ الاستعمار الغربيّ"[١].

وقد استطاع الاستعمار أن يجنّد طائفة من المستشرقين لخدمة أغراضه وتحقيق أهدافه وتمكين سلطانه في بلاد المسلمين، وهكذا نشأت رابطة رسمية وثيقة بين الاستشراق والاستعمار، وانساق في هذا التيار عدد من المستشرقين ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا آلة بيد المستعمِر وأن يكون علمهم وسيلة لإذلال المسلمين وإضعاف شأن الإسلام وقِيمَه - وهذا عمل يشعر إزاءه المستشرقون المنصفون بالخجل والمرارة، وفي ذلك يقول المستشرق الألماني المعاصر (استيفان فيلد Stephan Wild):

« ...... والأقبح من ذلك، أنه توجد جماعة يسمّون أنفسهم مستشرقين، سخّروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم لا بدّ أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة »[٢].

ومن بين الأمثلة العديدة لارتباط الاستشراق بالاستعمار، نذكر المستشرق (كارل هينريش بيكر Karl Heinrich Beker ت ١٩٣٣م) مؤسس (مجلّة الإسلام) الألمانية الذي قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية في إفريقية. فقد حصل الرايخ الألماني سنة ١٨٨٥م - ١٨٨٦م على مستعمرات في إفريقية تضمّ بعض مناطق سكانها من المسلمين، وظلّت تلك المناطق تحت السيادة الألمانية حتى سنة ١٩١٨م. وقد أدّى ذلك إلى تأسيس معهد اللّغات الشرقيّة في برلين

---

(١) د. محمد البهي - الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي (٢٩ - ٣٠)، وانظر تاريخ المعجمات العسكرية العربية (٢) - القاهرة - ١٣٨٨هـ.

(٢) د. زقزوق - الإسلام في الفكر الغربي - (٦٠).

سنة ١٨٨٧ م، وهو معهد كانت مهمته تتلخّص في الحصول على معلومات عن البلدان الشرقيّة الحالية وبلدان الشرق الأقصى وعن شعوب هذه البلدان وثقافتها[١].

وفي هذا يقول المستشرق الألماني (أوليريش هارمان Ulrich Harmann): «... كانت الدراسات الألمانية حول العالم الإسلامي قبل سنة ١٩١٩ م أقلّ براءة وصفاء نيّة، فقد كان كارل هينريش بيكر - وهو من كبار مستشرقينا - منغمساً في النشاطات السياسية، حتى إنّه أصبح في سنة ١٩١٤م شديد الحماسة لمخطط استخدام الإسلام في أفريقيا والهند كدرع سياسيّ في وجه البريطانيين»[٢].

أما (بارتولد Barthold) - (ت ١٩٣٠ م) مؤسس مجلة (عالم الإسلام) الروسية (Mir Islama)، فقد تم تكليفه عن طريق الحكومة الروسيّة بالقيام ببحوث تخدم مصالح السيادة الروسيّة في آسيا الوسطى.

أما عالم الإسلاميات الهولندي الشهير (سنوك هور جرونيه ت ١٩٣٦ م)، فإنه في سبيل استعداده للعمل في خدمة الاستعمار، توجّه إلى مكّة سنة ١٨٨٥ م بعد أن انتحل اسماً اسلامياً هو: (عبد الغفّار)، وأقام هناك ما يقرب نصف سنة، وقد ساعده على ذلك أنّه كان يجيد العربية كأحد أبنائها. وقد لعب هذا المستشرق دوراً مهماً في تشكيل السياسة الثقافية والاستعمارية في المناطق الهولنديّة من الهند الشرقية (أندونوسيا)، وشغل مناصب قيادية في السلطة الاستعمارية الهولنديّة في أندونوسيا[٣].

---

(١) بارت (٣١ - ٣٢).

(٢) انظر في ذلك المقال الذي كتبه أوليريش هارمان عن الاستشراق الألماني في مجلّة: (الباحث) - العدد ٢٥ - كانون الثاني (يناير) - شباط (فبراير) ١٩٨٣ - ص (١٤٥).

(٣) بارت (٤٩)، وانظر أيضاً: Bosworth, op. cit.

وفي فرنسا كان هناك عدد من المستشرقين يعملون مستشارين لوزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون شمالي إفريقية. وعلى سبيل المثال كان المستشرق الكبير (دي ساسي) اعتباراً من سنة ١٨٠٥ م يشغل منصب المستشرق المقيم في وزارة الخارجية الفرنسيّة. وعندما غزا الفرنسيون الجزائر سنة ١٨٣٠ م. كان (دي ساسي) هو الذي ترجم البيان الموجّه للجزائريين، وكان يُستشار بانتظام في جميع المسائل المتعلّقة بالشّرق من قبل وزير الخارجيّة، وفي حالات معيّنة من قِبل وزير الحربيّة أيضاً. وإلى عهد قريب كان ماسينيون مستشاراً للإدارة الاستعمارية في الشؤون الإسلاميّة[١].

ويكشف المستشرق الفرنسي (هانوتو - ت ١٩٤٤ م) في مقال له بعنوان: (قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلاميّة)، يكشف بوضوح عن مقترحاته لتوجيه سياسة فرنسا في مستعمراتها الإفريقية الإسلاميّة، وما تهدف إليه هذه المقترحات من إضعاف المسلمين في عقيدتهم حتى يسهل قيادهم[٢].

أما المصالح البريطانية في العالم الإسلامي، فقد كان الدافع إليها هو ممارسة السيادة البريطانية على الهند وغيرها من البلاد الإسلامية التي استولت عليها. وقد كان (اللورد كيرزن Curzon) في أوائل القرن العشرين الميلاديّ من أشدّ المتحمسين في إنكلترا لفكرة إنشاء مدرسة للدراسات الشرقية باعتبار أنّها تُعدّ: «جزءاً ضرورياً من تأثيث الإمبراطوريّة»، وتساعد على الاحتفاظ بالمواقع التي نالتها بريطانيا في الشرق. وقد تحوّلت المدرسة المذكورة فيا بعد إلى مدرسة جامعة لندن للدراسات الشّرقية والإفريقية.

---

(١) إدوارد سعيد (١٤٦، ٢٢١).

(٢) د. محمد البهي - الفكر الإسلامي الحديث (٣٠ وما بعدها).

وقد كانت الحكومة البريطانية - من أجل تحقيق أهدافها الاستعمارية - ترسم سياستها في مستعمراتها في الشرق بعد التنسيق والتّشاور مع فريق من المستشرقين الذين يقدِّمون لها الدراسات المطلوبة. يقول الدكتور إبراهيم اللّبان رحمه الله[1]: « ..... والواقع أنّ رجال السياسة في الغرب على صلة وثيقة بأساتذة هذه الكليات (كليات اللّغات الشرقية في أوروبا) وإلى آرائهم يرجعون قبل أن يتّخذوا القرارات الهامة في الشؤون السياسية الخاصة بالأمم العربية والإسلامية. وقد سمعت أحد كبار المستشرقين يتحدّث أمامي فيذكر أنّ مستر (ايدن) كان قبل أن يضع قراراً سياسياً في شؤون الشرق الأوسط يجمع المستشرقين المستعربين ويستمع إلى آرائهم، ثم يقرِّر ما يقرِّر في ضوء ما يسمعه منهم، هذا إلى أنّ بعضهم كان يؤسّس صلات صداقة بالبارزين من رجال الأمة العربية ويتّخذ من هذه الصّلات ستاراً يقوم من ورائه بأعمال التّجسس في أثناء الحرب »[2].

هاملتون جب المستشرق البريطاني المشهور (١٨٩٥م - ١٩٧١م) كان له نشاط سياسي مرموق، فقد ألقى محاضرات وكتب مقالات عن المشاكل السياسية للشرق الأوسط، وعن السياسة البريطانية، وكان في أولى سنوات الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩م - ١٩٤٥م) رئيساً للقسم الشرق أوسطي في المنظّمة الحربية التي أشادها المعهد الملكي للقضايا العالمية، لتزوِّد المكتب الأجنبيّ (Forein Office) بالمعلومات، والذي أصبح يسمى لاحقاً: قسم الأبحاث للمكتب الأجنبي، وقد أثّرت فيه السلطة والمسؤولية شيئاً ما، وكان يوجه الحكومة البريطانية في الشرق

---

(١) د. زقزوق - الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (٤٦ - ٤٧).
(٢) د. إبراهيم اللّبان - المستشرقون والإسلام (١٨)، وإدوارد سعيد (٢٢٤).

الأوسط لئلا تفقد مصالحها في تلك البلاد. وكانت له مخاوف مماثلة بالنسبة لسياسة فرنسا في سورية، ولم ينتقد السياسة الفرنسية في شمالي إفريقية، حيث واجهت فرنسا مشاكل تختلف عن مشاكل الشرق الأوسط[1].

وما يقال عن تعاون جب مع السلطات الاستعماريّة وسكوته عن الانحرافات السياسية للاستعمار، حتى إذا ألحقت أبلغ الضرر بالعرب والمسلمين، إلاّ إذا خشي أن تؤدي تلك الانحرافات إلى خسارة المستعمرين شيئاً من نفوذهم الماديّ أو المعنويّ حاضراً أو مستقبلاً في البلاد المستعمرة، فإنه يبدي رأيه لا محبّةً بالمستعمرين بل حرصاً على مصالح المستعمرين - ما يقال عن تعاون جب مع السلطات الاستعمارية البريطانية، يقال عن تعاون المستشرقين البريطانيين الآخرين، وليس ذلك سراً من الأسرار، بل هو معلوم للمتتبّعين ومسجّل في الوثائق الرسمية وفي كثير من المقالات والبحوث والمؤلّفات.

وقد يجد المبهورون بالمستشرقين من العرب والمسلمين، أن من الصّعب عليهم تصديق هذه الصلة الوثيقة المريبة بين المستشرقين والاستعمار، مما لا يُشرِّف عالماً ولا متعلّماً، إذ كيف يصدّقون أنّ قسماً منهم أعانوا الظالم على المظلوم، وسكتوا على إراقة دماء الأبرياء ونهب الثروات، وعملوا جواسيس للمستعمِر وأدلاء للاستعمار!!

لقد استطاعت بعض الدول العربية النفطية، أن يشتروا بالمال ضمائر كثير من المستشرقين اللامعين، فكتبوا وألّفوا ما يخالف حتى عقائدهم

---

(١) د. البرت حوراني - هاملتون جب - ترجمة سلام فوزي (٣٨٢ - ٣٨٣) - مجلة الفكر العربي - العدد (٣١) - كانون ثاني (يناير) - آذار (مارس) ١٩٨٣ - بيروت.

الدينية، وطعنوا أسس عقيدتهم بالصميم، وقالوا في مقدساتهم ما لم يقله مالك في الخمر.

هذه بالنسبة للدول العربية النفطيّة ذات الاتّجاه الديني، أما بالنسبة للدول العربية النفطية التي دينْها الرّسمي الإسلامي وكفى، وهي معنيّة بالسياسة والدعاية والاعلام فحسب، فقد اشترت بالمال ضمائر كثير من المستشرقين، فكتبوا وألّفوا ما يخالف الواقع، وقلبوا الحقائق رأساً على عقب وهم يعلمون!!

فإذا كان هذا هو موقف كثير من المستشرقين مع أبناء غير وطنهم ومع غير مواطنيهم، يكتبون ويؤلّفون ما (يحبّ) دافع الأموال لهم أن يُكتب ويؤلّف، لا ما (يجب) بوازع العلم وكرامة العلماء أن يُكتب ويُؤلف!! فكيف إذاً يتوقّع المبهورون بهم من العرب والمسلمين، أن يلتزم أمثالهم بالموضوعية وبمقتضيات البحث العلمي الأصيل.

وقد أصبح هؤلاء المرتزقة باسم العلم، جزءاً من قطع الزينة في دعوات السفارات العربية النفطية، وجزءاً من قطع الزينة أيضاً في المؤتمرات القطرية العربية التي لها بداية وليس لها نهاية، والتي تجمع شمل المتناقضات إلاّ ما ينفع الناس ويمكث في الأرض.

والصحف العربية تطالعنا كثيراً بأسماء هؤلاء المستشرقين (اللّامعين) وتصاويرهم في الحفلات والدعوات والمؤتمرات، وتطالعنا بأنباء بحوثهم ومؤلفاتهم (الموجّهة) التي تشم منها رائحة الريال والدينار أكثر مما تشمّ منها رائحة العلم.

وبهذه المناسبة، فهناك بعض المثقفين العرب والمسلمين أو من المحسوبين على الثقافة والعلم ظلماً وعدواناً، لا ينفكّون يفاخرون بصلاتهم المباشرة أو غير المباشرة بمثل هؤلاء المستشرقين، فيسجّل لهم أدعياء الصحافة والاعلام الذين ظهروا في غفلة من غفلات الزّمن، لأولئك

المثقفين من العرب والمسلمين ما يتباهون به من تلك الصّلات على أنّها مفاخر شخصية لأولئك المثقفين وأدّلة على رسوخهم في العلم.

والواقع أن هؤلاء المستشرقين لا يتّصلون إلا بأشخاص لهم سمات معيّنة لا تشرِّف أحداً في أكثر الأحيان، واتّصالاتهم تنصبّ في تحقيق مصالحهم المكشوفة أو المستورة التي هي جزء من أهدافهم المرسومة، فليس من مصلحة العرب والمسلمين الاتصال بهم إلاّ ضمن نطاق محدود وبعلم مَن لا غبار على إخلاصهم وخبرتهم وعلمهم وبإشرافهم الدّقيق.

إنّ الاستعمار في حقيقة أمره، هو امتداد للحروب الصليبيّة التي كانت في ظاهرها حروباً دينيّة، وفي باطنها حروباً استعماريّة. وكانت العودة إلى احتلال بلاد العرب وديار الإسلام حلماً ظلّ يراود الغربيين منذ هزيمة الصليبيين هزيمة نكراء في البلاد العربيّة والإسلاميّة: «فاتّجهوا إلى دراسة هذه البلاد في كل شؤونها من عقائد وعادات وأعراف وأخلاق، وثروات، ليتعرّفوا على مواطن القوّة فيها فيضعفوها، وإلى مواطن الضعف فيغتنموه»[1].

ولم تكن علاقة الاستعمار بالاستشراق - كما يُظنّ - هي مجرّد إضفاء طابع التّسويغ العقليّ على المبدأ الاستعماريّ، بل كان الأمر -كما يقول إدوارد سعيد أيضاً - أبعد من ذلك وأعمق، فالتسويغ الاستشراقي للاستعمار في شعاب الشرق وأوديته من أجل فرض السيطرة على الشرق وإخضاع شعوبه وإذلالها، لأن التّسويغ الاستشراقي للسيادة الاستعمارية قد تم قبل حدوث السيطرة الاستعمارية على الشرق، وليس بعد حدوثها، فكان التراث الاستشراقي بمثابة دليل للاستعمار: مهّد له السُّبل، وأنار له الطّرق، وذلّل له العقبات: «فالمعرفة تمنح القوّة،

---

(١) إدوارد سعيد - الاستشراق (٦٨، ٧٠).

ومزيد من القوّة يتطلّب مزيداً من المعرفة، فهناك باستمرار حركة جدلية بين المعلومات والسيطرة المتنامية»[1].

ولم يكتف المستشرقون بما قدّموه للاستعمار من معلومات قبل السيطرة الاستعمارية، بل تعاونوا معه تعاوناً وثيقاً في أثناء فرض الاستعمارية، وبقوا متعاونين معه على عهد الاستعمار. فلما ولّى عهد الاستعمار العسكري والسياسي، توجّهوا وجهات أخرى، ومنها الاتصالات بالدول العربية النفطية، كما هو معروف.

وهكذا اتّجه الاستشراق المتعاون مع الاستعمار - بعد الاستيلاء العسكري والسياسي على بلاد المسلمين - إلى إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية في نفوس المسلمين، بتشكيك المسلمين في معتقداتهم وتراثهم وطاقاتهم، حتى يتم للاستعمار إخضاع المسلمين إخضاعاً تاماً للحضارة الغربية والثقافة الغربية، وهي حضارة وثقافة مسيحية بلا جدال.

وهكذا خرج الاستعمار العسكري والسياسي من الباب، ليدخل باستعمار أخطر وأشدّ فتكاً، هو الاستعمار الفكري من الشبّاك.

جـ. الاستشراق ويهود:

موقف يهود من الإسلام والنبي ﷺ معروف وعداوتهم للإسلام والمسلمين وللنبيّ ﷺ معروفة، وأهدافهم التخريبيّة التي مارسوها على الإسلام والمسلمين منذ جاء الإسلام مكشوفة، وكلّ ذلك مسجّل في المصادر المعتمدة الإسلامية وغير الإسلاميّة أيضاً.

لقد حاربوا النبي ﷺ بالإشاعات والدسائس والفتن والمؤامرات، وحرّضوا عليه مشركي قريش والاحزاب، وخانوا العهود ونقضوا

---

(١) د. البهي - الفكر الإسلامي الحديث - ص (٥٣٤).

العقود، واستقتلوا في حرب النبي ﷺ والإسلام والمسلمين، وحاولوا اغتيال النبي ﷺ مرّات، وقاتلوا المسلمين في المدينة وخارجها في حياة النبي ﷺ في أربع غزوات: غزوة بني قَيْنُقَاع في السنة الثانية الهجرية، وغزوة بني النَّضِيْر في السنة الرابعة الهجريّة، وغزوة بني قُرَيْظَة في السنة الخامسة الهجريّة، وغزوة خَيْبَر في السنة السّابعة الهجريّة[1].

وبعد أن التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى سنة إحدى عشرة الهجريّة، ولم يكفّ يهود عن محاولاتهم التخريبيّة على الإسلام والمسلمين، مع أنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه سمح لهم بالعودة إلى القدس، وكان الرّوم قد حرموهم من هذا الحق، وعاشوا في ظلّ الحكم الإسلامي ورعاية المسلمين حياة لم يكونوا يحلمون بها من قبل، وحظوا برعاية خاصة في الأندلس لا يزالون يذكرونها ويتذكرونها في بحوثهم ومؤلفاتهم، فلما أفل نجم المسلمين في الأندلس اضطهدهم النّصارى اضطهاداً عظيماً.

وقد تولوا في الدولة الإسلامية مناصب مهمة، كالادارات المالية وغيرها، وكانوا أحراراً في معاملاتهم المالية، فأثرى كثير منهم ثراء فاحشا، وامتلكوا الأرض والبساتين والمزارع والانعام.

ومع ذلك دأبوا على الدس والتخريب، ونشروا الاسرائيليات حتى في قسم من التفاسير، وحرضوا على الفتن والقلاقل والاضطرابات، ودسّوا في الدين وأشاعوا المذاهب المنحرفة والآراء التي ما أنزل الله بها من سلطان، وكان سبيلهم إلى ذلك تظاهرهم بالإسلام، وهم يعملون على تخريب الإسلام.

هذا غيض من فيض في جهود يهود التخريبيّة على الإسلام، لم أدوِّنها

---

(١) الرسول القائد (١٥٣ - ١٥٥، ٢٠٥ - ٢٠٩، ٢٤٤ - ٢٤٧، ٢٩٣ - ٢٩٨) - ط ٥ - دار الفكر في بيروت - ١٣٩٤ هـ.

على سبيل الحصر، بل على سبيل التّذكير فحسب، فالمقالات والدراسات والبحوث والمؤلفات حول الموضوع أكثر أن تُحصى، وصدق الله العظيم: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾[1].

فما هي الأسباب التي دفعت بعض يهود على الاقبال إلى الدراسات الاستشراقية؟ وما هو الدور الذي قاموا به في إطار الحركة الاستشراقية؟

والجواب على ذلك سهل وصعب في آن واحد، سهل، لأنّ آثارهم التخريبية تدلّ عليهم. وصعب، لأن المراجع التي تتحدّث عن الاستشراق وتطوّره قد أغفلت الحديث عن هذا الجانب وسبب إغفال الحديث عن هذا الموضوع يرجع إلى أنّ المستشرقين من يهود قد استطاعوا أن يكيّفوا أنفسهم ليصبحوا عنصراً أساسياً في إطار الحركة الاستشراقية الأوروبيّة النّصرانية، فقد دخلوا الميدان بوصفهم الأوروبي لا بوصفهم اليهودى. وقد استطاع كولدزيهر في عصره، وهو يهوديّ مجري، أن يصبح زعيم علماء الإسلاميات في أوروبا بلا منازع، ولا تزال كتبه حتى اليوم تَحظى بالتقدير والاحترام من كلّ فئات المستشرقين..

وهكذا لم يرد يهود أن يعملوا داخل الحركة الاستشراقية بوصفهم مستشرقين يهوداً، حتى لا يعزلوا أنفسهم، وبالتالي يقلّ تأثيرهم. ولهذا عملوا بوصفهم مستشرقين أوروبيين، وبذلك كسبوا مرتين: كسبوا أولاً فرض أنفسهم على الحركة الاستشراقية كلّها، وكسبوا ثانياً تحقيق أهدافهم في النيل من الإسلام، وهي أهداف تلتقي مع أهداف غالبية

(١) سورة المائدة، آية ٨٢.

المستشرقين النصارى[1]، ولو أنّها تفوقها حقداً وخبثاً وإمعاناً في التخريب.

ويشير الأستاذ الدكتور محمد البهي رحمه الله في كتابه: (الفكر الإسلامي الحديث) إلى ملاحظة لبعض الباحثين حول تفسير أسباب إقبال يهود على الاستشراق. وتتلخّص تلك الملاحظة، في أنّهم أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية وسياسية. أما الأسباب الدينية، فإنها تتمثل في محاولة إضعاف الإسلام والتّشكيك في قيمه بإثبات فضل يهود عليه، وذلك بالادّعاء أنّ اليهوديّة - في نظرهم - هي مصدر الإسلام الأول. أما الاسباب السياسيّة فإنها تتصل بخدمة الصهيونية فكرةً أولاً ودولةً ثانيا.

ويرى الدكتور البّهي، أنّ وجهة النظر هذه على الرّغم من أنّها لا تعتمد على مصدر مكتوب يؤيّدها، فإن الظروف العامة والظواهر المترادفة في كتابات هؤلاء المستشرقين تُعزّز وجهة النظر هذه، وتُضفي عليها بعض خصائص الاستنتاج العلمي[2].

والواقع المشهود أبلغ من كل مصدر مكتوب وأصدق، لأنّ المصدر المكتوب يمكن أن يمازجه الكذب والاختلاق، أما الواقع المشهود فلا كذب فيه ولا اختلاق.

من أمثلة ما حاوله المستشرقون من يهود في التّشكيك في الدين الإسلامي، محاولة كبيرهم الذي علّمهم السحر، كولدزيهر، فهو أوّل مستشرق قام بمحاولة واسعة شاملة للتّشكيك في الحديث النبويّ الشريف. ويلخّص بفانمولر عمل كولدزيهر في هذا المجال فيقول: « ... وقد قادته المعايشة العميقة لمادة الحديث الهائلة إلى الشك في الحديث،

---

(١) د زقزوق-الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (٤٨ - ٤٩).
(٢) مجلة الباحث (١٤٤).

ولم يعد يثق فيه مثلما كان دوزي لا يزال يفعل ذلك في كتابه: (مقال في تاريخ الإسلام). وبالأحرى كان كولدزيهر يعتبر القسم الأعظم من الحديث بمثابة نتيجة لتطوّر الإسلام الديني والتاريخيّ والاجتماعيّ في القرن الأول والثاني، فالحديث بالنسبة له لا يُعدّ وثيقة لتاريخ الإسلام في عهده الأول: عهد طفولته، وإنّما هو أثر من آثار الجهود التي ظهرت في المجتمع الإسلامي في عصور المراحل الناضجة لتطوّر الإسلام»، وقد ورد ذلك في كتاب: (دراسات إسلاميّة) لكولدزيهر[1].

وإذا أمعنت النظر في حرص الصّحابة على حفظ حديث رسول الله ﷺ ونقله وحرص التابعين وتابعي التابعين فمن بعدهم، على نقل هذا الحديث وجمعه، وتنقيته من شوائب التحريف والتزيّد، وما قام به علماء السّنة المطهّرة من جهود جبارة في تتبّع الكذّابين والوضّاعين، وفضح نواياهم ودخائلهم، وبيان ما زادوه في السُّنّة أحاديث مكذوبة، حتى جمعت السُّنّة في كتب صحيحة، وأشبعها النقاد بحثاً وتمحيصاً، ثم خرجوا من ذلك إلى الاعتراف بصحّتها والتّسليم بها... إذا أمعنت النظر في ذلك كلّه، أيقنت أنّ هؤلاء المستشرقين يخبطون في أودية الأوهام، ويتأثرون بأهوائهم وتعصّبهم في الحكم على حقائق يعتبر العبث بها في نظر المحقّق المنصف إسفافاً وتلاعباً بالعلم، وإخضاعاً لحقائق التاريخ إلى نظريّات الهوى والعصبيّة[2].

---

(١) د. علي حسن عبد القادر - نظرة عامة في الفقه (١٢٦)، والدكتور مصطفى السباعي - السُّنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي (٣٦٧) والدكتور زقزوق - الاستشراق والخلفية الفكرية (١٠١).

(٢) د. مصطفى السباعي - السنّة (٣٧٣)، وانظر تفاصيل الرد على كولدزيهر في كتاب السنّة (٣٧٤-٤٠٠)، مَن أراد الاطلاع على تلك التفاصيل، فليرجع إلى ذلك المرجع، فقد أفاض في الرد على كولدزيهر بما لا مزيد عليه.

والأمر الذي لا شك فيه، أنّ علماء المسلمين الذيـن اهتموا بجمع الحديث النبويّ الشريف، لم يفرِّطوا إطلاقاً في ضرورة التدقيق الذي لا حدّ له في رواية الحديث ورواية الحقائق، فقد وضع القرآن الكريم أمامهم أهمّ قاعدة من قواعد النّقد التاريخيّ في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾[1]. وتتمثل هذه القاعدة، في أنّ أخلاق الراوي تُعدّ عاملاً مهماً في الحكم على روايته. وقد أفاد المسلمون إفادة عظيمة من هذه القاعدة وطبّقوها على رواة الأحاديث النّبويّة، وقد كان تطبيق هذا المنهج النقدي على رواة الأحاديث، هو الذي تطوّرت عنه بالتدريج قواعد النقد التاريخي[2].

ولعلماء الحديث باع طويل في نقد الرّواة وبيان حالهم من صدق أو كذب، فقد وصلوا في هذا الباب إلى أبعد مدى، وأبلوا فيه بلاءً حسناً، وتتبّعوا الرُّواة ودرسوا حياتهم وتاريخهم وسيرتهم وما خفي من أمرهم وما ظهر، ولم تأخذهم في قول الحق فيهم لومة لائم، ولا منعهم عن تجريح الرُّواة والتشهير بهم ورع ولا حَرَج. قيل ليحيى بن سعيد القطّان: «أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله؟!»، فقال: «لأن يكون هؤلاء خصمي، أحبّ إليّ من أن يكون خصمي رسول الله ﷺ يقول: لِمَ لَمْ تذبّ الكذب عن حديثي»[3].

وقد وضع رجال الحديث القواعد الدّقيقة التي ساروا عليها، فيمن يؤخذ منه ومَن لا يؤخذ منه، ومَن يُكتب عنه ومَن لا يُكتب. ويعلم كولدزيهر وغيره من المستشرقين ذلك حق العلم، ويعلمون أيضاً أنّ ما

(١) سورة الحجرات، آية ٦.
(٢) د. محمد إقبال - تجديد التفكير الديني في الإسلام - (١٦٠ وما بعدها).
(٣) د. السباعي - السنة (١٠٨).

بذل المسلمون في توثيق الحديث لم يبذل أحد من أتباع النصرانية واليهوديّة عشر معشاره في سبيل توثيق العهدين القديم والجديد، ويعلمون أيضاً أنّ إماماً من ائمة الحديث مثل البخاري لم يأخذ في صحيحه بعد حذف المكرّر إلا حوالي أربعة آلاف حديث فقط من مجموع حوالي نصف مليون حديث قام بجمعها وغربلتها، حتى انتقى منها هذه الآلاف القليلة نتيجة للمناهج العلميّة الدّقيقة التي وضعها المحدِّثون. ولم يكن المسلمون في وقت من الأوقات بحاجة إلى مَن يعلِّمهم ذلك من أمثال كولدزيهر ومَن سار على نهجه ومن اقتفى آراءه من المستشرقين والمستغربين[1].

ولا يزال علماء المسلمين حتى اليوم، يدقِّقون في حديث رسول الله ﷺ وينشرون دراساتهم وبحوثهم ومؤلّفاتهم، وما كتبوه أكثر من أن يُحصى، وأعرف من أن يُعرَّف.

ولم يقتصر المستشرقون من يهود على التشكيك في الحديث النّبوي الشريف، بل تعدّاه إلى المصدر الأول للإسلام، وهو القرآن الكريم، فقد بذل يهود قصارى جهدهم للتّشكيك في القرآن والدسّ في تفسيره، ولما اخترعت المطابع حاولوا تحريف القرآن الكريم وتحوير بعض آياته وحذف قسم منها، وأصدروا طبعات من القرآن الكريم ووزّعوها في إفريقية خاصة وفي الدول غير العربية عامة، ولكن علماء المسلمين كانوا لهم بالمرصاد، ففضحوا الطبعات تلك المزوّرة من القرآن الكريم، وكشفوا ما جاء فيها من أخطاء، وحذّروا المسلمين من الاعتماد عليها أو قراءتها ثم صدرت قرارات علماء المسلمين في الاعتماد على الطبعات القرآنية المطبوعة بإشراف هيئات إسلاميّة معتمدة، بعد إقرارها من هيئات

---

(١) د. زقزوق - الإستشراق (١٠٤).

علميّة معتمدة أيضاً كمجمع البحوث الإسلامية في الأزهر الشريف مثلاً، وعدم الاعتماد على طبعات القرآن الكريم غير المصدّق عليها من الهيئات الإسلامية العلميّة المعتمدة، وحرق ما تيسّر من تلك الطبعات غير المعتمدة خوفاً من التزوير الذي يتولى كِبْرَه مستشرقو يهود عمداً وعن سبق إصرار.

حتى في مجال العلوم والآداب والفنون التي في فلسطين، نسبوها لأنفسهم زوراً، وبهتانا، وجعلوا العرب والمسلمين دخلاء على المنطقة دون الالتفات إلى آلاف القرون التي كان العرب فيها من سكان فلسطين الأصليين قبل الإسلام وبعده، فدسّوا في التاريخ وجعلوا عملاءهم يدسّون أيضاً لقاء أجر معلوم، فقلبوا الحقائق رأساً على عقب، وشوّهوا الصورة العربية الإسلامية بالنسبة للأجانب بخاصة، ومن المؤسف أنّ هذا التشويه أخذ ينتقل بالعدوى إلى العقول العربية والإسلامية ويغزو الجامعات والمعاهد الثقافية وأجهزة الإعلام العربية والإسلامية بشكل أو بآخر، وظهر أنّه كان ليهود والصهاينة عملاء بين مفكّري العرب والمسلمين وكان ظهورهم خاصة بعد توقيع اتّفاقية (كامب ديفيد) بين السّادات والعدو الصهيوني، فأصبح للكيان الصهيوني سفارة معتمدة في القاهرة بلد الأزهر الشريف، وأصبح للقاهرة سفارة معتمدة في تل أبيب!!.

أما الأسباب السياسية لإقبال يهود على الاستشراق، فقد بذلوا قصارى جهدهم عالمياً لإثبات أنّ فلسطين لهم لا للعرب والمسلمين، وذلك قبل زرع الكيان الصهيوني في الارض المقدسة فلسطين سنة (١٣٦٨ هـ= ١٩٤٨ م) وأصدروا دراسات لا تعدّ ولا تحصى حول هذا الموضوع، وجعلوا لكل مدينة وقرية وسهلٍ وجبل ووادٍ في فلسطين اسماً عبرّياً، فلما حققوا أهدافهم في إنشاء الوطن القوميّ فلسطين، ثم توسعوا بالتدريج،

ألغوا الأسماء العربية الشائعة منذ قرون ووضعوا مكانها الأسماء العبرّية، وهكذا هوّدوا فلسطين العربية الإسلامية، وفرضوا تزويرهم بالقوة.

وقد استقدمت جامعة الدول العربية إلى القاهرة في أوائل السبعينيات يهودياً يزعم أنّه ليس صهيونياً، فألقى خطاباً في قاعة من قاعات جامعة الدول العربية في حشد حاشد من المثقفين والسياسيين العرب المسلمين. وكنت يومها في القاهرة رئيساً للجنة توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية، فشهدت تلك المحاضرة، ولما انتهى المحاضِر محاضرته، سأله ممثل السعودية في لجنة توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية تنفيذاً لرغبتي وبتشجيع مني: «هل توافق على رحيل الصهاينة عن فلسطين، وإعادتها لأصحابها الشّرعيين من العرب والمسلمين؟ »، فأجاب اليهودي غير الصهيوني: «لا، إنّ اسرائيل وُجدت لتبقى! »، وكنت ولا أزال وسأبقى لا أرى فرقاً جوهرياً بين اليهوديّ والصهيونيّ، لأنّ الصهيوني الجيد هو اليهوديّ الجيد[1]، ولكنّ إجابة ذلك اليهوديّ غير الصهيونيّ عزّزت رأيي الذي لم يكن بحاجة إلى تعزيزه والمهم أن يتيقّن من هذه الحقيقة النّاصعة مَن لا يزال يعتقد أنّ اليهوديّة شيء، والصهيونية شيء آخر، والواقع أنّهما وجهان لعملة واحدة: الأصل اليهوديّة، والفرع السياسي الصهيونيّة، كما أنّ لليهوديّة وجوهاً كثيرة غير الصهيونية بأسماء شتى: سياسية، واجتماعية، وإنسانيّة، كالماسونية ونوادي الروتري والمايونيز، فهي روافد تصبّ في اليهوديّة وتعمل لخدمتها.

وكما أنه لا فرق بين اليهودي والصهيوني إلا في عقول المُغَرَّر بهم، فلا فرق أيضاً بين يهودي تقدميّ ويهوديّ رجعيّ إلا في عقول المُغَرَّر بهم

(١) هذا هو نص مقولة بن غوريون، رئيس وزراء إسرائيل الأسبق، أهل مكة أعرف بشعابها.

أيضاً، فما وقف يوماً يهوديّ تقدميّ ضدّ مصالح إسرائيل العليا، ولا كان على يهود مع العرب، وما فرّقت قنابل الصهاينة في الحروب العربية التقدميين العرب والرجعيين، ولكن هذه الشعارات الزائفة يرفعها يهود في أيام السّلام ليقتتل بها العرب والمسلمون فيما بينهم، ولينشب الخلاف والصراع بين صفوفهم، ولكي لا يجتمعوا على حرب الصهاينة ويتخذوا منها عدوّهم الاول، لأنّ هذه الشعارات فرقتهم بَدَدا وشرذمتهم عَدَدا، وجعلت بأسهم بينهم شديداً، فلم يبق العدو الصهيوني في نظرهم العدو الأول، بل أصبح لكل فئة منهم عدوّ له أسبقية على العدو الصهيوني، والمستفيد الوحيد أولاً وأخيراً هو العدو الصهيوني بلا مراء من هذا الاقتتال.

ولو تتبعنا كلّ جذور الفساد، ليس بالنسبة للعرب والمسلمين فحسب، بل بالنسبة للعالم كلّه، لوجدنا أنّه يهوديّ الفكر والمَنْبَت والانتشار، فهم وراء خلق الربا، ونشر الرذيلة، وإشاعة الفحشاء، وتبنّي الفساد، وخلق المؤامرات، وترويج الفتن، والسّعي إلى خراب الذمم وتخريب العمار، واختلاق التشكيك والدس والأكاذيب، وصدق الله العظيم: ﴿الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون﴾[1].

ولا ضرورة للتّمادي بالشّرح والتّعليل، فليس المسلمون بحاجة إلى إثبات كراهيّة يهود للإسلام.

وقد ظلّ يهود طوال تاريخهم يتحيّنون كلّ فرصة متاحة ليكيدوا للإسلام والمسلمين، بشتى الطرق والأساليب، ومنها مجال الاستشراق، إذ

---

(٢) سورة النمل، آية ٤٨.

وجدوا فيه باباً ينفثون منه سمومهم على العرب والمسلمين والإسلام، فدخلوا هذا المجال مستخفين تحت رداء العلم، كما وجدوا في الصهيونية باباً آخر يفرضون منه سيطرتهم على العرب والمسلمين، بالقوة، وبالسياسة وبالاعلام.

د. العمل في مجال المجابهة:

أولا: كانت التيارات الفكريّة الأجنبيّة القديمة - التي كانت تمثّل تحدياً للإسلام والفكر الإسلامي الأصيل في عصور الإسلام الزاهرة - كانت حافزاً للمسلمين في تلك الأيام الخوالي، للوقوف أمامها بقوّة وصلابة. وقد كانت المواجهة على مستوى التّحدي بل تفوقه، إذ هضم الفكر الإسلامي تلك التيارات هضماً كاملاً واستوعبها استيعاباً تاماً، ثم كانت له معها وقفته الصلبة وبالأسلحة الفكريّة نفسها.

فالمواجهة إذاً، كانت مواجهة فكريّة.

والتاريخ اليوم يُعيد نفسه، فالحرب اليوم بين الإسلام والتيارات المناوئة له حرب أفكار، والمعركة معركة فكريّة، ولهذه المعركة أدواتها التي يجب التّسلح بها، لأنّ الخسران في هذه المعركة أشدّ وطأة وأقوى تأثيراً وأعظم فتكاً من خسارة أيّة معركة حربيّة أياً كان حجمها الماديّ والمعنوي، لأنّ ذلك التأثير يدوم ساعة، والتأثير الفكري قد يدوم إلى قيام السّاعة.

لننظر مثلاً مثالاً رائداً في تاريخ الفكر الإسلاميّ... إنّه حجّة الإسلام الغزاليّ الذي خاض غمار معارك فكريّة عديدة وخرج منها جميعاً منتصراً، فماذا كان يفعل؟ يقول الإمام الغزالي في كتابه: (المنقذ من الضلال)[1]: «... إنّه لا يقف على فساد نوع من العلوم مَنْ لا يقف

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (١٢٤-١٢٥).

على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم من أهل ذلك العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته، فيطّلع على ما يطّلع عليه صاحب العلم.... وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدّعيه من فساده حقاً»[١].

إنّ استيعاب الإنتاج الاستشراقي حول الإسلام ودراسته دراسة عميقة، هو الخطوة الأولى لنقده نقداً صحيحاً وإثبات ما يتضمّنه من تهافت أو زيف، الأمر الذي يجعل المستشرقين المنحرفين عن الصواب، يفكّرون ألف مرّة قبل أن يكتبوا، تحسّباً لما قد يواجههم من نقد علميّ يعرّيهم ويكشف زيف ادعاءاتهم.

ويؤكّد هذه الحقيقة المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون، حين يشير إلى أنّ النّقد الأوروبي ربما يكون غير عادل في نقاط معيّنة، ولكنّ القيام بتنفيذ هذا النّقد يقتضي بدوره دراسته أولاً، إذ لا يمكن نقضه إلاّ على الأساس نفسه الذي قام عليه[٢].

ويجب أن يرتبط نقدنا لإنتاج المستشرقين بنقد ذاتيّ حقيقيّ بشكل مستمر، ويجب أن نواجه أنفسنا مواجهة حقيقيّة بعيوبنا وتقصيرنا، وأنّ نكون على وعي حقيقيّ بالمشكلات التي تواجهنا في هذا العالم المعاصر[٣]، فمعرفة الداء وتشخيصه هو السبيل إلى وصف الدواء الذي يؤدي إلى الشفاء أما التكتّم على الداء، فيؤدي إلى الخطأ في وصف الدواء، والنتيجة تبقى في ضياع فرصة الوصول إلى الشفاء.

---

(١) الغزالي - المنقذ من الضلال - تحقيق الشيخ عبد الحليم محمود - (١٠٣) - القاهرة - بدون تاريخ.

(٢) M. Rodininson: Mohammed, Frankfurt m. 1975, p. 8.

(٣) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (١٢٦).

ثانياً: والاستشراق قضيّة تتناقض حولها الآراء بين المسلمين، فهناك مَنْ يؤيِّده ويتحمّس له إلى أقصى حد، وهناك مَنْ يرفضه جملةً وتفصيلاً ويلعن كلّ مَن يشتغل به لعناً كبيراً بوصفه عدواً لدوداً للإسلام والمسلمين.

والواقع الذي لا يمكن إنكاره، هو أنّ الاستشراق له تأثيراته القويّة في الفكر الإسلاميّ الحديث إيجاباً أو سلباً اردنا أم لم نرد، ولهذا فإننا لا نستطيع أن نتجاهله أو نكتفي بمجرّد رفضه وكأننا بذلك قد قمنا بحلّ المشكلة.

وفي هذا الصّدد، لا بدّ من التأكيد على أن التزام الموضوعيّة هو دائماً في صالح الإسلام، فإذا افتقد الإسلام لدى أتباعه الوعي السّليم والفهم الصحيح لأصوله وغاياته، فإن مواقف هؤلاء الأتباع - مهما حسنت النيّات، لن تخرج عن مواقف الصديق الجاهل الذي هو أضرّ بالإسلام من العدوّ العاقل[1].

ولكن ينبغي أن نتحرّر من: (عقيدة التخلّف) التي تسيطر علينا في جميع مناحي حياتنا، فقد تحرّر العرب والمسلمون من جميع أنواع الاستعمار إلاّ الاستعمار الفكري، فلا يزالون يرزحون تحت وطأته. ويبدو أن: (عقدة الخواجة) والتقدير الفائق لقدرات الأجنبي أمر ضارب بأطنابه في نفوسنا، فلا بد من تغيير جذري في مناهج التعليم، ولا بدّ من إعادة النّظر في ثقافتنا وفي تفكيرنا.

إن مناهج التعليم وضعها المستعمِر، وهي التي أدّت إلى تعميق الاستعمار الفكري في عقول العرب والمسلمين ونفوسهم معاً، فإذا كان

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (١٤-١٦).

المستعمر وضع هذه المناهج لتحقيق أهدافه في استعباد قلوبنا وعقولنا، وكانت مصلحته في وضع مثل هذه المناهج، فلماذا يُبقي عليها العرب والمسلمون بعد أن رحل المستعمر عن بلادهم إلى غير رجعة بإذن الله؟!.

والعجيب أنّ أيتام المستعمِر من العرب والمسلمين وهم المستغربون، يُصرّون على بقاء هذه المناهج ويدعون إليها، بل يضيفون على انحرافهم القديم من عند أنفسهم انحرافاً جديدا.

فهل نحن حريصون حقاً على الحفاظ على هوّيتنا وعقائدنا وتراثنا واستقلالية شخصيتنا الإسلامية؟!.

إذا كانت الإجابة بالإيجاب، فنحن أصحاب (قضيّة) يجب أن نعمل من أجلها بكلّ طاقاتنا... وهي قضيّة مصيريّة من أجل إثبات الذّات... قضيّة صراع حضاريّ مرير.

والاستشراق طرف في هذه القضيّة، لأنّ كثيراً من الدراسات الاستشراقيّة في مجال الإسلاميات، تهدف بطريق مباشر أو غير مباشر إلى طمس معالم هويتنا، والتشكيك في عقائدنا وتراثنا، والنّيل من استقلاليّة شخصيتنا العربية والإسلامية. والتّصدي لذلك من جانبنا له أساليب مختلفة ترتكز كلّها على شرط جوهريّ لا بدّ من توفّره قبل أن نخطو خطوة واحدة في هذا السَّبيل، ويتمثّل هذا الشّرط في الثقة بالنّفس والإيمان بالهدف[١].

إنّ المناهج التعليمية التي وضعها دانلوب وأساتذته وطلاّبه في مصر، كانت مناهج غربيّة في كلّ خصائصها وتفاصيلها، لا تتلاءم مع طبيعة المجتمع المسلم، فهي تؤدي إلى تغريب المجتمع المسلم لدرجة الذوبان الكامل والفناء التام فكراً وعقيدة ونظاماً اجتماعياً في الحضارة الغربيّة،

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (١٣٠).

لذلك أنتجت مثقَّفين يعرفون عن نابليون أكثر مما يعرفون عن خالد بن الوليد، وعن شكسبير أكثر مما يعرفون عن الجاحظ، ويسمعون السباب علناً في لغتهم ودينهم ثم لا يستنكرون هذا السّباب ولا يضيقون به ذرعا!!.

بل يذهب قسم من المستغربين العرب والمسلمين إلى مدى أبعد من ذلك، إذ يترجمون سباب المستشرقين وتشكيكهم وأخطاءهم وانحرافاتهم، ثم يملأون عقول طلابهم وتلاميذهم وقرّائهم بها، دون تكلّف الردّ عليها أو تصحيح أخطائها أو تقويم انحرافاتها، مما يدلّ على أنهم يتفقون مع المشكِّكين في تشكيكهم ويُقرِّون أخطاءهم ويؤيِّدون انحرافهم، فهم عون للأجنبي على باطله في مهاجمة قومهم وأبناء دينهم على حقِّهم الواضح الصريح.

ثالثاً: إن المواجهة الفكريّة الجادة هي السبيل الوحيد لمجابهة أيّة تيارات مناوئة للإسلام والمسلمين، فلا بد من الانكباب على دراسة الاستشراق دراسة عميقة واعية، وتأليف موسوعة في الردّ على المستشرقين.

وينبغي أن يكون تناولنا للموضوعات التي تشمل عليها الموسوعة الإسلامية المقترحة، تناولاً موضوعياً مدعماً بالحقائق العلمية والشّواهد التاريخيّة والبراهين العقلية وكذلك بالاسانيد الدينيّة فيما يتعلّق بالعلوم النّقليّة التي يعترف المستشرقون بالمناهج التي استخدمت فيها.

ويتطلّب الردّ على الشبهات والطعون التي أثارها المستشرقون، عرض هذه الشبهات والردّ عليها تفصيلياً بعيداً عن الاساليب الهجوميّة، حتى يكون لهذا العمل العلميّ أثره الإيجابي لدى المثقفين من كلّ الطبقات مُسلمين وغير مسلمين، وحتى يكون دافعاً للمستشرقين إلى اعادة النّظر في أقوالهم وعوناً لهم على تصحيح اتّجاهاتهم حول الإسلام وتاريخه

وحضارته، إذا كان هؤلاء المستشرقون صادقين في ادعائهم أنّهم مع الحقّ على الباطل ومع العلم على الجهل، فإذا ظهر لهم الحق في العلم انصاعوا له أذعنوا وعادوا إلى الطريق السوي. وفي النهاية، يكون هذا العمل العلميّ بمثابة تعريف بالإسلام، لكلّ راغب في التعرّف عليه.

وينبغي أن تقتصر هذه الموسوعة على الموضوعات التي كانت مثار أخذ وردّ وجدل لدى المستشرقين، وبصفة أساسيّة في القرنين التّاسع عشر والعشرين الميلاديين.

ومن المعروف أنّ المستشرقين لا يشكّلون اتّجاهاً واحداً في كلّ المسائل الإسلامية التي تعرّضوا لها، فهناك مسائل يختلفون فيها بين مؤيد ومعارض، لذلك ينبغي إبراز ردود بعض المستشرقين على بعضهم الآخر بصدد بعض الشبهات التي أثاروها حول الإسلام والحضارة الإسلامية واللّغة العربية.

وينبغي أن تصدر الموسوعة بدراسة حول الاستشراق بوجه عام، على أن تبيِّن هذه الدراسة أهداف الاستشراق ومناهجه والأسباب التي دعت إلى الدراسات الاستشراقية وأدّت إلى إثارة الطّعون والشبهات حول الإسلام وتاريخه وحضارته.

رابعاً: لقد طرق المستشرقون في دراستهم كلّ فروع العلوم الإسلاميّة والفكر الإسلاميّ بصفة عامة، وركّزوا على بعض القضايا الهامة التي تتّصل بأصالة الدِّين الإسلامي وأصالة الفكر الإسلاميّ والحضارة الإسلامية. ويمكن تقسيم المجالات العلمية التي ستكون محوراً للتناول في هذه الموسوعة إلى مجالين رئيسين يندرج تحتها فروع مختلفة: **أولاً**، علوم دينية، وتشمل دراسات المستشرقين حول الدِّين الإسلاميّ بصفة عامة، وحول القرآن الكريم والسُنَّة النّبويّة المطهّرة بصفة خاصة، مع العناية بدراسة الترجمات المختلفة التي قاموا بها للقرآن الكريم، وتقويم هذه

الترجمات. وتشمل كذلك الدراسات المتعلّقة بالتّفسير وعلوم القرآن والحديث وعلومه والفقه الإسلاميّ، وعلم الكلام والتصوّف وأصول الفقه. مع الاهتمام بتقويم مناهج المستشرقين في هذه الدراسات ووضعها في ميزان النّقد العلميّ، وبيان ملاءمتها أو عدم ملاءمتها لهذه الدراسات. وثانيا: علوم إنسانية، وتشمل علوم الفلسفة واللّغة وعلومها والأدب وتاريخه والنّقد الأدبيّ والسِّيرة النّبويّة والتاريخ الإسلاميّ والجغرافيا والعمارة والفنون الإسلامية، كما تشمل أيضاً الحساب والجبر والهندسة والفلك وعلوم الكيمياء والفنون والطب والصيدلة والنبات والحيوان. مع الاهتمام بمدى أصالة المسلمين وإبداعهم في كلّ هذه المجالات، ومدى ما أسهموا به وقدّموه للحضارة الإنسانية.

خامساً: يجب في البداية القيام بحصر شامل لكتابات المستشرقين عن المجالات سالفة الذكر في القرنين التّاسع عشر والعشرين الميلاديين بصفة أساسيّة باللّغات: الانكليزية، والفرنسية، والألمانية، والإسبانية، والإيطالية، والروسيّة، ويشمل هذا الحصر الكتب والمجلاّت والدوريات الخ.....

والقيام بعملية حصر هذه الأعمال الاستشراقية، يحتاج الى خبير في كلّ لغة من هذه اللّغات الست وبالعلوم التي يجري حصرها، وإلى عدد من المساعدين في مجال كلّ لغة من تلك اللّغات، على أن يُستعاد في هذا الحصر بالمتخصصين في المجال الاستشراقي ممن اعتنقوا الإسلام في أوروبا وغيرها من القارات.

ويقوم جهاز متعاون من الخبراء في اللّغات الستّ المشار إليها، بتحضير المادة وتصنيف الموضوعات، وضمّ المادة التي يتكرّر الحديث عنها في لغات مختلفة تحت موضوع واحد، حتى يتم الردّ عليها جملةً واحدة.

وتقدّم المادة للعلماء الذين سيقومون بإعداد الردود العلميّة، ويُراعي

عند تقديم هذه المادة لهم، أن تترجم لهم الأفكار الأساسية للقضايا المطلوب الكتابة فيها من اللّغات التي لا يجيدون القراءة بها، حتى يكون لديهم تصوّر كامل شامل لكلّ ما قيل حول القضية المطروحة، وحتى يغطي التناول للموضوع، وجهات النظر التي قيلت فيه.

ومن المهم جداً أن يكون الخبراء والعلماء الذين يُختارون للردّ على المستشرقين أن يكونوا من الملتزمين بتعاليم الإسلام، فقد ثبت أنّ الذين سايروا المستشرقين في انحرافهم ونقلوا أخطاءهم إلى العرب والمسلمين، كلّهم لم يدخلوا في حياتهم مسجداً ولم يُصلّوا لله صلاة واحدة.

هؤلاء الملتزمون بالإسلام، لهم (قضيّة) يحرصون على الدفاع عنها، ولا أزيد، وهم القادرون على الردّ العلمي المتّزن على انحرافات المستشرقين.

والعبرة ليس بكثرة الخبراء والعلماء المختارين للردّ على المسشترقين، بل العبرة بحسن الاختيار أولاً وتفرّغهم الكامل لهذا العمل ثانياً، ومتانتهم العلمية وعملهم بعلمهم وإخلاصهم في عملهم واعتبارهم العلم عبادة من أجلّ العبادات لا تجارة من أربح التّجارات.

ويتم تحرير الموضوعات باللّغة العربية، وفي الحالات التي لا يُجيد فيها أحد العلماء المسلمين، اللّغة العربية، يمكن الكتابة بإحدى اللّغات الأجنبيّة، على أن يتم ترجمة الموضوع إلى العربية فور وصوله.

وعند وصول ردّ من الردود، يُحال إلى لجنة مختصّة بالمراجعة والتّدقيق، تنحصر مهمّتها في فحص الرد من جميع جوانبه الدينية والعلمية والتاريخية.... الخ... ومدى وفائه بالغرض المطلوب، وهو استيعابه التام للردّ على الشبهة المراد الردّ عليها وتفنيد حججها بالأدلّة الدامغة.

وعندما تعتمد لجنة المراجعة ردّاً من الردود، يتم تصويره وتوزيعه على مجموعة من العلماء المتخصّصين على مستوى العالم الإسلامي، لإقراره واعتماده اعتماداً نهائياً، أو بيان ما قد يكون عليه من ملاحظات، لتلافي ما فيه من هفوات بموجب تلك الملاحظات.

وبعد مرحلة اعتماد الردّ اعتماداً نهائياً، يتم اعداده للطباعة في إطار مجال من مجالات الفروع الإسلامية والفكر الإسلامي السّابق الإشارة إليها، وفي الوقت نفسه تبدأ مجموعة من الخبراء في ترجمته إلى اللّغات الأجنبية الست التي ذكرناها، ويمكن أن يتم النّشر في وقت واحد باللّغة العربية وبتلك اللّغات[1].

وقد آن الأوان للتفكير على مستوى العالم الإسلامي - في إقامة مؤسَّسة إسلاميّة علميّة عالمية، لا تنتمي بالولاء لقُطْر معيّن، بل يكون ولاؤها الأول والأخير للإسلام وحده، كما لا تنتمي بالولاء لمذهب سياسيّ أو فكريّ أو دينيّ معيّن، بل يكون ولاؤها كلّه لله وحده ولرسوله عليه الصّلاة والسلام، وتستطيع استقطاب الكفايات العلميّة الإسلاميّة في شتى أنحاء العالم، وتقف على قدم المساواة مع الحركة الاستشراقية، ويكون لها دوريات ومجلاّت علميّة ذات مستوى رفيع، تنشر بحوثها بلغات مختلفة، وتعمل على استعادة أصالتنا الفكرية واستقلالنا في ميدان الأفكار، فهذا هو الطريق الصحيح إلى الاستقلال الاقتصادي والسياسي، إذ إنّ المجتمع الذي لا يصنع أفكاره الرئيسة لا يمكنه على أيّة حال أن يصنع المنتجات الضروريّة لاستهلاكه ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه[2].

---

(١) انظر التفاصيل في: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (١٣٠-١٣٦).
(٢) إنتاج المستشرقين - مالك بن نبي - (٦٢).

سادساً: ولست أجهل الصعوبات التي تحول دون إخراج هذا الاقتراح من حيِّز الفكر إلى حيِّز التطبيق العملي، وليست بي حاجة إلى تجاهل تلك الصعوبات، ومن أهم تلك الصعوبات ما يخلقه المستشرقون ومَن وراءهم من قوى الاستعمار والصهيونية العالمية والعدو الصهيوني، والمستفيدون من بقاء الاستعمار الفكري مسيطراً على عقول العرب والمسلمين وقلوبهم، وما يخلقه أذناب المستشرقين من مستغربين وعملاء ومغرَّر بهم وجهلاء وشعوبيين يكرهون الإسلام بالتظاهر بحبّ العرب، أو يكرهون العرب بالتّظاهر بحب الإسلام و«لا يكره العرب إلا منافق»[1]، و«إذا ذلّت العرب ذلّ الإسلام»[2]، و«حُبّ العرب إيمان وبغضهم نفاق»[3]، و«ألا مَنْ أحبّ العرب فبحبي أحبّهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم»[4]، كما قال النبيّ ﷺ، والشعوبي مَنْ يكره العرب ومن يكره الإسلام أيضاً..

ولا ينبغي أن ننسى المثبّطين من الذين لا يعملون ولا يحبّون أن يعمل غيرهم، فهم من تلك الصعوبات التي ينبغي تجاوزها أيضاً بالعمل على التغلّب عليها وتذليلها. وأول عامل يقود هذا المشروع إلى النجاح الكامل، بل إلى الامتياز بالنجاح، هو اختيار المسؤول الأول عن الموسوعة، وترك الحرية الكاملة له: لاختيار العلماء والخبراء والعاملين في مشروع الموسوعة، على أن يكون عالماً حقاً، عاملاً بعلمه، مخلصاً

---

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل، انظر مفتاح كنوز السنة (٣٣٩).
(٢) رواه أبو ليلى في مسنده، كما رواه أبو يعلى في مسنده، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (١/٤٠).
(٣) رواه الدراقطني عن ابن عمر، انظر: قادة فتح بلاد الشام ومصر (٣٤٦).
(٤) رواه الطبري انظر: قادة فتح بلاد الشام ومصر، وكتاب: الأحاديث النبوية في فضل الأمة العربية (١١) و(١٢).

بعمله، غير مرتزق ولا تاجر علم، محافظاً على كرامة العلم والعلماء، له قابلية على التخطيط والتنفيذ والإدارة.

ولم تنجح جامعة الدول العربية منذ تأسيسها حتى اليوم، في مشروع علمي أو غير علميّ، إلا في مشروع توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية بإصدار أربعة معجمات عسكرية موحَّدة، ولولا رئيس توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية، لتفرقت اللجنة قبل أن تنجز شيئاً، لأنّ عشرات المشاكل والعقبات قاومت اللجنة، أكثرها من جامعة الدول العربية بالذات، ولكن توفيق الله كان مع رئيس اللجنة، فتغلّب على تلك المشاكل والعقبات.

ويا حبذا لو تبنّت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مشروع هذه الموسوعة، ليكتب في إخراجها صفحة ناصعة في صفحات المنظمة تبقى على الدّهر، إذ لا أكتم المنظمة أنّ صفحاتها لا تزال بيضاء لم يسجّل عليها ما يسر الصديق أو يسوء العدو، فقد كثرت مؤتمراتها ووعودها، فسمعنا جعجعةً بلا طحن، وأملنا أن نلمس بعد أن سمعنا جعجعتها طحناً، علماً نافعاً ينفع الناس ويمكث في الأرض.

فإذا لم تُقدم هذه المنظمة على تبنّي هذا المشروع، فإن أيّة دولة عربيّة نفطية وحتى غير نفطية أيضاً، تستطيع أن تتبنّى هذا المشروع. بل يمكن أن يتبناه أحد أغنياء العرب والمسلمين، فقد أنعم الله سبحانه وتعالى على كثير من العرب والمسلمين بالثراء والخير. وسيكون للدولة العربية أو الإسلامية التي تتبنّى هذا المشروع شأن أيّ شأن في صفحات الفكر العربي والإسلامي بخاصة، وفي صفحات الفكر العالمي بعامة، وحسبه أن يظهر الحق ويزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا.

لقد ذكر هيرتزل في مذكراته، أنّه أنفق الملايين لتشويه سمعة السلطان عبد الحميد وازاحته عن عرشه، وتشويه الحقائق الإسلامية،

فصدرت المؤلفات والبحوث والنشرات والمقالات المأجورة لقلب الحقائق رأساً على عقب.

ذلك ما اعترف به هيرتزل في مذكراته، ولا نريد أن ننفق الأموال لتشويه سمعة أحد، أو قلب الحقائق، بل كلّ ما نريده هو الدفاع عن العربية لغةً والإسلام ديناً، بإظهار الحق وكشف الباطل والرّد على التجني والافتراء والتدليس.

إنّ الاستشراق يُشكّل الجذور الحقيقية التي كانت ولا تزال تقدّم المدد للتنصير والاستعمار، وتُغذّي الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، وتشكّل المناخ الملائم من أجل فرض السيطرة الاستعمارية على الشرق الإسلامي وإخضاع شعوبه، فالاستشراق هو المنجم والمصنع الفكري الذي يمدّ المنصرين والمستعمرين بالمواد يسوّقونها في العالم الإسلامي لتحطيم عقيدته، وهدم أفكاره، وتهوين شأنه، وتبديد الثقة بنفسه، والاعتماد على المستعمر، والثقة به دون سواه. وقد جاء هذا الغزو الثقافي ثمرة من ثمرات إخفاق الغزو العسكري وسقوطه، ولتربية أجيال ما بعد الاستعمار.

ولا شك في أنّ الغزو الثقافي أخطر من الغزو العسكري، فلا ينبغي السكوت عنه ولا التقليل من أخطاره أو التهوين من شأنه.

ولو كان العرب أكثر قوة وكان المسلمون أكثر تماسكاً واتّحاداً، لما استكانوا للغزو الفكري واستسلموا له، ولكان لهم شأن آخر مع هذا الغزو، ولكن الضعيف عرضة لاستهانة القوي به، ومن أشدّ أنواع هذه الاستهانة وطأةً الاستهانة بفكر الضعيف حتى إذا كان فكراً متميّزاً على أفكار الأقوياء.

وطالما تساءلت: لو استعمل علماء العرب والمسلمين مقاييس النقد التي وضعها هؤلاء الغربيّون، في نقد ما عند هؤلاء الغربيين أنفسهم من

عقيدة ولغة وعلوم، فماذا سيبقى للغربيين من عقيدة ولغة وحضارة!؟.

تُرى! لو استعمل المسلمون معايير النّقد العلميّ التي يستعملها المستشرقون في نقد القرآن والسنّة واللغة العربية والتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلاميّة، في نقد كتب المستشرقين المقدسة، ماذا كان يبقى لهذه الكتب المقدسة والعلوم التاريخية عندهم من قوّة!؟ وماذ يكون فيها من ثبوت؟!.

تُرى لو استعمل المسلمون أسلوب المستشرقين من تتبّع الأخبار السّاقطة، وفهم النصوص على غير حقيقتها، وقلب المحاسن إلى سيئات، والتشكيك في كلّ خبر يصدر عن هؤلاء الغربيين، في الكتابة عن الحضارة الغربية وتاريخ علمائها، لو حصل هذا لخرجت منه صورة لهذه الحضارة ولرجالها مضحكة مخزية ينكرها المستشرقون قبل غيرهم[1].

ولكنني لا أتمنى أن أضع هذه التساؤلات في حيّز التطبيق العمليّ، فالمسلمون يؤمنون بالرّسل والأنبياء جميعاً، ولا يسرّهم أن يلحق الأذى بسمعتهم الطاهرة، كما أنهم دأبوا على إظهار الحق والحرص على مقوّماته لا الاعتداء والتّجني وتسقط العيوب وكشف العورات، لأن الإسلام يأمر بعدم الاعتداء وينهي عن التّجني وتسقط العيوب، ويأمر بستر العورات والالتزام بالصدق في مختلف الظروف والأحوال.

وما الردّ على المستشرقين، إلاّ لون من ألوان دفع الزور والبهتان، وإعادة الحق إلى نصابه، لأنّه يقتصر على الدفاع عن مقدساتنا ولغتنا وتاريخنا وحضارتنا باظهار الحق وإزهاق الباطل.

---

(١) انظر: الاستشراق والمستشرقون - د. مصطفى السباعي - (٦٦-٦٧).
(٢) المؤرخ العربي - العدد ٢٣ الصادر سنة ١٩٨٣-(٢٦١).

والسفارات النّبويّة والرّسائل النبويّة، جزء لا يتجزأ من السُنَّة المطّهرة وهذا الموضوع موثّق في المصادر توثيقاً يجعله من المسلّمات التاريخيّة التي لا تحتمل الشك.

وحملات التشكيك التي بدأها المستشرقون، لا تثبت للمناقشة، وربما كان دافعها الرئيس نفي صفة العالمية عن الدين الإسلاميّ، وهي صفة واضحة لا يمكن جحودها. واكتشاف الرسائل النبوية ابتداء من سنة (١٢٦٧ هـ-١٨٥٠ م) اضاف بعداً جديداً وساعد على المزيد من التوثيق.

والحمد لله الذي وفّقني لهذه الدراسة وأعانني عليها، وصلّى الله على سيدنا ومولانا رسول الله وعلى آله وأصحابه أجمعين.

ورضي الله عن قادة الفتح وجنوده، وقادة الفكر وطلاّبه، وعن جميع مَن أخلص الخدمة للعربية لغةً وللإسلام دينا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

سمات سفراء النبيّ ﷺ

مُسْتَهل

بلــغ عَـــدَدُ سفراء النــبي ﷺ إلى الملوك والأمراء العرب والأجانب خمسة عشر سفيراً، خمسة منهم إلى ملوك الأجانب: اثنان إلى النّجاشيّ ملك الحبشة، وواحد إلى كلّ من هِرَقل قيصر الرُّوم، وأبرويز كسرى الفُرس، والمقوقس ملك مصر. أما السّفراء الباقون، وهم عشرة سفراء، فكانت سفاراتهم إلى ملوك العرب وأمرائها.

ولم يُستشهد من سفراء النبيّ ﷺ غير سفير واحد، استُشهد وهو في طريقه إلى ملك بُصْرى الغَسَّانِيّ قبل أن يصل إليه ويبلِّغه مضمون سفارته، أما السفراء الباقون فقد بلّغوا مضمون سفـارتهم، وعادوا إلى المدينة المنوّرة بعد إنجاز واجباتهم سالمين.

ومُزِّقت رسالة نبويّة واحدة، ولم تُمَزَّق غيرها من رسائل النبيّ ﷺ، حتىمن الملوك والأمراء الذين لم يعتنقوا الإسلام.

ورفض اثنان من الملوك والأمراء اعتناق الإسلام بشدّة وبالتهديد: أبرويز بن هُرمز ملك الفُرس، والحارِث بن شَمِر الغَسَّانِيّ ملك الغساسنة في الشّام وحليف الرُّوم عليها.

وصَرَف بـالحُسنـى السّفـيرَ النبويَّ كـلٌّ من هِرَقْـل قيصر الرُّوم،

والمقوقس ملك مصر، وقدّم المقوقس للنبيّ ﷺ هدية سَنِيَّة، ولكنهما بقيا على دينهما ولم يُسلِما.

ومعنى ذلك، أنّ أربعة من الملوك بقوا على دينهم ولم يُسْلِموا، وقد صرف ملكان منهم سفيري رسول الله ﷺ بالحُسنى، وصرف ملكان منهم سفيري رسول الله ﷺ بالعُنف والشَدَّة.

وجميع الملوك الذين لم يُسْلموا من الأجانب، عدا ملك الغساسنة الذي كان حليفاً للرُّوم، وكان يُفكِّر بعقل القيصر لا بعقله، ويعمل ما يحبّ القيصر أن يعمله لا ما يجبّ عليه أن يعمله، فكان ملكيّاً أكثر من الملك.

أما الملوك والأمراء الآخرون، فقد أسلموا وحَسُن إسلامهم، وأسلم مع قسم منهم كثير من أتباعهم، وأسلم مع النّجاشيّ ملك الحبشة قسم من الأحباش، أي أنّ المسلمين أصبحوا الأكثريّة في قسم من الاقطار التي أسلم ملوكها وأُمراؤها، بينما بقي المسلمون أقلية في بلاد الحبشة التي أسلم ملكها.

وإذا أردنا أن يكون تعبيرنا أكثر دِقّة ووضوحاً، حول انتشار الإسلام في الاقطار التي قصدها السُّفراء النبويّون، فلا بدّ من أن نذكر أنّ الإسلام انتشر انتشاراً واسعاً في تسعة أقطار عربية هي: اليَمَامة، وعُمان، والبحرين، وحَضْرَمَوْت، وخمس مناطق شاسعة من اليمن، يحكم كلّ منطقة منها ذو من الأذواء أو قَيْل من الاقيال، وكان انتشار الإسلام محدوداً نسبيّاً في أرض الحبشة، لأنّ إسلام النّجاشيّ لا يؤدي بالضرورة إلى إسلام شعبه كافةً، إذ: ﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي**﴾[1]، والشكّ والتّشكيك في إسلام النّجاشي، بحجة أنّ

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٥٦.

قومه لم يُسْلِموا جميعاً، باعتبار أنّه لو أسلم حقّاً لأسلم قومه معه أيضاً، لا يصدران إلاّ عن فكر لا يفهم تعاليم الإسلام حق الفهم، أو يفهم تعاليم دينه ولا يفهم تعاليم الإسلام، فيحاول أن يُطبِّق ما فهمه من تعاليم دينه على تعاليم الإسلام، وهذا خطأ شنيع يدلّ على جهل مطبق أو تعصّب مقيت، لأن التعاليم الإسلاميّة في الدعوة إلى الإسلام تختلف اختلافاً عظيماً عن تعاليم الأديان الأخرى، فالإسلام ينهي عن الدّعوة إلى اعتناقه بالإكراه، وتاريخ المسلمين خير شاهد على ذلك.

ونعود إلى الملوك والأمراء الأربعة الذين لم يستجيبوا للإسلام، لنعرف أسباب عدم استجابتهم، وهل كان من جملة تلك الأسباب تقصير السُّفراء النّبويين المرسلين إلى اولئك الملوك والأمراء في التبليغ أدّى فيما أدّى اليه إلى بقائهم على دينهم؟!.

ونبدأ بالملكين اللّذين لم يُسْلما، وصرفا السّفيرين النّبويين بالعنف، أولهما كسرى أبرويز ملك الفُرس، وكان معروفاً بالصَّلَف والعُنْجُهيَّة[1] والتّهوّر، فساقته هذه المثالب إلى أن يخسر ملكه وحياته في ثورة عارمة قادها عليه ابنه، فقُتل بيد ابنه لأنّه فَقَد عطف حتى ابنه من رعيته، وأصبح التخلّص منه إنقاذاً للرعيّة، فكان ابنه المنقذ المرتقب. كما أنّه كان يرى أنّ العربيّ يُقَاد ولا يقود، لأنّ الذين سبق له التعاون معهم من العرب هم من هذا الصِّنف الذي يُقاد ولا يَقود، ولم يسبق له التّعاون مع العرب الذين يقودون ولا يُقادون، لإنّهم كانوا حريصين على حريتهم وكرامتهم، فلم يتعاونوا مع ملك ظالم مُسْتبد مُسْتعمر، لا يعرف للناس حقوقهم ولا للرجال قدرهم، وابتعدوا عن السّلطة نهائياً كما يبتعد الصّحيح عن المريض والسّليم عن الأجرب.

---

(١) العنجهية: الكِبَر والعظمة والجَفاء.

أما الثاني، فهو الحارث بن شَمِر الغَسَّاني ملك الغساسنة بالشّام، وكان أمره ليس بيده، بل بيد سيِّده هِرَقل ملك الرُّوم، وكان لا يفكِّر بعقله بل بعقل سيِّده، فيعمل بما يتوقّع أن يَرضى عنه سيِّده لا بما يُرضي به عقله وضميره. لذلك افتعل الحماسة في مجابهة السَّفير النبويّ، فهدّد وتوعّد، فلما علم أن هرقل استنكر اسلوب معاملته للسّفير النبوي في تهديده ووعيده، تبدّل فوراً حاله من حال إلى حال، فأصبح غضبه حلماً وشدّته ليناً وتشدّده تساهلاً، وأكرم السّفير النبويّ وأعاده إلى المدينة سالما.

ولم يُخفق السفيران النبويان اللّذان قصدا كسرى والحارث بن شَمِر الغَسَّاني، فقد أديا واجبيهما كما ينبغي، وما لقياه من إعراض كان لأسباب خارجة عن إرادتهما، ولا سبيل لهما ولا لغيرهما إلى التغلّب على تلك الأسباب القاهرة.

أما هِرَقْل والمقوقس اللّذان لم يُسْلِما، ولكنهما أعادا السّفيرين النّبويين بالحُسنى، فكانا يخافان على ملكهما وحياتهما من رجال الدِّين والرعيّة، فهما مهتمّان بشخصيهما ومصالحهما قبل اهتمامهما بشيءٍ آخر.

ومع ذلك، فإنّ معاملتهما للسّفيرين النّبويين بالحُسنى، دليل على أنّ السّفيرين لم يُخْفقا في أداء مهمّتهما، بل نجحا في أداء واجبهما نجاحاً ملموسا.

وإذا ثبت لدينا، أنّ السفراء الأربعة، الذين لم يُسلم الملوك والأمراء بعد الاتصال بهم، قد نجحوا في سفاراتهم النبويّة، بما لا يقل عن نجاح السّفراء النبويين الآخرين، الذين أسلم الملوك والأمراء الذين أرسلوا إليهم واتّصلوا بهم، فمعنى ذلك أنّ السفارات النبويّة نجحت نجاحاً باهراً، وأن سفراء النبيّ ﷺ نجحوا في أداء مهمّاتهم الصّعبة الشّاقة المعقدة في ظروف غير ملائمة. وكان من عوامل هذا النّجاح الباهر

المتميِّز، هو اختيار الرجل المناسب للسِّفارة المناسبة، وكان اختيار السُّفراء النّبويين موفّقاً حقّاً، وكانوا عند حسن ظنّ المسلمين بهم، لهم سمات خاصّة أهّلتهم لتحمّل أعباء واجباتهم الثقيلة الصّعبة بكفاية واقتدار في أصعب الظروف والأحوال.

لقد كان هدف السّفارات النّبويّة، هو الدّعوة إلى اعتناق الإسلام، فكان سفراء النبيّ ﷺ الذين أرسلهم إلى الملوك والأمراء في زمانه دعاة إلى الإسلام[1]، ولكنّهم كانوا صَفوة الدعاة، لأنّ إسلام ملك أو امير يؤثّر تأثيراً عظيماً في أتباعه، لذلك كان سفراء النبيّ ﷺ هم صَفْوة الدُّعاة المسلمين من الصحابة، فإذا كان الدُّعاة هم صَفوة الصَّحابة، فإن السّفراء النّبويين هم صَفوة الصَّفوة في سِماتهم الخاصّة التي تؤهّلهم للنهوض بالدّعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والكياسة والمزايا الأخرى التي ترد تفاصيلها وشيكا.

ودراسة سِمات سفراء النبيّ ﷺ تستحق العناية الفائقة، من أجل الأسوة الحسنة المقتبسة من النبيّ ﷺ في أسلوب اختيار السّفراء، ومن أجل ماضي المسلمين وحاضرهم ومستقبلهم، فالماضي عِبْرة للحاضر والمستقبل، والماضي هو الأساس للحاضر والمستقبل.

والعبرة من عرض سمات سفراء النبيّ ﷺ للحاضر والمستقبل، تكون للذين يملكون القرار في تولية السّفراء ومَن يعمل معهم في السّفارات أولاً، وللسّفراء ومَن يعمل معهم في السّفارات ثانياً، حتى يُحسن الملوك والرؤساء والأمراء اختيار السفراء ومَن يعمل معهم بهدي سمات سفراء النبيّ ﷺ، وحتى يقتدي السُّفراء ومَن يعمل معهم بسفراء النبيّ ﷺ، فيحسنوا في عملهم. والعبرة أيضاً تكون لكلّ فرد من أفراد الأمة،

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/٢٧٨) وطبقات ابن سعد (١/٢٥٨) والطبري (٢/٦٤٤).

ليعرف كلّ فرد من أفراد الأمَّة، كيف ينبغي أن تكون سمات السّفير الصّالح ومَن يعمل معه في سفارته، ليكونوا قادرين على النهوض بواجباتهم من أجل مصالح أُمَّتهم وبلادهم.

وقد حاولت تعداد سمات كل سفير من سفراء النبيّ ﷺ في أثناء تفصيل سيرته، وكانت تلك السِمات هي السِّمات الخاصة بكلّ سفير.

وهذه الدراسة، هي السِمات العامة المشتركة بين سفراء النبيّ ﷺ، جمعتها في بحث مستقلّ، ليكون عبرة لمن يعتبر بماض أمّته المشرّف المجيد.

إلاّ أن هؤلاء السُّفراء النّبويين، بهذا العدد غير القليل، في مثل تلك الظروف، لا يمكن أن يبرزوا بمثل هذه الكفاية العالية والقدرة المتميِّزة والاستقامة المطلقة والإخلاص النادر من فراغ، بل أُعِدُّوا إعداداً دقيقاً ليكونوا قادرين على مهمّتهم قدرة لا يتطرّق إليها الشك، وهذا الإعداد هو ما أُطلق عليه تعبير: بناء السُّفراء.

وهذا البحث يشمل: بناء سفراء النبيّ ﷺ، وسِمات سفراء النبيّ ﷺ.

وأهميّة عبرة بناء السفراء، لا تقلّ عن عبرة سِمات السفراء، فلكلّ منها عبرته البالغة لحاضر المسلمين ومستقبلهم، يتعلمونها من ماضيها المشرّف المجيد، في مرحلة من مراحل السِّيرة النّبويّة الغنية بالعِبَر والدّروس.

بناء السفراء

١. الدّعائم الثلاث:

استطاع النبيّ ﷺ، بناء الإنسان المسلم - والسفير المسلم إنسان مسلم أيضاً - على ثلاث دعائم.

الأولى: العقيدة الإسلامية، وهي عقيدة منشئة بنّاءة، تصلح لكلّ زمان ومكان وتبدّل معتنقها من حال إلى حال.

والثانية: القُدوة الحسنة، فقد كان عليه الصلاة والسلام خلقه القرآن، كما وصفته الصدّيقة بنت الصدّيق عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، وكان عليه الصّلاة والسّلام تعاليم الإسلام يَمشي على الأرض بشراً سَوِيّا، وكان يطبّق تعاليم الإسلام على نفسه قبل غيره فيكون قدوة لغيره بالعمل الصالح والمعاملة الحسنة والخُلق الكريم وبالتطبيق العملي للإسلام نصّاً وروحا.

والثالثة: اختيار الرّجل المناسب للعمل المناسب، والتنويه بمزاياه، والتستّر على عيوبه ومحاولة تقويمها، وعدم غمط حقوق القادرين، والاشادة بقدراتهم وإبرازها، والتّركيز على المزايا دون المثالب، والاستفادة من تلك المزايا لمصلحة المسلمين العامة، وجَعَلَ المسلمين أفراداً يشعر كلّ فرد منهم أنّ حقّه مُصان، وأنّه في المكان القادر على الانتاج منه، وجَعَلَ المسلمين جماعات يشعرون أنّهم يُحكمون من أفضلهم كفاءة واقتداراً وعدلا. وجَعَلَ المسلمين أُمّة تشعر أنّها تُحكم من أفضل أبنائها صلاحاً وتجربةً وعلماً وعملا.

ومبدأ: اختيار الرّجل المناسب للعمل المناسب، استناداً إلى الكفاءة والإيمان، جعل القادرين من المسلمين يتنافسون تنافساً شريفاً. لتولي المنصب الذي يستحقّونه بجدارة واقتدار، من أجل حدمة الإسلام

والمسلمين بعيداً عن المكاسب الشخصيّة، وكانوا على يقين من أنّ المسلم لا يتولى منصباً لا يستحقه، والسبيل إلى التقدم هو في الإيمان العميق والكفاءة العالية، ولا مجال للتقدم بغير هذين العاملين الحيويين، لذلك أصبح الاجتهاد في تنميتها هو السبيل الوحيد لتولي المناصب العامة.

والتحق النبيّ ﷺ بالرّفيق الأعلى، فخلّف من بعده خُلفاء وأُمراء وولاة وقادة عسكريين وإداريين وسياسيين، وقضاةً وعلماء ومحدِّثين ومفسِّرين وفقهاء، ووّعاظاً ومصلحين، وعُبَّاداً وزُهّاداً وصالحين، وسُفراء وحُكماء ومجاهدين، لم يخلّف أحد من قبله ولا من بعده أمثالهم كفاءة ومقدرة، وأمانة وحرصا، واستقامة وقوّة، وتفرّغاً للمصلحة العليا للمسلمين، وإنكاراً لذواتهم وأنفسهم، وحباً للخير وللمؤمنين، وبُعْداً عن الفُرقة والفتنة وتمسّكاً بالوحدة والجماعة، ولا يزال أكثرهم قدوة حسنة وأسوةً كريمة للمسلمين، فكان خريجو مدرسة النبيّ ﷺ من أبرز خريجي المدارس المثالية عبر التاريخ وأكثرهم عَدَدا، وكان قرنه خير القرون التي مرّت قبله والتي مرت وتمر بعده، وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: «**خير النّاس قَرْني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينَه ويمينُه شهادتُه**»[1].

تلك هي الدّعائم الثلاث التي بنى النّبي ﷺ بها المسلمين أفراداً وجماعات وأُمّة، وهو منهج متكامل في بناء الرّجال، ومنهم السّفراء، وأسلوب تربوي عمليّ أينع أحسن الثمرات.

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود، انظر: مختصر الجامع الصغير للمناوي (١٣/٢).

٢. العقيدة الإسلاميَّة

أ. العرب:

من المعلوم أنّ الإسلام للعرب ولغيرهم من الأقوام والأمم وللنّاس جميعاً، لا يُمَيِّز بين جنس وآخر ولا بين لون ولون، وكما أنّ النبي ﷺ خاتم الأنبياء، فإن الإسلام خاتم الأديان، فهو ليس لزمان معيّن، بل لكلّ زمان، ولا لمكان معيّن، بل لكلّ مكان، فهو الرسالة الخالدة الباقية التي تصلح لكلّ زمان ومكان.

ولكنّ العرب قوم النبي ﷺ، وأُنزل القرآن الكريم بلغتهم، والقرآن الكريم ليس كتاب الإسلام الأول فحسب، بل هو كتاب الإسلام الأول وكتاب العربية الأول أيضاً.

وقد اعتنق العرب الإسلام قبل غيرهم، وكانوا قادة الفتح الإسلامي وجنوده، وهم الذين نهضوا بواجب الدفاع عن حريّة نشر الدّعوة الإسلامية.

والعرب إذا استقاموا استقام المسلمون، وقد بلور الإسلام طاقاتهم المادية والمعنوية، ووحدهم بعد تفرّق، وجمعهم بعد شتات، وجعل منهم قادة وسادة، وكان فضل الله على العرب بالإسلام عظيماً.

ونستطيع أن نصف العربيّ الجاهليّ، بأنّه عصبيّ المزاج، سريع الغضب، وهو أشدّ هياجاً إذا جُرحت كرامته أو انتهكت حرمته أو حرمة أهله أو حرمة قبيلته، وإذا اهتاج أسرع إلى السّيف واحتكم إليه.

والعربيّ ذكيّ، يظهر ذكاؤه في لفتة، وكثيراً ما يعتمد على اللّمحة الدالة، والإشارة البعيدة، كما يظهر في حضور بديهته.

والعربي ميّال إلى الحريّة الشخصيّة، فلا يدين بالطّاعة لرئيس ولا

حاكم، وهو يحبّ المساواة في حدود القبيلة، يعتدّ بقبيلته ثم بجنسه، ويشعر في أعماق نفسه بأنه من دمٍ متميّز(١).

وكان أكثر العرب يعبدون الأصنام والأوثان، فكانت الوثنيّة هي الدِّين السّائد في شبه جزيرة العرب.

وكان العرب في شبه الجزيرة العربية قسمين: بَدْواً، وحَضَراً، وكان البدو القسم الغالب من العرب، وكان البدو ولا يزالون، يحتقرون الصناعة والزراعة والتجارة والملاحة، يعيشون على ما تنتجه ماشيتهم، يأكلون لحومها بعد علاج بسيط، ويشربون ألبانها، ويلبسون أصوافها، ويتّخذون منها مساكنهم: وهم يعتمدون في تغذية ماشيتهم على الكلأ، وإذا احتاجوا إلى غير ما تنتجه ماشيتهم تعاملوا عن طريق البدل، فكانوا يستبدلون بالماشية ونتاجها ما يتطلّبون من تمرٍ ولباس.

ونوع آخر اتَّخذوه أيضاً وسيلة من وسائل العيش، وهو الغارة والسّلب، فيغيرون على قبيلة معادية ليأخذوا جمالها وماشيتها ويسبون نساءها وأولادها. وتتربّص بهم القبيلة الأخرى، لتفعل بهم مثل ما فعلوا بها، بل هم إذا لم يجدوا عدوّاً من غيرهم قاتلوا أنفسهم، ولعل خير ما يمثّل ذلك قول القُطامي(٢).

وأحيانــاً عــلى بكْرٍ أَخينــا   إذا مــا لم نَجِــدْ إلاَّ أخـانــا

ومن أجل ذلك، كثيراً ما تضطرّ القبيلة التي ضعفت إلى الاحتماء بقبيلة قويّة تذود عنها، ولكن قلّ أن يدوم حلفهم أو يطول، بل سرعان ما ينتقض اجتماعهم وتنفصم وحدتهم، فينقلب المتحالفون أعداء متحاربين.

---

(١) فجر الإسلام (٤٦/١ - ٤٧).

(٢) انظر ترجمته في: الشعر والشعراء لابن قتيبة (٦٠٩ - ٦١٢).

أفراد القبيلة متضامنون أشدّ ما يكون التّضامن، ينصرون أخاهم ظالماً أو مظلوماً، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على مَنْ سواهم.

والمعن في البداوة منهم ضعيف الإيمان بدين، قلّ أن يؤمن إلاّ بتقاليد قبيلته وما ورثه عن آبائه.

مثله الأعلى في الأخلاق يرتكز على ما سمّاه: (المروءة)، تغنّى بها في شعره وأدبه، من الصّعب أن تَحُدَّها حداً دقيقاً، ولكن يصحّ أن نقول: إنّها تعتمد على الشّجاعة والكرم. أما الشّجاعة فتتجلّى في كثرة مَن نازله وقاتله، وفي مواقف دفاعه عن قبيلته، وأكثر من هذا نجدته. وأما كرمه فيتجلّى في نحر الجزور للضيف وإغاثة البائس والفقير، وفوق هذا أن يعطي أكثر مما يأخذ، وأن يغشى الوغى ويعف عن المغنم.

لقد كانت الحروب عند البدو أساساً لحياتهم، كانت الحرب هي القاعدة، وكان السّلام هو الاستثناء.

أما الحَضَر من العرب فهم أرقى من ذلك كثيراً، يسكنون المدن ويستقرون فيها، ويعيشون على التجارة والزراعة: وقد أسّسوا قبل الإسلام ممالك ذات مدينة كما في اليمن، والغساسنة في الشّام، والمناذرة في العراق.

لقد كان العرب مواد أوليّة متميِّزة: الذّكاء الفطري، وحبّ الحريّة والمساواة، والشّجاعة والإقدام، والكرم والسّخاء، فعمل الإسلام على تطويرها وصقلها والإفادة منها، ونجح في مسعاه أعظم النجاح.

صدق رسول الله ﷺ: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام[1] إذا

---

(١) حديث صحيح متّفق عليه، وفي رواية الإمام مسلم: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضّة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»، انظر كتاب: الجامع للأصول في أحاديث الرّسول (٨١/٥).

فقهوا»، «وإنما بُعثتُ لأتمِّم مكارم الأخلاق»[1].

ولكن كان في العرب مواد أوليّة رديئة: تفرّق كلمتهم، وفقدان الضبط والنِّظام بينهم، وعبادة الأوثان والأصنام، وسيطرة الروح القبلية عليهم، فعمل الإسلام على محاربتهم والقضاء عليها، وكان نجاحه فيها يتناسب تناسباً طردياً مع إيمان الإنسان العربيّ بالإسلام، فكلما كان إيمانه عميقاً، كان تخلّصه من مثالبه المتوارثة حاسما، والعكس صحيح.

ب. الإسلام:

جاء الإسلام، الذي عماده الخضوع لله والانقياد له، فكان في تعاليمه الدّواء الناجح لعقليّة الجاهليّة: عقلية الأنفة والحِميَّة والتعصّب.

إنّ تعاليم الإسلام قسمان: عقائد، وأعمال.

أما (العقائد)، فإنّ أهمّ أصل من أصول الإسلام، هو الاعتقاد بالله سبحانه وتعالى.

الإسلام يصف الله سبحانه وتعالى بأوصاف - كما وردت في القرآن الكريم - بأنّه ليس إلّه قبيلة ولا إلّه أُمَّة وحدها، ولا إلّه الناس وحدهم، بل هو إلّه كلّ شيء: ﴿رب العالمين﴾[2]، وكلّ شيء في الوجود مخلوق له وخاضع لأمره: ﴿لله ما في السموات وما في الأرض﴾[3].

وكلّ شيءٍ من مظاهر الكون خلقه الله تعالى، وقد أحاط علمه بكلّ

---

(١) رواه البخاري في الأدب والبيهقي في شعب الإيمان والحاكم في المستدرك، ورواه مالك في الموطأ بهذا اللّفظ: «بُعثت لأتّمم مكارم الأخلاق»، حديث صحيح.

(٢) سورة الفاتحة أم الكتاب، آية ١.

(٣) سورة البقرة، آية ٢٨٤.

شيء، وأحاطت قدرته بكلّ شيء، وهو إلّه واحد، وليس هناك مَن يشاركه في أُلوهِيَّتِه.

وليس لأي مخلوق ولا لأيّة طائفة، سلطان على الناس في عقائدهم، ولا في أيّة صفة من صفات الربوبيّة: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾[1]، ولا يرضى الإسلام عن أيّ نوعٍ من التعدّد، ولا أيّ رمز يُشعر بالتعدّد.

وقد اختار الله أفراداً من خلقه، واتّصل بهم بالوحي، ومن هؤلاء إبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد، صلوات الله وتسليمه عليهم جميعاً.

وهناك وراء هذه الحياة حياة أخرى: يوم القيامة: واليوم الآخر، ويوم الحساب، ويوم الدِّين. وهذا اليوم هو يوم المثوبة على العمل الصّالح، والعقوبة على العمل السّيىء، وكلّ عمل أتاه الإنسان يُسجّل عليه. وقد جعل للمثوبة والعقوبة دارين: دار المثوبة وهي الجنَّة، ودار العقوبة وهي النّار.

ثم إنّ وراء هذا العالم الماديّ، عالماً آخر روحيّاً فيه نوعان من الأرواح: نوع خيِّر يطيع الله ما أمره ويجذب الناس إلى الخير ويُسمى الملائكة، ونوع شرِّير يستغوي النفوس إلى الشرّ ويُسمى الشّياطين.

أما (الأعمال)، فهناك على المسلم أعمال يجب أداؤها، وهي أساسية كالعقائد، وهي: الصّلاة، ويُقصد بها أن تكون مظهراً من مظاهر الإخلاص لله، وتعبيراً دينياً يشرح عاطفة الإجلال لله تعالى: ﴿أقم الصلاة، إنّ الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر﴾[2].

---

(١) سورة التوبة، آية ٣١.

(٢) سورة العنكبوت، آية ٤٥.

والزكاة، وهي تؤخذ من مال الغني للفقير، وللصالح العام. ثم صوم رمضان، وحجّ البيت مَنْ استطاع إليه سبيلاً.

ولم يقتصر الإسلام على غرس هذه (العقائد) وتلك (الأعمال)، بل أمر بالتمسّك بالخلق الكريم: **﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾**[1] و **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾**[2]، ووفاء بالوعد، وصبر في الشدائد، وعدل بين الناس، وعفو عند المقدرة.

لقد هدم الإسلام الوحدة القبليّة والوحدة الجنسيّة، وعلَّم أنَّ معتنقي الإسلام كلَّهم كتلة واحدة لا تفاضل بين أفرادها إلا بطاعة الله وتنفيذ أوامره، وحتم الطّاعة لله والطّاعة للرّسول، والطّاعة لأولي الأمر في الأمَّة، ما أطاع وليّ الأمر أوامر الله سبحانه وتعالي[3].

وكانت للعرب مهارة في حرب العصابات والغارات، ومهارة في استخدام السِّلاح والفروسية، وكانت لهم قابليّة متميِّزة على الحركة من مكان إلى آخر بسهولة ويُسر وسرعة وبأقلّ التكاليف الإداريّة.

فلما جاء الإسلام، وحّد عقيدتهم، ووحد أعمالهم، وجمع صفوفهم، ونظّمهم، وغرس فيها الضبط والطّاعة، وطهّر نفوسهم، ونقّى أرواحهم، وأشاع فيهم انسجاماً مادياً ومعنوياً، فأصبحت قوّتهم المبعثرة، وجهودهم المضاعة، تعمل بنظام دقيق وضبط متين وطاعة مطلقة، بقيادة واحدة لتحقيق هدف واحد، وأصبح المؤمنون في مشارق الأرض ومغاربها إخوة يتحابّون بنور الله بينهم، وهم أُمّة واحدة، تحيّتها السّلام، وغايتها السّلام، ودينها الإسلام.

---

(١) سورة النساء، آية ٨٦.
(٢) سورة النور، آية ٢٧.
(٣) فجر الإسلام (١/٨٨ - ٩٢).

لقد كان النبي ﷺ يَؤُمّ ألفين في عُمْرَة القَضاء التي كانت في شهر ذي الحجّة من السنة السّابعة الهجريّة، ومائة ألفٍ في حجَّة الوَداع التي كانت في شهر ذي الحجة من السنة العاشرة الهجريّة[1]، يسيرون كلّهم في نظام أدق نظام هرولةً ومشياً واستلاماً للركن أو الحجر الأسود، هذا النِّظام المتَّصل بروح الإسلام، سبب من أسباب القوّة، بل مصدرها ومِلاكها، وهذه الإمامة، بقيام رجل مطهّر يؤمن أصحابه بصدقه، هي روح هذه القوّة وقوامها[2].

ولقد بدأت منذ ظهور الإسلام الصّلاة العامة، ثم قامت صلاة الجماعة التي أدّاها المسلمون وراء إمام واحد. ومَنْ يرى المسلمين وهم مجتمعون صفوفاً للصّلاة، يؤدون ركعاتها وسجداتها في تناسق مدهش وفي نظام ووقار، لا يمكن أن يغفل ما لهذه الصّلاة من قيمة تربويّة في نفوس المسلمين لغرض غرس النِّظام والضّبط والطَّاعة.

إن العرب أُباةٌ لا يخضعون لمشيئة خارجية، ولكنهم كانوا يفتقرون إلى الشّعور التام بالضبط والنِّظام والطّاعة، فكانت لهذه الصّلاة أهميّة بالغة في (إيقاظ) روح النِّظام والضَّبط والطَّاعة في نفوس العرب المسلمين، لذلك غدا مكان الصَّلاة أوَّل ميدان حقيقيّ للتدريب العسكري عند المسلمين، ثم كان لهذا التدريب أثره في تربيتهم على حبّ النِّظام والضبط والطّاعة، فأصبح فيهم على مرّ الأيام طبعاً ولم يبق تطبُّعا.

ثم إن نظام المسلمين في الصلاة، شجّع روح الوحدة بينهم، وخلق فيهم شعوراً بالمساواة التي كانت من الأفكار الجديدة على بلاد العرب،

---

(١) طبقات ابن سعد (١٧٢/٢).

(٢) في منزل الوحي - (١٠٥) - ط ٢.

إذ كانت الوحدة الموجودة حتى ذلك الوقت هي رابطة الدم. كما أنّ المظاهر الرئيسة التي سادت حياة العرب إذ ذاك هي الافتخار بالأسرة والحب والثراء وامتهان شأن الفقير وعديم الجاه، لذلك فإن النبي ﷺ، مهّد السبيل لوحدة بلاد العرب المتنافرة، عندما نجح في تدعيم الاتّحاد الذي احتضن الفقير والغني على أساس المساواة، وعندما نجح كذلك في توجيه ضربة عنيفة إلى العصبيّة القبليّة والعائليّة.

وإلى جانب الصّلاة، كانت فكرة المساواة الاجتماعية تجديداً تاماً أحدثه الإسلام، فأصبحت مساعدة الفقير والقيام بأمره واجباً مقدساً، ولم يَعُد من شأن الأفراد أن يعطوا كيفما شاءوا، وإنما غدت الزّكاة فرضاً تُجبى إلى بيت المال ويُنفق منها على الفقراء[1].

والحق أنّ الزّكاة وما تزال طفرة حاسمة إلى الأمام، وحتى اليوم نجد أنّ الضّرائب بمختلف أنواعها وأشكالها وغاياتها وأهدافها، توضع على الأرباح وتعفي رأس المال، أما الزكاة فلا تعفى رأس المال، مع شمولها الأرباح أيضاً[2].

لقد وجد الإسلام، بتعاليمه التي تغرس الطاعة والضبط والنظام في النفوس، وتدعو إلى توحيد الله وتوحيد الصفوف، أرضاً خصبة في العرب، الذين كانت لهم خبرة طويلة في الحروب، والذين لا يهابون الموت ويتعشّقون الحريَّة، فكان من فضل الإسلام على العرب، أنّه جمع شملهم ووحد صفوفهم وطهَّر قلوبهم، وأشاع في عقولهم الانسجام الفكريّ الذي بدونه يكون التعاون مستحيلاً، كما غرس فيهم النظام والطّاعة والضّبط، فأصبحوا كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً، أقوياء بعد

---

(١) الحضارة العربية - ي. هل - ترجمة د. إبراهيم العدوي (٢٣ - ٢٤).
(٢) الوسيط في رسالة المسجد العسكرية (٦٢) - ط ٧.

ضعف، موحَّدين بعد شَرك، موحَّد من بعد تفرّق، متعاونين بعد تقاطع، يؤثرون المصلحة العامة على المصلحة الشّخصية، ومصلحة المسلمين على مصلحة القبائل، بعيدين عن العصبية والتعصّب، أكرمهم عند الله اتقاهم لا أغناهم وأقواهم أو أشرفهم حسباً ونسباً.

لقد كانت العقيدة الإسلامية عقيدة منشئة بناءة، وكان العرب هم الروّاد الأولين لهذه العقيدة.

جـ. أثر الإسلام في العرب:

لا شك في أنّ تعاليم الإسلام، رفعت المستوى العقلي للعرب إلى درجة كبرى، فهذه الصفات التي وصف الإسلام بها الله سبحانه وتعالى، نقلتهم من عبادة أصنام وأوثان، وما يقتضيه ذلك من انحطاط في النظر وإسفاف في الفكر، إلى عبادة إلّه وراء المادة: ﴿**لا تُدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾[1].

وكان الإله عند أكثرهم إله فردٍ أو إله قبيلة، وإن اتَّسع سلطانه فإله قبائل أو إله العرب، فأبانه الإسلام إله العالمين ومدبِّر الكون، بيده كلّ شيء، عالماً بكلّ شيء، فاستطاع العربيّ بهذه التّعاليم أن يرقى إلى فهم إله لا مادة له، واسع السُّلطان والعلم، وأفهمهم الإسلام أنّ دينهم خير الأديان، وأنّ العالم حولهم في ضلال، وأنّ نبيّهم نبيّ النّاس جميعاً، وأنّهم ورثته في حمل دعوته إلى الأمم، فكان ذلك من البواعث لهم على حمل الدّعوة للناس كافة وحماية حرّية نشر الدّعوة، فمن دخل في دينهم كان كأحدهم، له ما لهم وعليه ما عليهم، وما كان سفراء النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء في زمانه إلاّ دعاة للإسلام، مبشّرين بتعاليمه.

---

(١) سورة الأنعام، آية ١٠٣.

وكان لعقيدة اليوم الآخر ودار الجزاء والجنة والنّار، أثر عظيم في بيع كثير منهم نفوسهم في سبيل الله، حماية لحرية انتشار الدعوة، ودفاعاً عن الإسلام والمسلمين: **﴿إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم﴾**[1].

وكان للإسلام أثر كبير في تغيير قيمة الأشياء والأخلاق في نظر العرب، فارتفعت قيمة أشياء، وانخفضت قيمة أخرى، وأصبحت مقوِّمات الحياة في نظرهم غيرها بالأمس.

إنّ الإسلام رسم مَثَلاً أعلى للإنسان غير المَثَل الأعلى للحياة في الجاهلية، وهذان المثلان لا يتشابهان وكثيراً ما يتناقضان، فالشجاعة والكرم إلى حدّ الإسراف، والشهامة التي لا حدّ لها، والإخلاص التام للقبيلة، والقسوة في الانتقام، والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلة بقول أو فعل، هذه التي كانت أُصول الفضائل عند العرب الوثنيين، أصبحت في الإسلام الخضوع لله، والانقياد لأمره، والصّبر، وإخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدِّين، والقناعة، وعدم التّفاخر والتكاثر، وتجنّب الكِبر والعظمة، هي المثل الأعلى للمسلم في الحياة[2].

إنّ الإسلام عقيدة وعملاً وتشريعاً ومُثُلاً عُليا، صهر نفسية العربيّ المسلم، ونفى عنها الخَبَثَ، فأصبح لا يكذب ولا يسرق ولا يزني ولا يخون ولا يغشّ ولا يتجسَّس، ويُخلص لعقيدته أكثر مما يخلص لنفسه

---

(١) سورة التوبة، آية ١١١.

(٢) فجر الإسلام (١/٩٣ - ٩٥).

وقبيلته، ويطيع أوامر الله ورسوله وأولي الأمر ما أطاعوا الله، وبذلك أصبح فرداً مفيداً باع نفسه لله إخلاصاً لعقيدته.

هذا العربي المسلم، بهذه السّجايا النّادرة، أصبح بدون شك عنصراً مفيداً كل الفائدة لتكوين أُمّة صالحة: تعبد ربّاً واحداً، وتعمل بانسجام وتعاون ونكران ذات، لتحقيق هدف واحد، هو أن تكون كلمة الله هي العليا.

لقد تصرّف العربي المسلم - فرداً، تصرّفاً لا يزال يُعتبر من الأعمال الفذّة النادرة في مجال تصرّف الأفراد في مختلف الملل والنّحل والأجناس والألوان: تحمّل التّعذيب صابرا، والموت راضيا، وترك أهله وماله مهاجراً إلى الله ورسوله، وضرب بمصلحة أهله الأقربين وعشيرته وقبيلته عُرض الحائط حين تعارض مصلحة عقيدته العليا.

وتصرّف العربيّ المسلم ضمن المجموع من أُمّته تصرّفاً لا يزال يعتبر من الأعمال الفذّة النّادرة في مجال تصرّف الأمم: اندفع يجاهد في الله حق جهاده، وحمى الدّعوة وحريّة نشرها بين الناس، ودافع عن الأرض والعرض والمال والنّفس، فخرجت القوّة المؤمنة التي اختزنتها الصحراء عبر الأجيال، تحمل رايات الإسلام وتبلّغ دين الله عن أمره، فتتابعت انتصاراتها الباهرة حين تمسّكت بمبادىء الإسلام، فلما تخلّت عنها لم تنتصر أبداً.

وكما كان لها انتصاراتها في المجال العسكري، وفي المجال الإداري، وفي المجال القضائي، وفي المجال العلمي، وفي المجال الاقتصادي، وفي المجال الاجتماعي، كان لها انتصاراتها في مجال السّفراء أيضاً، كما ذكرنا تفصيله في سِيَر سفراء النبيّ ﷺ.

وما كان انتصاراتها في شتّى المجالات، إلاّ نتيجة من نتائج التربية الإسلامية، وقد ذكرنا أثر العقيدة الإسلاميّة في التربية الإسلامية، فلا

بدّ من ذكر أثر القدوة الحسنة في تلك التربية، فأثرها بالغ الأهميّة كما سيتّضح لنا وشيكا.

لقد كان أثر العقيدة الإسلامية في سفراء النبي ﷺ أثراً عظيماً، وسنرى تأثّرهم بالقدوة الحسنة، لاستكمال بنائهم وإعدادهم للنهوض بمهاتهم في الدّعوة إلى الله في محيط الملوك والأمراء، وما أصعب أن يغيِّر المرء عقيدته التي نشأ عليها، وبخاصة إذا كان من الملوك والأمراء.

٣. القُدْوَة الحسنة

أ. في مكّة المكرمة

كان النبيّ ﷺ القدوة الحسنة لأصحابه، وكان المثال الشّخصي لهم يقتفون آثاره، ويتأسّون بأعماله. إذ لا تأثير بكلام لم يمتلىء من نفس قائله ليكون عملاً، فيتحوّل في النفوس الأخرى عملاً ولا يبقى كلاما. إنّ التأثير في النفوس الأخرى لا يكون بتأليف القول للسَّامع يسمعه، ولكنّه تأليف النّفس لنفس أخرى تراها في كلامها، فيكون هذا الكلام قرابةً بين النَّفْسَين، وقديماً قالوا: «الكلام الخارج من القلب يؤثّر في القلب، والكلام الخارج من اللّسان لا يتجاوز الآذان».

وقد كان النبيّ ﷺ من أقلّ الناس كلاماً، ولكنّه كان إذا تكلّم نطق قلبه، وإذا عمل نطقت جوارحه، لذلك كان تأثيره هائلاً في أصحابه، وكان مَثَلهم الأعلى قولاً وعملاً وإيماناً وخُلقاً ومُعاملة واستقامة وشجاعة وإقداما.

كان النبيّ ﷺ من أشرف بيوتات قريش[1] التي تُعتبر من أشرف

(١) أنظر نسبه في: سيرة ابن هشام (١/١) وطبقات ابن سعد (١/٥٥) وعيون الأثر (١/٢١) وجوامع السيرة (٢) وجمهرة أنساب العرب (١٤ - ١٦).

القبائل العربيّة على الإطلاق، وكان رجال قريش يطلقون عليه لقب: الأمين، قبل أن ينزل عليه الوحي(١).

وبُعث النبيّ ﷺ، فبدأ يدعو إلى الله سِرًّا، ثم جهر بالدّعوة، فمشى رجال من أشراف قريش إلى عمّه أبي طالب، يدعونه أن يكفّه عنهم، أو يخلي بينه وبينهم، ولكن رسول الله ﷺ مضى على ما هو عليه: يظهر دين الله، ويدعو إليه(٢).

ومشى أشراف قريش إلى أبي طالب مرة أخرى، ولكنّ قناة النبيّ ﷺ ما لانت للتهديد والوعيد، وقال لعمّه: «**يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهر الله أو أهلك فيه، ما تركته**»(٣).

وجعل رجال قريش يجلسون بسُبُل الناس حين قدموا الموسم، لا يمرّ بهم أحد إلاّ حذّروه إياه وذكروا له أمره(٤).

وأغرى رجال قريش برسول الله ﷺ سفهاءهم، فكذّبوه وآذوه ورموه بالشّعر والسّحر والكهانة والجنون، ورسول الله ﷺ مظهر لأمر الله لا يستخفي به، مُبَادٍ لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إيّاهم على كفرهم.

وطلع رسول الله ﷺ يوماً، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: «أنت الذي تقول كذا وكذا؟!» لِمَا كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول: «نعم، أنا الذي أقول ذلك»،

(١) سيرة ابن هشام (١/٢١٤).
(٢) سيرة ابن هشام (١/٢٧٦ - ٢٧٧).
(٣) سيرة ابن هشام (١/٢٧٨).
(٤) سيرة ابن هشام (١/٢٨٥).

فأخذ رجل منهم بمجمع ردائه، فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه وهو يبكي ويقول: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله»[1].

وخرج رسول الله ﷺ يوماً، فلم يلقه أحد من الناس إلاّ كذّبه وآذاه، فرجع الى منزله وتدثّر من شدّة ما أصابه، فأنزل الله قوله في كتابه العزيز: ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر﴾[2].

وذكر عبد الله بن مَسْعود قال: «كنّا مع رسول الله ﷺ في المسجد الحرام، فقال أبو جَهْل: ألا رجل يقوم إلى هذا القذر يلقيه على محمّد؟، فانبعث رجل، فألقاه عليه، فجاءت فاطمة رضي الله عنها، فألقته عنه»[3].

ومرّ أبو جهْل برسول الله ﷺ عند الصَّفَا[4]، فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتّضعيف لأمره[5].

ولما رأت قريش أنّ أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً، وأنّ النّجاشيّ صاحب الحبشة قد منع مَنْ لجأ إليه منهم، وأنّ الإسلام جعل يفشو في القبائل، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المُطَّلب، على ألاّ ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، فكتبوا

---

(١) سيرة ابن هشام (٣٠٩/١ - ٣١١).

(٢) سيرة ابن هشام (٣١١/١)، والآية الكريمة من سورة المدّثر (٧٤: ١ - ٢).

(٣) عيون الأثر (١٠٣/١).

(٤) عيون الأثر (١٠٤/١)، والصَّفا والمروة: جبلان بين بطحاء مكّة والمسجد، أما الصفا، فمكان مرتفع من جبل أبي قُبَيْس، بينه وبين المسجد الحرام عرض الوادي، ومَنْ وقف بالصفا كان بحذاء الحجر الأسود، والمشعر الحرام بين الصّفا والمروة، انظر معجم البلدان (٣٦٥/٥).

(٥) عيون الأثر (١٠٤/١).

ذلك في الصَّحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم، فاجتمع بنو هاشم وبنو المُطَّلِب إلى أبي طالب ودخلوا معه في شِعْبه، وأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهَدوا، ولا يصل إليهم شيءٌ إلاّ سرّاً[1].

وكان نفر من قريش يؤذون رسول الله ﷺ في بيته، فكان أحدهم يطرح عليه رحم الشّاة وهو يُصلّي، وكان أحدهم يطرحها في بُرْمَته[2]، إذا نُصبت له، حتى اتّخذ رسول الله ﷺ حجراً يستتر به منهم إذا صلّى، فكانوا إذا طرحوا عليه الأذى يخرج به على العُود، فيقف على بابه، ثم يقول: «يا بني عبد مَناف! أيّ جوارٍ هذا؟!»، ثم يلقيه في الطريق[3].

ومات أبو طالب، وماتت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، في عام واحد، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب: بموت خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام، يشكو إليها، وكانت له زوجة صالحة على الخير، يأوي إلى حنانها؛ وبموت عمّه أبي طالب، وكان له عضداً وحرزاً ومنَعَةً وناصِراً على قومه، وكان موتها قبل مهاجره إلى المدينة المنورة بثلاث سنين. فلما تُوفي أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً، فدخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: «لا تبكي لا بُنَيَّة؟ فإنّ الله مانعٌ أباكِ»[4].

---

(١) سيرة ابن هشام (٣٧١/١ - ٣٧٦) وجوامع السيرة (٦٤).
(٢) البرمة: بضم فسكون - القِدْر مطلقاً، وهي في الأصل تُتَّخذ من الحجر المعروف بالحجاز واليمن.
(٣) سيرة ابن هشام (٢٥/٢).
(٤) سيرة ابن هشام (٢٥/٢ - ٢٦).

وخرج رسول الله ﷺ إلى الطّائف يلتمس النّصْرة من ثَقِيْف والمَنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من عند الله عزّ وجلّ. وانتهى رسول الله ﷺ إلى الطّائف، فعمد إلى نَفَرٍ من ثَقيف وأشرافهم، وجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وكلّمهم بما جاء له من نصرته على الإسلام والقيام معه على مَنْ خالفه من قومه، فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه النّاس، وألجأوه إلى حائط لعُتْبة بن ربيعة وشَيْبَة بن ربيعة، وهما فيه، فعمد إلى ظلّ شجرة العِنَب، وجلس فيه يقول: «اللّهمّ إليك أشكو ضعف قُوّتي وقِلّة حيْلتي وهواني على النّاس، يا أرحم الرّاحمين! أنت رَبُّ المُسْتَضْعفين وأنت ربي، إلى مَنْ تَكِلُني؟ إلى بعيدٍ يَتَجَهَّمني؟ أم إلى عدوّ مَلّكْتَه أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غَضَبٌ فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصَلُح عليه أمرُ الدنيا والآخرة، من أن تُنْزل بي غَضَبَك أو يحلّ عليَّ سخطُك، لك العُتْبَى[1] حتى ترضى، ولا حول ولا قوّة إلا بك» ثم انصرف من مدينة الطائف عائداً إلى مكّة المكرمة حين يئس من قبيلة ثَقِيف[2].

ثم كانت بيعة العَقَبة الأولى في السنة الحادية عشرة من النبّوة[3]، وبيعة العَقَبة الثانية في السنة الثانية عشرة من النبوّة[4]، فأمر النبيّ ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة المنورة وقال: «إنّ الله عزّ وجلّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها»، فخرجوا ارسالاً، وأقام

---

(١) العتبى: الرضى.

(٢) سيرة ابن هشام (٢٨/٢ - ٣١) وعيون الأثر (١٣٤/١) وجوامع السيرة (٩٧) وانظر طبقات ابن سعد (٢١٠/١ - ٢١٢).

(٣) البدء والتاريخ (١٦٥/٤).

(٤) البدء والتاريخ (١٦٥/٤).

رسول الله ﷺ بمكة المكرّمة ينتظر أن يأذن له ربُّه في الخروج من مكّة والهجرة إلى المدينة[1].

ولما رأت قريش أنّ رسول الله ﷺ قد كانت له شيعة وأصحاب من غيرهم في غير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، وعرفوا أنّهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منَعَة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ، وعرفوا أنّه قد أجمع لحربهم إذا خرج، فاجتمعوا في دار النَّدْوة يتشاورون فيما يصنعون من أمر رسول الله ﷺ، فقال أحدهم: «احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تربّصوا به ما أصاب أشباهه من الشّعراء الذين كانوا قبله». وقال آخر: نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا أُخرج عنّا، فوالله لا نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، إذا غاب عنّا وفزعنا منه، فأصلحنا أمرنا وأُلْفَتَنا كما كانت». وقال أبو جهل: «والله إن لي لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد... أرى أن نأخذ من كلّ قبيلة شاباً فتًى جليداً نسيباً وسيطاً فتيّاً، ثم، نُعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدون إليه فيضربونه ضربة رجل واحد، فيقتلونه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مَنَاف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منّا بالعَقْل[2] فعقلناه لهم»، فتفرّق القوم على ذلك وهم مجمعون له[3].

واجتمع الشباب الذين اختارهم أشراف قريش من القبائل لاغتيال النبيّ ﷺ على بابه ليلاً، يرصدونه متى نام ليثبوا عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «نَمْ على

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/٧٦).
(٢) العَقْل: الديّة.
(٣) سيرة ابن هشام (٢/٩٢ - ٩٥).

فراشي، وتَسَجَّ بِبُرْدِي هذا الحَضْرَميّ الأخضر، فَنَمْ فيه، فإنّه لنْ يَخْلُصَ إليك شيء تكرهه منهم»[١].

هنا تبدأ قصّة من أجلّ ما عَرف التاريخ من مغامرة في سبيل الحق والعقيدة والإيمان قوّةً وروعةً وشجاعةً وإقداما.

كان أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه قد أعدّ راحلتيه، فأتى رسول الله ﷺ أبا بكرٍ، وخرجا من خَوْخَةٍ[٢] لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمدا إلى غارٍ بجبل ثَوْرٍ أسفل مكّة، فدخلاه ليلاً، وأقاما به ثلاثاً.

وجعلت قريش حين فقدوه مائة ناقَة لمن يردّه عليهم[٣].

وطلبت قريش رسول الله ﷺ أشدّ الطّلب، حتى انتهوا إلى باب الغار، فقال بعضهم: «إنّ عليه العنكبوت قبل ميلاد محمّد»[٤].

وفي الغار، كان النبي ﷺ يُصَلّي، وكان أبو بكر خائفاً على النبي ﷺ، فكان يقترب منه ويلصق نفسه به، فيهمس النبيّ ﷺ في أُذنأبي بكر الصدّيق: «لا تحزن، إنّ الله معنا». وحين شعر أبو بكر بدنوّ الباحثين عنهما قال هامساً: «لو نظر أحدهم تحت قدميه، لأبصرنا»، فأجابه النبي ﷺ: «**يا أبا بكر! ما ظنّك باثنين، الله ثالثهما!**»[٥].

وخرجا بعد ثلاثة أيام من الغار، حين عرفا أن قد سكن النّاس

---

(١) سيرة ابن هشام (٩٥/٢) وطبقات ابن سعد (٢٢٧/١).
(٢) الخوخة: كُوَّة في البيت تؤدي إلى الضوء، وباب صغير وسط باب كبير نصب حاجزاً بين دارين.
(٣) سيرة ابن هشام (٩٨/٢ - ٩٩).
(٤) طبقات ابن سعد (٢٢٨/١).
(٥) طبقات ابن سعد (١٧٣/٢ - ١٧٤).

عنهما، ولكنّ سُراقَة بن مالِك بن جُعْشَم[1] علم بمكانهما، فركب في أثرهما. فلما اقترب منهما، عثر به فرسه، وذهبت يداه في الأرض، وسقط عنه، فعرف سُراقة حين رأى ذلك أنّ النبي ﷺ قد مُنِعَ منه[2].

ب. في المدينة المنوّرة:

قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهو لا يملك فيها ديناراً ولا دارا، فنزل ضيفاً على أبي أيُّوب الأنصاري[3] ستة أشهر[4]، حتى أنجز بناء مسجده ومساكنه، وعمل في المسجد ليُرَغّب المسلمين في العمل[5]، وجعل ينقل الحجارة بنفسه[6]، فتمّ ببناء المسجد بناء الثُّكْنَة الأولى في الإسلام.

ولكي يتفرّغ لقتال قريش دون أن تقلقه الجبهة الداخلية في المدينة المنوّرة كتب كتاباً بين المسلمين من جهة وبين يهود المدينة من جهة ثانية: وادعهم فيه وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم[7]، وقد نصّت تلك المعاهدة بصراحة على: «أنّه لا يجوز لمشرك من أهل المدينة، أن يُجير مالاً لقُريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن»[8]، فاستطاع الرسول القائد عليه أفضل الصّلاة

---

(١) انظر سيرته في: أسد الغابة (٢/٢٦٤ - ٢٦٦) والإصابة (٣/٦٩ - ٧٠) والاستيعاب (٢/٥٨١ - ٥٨٢).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/١٠٣).

(٣) انظر سيرته في: طبقات ابن سعد (٣/٤٨٤)، وأسد الغابة (٥/١٤٣) والإصابة (٢/٨٩) والاستيعاب (٤/١٦٠٦) والاستبصار (٦٩) وتهذيب الأسماء واللّغات (٢/١٧٧).

(٤) عيون الأثر (١/١٩٥).

(٥) سيرة ابن هشام (٢/١١٤) والسيرة الحلبيّة (٢/٧٦).

(٦) طبقات ابن سعد (١/٢٤٠).

(٧) انظر نصّ المعاهدة في: سيرة ابن هشام (٢/١١٩ - ١٢٣) وسرح العيون (١٩٧ - ١٩٨).

(٨) سيرة ابن هشام (٢/١٢١).

والسّلام بهذه المعاهدة، أن يجعل أهل المدينة جميعاً على اختلاف أديانهم يدا واحدة على أعدائهم[١]، وبخاصة على قومه قريش.

ولم يكد يستقرّ في المدينة، إلاّ ونصبت أحبار يهود العداوة له بغياً وحسدا وضغنا، وأضاف إليهم[٢] رجال من الأوس والخزرج كانوا أهل نفاق، فظهروا بالإسلام واتّخذوه جُنّةً[٣] من القتل، ونافقوا في السرّ، وكان هواهم مع يهود، لتكذيبهم النبي ﷺ وجحودهم الإسلام[٤].

وذهب يهود إلى أبعد من ذلك، فحاولوا الوقيعة بين أصحاب رسول الله ﷺ، فقد جمع الأوس والخزرج مجلس واحد يتحدّثون، فغاظ أحد يهود ما رآه من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فأمر هذا اليهودي أحد شباب يهود وقال له: «إعْمَدَ إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم (بُعَاث)[٥] وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما تَقَاولوا فيه من الأشعار، وكان يوم بُعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، فتكلّم القوم عند ذاك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيَّيْنِ على الرُّكب، وغضب الفريقان معاً، وقالوا: موعدكم الظَّاهرة[٦]....، السِّلاح.... السِّلاح»، وخرجوا إليها. وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم، فقال: «يا معشر المسلمين! الله الله!

---

(١) الرسول القائد (٦٠) - ط ٣.

(٢) وأضاف إليهم: يريد أنّه ما أخذوا به من الحسد والبغض والعداوة.

(٣) الجنة: وقاية يجتنون بها، أي يستترون.

(٤) سيرة ابن هشام (١٣٥/٢).

(٥) يوم بُعاث: انظر تفاصيل هذا اليوم في كتاب: أيام العرب في الجاهلية (٧٣ - ٨٤)، وهو بين الأوس والخزرج في الجاهلية، وكانوا في مدينة يثرب.

(٦) الظاهرة: الحَرَّة - حرّة المدينة المنوّرة.

أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألّف به بين قلوبكم؟! »، فعرف القوم أنّها نزعة من الشّيطان وكيد من عدوّهم، فبكوا، وعانق الرّجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين. وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾[1].

بل ذهبت يهود إلى أبعد من ذلك كثيراً، فحاولت اغتيال النبي ﷺ حين خرج إلى يهود بني النَّضِيْر يستعينهم في دِيَة رجلين قتلها خطأً أحد المسلمين، فاختلى بعضهم ببعض وقالوا: «لن تجدوا محمّداً أقرب منه الآن، فمن رجل يظهر على هذا البيت، فيطرح عليه صخرة، فيريحنا منه؟»، فقال أحدهم: «أنا». ولكنّ النبي ﷺ انصرف عنهم[2]، قبل أن يُنفِّذوا خطّة اغتياله، ففوّت عليهم تلك الفرصة.

وبدأ الصِّراع بين قوّات المسلمين القليلة وقوّات المشركين الكثيرة، وكانت قوات المسلمين قليلة بعَددها وعُدَدها، قويّة بإيمانها وقيادتها، فكان الرّسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام هو الأسوة الحسنة للمؤمنين من أصحابه في الجهاد، كما كان هو الأسوة الحسنة لهم في السّلم.

كان عدد الذين شهدوا غزوة بَدْرٍ الكبرى الحاسمة بضعة عشر وثلاثمائة رجل[3]، وكان عدد الذين شهدوها من المشركين تسعمائة

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/١٨٣ - ١٨٥)، والآيتان الكريمتان من سورة آل عمران (٣: ١٠٠ - ١٠١) انظر تفسيرهما في: البغوي (٢/١٩٨ - ١٩٩) والكشاف (١/٣١٧) والبيضاوي (٢/٣٢).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/١٩٢).

(٣) فتح الباري بشرح البخاري (٧/٢٢٨) وطبقات ابن سعد (٢/١٩).

وخمسين رجلاً[١]، وكان مع المسلمين سبعون بعيراً وفرسان[٢]، وكان مع المشركين مِئتا فرس وعدد ضخم من الإبل، وكان المسلمون حين خرجوا إلى بَدْرٍ تنقصهم الضروريّات الإداريّة، فدعا لهم النبي ﷺ قائلاً: «**اللّهم إنّهم حُفاة فاحملهم، اللّهم إنّهم عُراة فاكْسِهِمْ، اللّهم إنّهم جِيَاع فأشبعهم**»[٣]، أما المشركون فكانوا في حالةٍ إداريّة متميِّزة.

ولكنّ الرّسول القائد عليه الصّلاة والسّلام، قرّر أن يخوض هذه المعركة الحاسمة على الرّغم من تفوّق المشركين على المسلمين بالعَدَد والعُدَد والقضايا الإداريّة.

لقد كان رسول الله ﷺ يُقدِّر تمام التَّقدير، ويعرف تمام المعرفة، ماذا يعنيه اندحار المسلمين في هذه الغزوة الحاسمة، في هذا الصِّراع الحاسم بين عقيدتين، لذلك دأب على مناشدة ربه ما وعده من النّصر، فيقول فيما كان يقول: «**اللّهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعْبَد**»، وأبو بكر الصدّيق رضي الله عنه يقول: «يا نبيَّ الله! بعض مناشدتك ربّك، فإنّ الله منجزٌ لك ما وعدك»[٤].

وخرج شَيْبَة وعُتْبَة ابنا ربيعة والوليد بن عُتْبَة ودعوا إلى البراز، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار بنو عَفْراء: مُعاذ ومُعَوِّذ وعَوْف بنو الحارث، فكره رسول الله ﷺ أن يكون أوّل قتال لقي فيه المسلمون المشركين في الأنصار، وأحبّ أن تكون الشّوْكة ببني عمِّه وقومه، فقال: «**يا بني هاشم! قوموا قاتلوا بحقِّكم الذي بعث الله به نبيّكم، إذ جاءكم**

(١) طبقات ابن سعد (٢/١٥).
(٢) طبقات ابن سعد (٢/١٤).
(٣) طبقات ابن سعد (٢/٢٠).
(٤) سيرة ابن هشام (٢/٢٦٧).

بباطلهم ليطفئوا نور الله »، فقام حمزة بن عبد المطّلب وعليّ بن أبي طالب وعُبَيْدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مَنَاف[1]، وقاتلوا أولئك المشركين الثلاثة، وبذلك استأثر النبي ﷺ لأهله الأقربين بالخطر[2]، فاستشهد يومئذٍ بسبب هذه المبارزة عُبَيْدَة بن الحارث بن عبد المطّلب[3].

ونزل النبي ﷺ بنفسه يباشر القتال، ليضرب لأصحابه أروع الأمثال في الشجاعة والتضحية والفداء، فقد شُوهد في أثر المشركين مُصْلِتاً للسَّيْف يتلو هذه الآية الكريمة: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدّبر﴾[4]. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لما كان يوم بَدْرٍ وحضر البأس، اتّقينا برسول الله ﷺ، وكان من أشدّ الناس بأساً يومئذٍ، وما كان أحد أقرب إلى المشركين منه »[5].

وفي غزوة أُحُد، جُرح وجه رسول الله ﷺ وكُسرت رباعيّته وهشمت البيضة على رأسه[6]، واستُشهد عمّه حمزة بن عبد المطّلب رضي الله عنه[7]، واستُشهد سبعون من أصحابه[8].

وفي غزوة ذات الرّقاع[9]، حاول رجل من غَطَفَان أن يفتك

---

(١) طبقات ابن سعد (١٧/٢) وعيون الأثر (٢٥٤/١) وسيرة ابن هشام (٢٦٥/٢).
(٢) الرسول القائد (١٠٠).
(٣) طبقات ابن سعد (٥١/٣) والإصابة (٢١٠/٤) وأسد الغابة (٣٥٧/٣).
(٤) طبقات ابن‌سعد (١٧/٢)، والآية الكريمة من سورة القمر (٥٤: ٤٥).
(٥) طبقات ابن سعد (٢٣/٢).
(٦) شرح النووي على مسلم (٢٣٩/٤ - ٢٤٠) وفتح الباري بشرح البخاري (٢٨٦/٧).
(٧) فتح الباري بشرح البخاري (٢٨٣/٧) وسيرة ابن هشام (١٥/٣).
(٨) فتح الباري بشرح البخاري (٨٨/٧)
(٩) قيل لها غزوة ذات الرقاع، لأنهم رقعوا فيها راياتهم، وقد غزا النبي ﷺ نجداً يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، انظر سيرة ابن هشام (٢١٤/٣).

برسول الله ﷺ فقال هذا الرّجل لقومه: «ألا أقتل لكم محمّداً؟»، قالوا: «بلى، وكيف تقتله؟»، قال: «أفتك به». وأقبل الرّجل إلى رسول الله ﷺ وهو جالس وسيفه في حجره، فقال: «يا محمّد! انظر إلى سيفك هذا؟»، قال: «نعم!»، فأخذه واستلّه وجعل يهزّه، ثم قال: «يا محمد! أما تخافني؟!»، قال: «لا، وما أخاف منك!»، قال: «أما تخافني وفي يدي السَّيف!»، قال: «لا، يمنعني الله منك!»[1].

وفي غزوة الخندق، عمل رسول الله ﷺ مع المسلمين في حفر الخندق، لينشط المسلمين، وكان ينقل التراب على كاهله حتى اغبَّر بطنه. وكان المشركون عشرة آلاف، وكان المسلمون ثلاث آلاف. وازداد موقف المسلمين خطراً بعد أن نقض يهود بني قُرَيْظة العهد، فبعث رسول الله ﷺ بعض الأنصار، فقال: «انطلقوا حتى ننظر أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم؟! فإن كان حقاً، فالْحَنُوا لي لَحْناً أعرفه ولا تفتّوا في أعضاد النّاس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للنّاس»، فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم: نالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: «مَنْ رسول الله؟! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد»[2].

ونجم النِّفاق، وفشل الناس، وعظم البلاء، واشتدّ الخوف، وخيف على الذّراري والنِّساء، وكان المسلمون كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إذ جاءوا من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/٢١٦).

(٢) طبقات ابن سعد (٢/٦٦) وسيرة ابن هشام (٣/٢٣٥)، فالحنوا لي لحناً: أي قولوا قولاً يخالف ظاهر الكلام معناه. وفتّ في عضده: إذا اضعفه وأوهنه، وانظر سيرة ابن هشام (٣/٢٣٧)، وانظر حول نقله التراب ما جاء في فتح الباري بشرح البخاري (٣/٣٠٨).

الحناجر﴾[1]. وكانت القضايا الإدارية للمسلمين سيّئة للغاية، إذ لبثوا ثلاثة أيام لا يذوقون ذواقا، كان بطن النبيّ ﷺ معصوباً بحجر[2] من الجوع، ومع ذلك صبر الرّسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام صبراً لا مثيل له في التّاريخ كلّه، وثبت ثباتاً عظيماً، حتى انسحب المشركون يجرّون أذيال الخزي والعار، وحينذاك فقط قال النبي ﷺ: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا، ونحن نسير إليهم**»[3].

وفي غزوة بني المُصْطَلِق من خُزاعَة، حاول أحد المشركين اغتيال النبي ﷺ، فقد أدركته القائلة، فنزل تحت شجرة واستظلّ بها، وعلّق سيفه. وتفرّق الناس في الشجر يستظلّون، فأتاه أعرابي وهو نائم، واخترط سيف رسول الله ﷺ، فاستيقظ والأعرابيّ على رأسه صلى الله عليه وسلم مخترطاً سيفه صلتا، فقال: «مَنْ يمنعك مني؟!»، فقال النبي ﷺ: «الله»[4].

وفي هذه الغزوة، ازدحم أحد الأنصار بأحد المهاجرين على الماء، فنادى الأنصاري: «يا لَلأنصار!»، ونادى القُرَشِيّ: «يا لَقُريش يا لِكَنانَة!»، فأقبلت قريش سِراعاً، وأقبلت الأوس والخزرج، وشهروا السِّلاح، فقال عبد الله بن أُبَيّ رأسُ المنافقين: «لئن رجعنا إلى المدينة، ليُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأذل»، ثم أقبل مَنْ حضر من قومه فقال: «هذا ما فعلتم بأنفسكم!». وخرج من ساعته وتبعه النّاس، فتقدّم عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ الناس حتى وقف لأبيه على الطّريق، فقال: «لا أُفارقك

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٦٧)، والآية الكريمة من سورة الأحزاب (٣٣: ١٠).

(٢) فتح الباري بشرح البخاري (٧/٣٠٤).

(٣) فتح الباري بشرح البخاري (٣/٣١١).

(٤) فتح الباري بشرح البخاري (٣/٣٣٣).

حتى تزعم أنّك الذّليل ومحمّد العزيز »، فمرّ رسول الله ﷺ فقال: « **دَعْهُ فلعمري لَنُحْسِنَنَّ صحبته ما دام بين أظهرنا** »[1].

وحاول أبو سفيان بن حَرْب قبل إسلامه، اغتيال النبي ﷺ، فقد قال لنفرٍ من قُريش: « ألا أحدٌ يغتال محمّداً، فإنّه يمشي في الأسواق؟ »، فأتاه رجل من الأعرب، فقال: « قد وجدتَ أجمع الرِّجال قلباً وأشدّه بطشاً وأسرعه شدّا، فإنْ أنت قوّيتني خرجت إليه حتى اغتاله، ومعي خنجر مثل خافية النِّسر فأسوره[2]، ثم آخذ في عِيْر وأسبق القوم عدواً، فإنني هادٍ بالطّريق خِرِّيت »[3]، قال: « أنت صاحِبُنا! »، فأعطاه بعيراً ونفقة وقال: « إطْوِ أمرك » وخرج ليلاً، فسار على راحلته خمساً وصبّح المدينة صبح سادسه، وأقبل يسأل عن رسول الله ﷺ حتى دُلّ عليه، فعقل راحلته ثم أقبل إلى رسول الله ﷺ وهو في مسجد بني عبد الأشهل، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: « **إنّ هذا ليريد غدراً!** ». وذهب الرّجل ليحني على رسول الله ﷺ، فجذبه أحد الأنصار، فإذا بالخنجر، فسقط من يديه وقال: « دَمِي! دَمِي! »، فقال رسول الله ﷺ: « **أصْدِقني، ما أنت!؟** »، قال: « وأنا آمِن؟! »، قال: « **نعم** »، فأخبره بأمره وما جعل له أبو سفيان بن حرب، فخلّى عنه رسول الله ﷺ، فأسلم الرّجل[4].

وفي غزوة الحُدَيْبِيَّة[5] حين أراد النبي ﷺ إبرام الهدنة بين

---

(١) طبقات ابن سعد (٦٥/٢) وسيرة ابن هشام (٣٣٤/٣ - ٣٣٦).
(٢) أسوره: أبطش به.
(٣) الخرّيت: الدليل الحاذق بالدّلالة.
(٤) طبقات ابن سعد (٩٣/٢ - ٩٤).
(٥) الحديبية: قرية ليست بكبيرة، بينها وبين مكّة مرحلة واحدة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل، يقال: إنّ بعضها في الحلّ وبعضها في الحرم، وسميت بذلك لبئر فيها تسمّى: الحديبية.

المسلمين وبين قريش، ضاق بعض المسلمين بأمر الهدنة ومنهم عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فأتى النبي ﷺ وقال: «يا رسول الله! ألستَ برسول الله؟! »، قال: «**بلى**» قال: «أولسنا بالمسلمين؟! »، قال: «**بلى**» قال: أوليسوا بالمشركين؟! »، قال «**بلى**»، فقال: «فَعَلامَ نعطي الدَّنِيّة[1] في ديننا؟! »، فقال: «**أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يُضيِّعني**»[2].

وكان ممّا أثار حفيظة عمر بن الخطّاب رضى الله عنه وغيره، صبر النبيّ ﷺ على سُهَيْل بن عمرو أثناء كتابة العهد، يقول: «**اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم**»، فيقول سُهَيْل: «أمْسِكْ، لا أعرف الرحمن الرحيم، بل اكتب باسمك اللّهمّ». ويقول صلى الله عليه وسلّم: «**اكتب: هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله، سُهَيْل بن عمرو**»، فيقول سهيل: «أَمْسِكْ، لو شهدتُ أنّك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك»[3].

وفي غزوة الفَتْح، رأى المسلمون رسول الله ﷺ حين دخل مكّة المكرّمة، ورأسه قد انحنى على رَحْله، وبدا عليه التّواضع الجمّ، حتى كادت لحيته تمسّ واسطة راحِلته خشوعا، وترقرقت في عينيه الدُّموع تواضعاً وشكراً لله[4].

وقام رسول الله ﷺ على باب الكعبة خطيباً، فكان ممّا قاله: «**لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ألا كلّ مأثرة أو دم أو مال يدَّعى فهو تحت قدميّ هاتين، إلاّ سّدانة البيت وسِقاية الحاج.. يا معشر قريش! إن الله قد**

---

(١) الدنِيّة: الذل والصَّغار، يريد: لماذا نقبل من المشركين ما يُعتبر هواناً ومذلة؟!
(٢) سيرة ابن هشام (٣/٣٦٥ - ٣٦٦).
(٣) سيرة ابن هشام (٣/٣٦٦).
(٤) الرّسول القائد (٣٤٧).

أذهب عنكم نَخْوَةَ الجاهليّة وتَعَظُّمها بالآباء: الناس من آدم، وآدم من تراب: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1]، يا معشر قريش! ما ترون أنّي فاعل بكم؟!»، قالوا: «خيراً أخ كريم وابن أخ كريم»، قال: اذهبوا فانتم الطُّلقاء»[2].

قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: «لما كان يوم الفتح، ورسول الله ﷺ بمكّة، أرسل إلى صَفْوان بن أُميّة بن خَلَف وإلى أبي سفيان بن حرب وإلى الحارث بن هشام، فقلت: قد أمكن الله منهم، أعرِّفهم بما صنعوا، فقال النبيّ ﷺ لهم: مثلي ومثلكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين﴾[3].

وحين كان يطوف بالبيت الحرام، أراد فُضالة بن عُمَيْر بن المُلوِّح اللَّيْثِي، قتله، فلما دنا منه قال له النبيّ ﷺ: «أَفُضَالة؟!»، قال: «نعم، فُضالة يا رسول الله!»، قال: «ماذا كنت تُحدِّث به نفسك؟!»، قال: «لا شيء، كنتُ أذكر الله عزّ وجلّ»، فضحك النبيّ ﷺ ثم قال: «استغفر الله»، ثم وضع يده على صدر فُضالة، فكان فُضالة يقول: «والله ما رفع يده عن صدري، حتى ما من خلق الله شيء أحبّ إليّ منه»[4].

وفي غزو حُنين، انهزم المسلمون لا يلوي أحد على أحد، فانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: «أين!أيّها الناس؟! هَلُمُّوا إليَّ، أنا

---

(١) سورة الحجرات، آية ١٣.
(٢) سيرة ابن هشام (٤/٣١-٣٢).
(٣) طبقات ابن سعد (٣/١٤١-١٤٢) وسورة يوسف، آية ٩٢.
(٤) سيرة ابن هشام (٤/٢٧).

رسول الله محمّد بن عبد الله »، وقد بقي معه نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته[1]، فأمر عمّه العبَّاس أن ينادي: «يا معشر الأنصار! يا أصحاب السَّمُرَة! يا أصحاب سورة البقرة!»، فأقبلوا كأنّهم الإبل إذا حنّت على أولادها، يقولون: «يا لبَّيْكَ! يا لَبَّيْك!»، وحملوا على المشركين[2].

في ذلك الموقف العصيب الحرج للغاية، أراد شَيْبَة بن عُثمان بن طَلْحة أن يغتال النبيّ ﷺ! قال شيبة: «قلتُ اليوم أُدرك ثأري... اليوم أقتل محمّداً! فأدرت برسول الله ﷺ لأقتله، فأقبل شيء حتى تغشى فؤادي، فلم أطق ذلك، فعلمتُ أنّه ممنوع مني»، وكان أبو شيبة قد قُتل يوم أُحُد[3].

ويوم حُنين أعطى رسول الله ﷺ من غنائم حُنَيْن في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء. ووَجَدَ هذا الحيُّ من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة[4]، وحتى قال قائلهم: «لقي والله رسول الله ﷺ قومَه!!». ودخل عليه سعد بن عُبادة، فقال: «يا رسول الله! إنّ هذا الحيّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لِمَا صنعتَ في هذا الفَيء الذي أصبتَ: قَسَمْتَ في قومك، وأعطيت عطايا عِظاماً في قبائل العرب، ولم يَكُ في هذا الحيّ من الأنصار منها شيء!»، قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟»، قال: «يا رسول الله، ما أنا إلاّ من قومي»، قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة»[5].

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/٧١-٧٢).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/١٥١) وسيرة ابن هشام (٤/٧٤).

(٣) سيرة ابن هشام (٤/٧٤).

(٤) القالة: الكلام الرديء.

(٥) الحظيرة: هي في الاصل، مكان يُتَّخذ للإبل والغنم فيها يمنعها الانفلات وهجمات اللّصوص والوحوش.

وخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فأتاهم رسول الله ﷺ وقال: «يا معشر الأنصار! ما قالة بلغتني عنكم وجِدَة[1] وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتِكم ضُلالاً فهداكم الله، وعَالة[2] فأغناكم الله، وأعداء فألّف بين قلوبكم؟!»، قالوا: «بَلَى، الله ورسوله أَمَنّ[3] وأفضل».

ثم قال: «ألا تجيبونني يا معشر الأنصار!»، قالوا: «وبما نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المَنُّ والفضل». فقال: «أما والله لو شئتم لقلتُم فَلَصَدَقْتُمْ! أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك[4]، أَوَجَدْتُمْ يا معشرَ الأنصار في أَنْفُسِكم لُعَاعة[5] من الدنيا تألّفتُ بها قوماً لِيُسْلِموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟! ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب النّاس بالشّاة والبعير، وترجعون برسول الله إلى رِحالكم؟! فوالذي نفس محمّد بيده، لولا الهجرة لكنتُ امْرُءاً من الأنصار، ولو سلك النّاس شِعْباً[6] وسلك الأنصار شِعْباً لسلكتُ شِعْبَ الأنصار. اللّهمّ ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»، فبكى القوم حتى أخْضَلوا[7] لِحَاهُم، وقالوا: «رضينا برسول الله قِسْماً وحَظّاً»[8].

---

(١) الجدّة: أراد بها الموجود، وهي العقاب، وأكثر ما تستعمل الجدة في المال.
(٢) عالة: فقراء.
(٣) أمَنّ: هو أفعل تفضيل من المِنّة، وهي النّعمة.
(٤) آسيناك: أعطيناك حتى جعلناك كأحدنا.
(٥) اللّعاعة: بقلة خضراء ناعمة، شبّه بها زهرة الدنيا ونعيمها.
(٦) الشّعب: الطّريق بين جبلين.
(٧) أخضلوا لحاهم: بلّوها بالدّموع، والغصن الخضل: هو الذي بلّه المطر.
(٨) سيرة ابن هشام (١٤٧/٤-١٤٨) وعيون الأثر (١٩٤/٢-١٩٥) والسيرة الحلبيّة (١٤١/٣-١٤٢) وفتح الباري بشرح البخاري (٣٨/٨-٤٤).

جـ. في نفسه:

كانت الغنائم يوم حُنَيْن أربعة وعشرين ألف بعير، وأربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقيّة من الفِضّة، وستة آلاف نسمة من السَّبْي[1]، وقد أعاد النبيّ ﷺ السّبايا إلى بني هَوازِن[2]. فهل أبقى النبيّ ﷺ لنفسه شيئاً من هذا المال؟

لقد قام يومئذٍ إلى بعير، فأخذ وَبَرة من سَنَامِه[3] بين إصبعيه، ثم رفعها وقال: «**أيّها النّاس! والله ما لي من فَيْئِكُمْ ولا هذه الوَبَرة إلاّ الخُمُس، والخمس مردود عليكم، فأدّوا الخِياط[4] والمَخِيْط، فإن الغُلول[5] يكون على أهله عاراً وناراً وشناراً[6] يوم القيامة**»[7].

بل هل أبقى شيئاً من ماله الخاص؟!.

كان النبيّ ﷺ يبيت اللّيالي المتتابعة طاوياً وأهله، لا يجدون عشاءً، وكان عامّة خبزهم الشَّعير.

وفي يوم من الأيّام، جاءت فاطمة ابنة النبيّ ﷺ بِكِسْرة خبز، فقال: «**ما هذه الكِسرة يا فاطمة؟**»، قالت: «قرص خبزته، فلم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكِسرة»، فقال: «**أما إنّه أوّل طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام!!**».

---

(١) الرّسول القائد (٣٦١-٣٦٢).

(٢) سيرة ابن هشام (١٣٥/٤).

(٣) السنام: أعلى ظهر البعير.

(٤) الخياط: الخيط.

(٥) الغُلول: الخيانة في الغنم.

(٦) الشنار: الأمر المشهور بالشُّنعة والقُبْح.

(٧) سيرة ابن هشام (١٣٨/٤-١٣٩).

وقالت عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها: «ما شبع آل محمّد غداءً وعَشاء من خبز الشّعير ثلاثة أيام متتابعات، حتى لحق بالله».

وخطب رسول الله ﷺ فقال: «والله ما أمسى في آل محمّد صاع من طعام، وإنّها لتسعة أبيات»، وما قالها استقلالاً لرزق الله، ولكن أراد أن تتأسّى به أُمَّته.

وقال عبد الله بن العبّاس رضي الله عنهما: «والله لقد كان يأتي على آل محمّد ﷺ اللّيالي، ما يجدون فيها عشاء».

وقالت عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها: «ما شبع رسول الله ﷺ في يوم مرّتين حتى لحق بالله، ولا رفعنا له فضل طعام عن شبع حتى لحق بالله، إلاّ أن نرفعه لغائب».

وقالت: «كان لنا جيران من الأنصار، لهم ربائب يسقوننا من لبنها، جزاهم الله خيرا».

وقالت: «إنّ آل محمّد لم يشبعوا ثلاثة أيام متوالية من طعام بُرّ، حتى مضى النبيّ ﷺ لسبيله».

وقالت: «والله، لقد كان يأتي على آل محمد ﷺ شهر لا نخبز فيه».

وقالت: «لقد مات رسول الله ﷺ، وما شبع من خبز وزيت في يومٍ مرّتين».

وقد تُوفي رسول الله ﷺ، ودرعه مرهونة عند رجل من يهود بوسَقٍ من شعير.

وقال أبو هُرَيرة رضي الله عنه: «إنّ النبيّ ﷺ كان يجوع»، فقيل له: «وكيف ذلك الجوع؟!»، فقال: «لكثرة مَنْ يغشاه وأضيافه، وقوم يلزمونه لذلك، فلا يأكل طعاماً أبداً، إلاّ ومعه أصحابه وأهل الحاجة يتتبّعون من المسجد».

وكان النبيّ ﷺ يقول: **« ما ملأ آدميّ وعاء شرّاً من بطنه: حسب ابن آدم أكلات يُقمن صُلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسِه »**(١).

إنّه لم يستقر في قلبه العظيم، ما يجعل للدينار معنى الدينار، ولا للدرهم معنى الدرهم. إنّ فقره صلى الله عليه وسلم كان، من أنه كان يتّسع في الكون لا في المال.

إنّه يُفهم من فقر النبيّ ﷺ، أنّ الشّهوات خُلقت مع الإنسان تتحكّم فيه، ولكنّه كان يتحكّم فيها ولا تتحكّم فيه، وأنّ الإنسان العاقل يجب أن يكون ذا روحٍ تمتدّ فتفيض عن غايات جسمه إلى ما هو أعلى فأعلى، حتى تُصبح من حكم النّور وانطلاقه وحرّيته.

إنّ الفقر وما إليه، والزُّهد وما هو بسبيل منه، والانصراف عن الشهوات والرّذائل، كل ذلك إن هو إلاّ تراجع النّفس العالية إلى ذاتها النورانيّة.

هذا هو سيِّد الأمّة يُمسكه في الحياة نبيّاً عظيماً، ما يُخرج غيره منها ذليلاً محتقراً، وكأنّما أشرق وصفاء نفسه على تراب الأرض، فردّه أشعة ونورا(٢).

لم يفكِّر أبداً بنفسه، كما لم يفكِّر أبداً بأهله، يُسبغ عليهم هذا

---

(١) الحديث رواه أحمد بن حنبل والترمذي وابن ماجه والحاكم، انظر: مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٢/٢٥٩)، وانظر ما جاء حول شدّة العيش على رسول الله ﷺ في: طبقات ابن سعد (١/٤٠٠-٤١٠).

(٢) انظر ما جاء في مقال: سموّ الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم، الوارد في كتاب: وحي القلم - الأستاذ المرحوم مصطفى صادق الرافعي (٢/٤٨-٦٢) - ط ٨ - بيروت - بلا تاريخ.

التّرف الذي يشيع بين ذوي الجاه والسُّلطان، وحين نصره الله وردّ عنه الأحزاب، وفتح عليه قُرَيْظة والنَّضِيْر، ظنّ أزواجه أنّه اختصّ بنفائس يهود وذخائرهم. وكُنَّ تسع نسوة قعدن حوله وقُلْنَ: «يا رسول الله! بنات كسرى وقيصر في الحُلِيّ والحُلَل والإماء والخَوَل، ونحن على ما تراه من الفاقة والضِّيق». وآلمنَ قلبه، بمطالبتهنّ له بتوسِعة الحال، وأن يُعاملهنّ بما تُعامِل به الملوك وأبناء الدّنيا أزواجهم، فأمره الله تعالى أن يتلو عليهنّ ما نزل في أمرهنّ من تخييرهنّ في فراقه، وذلك قوله: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها، فتعالين أمتعكن وأسرحكن[1] سراحاً جميلاً وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾[2].

وبدأ رسول الله ﷺ بعائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، فقال لها: «إني ذاكر لكِ أمراً ما أحبّ أن تَعْجَلِي فيه حتى تستأمري أبويك»، فقالت: «ما هو؟»، فتلا عليها الآية، فقالت: «أفيكَ أستأمِر أبَوَيّ؟! بل اختار الله تعالى ورسوله».

ثمّ تتابعن كلّهنّ على ذلك، فسمّاهنّ الله: أمّهات المؤمنين، تعظيماً لحقّهنّ، وتأكيداً لحرمتهنّ، وتفضيلاً على سائر النِّساء.

لقد أمره ربُّه أن يُخَيِّرهنَّ جميعاً في سراحِهنّ، فيكُنّ كالنِّساء، ويجدن ما شئن من دنيا المرأة، وبين إمساكهنّ فلا يكُنّ معه إلاّ في بيعة أخرى تبدأ من حيث تنتهي الدّنيا وزينتها، ولا تقتصر الآية الكريمة

---

(١) السَّراح: الطّلاق. ومتعة الطلاق: ما تُعطاه المطّلقة، وهو يختلف حسب السعة والاقتدار.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان، ٢٨، ٢٩، انظر تفسيرها في تفسير ابن كثير (٥٤٢-٥٣٨/٦) وتفسير البغوي (٥٤٢-٥٣٨/٦) وتفسير الكشاف للزمخشري (٤٢٩/٢).

على نفي الدّنيا وزينة الدّنيا عنهنّ، بل نفت الأمل في ذلك أيضاً إلى آخر الدّهر، وأماتت معناه في نفوسهنّ، بقصر الإرادة منهنّ على الثلاثة: الله في أمره ونهيه، والرّسول في شدائده، ومكابدته، والدار الآخرة في تكاليفها ومكارهها، فليس هناك ظرف ولا رقّة ولا عاطفة ولا سياسة لطبيعة المرأة ولا اعتبار لمزاجها ولا زلفى لأنوثتها، بل هو تخيير بين ضدّين لا تتلوّن بينهما حالة تكون منهما معاً[1].

وكما كان قدوة في تقشّفه، كان قدوة في خُلقه ومعاملاته، وفي سيرته في بيته ومع أهله والناس.

وأخيراً مات النبيّ ﷺ متأثّراً بالسُّم ذي المفعول البطيء، فقد أهدت امرأة يهوديّة من خَيْبَر شاةً مسمومة لرسول الله ﷺ، فأكل منها، وأكل بعض مَنْ كان معه من أصحابه، ومنهم بِشْر بن البِراء بن مَعْرور، فمات بِشْر، واحتجم رسول الله ﷺ على كاهله من أجل الذي أكل، وأمر أصحابه فاحتجموا أوساط رؤوسهم.

وعاش رسول الله ﷺ بعد ذلك ثلاث سنين، حتى كان وجعه الذي قُبِض فيه، فجعل يقول في مرضه: «**ما زلتُ أجد من الأكِلة التي أكلتها يوم خَيْبر عِدَاداً، حتى كان هذا أوان انقطاع أَبْهَرِيّ**»[2]، فتُوفي رسول الله ﷺ شهيداً، صلوات الله ورحمته وبركاته عليه[3].

لقد تحمّل التّعذيب والأذى، والتكذيب والمقاطعة، والاضطهاد والمطاردة، وهو الشّريف الصّادق الأمين الغنيّ، الذي كان بإمكانه أن يعيش في رفاهيّة وعزّ وسؤدد.

---

(١) انظر مقال: درس من النبوّة للاستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتاب وحي القلم (٢/٦٤-٦٥).

(٢) الأبهر: عرق في الظهر. والعداد: يقال به مرض عِداد، يدعه زمناً ثم يعاوده.

(٣) طبقات ابن سعد (٢/٢٠٢-٢٠٣).

واستهان بالوعد والوعيد والمال والجد، وصبر على شظف العيش والجوع والعُرى والمشقّة، وهو القويّ الأمين، السيِّد الثَرّي الذي كان بإمكانه أن يعيش مصاناً مُتْرِفاً.

وقاتل قومه وقبيلته، وعادى مَنْ عادى الإسلام، وسالم من سالم الإسلام، وعرّض نفسه للقتل في ساحات الجهاد مجاهدا، وخارج ساحات الجهاد داعيا، وضحّى بالأقربين من أهله وبنفسه، وتحمّل المسؤوليات الجِسام التي تنوء بها العُصبة القويّة من أفذاذ الرِّجال، واستأثر بنفسه لنفسه بالأخطار الفادحة، وهو البرّ الرّحيم الذي كان بإمكانه أن يعيش مرفّهاً مُصاناً بعيداً عن الأخطار.

إنّه كان تجسيداً حيّاً لتعاليم الإسلام عقيدةً وتشريعاً ومُثُلاً عُلْيا وعملاً وتضحية وجهادا، فهو الأسوة الحسنة للمسلمين في كلّ زمان ومكان: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾[1].

إنّه كان مثالاً حيّاً وبشراً سويّاً للخلق الكريم: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[2]، والإسلام في حقيقته وروحه عقيدةٌ وعملٌ وتضحية وجهاد، وكلّها في جملتها وتفصيلها معنى من معانى الخلق الكريم.

أيبذل بشر من ذات نفسه ووقته وجهده مثل هذا البذل؟! أيُضحّي إنسان بماله ونفسه وأهله وقومه مثل هذه التّضحية؟! أيجاهد رجل بما يملك من مال ونفس وغالٍ ورخيصٍ مثل هذا الجهاد؟! أيستطيع أحد ان يتحمّل كلّ هذا البذل والتّضحية والجهاد؟!.

وصدق الله العظيم: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾[3].

(١) سورة الأحزاب، آية ٢١.
(٢) سورة القلم، آية ٤.
(٣) سورة الأنعام، آية ١٢٤.

إنّ المرء حين يستمع إلى مثل هذه (الأمثلة) الرائعة من بذله وتضحيته وجهاده، يسمعها وهو مبهور الأنفاس، يكاد يُصْعق بروعتها وبهائها وجمالها وجلالها، فكيف به لو استمع إلى كل تفاصيل بَذْله وتضحيته وجهاده في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا.

لقد تأسّى أصحاب رسول الله ﷺ به في حياته، وبعد التحاقه بالرّفيق الأعلى، لذلك كان قرنه خير القرون، وكان رجاله أعظمَ الرجال ورعاً وخُلقاً وشجاعة وإقداماً، فأصبحوا قدوة لمن حولهم من الناس،كلٌّ حسب حاجاته وطاقاته، ولا يُكلّف الله نفساً إلاّ وسعَها.

إنّ القدوة الحسنة، هي التي تؤثّر في الإنسان فتبنيه، لأنّ القدوة عمل مخلص ينقلب في الآخرين عملاً مخلصاً ولا يبقى كلاماً.

والذين يريدون أن يبنوا الإنسان، يجب أن يُقدِّموا أعمالاً باقية، ليكونوا قدوة حسنة، لا كلاماً فارغاً يتبدّد ثم تذروه الرياح.

فلينظر الرُّعاة كيف يعملون.

٤ . اختيار المسؤولين

اختيار الرّجل المناسب للعمل المناسب، والمسؤول المناسب للواجب المناسب، ليس سهلاً، وهو سرّ نجاح الحكام والمحكومين في الحياة العملية.

ليس سهلاً، لأنّ النّفس الأمّارَة بالسُّوء - إلاّ مَنْ رحَم ربُّك - تحول دون تولية مَنْ هو أفضل منها كفاية وعلماً وَخلقاً، وحتى خَلْقاً في بعض الأحيان بالنسبة لبعض المسؤولين.

وهو سرّ نجاح الحكّام والمحكومين، لأنّ الحكّام الصالحين هم الذين يقودون إلى النّصر في أيام الحرب، وإلى التقدّم في أيام السّلام، ولأن المحكومين القادرين هم الذين يُعينون الحكّام على إحراز النصر في أيام

الحرب، ويُعينونهم على التقدّم والرُّقيّ في أيام السّلام.

وقد كان النبي ﷺ مؤيّداً من الله سبحانه وتعالى بالوحي، وكان لهذا التأييد أثر حاسم في توفيقه بشيراً ونذيراً، ومشرعاً وقاضياً، وسياسياً وإدارياً، وقائداً وجندياً، ومعلّماً ومُربّياً، وبشراً وإنساناً.

وهذا التأييد الإلّهيّ، لا يمنع من أن تكون لكفاياته الشخصيّة أثر حاسم أيضاً في توفيقه، وهذه الكفايات هي القدوة الحسنة والأُسوة والمَثَل، التي باستطاعة المسلم أن يضعها نصب عينيه، لأنّها كفايات بشريّة متميِّزة يمكن الطّموح في اقتفاء آثارها ما استطاع المقْتَفِي إلى ذلك سبيلاً.

أما التأييد الإلهي بالوحي، فيقتصر على الرُّسل والانبياء وحدهم.

لقد وجدت بالدراسة المستفيضة الطويلة لسيرة النبي ﷺ، والتفكير الطويل المُتَأنّيّ في أحداثها وحوادثها، أنّ من ضمن كفاياته الفذّة المتميِّزة، قابليته النادرة على اختيار الرّجل المناسب للعمل المناسب، أو اختيار المسؤول المناسب للواجب المناسب.

ووجدت أن هذه القابلية التي التزم بها التزاماً صارماً في حياته المباركة، هي من أهمّ الاسباب (الدنيويّة) لانتصاره في أيام الجهاد، ونجاحه في أيام السلام.

وكان عليه أفضل الصّلاة والسّلام، يعرف أصحابه معرفة مفصّلة، وكان يعرف ما يتميَّز به كل صحابيّ من مزايا تفيد المجتمع الإسلامي الجديد، وكان يسخِّر تلك المزايا تسخيراً كاملاً لخير ذلك المجتمع وللمصلحة العامّة للمسلمين.

وكان في نفس الوقت، يُدرك ما يُعاني كلّ صحابيّ من أصحابه من مثالب، وكان يتغاضى عن تلك المثالب ويغضّ الطّرف عنها، ويحاول

تقويمها وتلافيها وإصلاحها، وكان يذكر أصحابه بأحسن ما فيهم من مزايا ويشيد بها، ويأمر أصحابه أيضاً بالتغاضي عن مثالب إخوانهم، والإشادة بأحسن ما فيهم تقديراً وإعجاباً.

وكان عليه أفضل الصّلاة والسّلام، بهذا السُّلوك الرّائع الذي التزم به في كلّ حياته المباركة: يُشيد بالمزايا وينتفع بها لخير الإسلام والمسلمين، ويغضّ الطّرف عن المثالب ويقدِّمها بالحسنى، ثم يداويها بما عُرف عنه من حكمةٍ وموعظة حسنة وتشجيع وتربية مثالية.

بهذه الخطّة الرائعة والطريقة السّليمة والأسلوب الحصيف، كان النبي ﷺ يبني الإنسان المسلم ولا يحطِّمه، ويقوِّم المعوجّ ولا يكسره، ويشيِّد للحاضر والمستقبل، لا للحاضر وحده أو للسّاعة التي هو فيها.

لقد كان يعلم علم اليقين، أنّ كلّ إنسان يتّسم بمزايا حميدة مُعَيَّنَة، وفي نفس الوقت يُعاني من نواقص خاصة به، لأنّ الكمال لله وحده سبحانه وتعالى، فكانت إشادته بالمزايا وإشادة أصحابه بها، تقوي تلك المزايا وتشدّ أزرها، وكان إغضاؤه عن المثالب وإغضاء أصحابه عنها، وذكر أصحابها بأحسن ما فيهم من خصال، يُقلِّل من أثر المثالب وتأثيرها ويستر عليها، ويجعلها تتضاءل شيئاً فشيئاً، حتى تتلاشى نهائياً، أو يضعف أثرها وتأثيرها، وقد تنتهي إلى الأبد.

وكان عليه الصلاة والسّلام، يدرك كلّ الادراك، أنّ كلّ إنسان لا بـدّ من أن يُعـاني من نقـص أو نواقـص في نـاحيـة من نواحيـه الخُلقية -وكفى المرء نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُه - فكان يغضّ الطّرف عن النّقص أو النواقص في أصحابه، ويستفيد لمصلحة الإسلام والمسلمين من ناحية الكمال، فلا يكون ذلك النّقص أو تلك النّواقص سُبَّه أو مَثْلَبَةً، لأنّه كان يُبرز ناحية الكمال ويُنوِّه بها وبصاحبها ويُذَكِّرُه بها ويُثني عليه أعظم الثناء.

وكان لا يُبقي المزايا طاقات مُعَطَّلة، بل ينتفع بها لمصلحة الإسلام والمجتمع الإسلامي الجديد، وهكذا تتضافر الطاقات المتميِّزة لشدّ أزر الأمّة وتقويتها ودفعها نحو النّصر والبناء.

لقد كان من بين أصحاب النبي ﷺ، مَنْ تميّز بالثّراء، فأفاد المسلمون من ماله لأغراض الدّعوة والجهاد، ولمعاونة الفقراء والمحتاجين، ولم يُكلّفه عليه الصّلاة والسّلام بمصاولة الصناديد والأبطال، إذا لم يكن قادراً على خوض ميادين الجهاد.

وكان من بين أصحابه، مَنْ تميَّز بالقيادة العسكريّة، فولاّه قيادة المجاهدين في السرايا والغزوات.

وكان من بين أصحابه مَنْ تميّز بالشجاعة الفرديّة، ولم تكن له قابليّة قياديّة، فاستفاد منه في مبارزة الشّجعان والأقران، والنّهوض بالواجبات الفدائية جندياً من جنود المسلمين، دون أو يوليه القيادة.

وكان من بين أصحابه مَنْ تَميَّز بالرأي السَّديد والتفكير العميق، فاستفاد منه عليه أفضل الصّلاة والسّلام في مجال الرأي والحكمة والشّورى.

وكان من بين أصحابه مَنْ تميَّز بالقيادة الإداريّة، فاستفاد منه في مجال الولاية على الأمصار.

وكان من بين أصحابه مَنْ تميّز بالقيادة الماليّة، فاستفاد منه في مجال جباية الأموال والسّيطرة على الأمور الماليّة.

وكان من بين أصحابه مَن تَميَّز بالقضاء بين الناس، فاستفاد منه في المجال القضائي.

وكان من بين أصحابه من تميَّز بالتأثير في نفوس وعقول وقلوب الآخرين داعية إلى الله، فأفاد منه في مجال الدّعوة، واتّخذ من صَفْوتهم رُسُلاً إلى الملوك والأمراء.

وكان من بين أصحابه مَن تَمَيَّز بإتقان حِفْظ القرآن الكريم وترتيله وتفسيره، فاستفاد منه في مجال تعليم القرآن الكريم وعلومه.

وكان من بين أصحابه مَنْ تَميَّز بالفقه، فاتّخذ منهم معلّمين للفقه الإسلامي وتعاليم الإسلام.

وكان من بين أصحابه مَنْ تميّز بقول الشّعر المتين، فأفاد المسلمون من شعره وبيانه.

وكان من بين أصحابه مَنْ تميَّز بالخَطابة، فأفاد المسلمون من قابليته الخطابيّة. وكان....وكان.....

كلّ تلك الكفايات المتميِّزة في الرِّجال، استفاد منها المسلمون، ولم تُغْمَط كفاية ولم يُهْمَل صاحب كفاية، وبذل عليه الصّلاة والسّلام قُصارى جهده لإضفاء التجربة العملية على تلك الكفايات.

وضَعَ عليه الصّلاة والسّلام، كل رجل من ذوي الكفايات المتميِّزة، في المكان المناسب لكفايته، وفسح له المجال لإضفاء التجربة العملية عليها.

سأل النبي ﷺ وهو بمكّة في عُمْرَة القَضَاء التي كانت في شهر ذي الحجّة من السَّنة السَّابعة الهجريّة الوليد بن الوليد المخزومي أخا خالد بن الوليد رضي الله عنهما قائلاً: «أين خالد؟»، ثم قال: «**ما مثل خالد مَنْ جهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته وحدّ مع المسلمين على المشركين، لكان خيراً له ولقَدَّمْناهُ على غيره**».

وكتب الوليد بن الوليد بذلك إلى أخيه خالد، فكان ذلك سبب هجرته إلى المدينة المنوّرة وإعلان إسلامه.

وقدم خالد بن الوليد المدينة المنوّرة مهاجراً إلى الله ورسوله، في أوّل يوم من صَفر سنة ثمانٍ الهجرية.

قال خالد: «.... فلما طلعتُ على رسول الله ﷺ، سلّمت عليه

بالنبوّة، فردّ عليه الصّلاة والسّلام بوجه طلقٍ، فأسلمتُ وشهدت شهادة الحق، فقال النبي ﷺ: **قد كنتُ أرى لك عقلاً رجوتُ ألاّ يُسْلِمَكَ إلاّ إلى خير.** وبايعتُ رسول الله ﷺ، وقلت: استَغْفِرْ كلّ ما وضَعتُ فيه من صَدّ عن سبيل الله! فقال: **الإسلام يُجبُّ ما قبله**[1]. قلتُ: يا رسول الله! على ذلك. قال: **اللهم اغفر لخالد بن الوليد كلّ ما أوضع فيه من صَدٍ عن سبيلك....** فوالله ما كان رسول الله ﷺ يوم أسلمتُ يعدل بي أحداً من أصحابه فيما يُجْزِئه»[2].

وما يقال عن خالد، يقال عن عمرو بن العاص أيضاً، فقد ولاّه قيادة أصحابه في الجهاد بعد إسلامه مباشرة، وقال عليه أفضل الصّلاة والسّلام عن خالد وعمرو لأصحابه الذين كانوا حوله حين قدما المدينة المنوّرة مُسْلِمَيْن: «**أَلْقَتْ إليكم مكّة أفلاذ كَبِدِها**»[3].

وكان عثمان بن عفّان رضي الله عنه غَنيّاً، فأفاد المسلمون من تراثه: ابتاع للمسلمين مِرْبداً[4] بعشرين ألفاً، وابتاع للمسلمين بئر رُوْمَةَ[5]، وجهّز جيش العُسْرَة الذي زحف شمالاً بقيادة النبي ﷺ لمواجهة جيش الرُّوم في تَبوك حتى ما يفقد هذا الجيش عِقالاً ولا خِطاما[6]، ولم نسمع أنّ الرّسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام كلّف عثمان بمنازلة الأقران يوم الطِعان.

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/٥٢) و (٧/٣٩٤).

(٢) أسد الغابة (٣/٣٨٢) والاستيعاب (٣/١٠٣٤).

(٣) أسد الغابة (٢/٣٨٢) والاستيعاب (٣/١٠٣٤).

(٤) المربد: موضع يُجعل فيه التمر لينشف.

(٥) بئر رومة: بئر في عقيق المدينة، وهي من ضواحي المدينة المنورة، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٤).

(٦) سنن النسائي (٢/١٢٤) وانظر حاشية السندي على النسائي على هامش سنن النسائي (٢/١٢٤).

وكان حَسَّان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه شاعراً مجيداً، فاستفاد المسلمون من قابليته الشّعريّة، ولكن النبي ﷺ كان يتركه مع النّساء والأطفال والشيوخ العاجزين عن القتال، عندما يتوجّه للجهاد.

وكان كثير من صحابة رسول الله ﷺ يُعَدُّون من أشجع الشّجعان، ولكنهم بقوا جنوداً فحسب في جيش المسلمين، ولم يتولّوا قيـــــــادة المجاهدين، لأنّهم كانوا جنوداً متميِّزين ولم يكونوا قادة متميِّزين.

وكان جميع المسلمين في حينه دعاةً إلى الله، ولكن النبي ﷺ اصطفى منهم رسله إلى الملوك والأمراء في زمانه، ولم يُكلِّف بمثل هذا الواجب الحيوي غير المُصْطَفين من الدّعاة.

وكان من بين أصحابه عليه الصّلاة والسّلام، من يُحسن القراءة والكتابة، فاختار منهم مَنْ جعله من كُتّاب الوحي ومن كُتّابه إلى الملوك والأمراء وإلى غيرهم من الناس.

وكان من بينهم إداريّون وجُباة وقضاة، فولّيّ كلّ واحد منهم ما يناسب قابلياته وكفاياته.

وقد سأله قسم من الصّحابة أن يولّيهم مناصب إداريّة، فرد الذين لا يستطيعون النّهوض بمثل هذا الواجب، وذكر لقسم منهم بصراحة تامّة سبب عزوفه عن توليتهم.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «دخلتُ أنا ورجلان من بني عمي على النبي ﷺ، فقال أحد الرجلين: «يا رسول الله! أمِّرْنا على بعض ما ولاّك الله.... وقال الآخر مثل ذلك، فقال النبي ﷺ: «إنّا لا نُولّي هذا الأمر أحداً سأله، ولا أحداً حرص عليه».

وطالب الولاية لا يُوَلّى.

وقال أبو ذرّ الغِفَاري رضي الله عنه: «يا رسول الله! ألا تستعملني؟!

فضرب النبي ﷺ على مَنْكِبَيَّ، ثمَّ قال: يا أبا ذرّ! إنّك ضعيف، وإنّها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلاّ الذي أخذها بحقّها وأدّى الذي عليها».

ذلك هو رجل الدّولة الحق، لا يولّي أحداً سأله الولاية، ولا أحداً حرص عليها، ولا أحداً لا يستحقّها.

إنّه يولّيها لمن يعتبر توليته تكليفاً لا تشريفاً، ويكون قادراً على حملها، لا قادرة على حمله.

وكان عليه الصلاة والسّلام، يتغاضى عن هِنات المسلمين، وحسبه أن ينتفع بمزاياهم لمصلحة الإسلام والمسلمين العُليا، فمزاياهم للمسلمين وهناتهم على أنفسهم.

قبل حركة جيش المسلمين بقيادة النبي ﷺ لفتح مكّة المكرّمة[1]، حرص عليه الصّلاة والسّلام على كتمان حركته من المدينة المنوّرة إلى مكّة المكرّمة، كما حرص على كتمان نيّاته في الفتح، حتى يباغت قريشاً ويجبرها على الاستسلام دون إراقة دماء.

ولكنّ حاطِب بن أبي بَلْتَعَة رضي الله عنه، كتب رسالة إلى قريش، وأعطاها امرأة كانت متوجّهة إلى مكّة المكرّمة، أخبر بها قريشاً بنيّات المسلمين في الحركة لفتح مكّة.

وعلم النبي ﷺ بهذه الرِّسالة، فبعث عليّ بن أبي طالب والزُّبير بن العوّام رضي الله عنهما، ليدركا تلك المرأة التي تحمل الرِّسالة - رسالة حاطِب - فأدركاها في الطّريق، وأخذا منها تلك الرِّسالة التي كانت معها.

---

(١) كان ذلك في شهر رمضان المبارك من السنة الثامنة الهجرية.

ودعا النبيّ ﷺ حاطباً يسأله: ما حمله على ذلك!؟ فقال حاطب: «يا رسول الله! أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيّرتُ ولا بدّلتُ، ولكنّني كنت أمرأ ليس له في القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم»! فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يا رسول الله! دعني فَلأَضْرِبْ عنقه، فإنّ الرّجل قد نافق». فقال النبي ﷺ: **«أما إنّه قد صدقكم، وما يدريك؟! لعلّ الله قد اطّلع على مَنْ شهد بَدْراً فقال: اعملوا ما شئتم».**

شفع لحاطب ماضيه الحافل بالجهاد، فعفا النبيّ ﷺ عنه، وأمر أصحابه أن يذكروه بأفضل ما فيه.

وعاش حاطب بعد ذلك في مجتمع الصّحابة، لا يُشَنَّع عليه أحد، ولا يذكره النّاس إلاّ بالخير، ولا يُسْمِعونه إلا ما يشتهي، ولا يردِّدون عنه إلاّ أفضل ما فيه من خصال.

كانوا يقولون عنه حين يرونه أو حين يذكرونه: إنَّه بَدْرِيّ... شهد بَدْراً مع النبي ﷺ.... وكفاه بذلك فخراً.

وبعد فتح مكّة المكرَّمة، أسلم عِكْرِمة بن أبي جَهْل المخزومي[1] وحَسُن إسلامه، ثمّ أصبح من أعاظم قادة الفتح الإسلامي المجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

وكان أبوه من أشدّ النّاس عداوة للنبي ﷺ وللمسلمين كافة وللدين الحنيف، وقد لقي مصرعه في غزوة بَدْرٍ الكبرى كما هو معروف، فمات غير مأسوف عليه، وتخلّص المسلمون بموته من خصم لدود.

وكان الصحابة يذكرون أبا جَهْل بن هشام بما فيه، فلما أسلم ابنه

---

(١) انظر سيرته في كتابنا: قادة فتح الشّام ومصر (٨٥ - ٩٥).

عِكْرِمة وحَسُنَ إسلامه، قال النبي ﷺ لهم: «عِكْرِمة يأتيكم، فإذا رأيتموه فلا تسبّوا أباه، فإن سبَّ الميت يؤذي الحيّ».

هكـذا يأمر النبي ﷺ أصحابه الكرام، بالكفّ عن سَبّ أعدى أعداء الإسلام والمسلمين، إكراماً لولده المسلم، حتى لا تتأثر نفسيّة هذا الولد من أجل سَبّ والده، فتتعقّد نفسيّته ويضيق ذرعاً بالمجتمع الإسلامي الذي يعيش بين أفراده وجماعاته: له ما لهم، وعليه ما عليهم.

لقد كان النبي ﷺ، يعرف حق المعرفة كلّ مزايا أصحابه، فيفيد من تلك المزايا ويبرزها للعيان، ويشجّع أصحابها ويُثني عليهم أطيب الثناء.

وهو في الوقت نفسه، يغضّ الطّرف عن النّواقص ويتستّر عليها، ويبذل جهده لإصلاحها، والمهمّ ألا يذكرها ولا يرضى عن ذكرها، بل يكتفي بذكر المزايا حسب ويأمر أصحابه بذكرها حسب أيضاً.

واستفادته من كلّ مزيّة، لكلّ مسلم من أصحابه، واستقطاب المزايا لبناء المجتمع الإسلامي، فلا يضع لَبِنَةً إلاّ في مكانها اللائق بها والمناسب لها، جعل هذا البناء يرتفع ويتعالى سليماً مرصوصاً يشدّ بعضه بعضاً.

وكان ذلك سبباً من أهمّ أسباب انتصار النبي ﷺ عسكرياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً وفي أيّام السّلام وأيام الحرب.

فلما التحق عليه الصلاة والسّلام بالرفيق الأعلى، كان بين المسلمين قادة وأمراء وولاة وقضاة وعلماء وفقهاء ومحدّثون ومفسّرون وسفراء وشعراء وخطباء، قادوا الأمة عسكرياً وسياسياً وإدارياً وفكرياً واقتصادياً واجتماعياً إلى المجد والسّؤدد والنصر والتقدّم والخير، وإلى الفتح والتطوّر والتوفيق، وإلى طريق الحق وسبيل الرّشاد.

وكان أولئك القادة في شتى المجالات، هم خريجي مدرسة النبي ﷺ.

ذلك هو الدّرس الذي يجب أن يتعلّمه العرب والمسلمون في هذه الأيام وفي المستقبل أيضاً، حُكّاماً ومحكومين، وقادة وشعوباً: أن يبنوا الرِّجال ولا يُحطِّموهم، وأن يستفيدوا من الكفايات ولا يعطِّلوها، وأن يبرزوا القدرات ولا يغمطوها، وأن يضعوا الرّجل المناسب في المكان المناسب.

والسؤال الآن: كيف يستطيع الحاكم أن يبني الكفايات، ويضع الشّخص المناسب في المنصب المناسب.

والجواب هو: ليس كلّ حاكم يستطيع أن يبني الكفايات ويستقطبها ويضعها في المكان المناسب.

لقد كان النبي ﷺ قِمَّة من القِمم السّامقة، نسياناً لذاته وتفكيراً في الإسلام والمسلمين، وإخلاصاً لمصالح المسلمين العليا أفراداً وجماعات وأُمّة.

لذلك خرَّج في مدرسته القِمم من جميع أصناف الكفايات والقابليات القادرة على شغل مختلف المناصب والواجبات.

وليس ذلك بالأمر السّهل، وبخاصة نسيان الذّات من أجل المصلحة العامة، فهو جدّ عسير بالنسبة للذين تأمَّروا من أجل مصالحهم، لا من أجل مصالح الآخرين، ومن أجل أنفسهم لا من أجل الأنفس الأخرى.

وصدق رسول الله ﷺ: « **مَنْ استعمل رجلاً[١] من عِصابة[٢] وفيهم مَنْ هو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين** »، عن عبد الله ابن عباس، وهو حديث صحيح[٣].

---

(١) أمير أو عريف أو إمام... الخ.

(٢) عصابة: جماعة من الناس.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، انظر مختصر الجامع الصغير للمناوى (٢/٢٧٨).

ذلك هو رجل الدولة، وهذا هو بيانه للناس في سِمة رجل الدولة، قاله عليه الصّلاة والسّلام، في كلمات معدودات، ولكنّها تُغني عن مؤلّفات في مجلّدات، ولا عجب، فقد أُوتي جوامع الكَلِم.

إنّ الحاكم الذي يبني الرِّجال، يولّي المناصب أفضل مَنْ يستحقّها، فيُشعر المحكومين أنّهم يُحكمون من أقدرهم كفاية وتجربة ودينا، ويَشعر المحكومين أنّهم يُحكمون من أقدرهم وأحقّهم بالحكم.

أما الحاكم الذي يُحَطِّم الرِّجال، فيولّى المناصب مَنْ لا يستحقّها، ويُشعر المحكومين أنّهم يُحكمون من أقلّهم كفاية وتجربة ودينا، ويشعر المحكومون أنّهم يُحكمون ممن لا يستحقّون الحُكم.

وصدق رسول الله ﷺ: «**إذا وُسِّد الأمرُ إلى غير أهله، فانتظر السّاعة**»[١]، لأن ذلك من اشراط السّاعة، ولأن ذلك هو الدليل على الخراب.

سِمات السُّفراء

١. الإسلام والانتماء إليه

الدّاعي الأوّل إلى الله تعالى، هو رسوله محمّد بن عبد الله عليه الصّلاة والسّلام. قال تعالى: ﴿**يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً**﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿**وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم**﴾[٣] وقال: ﴿**وادع إلى ربك ولا**

---

(١) وسِّد: أُسند من إمارة وقضاء... الخ، حديث صحيح عن أبي هريرة، رواه البخاري، انظر مختصر الجامع الصغير للمناوي (٥٨/١).

(٢) سورة الأحزاب، آية ٤٦.

(٣) سورة الحج، آية ٦٧.

تكونن من المشركين﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قل: إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به، إليه ادعو وإليه مآب﴾[2]، وقد ظلّ عليه الصلاة والسّلام يدعو إلى ربّه تبارك وتعالى حتى التحق بالرّفيق الأعلى.

والدّعوة إلى الله هي وظيفة رسل الله جميعاً، ومن أجلها بعثهم الله تعالى إلى النّاس، فكلّهم بلا استثناء دعوا أقوامهم ومَنْ أُرسلوا إليهم إلى الإيمان بالله وحده وعبادته دون سواه.

والأُمّة الإسلاميّة شريكة لرسولها في وظيفة الدّعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾[3]، والمكلّف بالدّعوة إلى الله تعالى هو كل مسلم ومسلمة، لأن الأمّة الإسلامية تتكوّن منهم فكل بالغ عاقل من الأمة الإسلامية مكلّف بهذا الواجب ذكراً كان أو أنثى، فلا يختص العلماء بأصل هذا الواجب، لأنّه واجب على الجميع، وإنّما يختصّون بتبليغ تفاصيله، وأحكامه ومعانيه، نظراً لسعة علمهم به ومعرفتهم بجزئياته. ويزيد الأمر وضوحاً في أن المكلّف بالدّعوة إلى الله تعالى هو كلّ مسلم ومسلمة، هو قول الله تعالى: ﴿قل: هذه سبيلي، أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾[4] فأتباع النبيّ ﷺ، يدعون إلى الله على بصيرة، أي على علم ويقين، كما كان رسولهم صلّى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الله على بصيرة ويقين. ومعنى ذلك أنّ من اللّوازم الضّرورية لإيمان المسلم أن يدعو إلى الله، فإذا تخلّف عن الدّعوة دلّ تخلّفه هذا على وجود نقص أو خلل في

---

(١) سورة القصص، آية ٨٧.
(٢) سورة الرّعد، آية ٣٦.
(٣) سورة آل عمران، آية ١١٠.
(٤) سورة يوسف، آية ١٠٨.

إيمانه، يجب تداركه بالقيام بهذا الواجب، واجب الدّعوة إلى الله تعالى، وفي الحديث الشريف الذي رواه الإمام البخاري عن ابن عباس، أن النبيّ ﷺ قال: «فَلْيُبَلِّغ العلم الشاهد الغائب»[1].

والدّعوة إلى الله تعالى، قد تؤدى بصورة فرديّة، وقد تؤدى بصورة جماعيّة، قال تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾[2]، والمقصود بهذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمّة متصدّية للدّعوة، وإن كان ذلك واجباً على كل فردٍ من الأمة بحسبه.

وأسباب تكليف المسلم بالدّعوة إلى الله عزّ وجلّ، هو أنّ الله تعالى أرسل رسوله محمّداً ﷺ إلى النّاس جميعاً: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾[3]، ورسالته عليه الصّلاة والسّلام باقية إلى يوم الدين، ومقصدها هداية الخلق أجمعين، ولهذا كانت رسالته رحمة للعالمين: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[4]، وكان المسلمون شهداء، على الناس ومبلغي رسالة الله تعالى إليهم بعد نبيّهم: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾[5].

كما أنّ بقاء الشّرك والكفر في الأرض، يؤثّر عاجلاً أو آجلاً في معاني الإسلام القائمة في أي جانب من جوانب الأرض، ولهذا يمنع الإسلام المسلم من البقاء في ديار الكفر، ويأمره بالتحوّل إلى ديار الإسلام، لئلا يُفتتن في دينه أو يمرض قلبه أو يُسلب إيمانه، قال تعالى:

---

(١) صحيح البخاري (١/٦٢-٦٣).
(٢) سورة آل عمران، آية ١٠٤.
(٣) سورة الاعراف، آية ١٥٨.
(٤) سورة الأنبياء، آية ١٠٧.
(٥) سورة البقرة، آية ١٤٣.

﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا﴾[1]، وعلى هذا فقيام المسلم بدعوة أهل الشرك والكفر إلى الله وإلى دينه يفيده ويقيه شرور الكفر.

والسبب الثالث، هو دفع الهلاك والعذاب عن المسلمين، قال تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾[2]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمر الله المؤمنين ألاّ يُقِرُّوا المنكر بين أظهرهم، فَيَعمّهم العذاب، أي يصيب الصّالح والطّالح»، وروى الإمام مُسلم أن زينب بنت جَحْش سألت النبيّ ﷺ: «يا رسول الله! أنهلك وفينا الصّالحون؟!»، قال: «نعم، إذا كثر الخبث»[3].

وإذا تبيّن أن الدعوة إلى الله واجب على كلّ مسلم، فإنّ هذا الواجب يتحدّد بقدر حال الدّاعي وقدرته، لأنّ القُدرة هي مناط الوجوب وقدره، فمن لا يقدر لا يجب عليه، ومَن يقدر فالوجوب عليه بقدر قدرته، ويدخل في مفهوم القُدرة العلم والسُّلطان، فيجب على العالم ما لا يجب على الجاهل، ويجب على ذي السُّلطان ما لا يجب على غيره من آحاد المسلمين. ولهذا فإنّ الله سبحانه وتعالى خصّ بالإنذار والوعيد أهل العلم، وحذّرهم من كتمان الحق الذي عرفوه قال تعالى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يعلنهم الله ويلعنهم اللاعنون، إلا الذين تابوا وأصلحوا

---

(١) سورة النساء، آية ٩٧.
(٢) سورة الأنفال، آية ٢٥.
(٣) تفسير القرطبي (١/ ٣٩٠).

وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾[1].

والنوع الثاني من القدرة، وهو السُّلطان والتّمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿الذين إن مكَّنَّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾[2]، وقال المفسرون في المراد من أهل التّمكين: الولاة، ومنهم من أدخل فيهم العلماء[3]، والأول أظهر. قال ابن تيمية: «إنما نُصب الإمام ليأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، وهذا هو مقصود الولاية»[4].

ومكانة الداعي إلى الله في الإسلام مكانة عظيمة جدّاً، قال تعالى: ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾[5].

وإذا كان المسلمون كلّهم دُعاة إلى الله تعالى، فرسل النبيّ ﷺ إلى الملوك والأمراء في زمانه هم صفوة الدُّعاة، لأنهم يتميزون بسمات خاصة تؤثّر في الملوك والأمراء الذين يخشون على زوال سلطانهم إذا أسلموا، والذين لا يسهل إقناعهم كما يسهل إقناع غيرهم، ويصعب لقاؤهم والحديث معهم ومناقشتهم كما يتيسّر ذلك بالنسبة لغير ذوي السُّلطان من الناس.

وأوّل هذه السِّمات: الإيمان العميق، وهو يقين المسلم بأنّ الإسلام حق خالص، لأنّه هدى الله، وما عداه باطل وضلال قطعاً، قال تعالى: ﴿قل

---

(١) سورة البقرة، الآيتان ١٥٩-١٦٠.
(٢) سورة الحج، آية ٤١.
(٣) تفسير القرطبي (٢/٧٣).
(٤) السياسة الشرعية لابن تيمية (٧٧).
(٥) سورة فصلت، آية ٣٣.

إن هدى الله هو الهدى﴾[1]، وإيمانه العميق ثابت لا يتزعزع مهما صادفته من مِحَنٍ وشدائد، ومهما كان حال الكفرة من قوّة ومَنَعَة.

ولا يضعف إيمان المؤمن الحقّ انصراف الناس عنه وعدم إجابتهم له، كما لا يدلّ انصراف النّاس عنه أنّه مقصِّرٌ في دعوته ما دام قد أفرغ جهده، فالتقصير يُعرف - إنْ وجد - من قِلَّة ما يقدِّمه الدّاعي للدعوة لا من عدم إجابة المدعوّ[2].

وإيمان الصّحابة رضوان الله عليهم إيمان عميق، وولاؤهم للإسلام مضرب الأمثال، يكفي أن نذكر أن ثمانين بالمئة من الصّحابة استُشهدوا، فقد قضى الإسلام في أيامهم على العصبية القبليّة والجنسيّة وأصبح الولاء للإسلام وحده، كما كان الانتماء الكامل للإسلام وحده لا إلى غيره من أواصر النّسب والقُربى والدّم والمكان، وكان سفراء النبيّ ﷺ من جملة أصحابه فهم مثلهم في عمق إيمانهم، وولائهم للإسلام وحده، وانتمائهم لهذا الدِّين دون سواه.

والذي أردتُ أن أنصّ عليه، هو أنّ من أوّل سِمات السَّفير المسلم، هو الإيمان العميق بالإسلام، والولاء المطلق له، والانتماء إليه وحده لا إلى غيره، لكي لا يتردى السَّفير في مزالق الانحراف، لأنّه بعيد عن العيون، يتعرّض للاغراء المادّيّ والمعنوي، فيعفّ عن المغريات والانحراف في جميع الظروف والأحوال.

---

(١) سورة البقرة، آية ١٢٠.
(٢) أصول الدعوة - د. عبد الكريم زيدان - (٢٩٧-٣٢٠) - ط ٣ - بغداد - ١٣٩٦ هـ.

٢. الفصاحة

كان عرب شبه الجزيرة العربية على عهد النبيّ ﷺ معروفين بالفصاحة، لأنّ اختلاطهم بالأعاجم كان قليلاً جداً، فحافظوا على سلامة لغتهم العربيّة، وكانت العربيّة الفُصحى هي السّائدة، وكان الخطأ في اللّغة صَرْفاً ونَحْواً وبلاغة قليلاً جداً، وكان هذا الخطأ إذا وقع من العيوب التي تُعزى إلى مَنْ يقعُ فيها بكثير من التّقريع واللّوم والتّشنيع.

وكان أكثر القادرين من العرب، يرسلون أطفالهم إلى البادية، لتربيتهم في جوٍّ عربيّ خالص، يتلقّون فيه العربيّة الفُصحى الخالية من الشّوائب والدّخيل، تلك العربية الفُصحى الدّارجة على ألسنة الأعراب.

وقد كان سفراء النبيّ ﷺ كلّهم بدون استثناء من عرب شبه الجزيرة العربيـة المعروفين بـالفصـاحـة: خمسة منهم من قريش قوم النبيّ ﷺ، وهم جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن حُذافة السَّهْمي القُرَشي، وسَلِيط بن عمرو العامريّ القرشّي، وعمرو بن العاص السَّهْمِيّ القُرَشيّ، والمهاجر بن أبي أُميَّة المخزومي القُرشي، وكان حاطب بن أبي بَلْتَعة اللَّخميّ، وشُجاع بن وَهْب الأسديُ، والعَلاء بن الحَضْرَميّ، وأبو موسى الأشعري، حلفاء قسم من بُيوتات قريش في مكّة، وقد نشأوا وعاشوا مع قريش، فهم من قريش بالولاء وباللّغة. أمّا عمرو بن أُميَّة الضَّمْري فكان من بني ضَمْرة التي تقطن المنطقة الكائنة بين مكّة والمدينة، حول موقع بَدْر، وكان كثير التردّد على مكّة، وكان بنو ضَمْرة معروفين بالفصاحة. أما دِحْية بن خَليفة الكلبيّ، فهو من قُضاعة المشهورة بالفصاحة، وكان عمرو بن حَزْم الأنصاري من أهل المدينة، ومن بني الخَزْرَج الأنصار الذين عُرفوا بالفصاحة، كما أنّه اختلط اختلاطاً وثيقاً بالمهاجرين وأكثرهم من قريش، فأصبح أكثر فصاحةً وأقرب إلى لهجة قريش المتيِّزة بالفصاحة العالية.

أما جرير بن عبدالله البَجَلِيّ والحارث بن عُمَيْر الأَزدِيّ، فهما يمانيان، والحكمة يمانية، والفصاحة يمانية، وكان أهل اليمن ولا يزالون يهتمون بالفصاحة اهتماماً لا يقلّ عن اهتمام قريش خاصةً والعرب عامة بها، ونبغ من أهل اليمن فصحاء لا يُعدُّون ولا يحْصُون.

من هذا المجتمع العربيّ الأصيل، المتميِّز بالفصاحة، اختار النبيّ ﷺ سفراءه، من الذين بَرزوا في مجتمعهم بفصاحتهم، فهذا المجتمع الفصيح، يتفاوت في فصاحة أفراده، فليس كلّهم في الفصاحة سواء، فكان السُّفراء النَّبَويون قِمَّة الفصاحة وقِمَّة الفصحاء، لأنّهم خيار من خِيار، وصفوة الصَّفوة في الفصاحة والبيان.

ولعلّ في دراسة حياة سفراء النبيّ ﷺ، ما يدلّ على ذلك، ويُشير إليه، ويثنيه بالدّليل القاطع، الظّاهر بوضوح في أقوالهم ومناقشاتهم وأسلوب عرضهم للمهمّة التي جاءوا من أجلها، وفي طريقة الدّعوة إلى الله تعالى وإلى الإسلام، وبالردّ على المعترضين، ومدافعة المنحرفين ومحاورة المتشكّكين.

وعَرْضُ كلِّ هذه الأمور على الملوك والأمراء، بحاجة إلى فصاحة وإلى فصيح.

وليس بالإمكان ذكر أمثلة من فصاحة سفراء النبيّ ﷺ كافة، فقد ذكرنا ما فيه الكفاية في الحديث على سِيَرهم، وقد يكفي ذكر نماذج قليلة منها، ومَنْ يهفو إلى التّفصيل، فله أن يرجع إلى سِيَرهم المفصلة الواردة في هذا الكتاب إن أراد أو إلى المصادر المعتمدة التي أشرت إليها في الحديث على سيرة كلّ سفير.

ولعلّ مناقشة جعفر بن أبي طالب في أرض الحبشة بحضور النّجاشي ملك الحبشة، لعمرو بن العاص سفير مشركي قريش إلى النّجاشي، في الدفاع عن الإسلام، وشرح مبادئه، والذبّ عن المسلمين، ما يمكن

اعتباره من الأمثلة الرائعة على الفصاحة، ولكنّ طول المناقشة يحول دون إعادة ذكرها في مثل هذا المكان.

ومن الأمثلة على فصاحة سفراء النبيّ ﷺ، ما كتبه عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يصف له البحر: «إني رأيت خَلْقاً كبيراً يركبه خَلْقٌ صغير، إنْ ركَنَ[1] خرّق القلوب، وإن تحرّك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قِلَّة، والشكُّ كثرة، هم فيه كدودٍ على عُوْد، إن مالَ غَرِقَ، وإنْ نجا بَرِق»[2]. وكان يقول: «لا سلطان إلاّ بالرجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلاّ بعمارة، ولا عمارة إلا بِعَدْل»[3].

وقال معاوية بن أبي سفيان لعمرو بن العاص: «مَنْ أبلغ النّاس؟»، فقال: «مَنْ كان رأيه ردّاً لهواه»، فقال: «مَنْ أسخى الناس؟»، فقال: مَنْ بذل دنياه في صلاح دينه»، فقال: «مَنْ أشجع الناس؟»، قال: «مَنْ ردّ جهله بحلمه»، ومن غرر أقوال عمرو: «موت ألف من العِلْيَة، أقلّ ضرراً من ارتفاع واحد من السَّفلة». وقال: «إذا أنا أفشيت سِرّي إلى صديقي فأذاعه، فهو في حلٍّ»، فقيل: وكيف ذلك؟! فقال: «أنا كنت أحقّ بصيانته»[4].

وكان يقول: «ما استودعت رجلاً سِرّاً فأفشاه، فَلُمْتُه، لأني كنت أضيق صدراً منه حين استودعته إياه حتى أفشاه»[5].

---

(١) ركن: سكن.

(٢) البرق: الحيرة والدّهش، انظر الطبري (٤/٢٥٨-٢٥٩) وابن الأثير (٣/٩٥)، وانظر العقد الفريد (١/٨٩) وعيون الأخبار (١/١٣٧).

(٣) العقد الفريد (١/٣٣).

(٤) زعماء الإسلام - د. حسن ابراهيم حسن (١٣٦)، وانظر ما جاء في فصل: (من كلامه) من كتاب: ابن العاص - الأستاذ عباس محمود العقاد. والعلية: جمع العَلِيّ، ويقال: هم عِلْية القوم، أي وجوه الناس.

(٥) عيون الأخبار (١/٤٠) والعقد الفريد (١/٦٥).

وقال عمرو حين تحكّم الحكمان في الفتنة الكبرى: أبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص: «أكثروا الطّعام، فوالله ما بَطُنَ[1] قوم قطّ إلا فقدوا بعض عقولهم، وما مضت عزمت رجلٍ بات بطينا»[2].

وكان جَرير بن عبد الله البَجَلي شاعراً خطيباً لَسِناً، قد قَدِم على عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، من عند سَعْد بن أبي وقّاص رضي الله عنه، وكان سعد يومئذ على العراق، فقال له عمر: «كيف تركتَ سَعْداً في ولايته؟»، فقال: «تركته أكرم الناس مقدرة، وأحسنهم معذرة، هو كالأم البَرَّة، يجمع لها كما تجمع الذرَّة[3]، مع أنّه ميمون الأثر، مرزوق الظَّفر، أشدّ الناس عند البأس، وأحب قريش إلى النّاس»[4].

قال عمر: «فأخبرني عن النّاس»، فقال: «كسهام الجَعْبة[5]، منها القائم الرَّائش[6]، ومنها العَضِلُ[7] الطّائش، وابن أبي وقاص ثقافها[8]، يغمز عضلها ويقيم ميلها، والله أعلم بالسّرائر يا عمر!»، قال: «أخبرني عن إسلامهم»، قال: «يُقيمون الصَّلاة لأوقاتها، ويؤتون الطاعة لولاتها»، فقال عمر: «الحمد لله، إذا كانت الصّلاة أوتيت الزّكاة، وإذا كانت الطّاعة كانت الجماعة»، وجرير هو القائل: «الخرس خير من الخلابة، والبُكم خير من البذاء»[9].

---

(١) البطنة: امتلاء البطن من الطعام، ومن أمثالهم: «البطنة تذهب الفطنة».
(٢) عيون الأخبار (٣/٢١٩).
(٣) الذر: صغار النّمل، واحدته: ذرَّة.
(٤) الاستيعاب (١/٢٣٩).
(٥) الجعبة: وعاء السِّهام والنبال.
(٦) الرائش: ذو الريش، إشارة إلى كماله واستقامته.
(٧) العضل من السِّهام: المعوجّ.
(٨) الثقاف: أداة من خشب أو حديد تثقف بها الرماح لتستوي وتعتدل.
(٩) الخلابة: القول، انظر الاستيعاب (١/٢٣٩) حول ما ذكرته من نصوص.

وكان مُعاذ بن جَبَل بليغاً فصيحاً، ومن نماذج أقواله، إنه كان إذا تهجّد باللّيل قال: «اللّهم نامت العيون، وغارت النّجوم، وأنت حيّ قيّوم، اللّهمّ طلبي الجنّة بطيء، وهروبي من النار ضعيف. اللّهم اجعل لي عندك هدى تردّه إليَّ يوم القيامة، إنّك لا تُخلف الميعاد»[1]. وقال لابنه: «يا بُني! إذا صلَّيت صلاةً فَصَلِّ صلاةَ مودِّع، لا تظن أنك تعود إليها أبدا، واعلم يا بُنيّ أن المؤمن يموت بين حسنتين: حسنة قدَّمها، وحسنة أخّرها». وأتى رجل مُعاذاً ومعه أصحابه يُسلِّمون عليه ويودِّعونه، فقال: «إني أُوصيك بأمرين، إنْ حفظتها حُفظت: أنّه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر، فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا، حتى تنتظمه لك انتظاما، فتزول به معك أينما زلت»[2].

ومن أقوال أبي موسى الأشعريّ التي تدلّ على فصاحته قوله: «إنّ هذا القرآن كائن لكم أجرا، كائن عليكم وزْرا، فاتّبعوا القرآن ولا يتّبعنّكم القرآن. فإنه مَنْ اتبع القرآن هبط به على رياض الجنّة، ومَنْ تبعه القرآن زُجّ في قفاه فقذفه في النّار»[3].

ووصفوا حديثه الحاسم الجازم في الفصاحة والعلم، فقالوا: «ما كُنَّا نُشبِّه كلام أبي موسى إلاّ بالجزَّار الذي لا يُخْطىء المِفْصَل»[4].

لقد كان العرب على عهد النبيّ ﷺ، يتميّزون بالفصاحة، وكانوا يومئذٍ من قِمم الفصاحة، وكان سفراء النبيّ ﷺ في فصاحتهم قِمّة القِمم.

---

(١) حلية الأولياء (١/٢٣٣) وأسد الغابة (٤/٣٧٧).
(٢) حلية الأولياء (١/٢٣٤).
(٣) صفوة الصفوة (١/٢٢٦) وانظر حلية الأولياء (١/٢٥٧).
(٤) طبقات ابن سعد (٤/١١١).

٣. العِلْم

كان النبيّ ﷺ، هو المعلِّم الأوّل لأصحابه، يُعلِّمهم القرآن والسُّنَّة ويُفقِّههم في الدِّين، ويكاد يعلِّمهم أدقّ تفاصيل حياتهم اليومية، من آداب وسلوك ومعاملة وتَصَرُّف، حتى غيّر حياتهم من حال إلى حال بشكل جذريّ إلى الأحسن والأفضل، وحتى شمل التغيير الاجتماعي عن العرب المسلمين، فاندثر المجتمع الجاهليّ بينهم أو كاد، وأصبح مجتمعاً إسلامياً له دينه وخُلُقه ومُثُله العُليا وشريعته ونظامه وضبطه وانسجامه الفِكريّ.

وكان اهتمام الإسلام بالعلم عظيماً، والقرآن الكريم والسُّنّة النبويّة شاهدة على ذلك وارتفعت نسبة الذين يقرأون ويكتبون في الإسلام عنهم في الجاهلية ارتفاعاً كبيراً، وحسبنا أن نذكر الآية الكريمة: ﴿**قل: هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**﴾[1]، وكان تعْداد شهداء القُرّاء في معركة اليَمَامَة بين المسلمين بقيادة خالد بن الوليد من جهة والمرتدين من بني حَنِيْفة بقيادة مُسَيْلمة الكذّاب، وهي التي جرت سنة إحدى عشرة الهجريّة، ثلاثمائة شهيد في رواية وخمسمائة شهيد في رواية أخرى من القُرّاء[2]، وكان عدد العرب الذين يقرأون ويكتبون في الجاهلية قليلاً في أصقاعٍ، ونادراً في أصقاع أُخرى.

وقد اختار النبيّ ﷺ سفراءه إلى الملوك والأمراء في زمانه، فهم من صفوة الصّحابة في العلم، إن لم يكونوا صفوتهم.

كان جعفر بن أبي طالب في أرض الحبشة، فأرسلت قريش عمرو بن العاص إلى النّجاشي ملك الحبشة لرد المسلمين المهاجرين من أرض

---

(١) سورة الزّمر، آية ٩.

(٢) الطبري (٥١٦/٢) وابن الأثير (١٤٠/٢).

الحبشة إلى مشركي قريش في مكّة. وكلّم عمرو النّجاشيّ في المسلمين المهاجرين، فأرسل النّجاشي إلى أصحاب رسول الله ﷺ وقال لهم: «ما هذا الدّين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟»، فأجابه جعفر: «أيها الملك! كنّا أهل جاهلية، نعبد الاصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، وقطع الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكل القويّ منّا الضعيف، فكنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدّماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزّور وأكل مال اليتيم، وقَذْف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نُشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزّكاة والصّيام - وعدّد عليه أمور الإسلام - فصدّقناه وآمنا به واتّبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده لا نُشرك به شيئا، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحلّ ما كنا نستحلّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على مَنْ سِواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألاّ نُظلم عندك، أيها الملك!»، فقال النّجاشي: «هل معك مما جاء به من الله شيء؟»، فقرأ عليه صدراً من سورة: (كهيعص)[1]، فبكى النّجاشي حتى اخْضلّت[2]

---

(١) هي سورة مريم، سورة مكيّة، إلاّ آيتي (٥٨و ٧١) فمدينتان، وآياتها (٩٨) آية، نزلت بعد سورة فاطر، ورقم السورة (١٩).

(٢) أخضلت: ابتلت. وفي بعض النّسخ: أخضل لحيته، كما هو كذلك في النهاية لابن الأثير، فأخضل على مثل هذا مثل أكرم، ومعناها: بلّها، ولحيته على هذا مفعول، مثل قوله: أخضلوا مصاحفهم. تقول: أخضل المطر الأرض: إذا بلّها.

لحيته، وبكت أساقفته[1] حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلى عليهم[2].

ثم قال النّجاشي: «إنّ هذا والذي جاء به عيسى، ليخرج من مِشكاة[3] واحدة، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون».

ولما خرج سفيرا قريش من النّجاشي، قال عمرو بن العاص: «والله لآتينَّه غداً عنهم، أستأصل به خضراءهم»[4].

وغدا عمرو إلى النّجاشي من الغد، فقال: «أيُّها الملك! إنّهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيما، فأرسل إليهم فَسَلْهُمْ عَمَّا يقولون فيه!».

وأرسل النّجاشي إلى المسلمين المهاجرين ليسألهم عن عيسى، فلما دخلوا عليه قال لهم: «ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟»، فقال جعفر: «نقول فيه الذي جاءنا به نبيُّنا صلى الله عليه وسلم: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتُول»، فضرب النّجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ عُوداً منها، ثم قال: «والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا[5] العود اذهبوا فأنتم الآمنون، منْ سَبَّكم غَرِم، ما أُحبّ أن لي جبلاً من ذهب، وأني آذيت رجلاً منكم...»[6].

وكان عمرو بن أُميَّة الضَّمْري، من رواة حديث رسول الله ﷺ، فقد

---

(١) الأساقفة: جمع أسقف، وهو العالم في النصرانية.
(٢) سيرة ابن هشام (١/٣٥٨ - ٣٥٩).
(٣) المشكاة: الثقب الذي يوضع فيه الفتيل والمصباح، وهي الكُوَّة غير النَّافِذَة.
(٤) استأصل خضراءهم: يعني جماعتهم ومعظمهم.
(٥) قال أبو ذر: «تقديره ما جاوز مقدار هذا العود، أو قدر هذا العود» اهـ.
(٦) سيرة ابن هشام (١/٣٦٠ - ٣٦١) وحلية الأولياء (١/١١٤ - ١١٦)، وانظر عيون الأثر (١/١١٨ - ١١٩).

روي عشرين حديثاً[1]، كما أنّ حديث دِحْية بن خليفة الكَلْبي في الصحيحين[2]: البخاري ومُسْلم.

وكان عمرو بن العاص عالماً من علماء الدِّين، قدّمه في العلم، على الرّغم من تأخّر إسلامه، ذكاؤه الخارق وحرصه الشّديد على التّعلّم من النبيّ ﷺ وأصحابه العلماء، وإتقانه القراءة والكتابة، وكان إتفاقهما في أيّامه نادراً في أُمّةٍ تَفَشَّت فيها الأُمِيَّة، وكان عمرو أحد كتّاب النبيّ ﷺ[3].

وقد روى عن النبيّ ﷺ تسعة وثلاثين حديثاً[4] في رواية، وسبعة وثلاثين حديثاً[5] في رواية أخرى، اتفق البخاريّ ومسلم على ثلاثة أحاديث، ولمسلم حديثان وللبخاري بعض حديث[6].

وكان متفقّهاً في الدِّين، مجتهداً في الدِّين: اجتهد على عهد النبيّ ﷺ، واجتهد بعد التحاقه بالرفيق الأعلى.

ومن اجتهاده على عهد النبيّ ﷺ، ما رواه الإمام أحمد بن حَنْبل في مسنده، قال عمرو: احتلمتُ في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلتُ أن أهلك، فتَيَمَّمْتُ ثم صلَّيتُ بأصحابي صلاة الصبح. فلما قدمنا على رسول الله ﷺ، وذكرتُ ذلك له فقال: يا عمرو! صلّيت بأصحابك وأنت جُنُب؟! فقلت: نعم يا رسول الله؟ إني احتلمت في ليلة

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٢٤) وأسماء الصحابة الرواة ملحق بجوامع السيرة لابن حزم (٢٨٣) وخلاصة تذهيب الكمال (٢٨٧).
(٢) تهذيب الأسماء واللّغات (١/١٨٥).
(٣) العقد الفريد (٤/١٦٨).
(٤) أسماء الصحابة الرواة - ملحق بجوامع السيرة (٢٨٠) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢٩٠).
(٥) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٣١).
(٦) تهذيب الأسماء واللّغات (٢/٣١) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢٩٠).

باردة شديدة البرد، فأشفقت إن أنا اغتسلتُ أن أهلك، وذكرتُ قول الله عزّ وجلّ: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما﴾[1]، فتيمَّمْتُ ثم صلَّيْتُ! فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا[2] وكان ذلك في سرية ذات السَّلاسل التي كان من جملة جنودها أبو بكر الصدِّيق وعمر بن الخطاب وأبو عُبَيْدة بن الجرَّاح رضي الله عنهم[3].

وكان عمرو يقول: «عقلتُ عن رسول الله ﷺ ألف مَثَل»[4].

أما اجتهاده بعد التحاق النبيّ ﷺ بالرّفيق الأعلى، ففي سنة ثماني عشرة الهجريّة، كان طاعون عَمَواس[5]، فلما اشتعل قام أبو عُبَيْدة بن الجرَّاح في الناس خطيباً، فقال: «أيّها الناس! إنّ هذا الوَجَع رحمة بكم ودعوة نبيِّكم محمّد ﷺ، وموت الصّالحين قبلكم، وإنّ أبا عُبَيْدة يسأل الله أن يقسم له منه حظَّه»، فطُعن، فمات. واستُخلف على الناس مُعاذ بن جَبَل، فقام خطيباً، فقال مثل ما قال أبو عُبيدة من قبله، فطعن ابنه عبد الرحمن بن مُعاذ، فمات. ثم قام معاذ فدعا به لنفسه فطُعن في راحته، فكان ينظر إليها ثم يُقَبِّل ظهر كفِّه، ثم يقول: «ما أحبّ أنّ لي بما فيك شيئاً من الدّنيا». فلما مات معاذ، استُخلف على النّاس عمرو بن العاص، فقام خطيباً في الناس، فقال: «أيها الناس، إنَّ هذا الوجع

---

(١) الآية الكريمة من سورة النساء (٤: ٢٩).

(٢) انظر: مغازي الواقدي (٢/٧٦٩ - ٧٧٤) وطبقات ابن سعد (٢/١٣١). وانظر حديث صلاة عمرو في مسند الإمام أحمد بن حنبل.

(٣) سيرة ابن هشام (٤/٢٩٨) والطبري (٣/٣٢ - ٣٣) والمحبّر (١٢١) وأنساب الأشراف (١/٣٨٠ - ٣٨١).

(٤) مسنَد الإمام أحمد بن حنبل (٤/٢٠٣).

(٥) عمواس: هي كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس، وهي على أربعة أميال من الرملة علي طريق بيت المقدس، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٢٢٥).

إذا وقع فإنّما يشتعل اشتعال النار، فَتَجَبَّلُوا[1] منه في الجبال»، فقال أبو وائلة الهُذلي[2]: «كذبت! والله لقد صحبتُ رسول الله ﷺ وأنت شرّ من حماري هذا»[3] فقال عمرو: «والله ما أردّ عليك ما تقول! وايمُ الله لا نُقيم عليه»، ثم خرج وخرج الناس فتفرّقوا، ورفعه الله عنهم، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب من رأي عمرو بن العاص، فما كرهه[4].

وقد كان عمرو يروي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد، ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم واجتهد ثم أخطأ فله أجر**»[5].

وعن عمرو بن العاص، قال: «جاء رسول الله ﷺ خصمان يختصمان، فقال لعمرو: اقْضِ بينهما يا عمرو. فقال: أنت أولى بذلك مني يا رسول الله! قال: وإنْ كان. قال: فإذا قضيتُ بينهما، فما لي؟ قال: إنْ **أنت قضيتَ بينهما فأصبت القضاء، فلك عشر حسنات، وإن أنت اجتهدت فأخطأت فلك حسنة**»[6]، وتكليفه بالقضاء من النبيّ ﷺ وبحضرته دليل على متانته في الفقه وذكائه وحصافته.

وكان عمرو من أصحاب الفُتيا من الصَّحابة[7]، وكفى بذلك دليلاً على مبلغ علمه في الدِّين.

وقد وصفه رجل فقال: «صحبتُ عمرو بن العاص، فما رأيت رجلاً

---

(١) تجبّل القوم: دخلوا في الجبل.
(٢) أبو وائلة الهذلي: انظر سيرته في: الإصابة (٧/٢١١ - ٢١٢).
(٣) يريد أنه كان كافراً ولم يُسْلِم.
(٤) الطبري (٤/٦١ - ٦٢).
(٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٤/٢٠٤).
(٦) مسند الإمام أحمد حنبل (٤/٢٠٥).
(٧) أصحاب الفتيا من الصحابة - ملحق بجوامع السيرة لابن حزم - (٣٢٠).

آبين قرآناًولا أكرم خُلقاً، ولا أشبه سريرة بعلانية منه »[١].

وكان العلاء بن الحَضْرَمي من القلائل الذين يُحسنون القراءة والكتابة، فأصبح أحد كُتّاب النبيّ ﷺ[٢]، كما ساعده ذلك على تعلم القرآن والسنّة والتفقه في الدين.

وكان جرير بن عبد الله البَجَلي محدِّثاً عالماً بأمور دينه فقيها، روى مائة حديث عن رسول الله ﷺ[٣]، اتفق البخاري ومُسْلم على ثمانية، وانفرد البخاري بحديث ومسلم بستة أحاديث[٤].

وكان مُعاذ بن جَبَل ممّن يُفْتِي في المدينة ويُقْتدى به من أصحاب رسول الله ﷺ على عهد رسول الله ﷺ وبعد ذلك[٥]، وكان يُصَلِّي مع النبيّ ﷺ، ثم يجيىء فيؤم قومه[٦] بني سَلِمَة من بني الخزرج من الأنصار ومَنْ يُصلي معهم في مسجدهم.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة كلّهم من الأنصار: أُبيّ بن كَعْب، ومُعاذ بن جَبَل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد»، رواه البخاري ومُسلم[٧].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **خذوا القرآن من أربعة: عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي**

---

(١) الإصابة (٢/٥).
(٢) ابن الأثير (٣١٣/٢) والسيرة الحلبيّة (٣٦٤/٢).
(٣) أسماء الصحابة الرواة - ملحق بجوامع السيرة (٢٧٨) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٦١).
(٤) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٦١).
(٥) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٣٣٤/٢ - ٣٥٠).
(٦) طبقات ابن سعد (٣٨٦/٣) والاستبصار (١٣٧).
(٧) تهذيب الأسماء واللّغات (٩٩/٢) والإصابة (١٠٦/٦).

حُذَيْفة، ومُعاذ بن جَبَل، وأُبيّ بن كَعْب »، رواه البخاري ومسلم[1] .

روى عن النبيّ ﷺ مائة حديث وسبعة وخمسين حديثاً، اتفق البخاري ومُسلم على حديثين، وانفرد البخاري بثلاثة ومسلم بحديث[2] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: « قال رسول الله ﷺ: **أَرحم أمّتي لأُمّتي أبو بكر، وأشدّهم في أمر الله عمر، وأشدّهم حياءً عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام مُعاذ بن جَبَل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرأهم أُبيّ، ولكلّ أمة أمين، وأمين هذه الأمّة أبو عُبيدة بن الجراح** »[3] .

وقال رسول الله ﷺ: « **أعلم أُمّتي بالحلال والحرام، مُعاذ بن جبل** »[4]، وقال: « **مُعاذ بن جبَل أعلم الناس بحلال الله وحرامه** »[5] .

وقال عليه الصلاة والسلام: « **يأتي مُعاذ بن جبل يوم القيامة أمام العلماء بِرَتْوة** »[6]؛ والرّتوة: رمية سهم، وقيل: مِيْل، وقيل: مَدّ البصر[7] .

---

(١) التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح (٦٠/١)، وانظر تهذيب الأسماء واللّغات (٩٩/٢) وأسد الغابة (٣٧٨/٤) وأنساب الأشراف (٢٦٤/١).

(٢) تهذيب الأسماء واللّغات (٩٨/٢)، وانظر تهذيب التهذيب (١٨٦/١٠ - ١٨٧) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٣٧٩).

(٣) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة بأسانيد صحيحة حسنة، وقال الترمذي: « حديث حسن صحيح »، انظر تهذيب الأسماء واللّغات (٩٩/٢).

(٤) طبقات ابن سعد (٣٤٧/٢) و (٨٥٦/٣) والاستبصار (٤٨) و (١٣٦) وتهذيب التهذيب (١٨٧/١٠) والبداية والنهاية (٩٥/٧) وحلية الأولياء (٢٢٨/١).

(٥) حلية الأولياء (٢٢٨/١).

(٦) طبقات ابن سعد (٣٤٧/٢) وأسد الغابة (٣٧٨/٤) وتهذيب الأسماء واللّغات (٩٩/٢) والاستبصار (١٣٦) وتهذيب التهذيب (١٨٧/١٠) وحلية الأولياء (٢٢٩/١).

(٧) انظر هامش أسد الغابة (٣٧٨/٤) نقلاً عن النهاية لابن الأثير.

وقال عليه الصّلاة والسّلام: «**معاذ بن جبل، له نبْذة بين يدي العلماء يوم القيامة**»[١].

وخطب عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في الجَابِيَة[٢] فقال: «مَنْ كان يريد أن يسأل عن الفقة، فَلْيأتِ معاذ بن جبل». وكان عمر بن الخطاب يقول حين خرج معاذ إلى الشّام: «لقد أخَلَّ خروجه بالمدينة وأهلها في الفقه وما كان يُفتيهم به، ولقد كنتُ كلَّمْتُ أبا بكر رحمه الله أن يحبسه لحاجة النّاس إليه، فأبىّ عليَّ وقال: رجل أراد وجهاً يريد الشَّهادة، فلا أحبسه! فقلت: والله إنّ الرَّجل لَيَرْزق الشّهادة وهو على فراشه وفي بيته عظيم الغِنَى عن مِصْره». وقال كَعْب بن مالك: «كان معاذ بن جبل يُفتى بالمدينة في حياة رسول الله ﷺ وأبي بكر». وقال عمر بن الخطّاب: «إنّ العلماء إذا حضروا يوم القيامة، كان معاذ بن جبل بين أيديهم قذفة بحجر»[٣].

وذكر أبو إدريس الخَوْلاني، أنّه دخل مسجد دِمشق، فإذا فتىً برّاق الثّنايا، وإذا ناس معه، إذا اختلفوا في شيءٍ أسندوه إليه وصدروا عن رأيه، فسألتُ عنه، فقالوا: هذا معاذ بن جبل»[٤].

وذكروا أنَّ رجلاً دخل مسجد حِمْص، فإذا بِحلقةٍ فيهم رجل آدم[٥] جميل وضّاح الثَّنايا وفي القوم مَنْ هو أسَنُّ منه، وهم مقبلون عليه

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٣٤٧).
(٢) الجابية: قرية من أعمال دمشق، من ناحية الجولان، قرب مرج الصفَّر، في شمالي حوران، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٣٣).
(٣) طبقات ابن سعد (٢/٣٤٨).
(٤) طبقات ابن سعد (٣/٥٨٦ - ٥٨٧).
(٥) آدم: شديد السُّمرة.

يستمعون حديثه، فقال له الرّجل: «مَنْ أنت؟»، فقال: «معاذ بن جَبَل»[1].

وذكر أبو مسلم الخَوْلاني قال: «دخلتُ حِمْص، فإذا فيه نحواً من ثلاثين كهلاً من أصحاب النبيّ ﷺ، وإذا فيهم شاب أكحل العينين، برّاق الثّنايا، لا يتكلّم، فإذا امترى القوم في شيء، أقبلوا عليه فسألوه فقلت لجليس لي: منْ هذا؟ فقال: معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه، فوقع في نفسي حبّه، فكنت معهم حتى تفرّقوا».

وقال عائذ الله بن عبد الله[2]: «دخلت المسجد يوماً مع أصحاب رسول الله ﷺ في أوّل إمرة عمر بن الخطّاب، فجلست مجلساً فيه بضع وثلاثون كلّهم يذكرون حديثاً عن رسول الله ﷺ، وفي الحَلْقة فتًى شاب شديد الأُدَمَة حلو المنطق وضيء، وهو أشبّ القوم سنّاً، فإذا اشتبه عليهم من أحاديث القوم شيء، ردّوه إليه فحدَّثهم، ولا يُحدِّثهم شيئاً إلاّ أن يسألوه، قلت: مَنْ أنت يا عبد الله؟ فقال: معاذ بن جبل».

وروي أيضاً: أنه دخل مسجد حِمْص، فإذا أنا بفتىً حوله الناس، جَعْدٌ[3]، قَطَطٌ[4]، فإذا تكلّم كأنما يخرج من فِيْه نور ولؤلؤ، فقلت: مَنْ هذا؟ فقالوا: مُعاذ بن جبل رضي الله عنه».

وقال شَهْر بن حَوْشب: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا تحدّثوا وفيهم مُعاذ بن جبل، نظروا إليه هيبةً له»[5].

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٥٨٧).

(٢) عائذ الله بن عبد الله: هو أبو إدريس الخولاني، انظر ترجمته في تاريخ دمشق لابن عساكر - تحقيق د. شكري فيصل (٤٨٥ - ٤٩٧).

(٣) جعد: يقال وجه جعد، مستدير قليل اللّحم.

(٤) قطط: يقال شعر قطط، قصير جعد.

(٥) أنظر التفاصيل في حلية الأولياء (١/٢٣٠ - ٢٣١).

وكان شعار مُعاذ في تعلّم العلم وتعليمه، كما كان يوصي به مَنْ حوله من العلماء والمتعلِّمين وسائر الناس: «خـذ العِلْم أنَّى أتاك»[١].

وقال رجل لمعاذ: «علِّمني»، قال: «وهل أنت مطيعي؟»، قال: «إني على طاعتك لحريص»، قال: صُمْ وافطر، وصَلِّ ونَمْ، واكتسب ولا تأثم، ولا تموتنَّ إلا وأنت مُسْلم وإياك ودعوة المظلوم»[٢].

وكان يحث على أخذ العلم من منابعه الأصيلة، ومن العلماء الثِّقاة، وينهي عن الانحراف والبِدَع، ومن أقواله في ذلك: «إنّ وراءكم فتناً يكثر فيها المال، ويُفتح فيها القرآن، حتى يأخذه المؤمن والمنافق، والرّجل والمرأة، والصّغير والكبير، والحرّ والعبد. فيوشك قائل أن يقول: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن! ما هم بمتّبِعِيَّ حتى ابتدع لهم غيره! فإيّاكم وما يُبْتدع، فإن ما ابتدع ضلالة، وأحذركم زيغة الحكيم، فإنّ الشيطان قد يقول كلمة الضّلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق»، فقيل له: «ما يدريني رحمك الله، أنّ الحكيم يقول كلمة الضّلالة، وأنّ المنافق يقول كلمة الحق؟» قال: «بلى، اجْتَنِبْ من كلام الحكيم المستهترات التي يقال: ما هذه؟! ولا يثنيك ذلك عنه، فإنه لعله يرجع ويتّبع الحقّ إذا سمعه، فإن على الحق نوراً»[٣] فهو يريد من العلماء والمتعلمين أن يستعملوا عقولهم في تلقي العلم، وألاّ يُقاطعوا العالم إذا أخطأ مرّة، بل عليهم أن يعينوه على العودة إلى الصَّواب، فلا يخسره العلم، ولا يخسره العلماء والمتعلِّمون.

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٣٥٠).

(٢) حلية الأولياء (١/٢٣٣).

(٣) حلية الأولياء (١/٢٣٢ - ٢٣٣)، وورد قول معاذ في روايتين: الأولى رواها أبو أدريس الخولاني، والثانية رواها أبو يزيد الخولاني عن يزيد بن عُمَيْرَة، والروايتان متقاربتان في المعنى، مختلفتان قليلاً في المبنى.

وجاء أحد طلاّب معاذ إليه، فجعل يبكي فقال: «ما يُبكيك؟!»، قال: «والله ما أبكي لقرابة بيني وبينك، ولا لدنيا كنتُ أصيبها منك، ولكن كنتُ أصيب منك علماً، فأخاف أن يكون قد انقطع»، فقال معاذ: «فلا تبكِ، فإنّه مَنْ يُرِد العلم والإيمان، يؤته الله تعالى كما أتى إبراهيم عليه السّلام، ولم يكن يومئذٍ علم ولا إيمان»[1]، وهذا دليل على شدّة تعلّق طلاّبه به وحبّهم له، ودليل على إسداد النّصح والتوجيه لهم بما يفيدهم في حياتهم العلميّة والعمليّة أيضاً.

وقال معاذ: «تعلّموا العلم، فإنّ تعلّمه لله تعالى خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة، وبذله لأهله قُرْبة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار أهل الجنّة، والأنس في الوحشة، والصّاحب في الغربة والمحدّث في الخلوة، والدّليل على السّراء والضرّاء، والسّلاح على الأعداء، والدين عند الأجلاّء، يرفع الله به أقواماً، ويجعلهم في الخير قادة وأئمة، تُقتبس آثارهم، ويُقْتدى بفعالهم، ويُنْتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلّتهم وبأجنحتها تمسحهم يستغفر لهم كلّ رطب ويابس، حتى الحيتان في البحر وهوامه، وسباع الطّيْر وأنعامه،لأنّ العلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلم، يُبلغ بالعلم منازل الأخيار، والدّرجة العليا في الدنيا والآخرة،والتّفكير فيه يُعدل بالصّيام، ومدارسته بالقيام به تُوصل الأرحام، ويُعرف الحلال من الحرام، إمام العمال والعمل تابعه، يلهمه السّعداء ويحرمه الأشقياء»[2].

وعن معاذ رضي الله عنه قال: «تصدّيت لرسول الله ﷺ وهو يطوف

---

(١) حلية الأولياء (١/٢٣٤).

(٢) رواه عن معاذ، رجاء بن حيوة، انظر حلية الأولياء (١/٢٣٩).

فقلت: يا رسول الله! ارِنا شرّ الناس. فقال: سلوا عن الخير ولا تسألوا عن الشرّ، شرار الناس شِرار العلماء في النّاس»[1]" رواه البّزار عن معاذ[2]".

وقال عمر بن الخطّاب: «عجزت النِّساء أن يلدن مثل معاذ، ولولا مُعاذ لهلك عمر»[3] لأنه كان لا يتأخر عن إسداء النُّصح له والمشورة، إذا كان في المدينة المنورة أو كان خارجها.

لقد كان معاذ أفقه الناس، وأعلم أمَّة النبيّ ﷺ بالحلال والحرام[4].

أما أبو موسى الأَشْعَرِيّ، فكان يُفْتي بالمدينة المنوَّرة، ويُقْتَدى به، من أصحاب رسول الله ﷺ على عهد رسول الله ﷺ، وبعد ذلك[5].

وكان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، إذا رأى أبا موسى قال: «ذكِّرنا يا أبا موسى!»، فيقرأ عنده القرآن[6]. وقال عمر لأبي موسى: «شوِّقنا إلى ربِّنا»، فقرأ القرآن، فقالوا: «الصَّلاة!»، فقال عمر: «أَوَلَسْنا في صلاة!»[7].

وقال أنس بن مالك: «بعثني الأَشعري إلى عمر - حين كان على البصرة، فقال: كيف تركتَ الأشعري؟ فقلت له: تركته يُعلِّم الناس

---

(١) حلية الأولياء (١/٢٤٢).
(٢) حديث حسن، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمنادى (٢/٦٤).
(٣) الإصابة (٦/١٠٧).
(٤) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل (٣/١٨٤) و (٣/٢٨١) والحديث الرقم (٢٠٩٦) من مسند الطيالسي، وانظر مفتاح كنوز السّنة (٤٧٥).
(٥) انظر أسماءهم في طبقات ابن سعد (٢/٣٣٤ - ٣٥٤)، وانظر أصحاب الفتيا لابن حزم (٣٢٠).
(٦) طبقات ابن سعد (٤/١٠٩).
(٧) طبقات ابن سعد (٤/١٠٩).

القرآن. فقال: أما إنَّه كَيِّس، ولا تُسْمِعْها إياه»[1].

وقال الإمام الشَّعْبِيّ: «انتهى العلم إلى سِتّة»، وذكر أبا موسى فيهم[2].

وكان دقيقاً غاية الدقَّة في تحرّي العلم: وفي نقله بصدق، وفي تعليمه بأمانة، وهو القائل: «مَنْ علَّمه الله عِلْماً، فَلْيُعَلِّمْهُ ولا يقولنّ ما ليس له به علم، فيكون من المتكلِّفين ويمرق من الدِّين»[3].

وحين ولاّه عمر بن الخطّاب البصرة، قال أبو موسى لأهل البصرة: «إنّ أمير المؤمنين عمر، بعثني إليكم، أُعلِّمكم كتاب ربكم عزّ وجلّ، وسُنَّة نبيِّكم صلى الله عليه وسلم، وأُنظِّف لكم طرقكم»[4]، وكان أبو موسى هو الذي فقّه أهل البصرة وأقرأهم[5] القرآن الكريم، وسكن الكوفة وتفقّه به أهلها[6].

ولأبي موسى ثلاثمائة وستون حديثاً[7]، اتّفق البخاري ومسلم على خمسين حديثاً، وانفرد البخاري بأربعة أحاديث ومسلم بخمسة وعشرين حديثاً[8].

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٣٤٥).
(٢) الإصابة (٤/١٢٠).
(٣) طبقات ابن سعد (٤/١٠٩).
(٤) حلية الأولياء (١/٢٥٧).
(٥) الإصابة (٤/١٢٠).
(٦) الإصابة (٤/١٢٠).
(٧) أسماء الصحابة الرّواة لابن حزم - ملحق بجوامع السيرة (٢٧٦) وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٣١٠).
(٨) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٣١٠)، وفي تهذيب الأسماء واللّغات (٢/٢٦٩): أنّ البخاري انفرد بخمسة عشر ومسلم بخمسة عشر.

وكان أحد قضاة الأمة الأربعة: عمر، وعَليّ، وأبو موسى، وزيد بن ثابت[1]، ومن أقواله في القضاء: «لا ينبغي للقاضي أن يقضي حتى يَتَبيَّنَ اللَّيلَ من النَّهار»، فبلغ قوله عمر بن الخطاب، فقال: «صدق أبو موسى»[2].

وكان أبو موسى من قضاة النبي ﷺ[3]، وأبي بكر، وعمر[4]، وعثمان[5]، ولا يتولّى القَضاء غير العلماء.

لقد بلغ أبو موسى في القرآن الكريم وعلومه مبلغاً جعله موضع ثقة النبي ﷺ به والخلفاء الراشدين من بعده في تولّي واجب الداعية المختار والمعلّم الأول في ركب تعليم القرآن الكريم وعلومه، حتى أصبحت له مدرسة تُعرف باسمه في البصرة والكوفة بخاصّة والمشرق الإسلامي بعامة.

وفضل العلم وأهله معروف، نطق به القرآن الكريم ورفع شأنه، وأكّدته السُنّة النبويَّة. قال تعالى: ﴿وقل ربي زدني علماً﴾[6] وقال: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾[7]. وفي السُنّة النبوية: «مَنْ يُرد الله به خيراً يفقّهه في الدين»[8].

---

(١) الإصابة (٤/١٢٠) والعقد الفريد (٢/٢٣١).
(٢) طبقات ابن سعد (٢/٣٤٥) و (٤/١١٣).
(٣) أخبار القضاة (١/١٠٠).
(٤) أخبار القضاة (١/١٠٢).
(٥) أخبار القضاة (١/٢٨٣).
(٦) سورة طه، آية ١١٤.
(٧) سورة المجادلة، آية ١١.
(٨) رواه البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل عن معاوية، ورواه الترمذي وأحمد بن حنبل عن عبدالله بن عباس، ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٢/٣٢١).

ولا بُدّ أن يتحلّى العالم بالفهم الدّقيق الذي يقوم على تدبّر معاني القرآن والسنّة، حتى يستطيع عرضها على غيره وإقناعه بها وتعليمها له، فما ينبغي أن يكتم العالم علمه، وإلاّ اقتصرت فائدة العلم على صاحبه ولم ينتشر بين طُلاّبه من المتعلّمين.

لقد كان سفراء النبي ﷺ من أبرز علماء الصّحابة، وكانوا من العلماء العاملين، المخلصين في عملهم، لذلك أينعت جهودهم وأثمرت أطيب الثمرات.

٤. حسن الخُلق

أخلاق السّفير النّبويّ، هي أخلاق الإسلام، التي بينها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، وفصّلها رسول الله ﷺ في سُنَّته، وتمسّك بها صحابته الكرام في سلوكهم.

والصِّدق من أوّل حسن الخلق، وفي كتاب الله تعالى آيات كثيرة تتحدَّث عن الصِّدق وفضيلته، وتأمر المؤمنين بأن يكونوا مع الصَّادقين: ﴿يا أيها الذين آمنوا أتقوا الله وكونوا مع الصاديقن﴾[١].

والآيات الواردة في الكتاب العزيز، والأحاديث النبوية التي تأمر بالصدق وتحثّ عليه، وتنهي عن الكذب وتُحذِّر منه، كثيرة جدا، مما يدل على أهميّة الصِّدق في خُلق المسلم الحقّ.

والسفير الصّادق، يظهر أثر صدقه في وجهه وصوته، ولا شك في أنّ ظهور أثر الصِّدق في وجه السّفير وصوته، يؤثِّر في المخاطَب ويحمله على قبول قوله واحترامه.

---

(١) سورة التوبة، آية ١١٩.

والرّحمة من حسن الخُلق، فلا بدّ أن يكون السفير ذا قلب ينبض بالرّحمة والشّفقة على النّاس وإرداة الخير لهم والنُّصح، ومن شفقته عليهم دعوتهم إلى الإسلام، فهو يحبّ لهم ما يحبّ لنفســه، وأعظم ما يحبّه لنفسه الإيمان والهدى، والرّحمة تهوِّن على الرحيم ما يلقاه من الجهلاء، كما أنّ الرَّحمة تثمر العفو والصَّفح، والفظاظة تؤدي إلى انفضاض الناس وعدم الاستجابة والتجاوب.

ومن حُسن الخلق التّواضع، فلا خير في التكبّر وفي المتكبِّر، قال تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحقّ﴾[1]، وقال: ﴿وكذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾[2]، وقال: ﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد﴾[3]، وقال: ﴿إن الله لا يحب المستكبرين﴾[4]، وقال: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾[5]، وقال: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾[6].

وهناك عدد كبير من الأحاديث النّبويّة، تأمر بالتواضع، وتنهي عن الكِبر.

وفي التواضع قال تعالى: ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾[7].

---

(١) سورة الأعراف، آية ١٤٦.
(٢) سورة غافر، آية ٣٥.
(٣) سورة إبراهيم، آية ١٥.
(٤) سورة النحل، آية ٢٣.
(٥) سورة غافر، آية ٦٠.
(٦) سورة القصص، آية ٨٣.
(٧) سورة الشعراء، آية ٨٨.

والسفير أحوج من غيره إلى التواضع، فهو يخالط الناس ويدعوهم إلى الحق وإلى أخلاق الإسلام، ثم إن من طبيعة الناس، أنهم لا يَقبلون قول من يتكبّر عليهم، وإن كان ما يقوله حقاً وصدقاً.

ومخالطة الناس، واجبة على السَّفير، لأنّ من واجباته الدّعوة إلى الإسلام، ومن وسائلها مخالطة النّاس، فتكون المخالطة واجبة، لأنّ ما لا يؤدي الواجب إلاّ به، فهو واجب.

والمثل العُليا الأخلاقيّة في القرآن الكريم كثيرة جداً، لا أعرف كتاباً مُنَزلاً ضمّ بين دفّتيه ما ضمّه الذّكر الحكيم، ويمكن أن يقال: إن الإسلام دين الأخلاق والفضيلة، فقد بُعث النبيّ ﷺ ليُتَمّم مكارم الأخلاق، كما وصفه الله تعالى في القرآن الكريم بقوله: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[1].

هذه المُثُل العليا: في الوفاء، والأمانة، والصدق، والاستقامة، وصلة الرّحم، وحسن الجوار، والابتعـاد عن الفحشاء والبغي، والإيثـار، والحدب على الفقير، والعدل، وإكرام الضّيف.

إنّ المسلم الحق، مطيع لا يعصي، صابر لا يتخاذل، شجاع لايجبُن، مِقدام لا يتردّد، مُقبل لا يُدْبر، مُنْدَفع لا يَفِرّ، ثابت لا يتزعزع، مجاهد لا يتخلّف، مؤمن بمُثُلٍ عُليا، مُضحٍّ من أجلها بالمال والروح، يخوض جهاداً عادلاً لإحقاق الحقّ وإزهاق الباطل. لا يخاف الموت، ولا يخشى الفقر، ولا يهاب قوّة في أرض، يُسالم ولا يستسلم، لا تُضعِف عزيمته الإشاعات والأراجيف، لا يستكين لاستعمار فكريّ ولا غزوٍ حضاريّ، ولا يقنُط أبداً ولا ييأس من رحمة الله. يقظ أشدّ اليقظة، حذر أعظم

---

(١) سورة القلم، آية ٤.

الحذر، يتأهّب لعدوّه ويُعدّ العُدّة للقائه، ولا يستهين به في السِّلم ولا في الحرب[1].

تلك هي بعض معالم حسن الخُلق الذي كان عليه الصّحابة، وكان سفراء النبي ﷺ من هؤلاء الأصحاب المتميِّزين بالخُلق الكريم، أو كانوا من صَفْوة أولئك الأصحاب المتميِّزين بالخُلق الكريم.

والذين يتمعنون في مناقشة جعفر بن أبي طالب أمير المؤمنين المهاجرين إلى أرض الحبشة، لعمرو بن العاص سفير مشركي قريش إلى النّجاشي لرد المسلمين المهاجرين إلى أرض الحبشة من مستقرّهم الجديد في أرض الحبشة إلى بلدهم الذي هاجروا منه فراراً من ظلم المشركين وخوفاً على دينهم من الفتنة، إلى مكّة التي كانت مقرّ مقاومة المشركين للمسلمين، يجد أنّ تلك المناقشة بالإضافة إلى دلاتها على فصاحة جعفر وإيمانه العميق وانتمائه العظيم للإسلام وتفقهه الكامل بالدِّين الحنيف، فهي تدلّ كذلك على متانة أخلاقه، فقد كان صادقاً غاية الصِّدق في مناقشته، فلم يخش غير الله في عرض أفكاره، دون أن يحسب حساب تناقضها مع دين النّجاشي المحاط بأحباره المتعصبين كما كان يتدفّق رحمةً للمسلمين المهاجرين، خوفاً على مصيرهم المجهول، فقد كانت كلمة واحدة من النجاشي تؤدي إلى ترحيلهم من أرض الحبشة إلى مكّة، حيث القتل والتعذيب والأذى والفتنة. كما أثّر تواضعه الجم للمهاجرين المسلمين والأحباش الذين أسلموا والذين لم يُسلموا، ومخالطته المستمرة لمن حوله من الناس في أرض المهجر، وتواضع المسلمين ومخالطتهم وحسن أخلاقهم وتواصلهم وتحابّهم، أثرت في النّجاشي وفي كثير من بني قومه الأحباش، فاعتنقوا الإسلام وأصبحوا مسلمين، كما هو معروف.

---

(١) إرادة القتال في الجهاد الإسلامي (٣٣) - ط ٢.

وكان دِحْيَة بن خليفَة الكَلْبِيّ من كِبار الصّحابة[١]، قدّمه إلى مركزه المتميِّز جهاده وخلقه الكريم وتديّنه[٢].

ومن أقوال عمرو بن العاص التي تدل على تواضعه: «ثلاثة لا أَمَلُّهم: جليسي ما فَهِمَ عنّي، ودابتيّ ما حملت رَحْلِيّ، وثوبي ما سترني»، وزاد آخر: «وامرأتي ما أحسنت عِشْرَتي»[٣].

وقال عنه جابر بن عبد الله: «... صحبت عَمْرو بن العاص، فما رأيت رجلاً أنصع ظرفاً منه، ولا أكرم جليساً، ولا أشبه سريرة بعلانية منه»[٤].

ورُئِي عمرو وهو على بغلة هِرَمة، وهو إذ ذاك أمير مصر، فقيل له: أتركب هذه وأنت أمير مصر؟! فقال: «لا ملل عندي لدابتي ما حملتني، ولا لامرأتي ما أحسنت عشرتي، ولا لصديقي ما حفِظَ سِرّي.... إنّ الملل من كواذب الأخلاق»[٥].

وكان عمرو حليماً، ذُكر، أنّه جُعل لرجل ألف درهم، على أن يسأل عمرو بن العاص عن أمّه وهو على المنبر، فسأله الرّجل، فقال عمرو: «أمي سَلْمَى بنت حَرْمَلة، تُلَقّب: النّابغة، من بني عَنَزَة، أصابتها رماح العرب، فبيعت بعُكاظ، فاشتراها الفاكهة بن المُغِيْرَة، ثم اشتراها منه عبد الله بن جُدعَان، ثم صارت إلى العاص بن وائل، فولدت له، فأنجبت، فإن جُعِل لك شيء، فخذه»[٦].

(١) الاستيعاب (٤٦١/٢/٢).
(٢) انظر سيرته في: سفراء النبيﷺ.
(٣) عيون الأخبار (٤٠/١) والعقد الفريد (٦٥/١).
(٤) النجوم الزاهرة (٦٤/١)، وتستعمل النّصاعة في الظرف، والمراد ظهوره.
(٥) النجوم الزاهرة (٧/١).
(٦) أسد الغابة (١١٥/٤ - ١١٦).

وقال رجل لعمرو: «والله لأتفرغَنَّ لك!»، فقال: «هنالك وقعت في الشُّغل»، قال: «كأنك تُهدِّدني، والله لئن قلتَ لي كلمةً، لأقولنَّ لك عشرا»، قال: «وأنت والله لئن قلتَ لي عَشراً، لم أقل لك واحدة»[1].

وكان متواضعاً، يعترف بالفضل لأهله ويُقرِّبه، فقد دخل مكَّة المكرَّمة، فرأى قوماً من قريش قد تحلَّقوا حَلْقَةً، فلما رأوه رموا بأبصارهم إليه، فعدل إليهم وقال: «أحْسَبُكُم كنتم في شيءٍ من ذكري»، قالوا: «أجلْ كُنَّا نماثل بينك وبين أخيك هشام[2]، أيّكما أفضل!»، فقال عمرو: «إنّ لهشاماً عليّ أربعة: أُمّه ابنة هشام بن المُغيرَة، وأُمّي مَنْ قد عرفتم، وكان أحبّ الناس إلى أبيه مني، وقد عرفتم معرفة الوالد بالولد. وأسلم قَبْلِي، واستُشْهد وبقيت»[3].

وقيل لعمر: «أنت خير، أم أخوك هشام بن العاص؟»، قال: «أُخبركم عني وعنه، عرضنا أنفسنا على الله، فَقَبِلَهُ وتركني»[4]، وقد استُشهد هشام في معركة أجْنَادِيْن[5].

وقد ذكرت المصادر المعتمدة، أنّ العلاء الحَضْرَمِيّ، كان مستجابَ الدّعوة[6]، كدليل على تقواه وورعه وتمسّكه بالخلق القويم.

أما الحارث بن عُمَيْر الأَزْدِيّ، فقد دفع حياته ثمناً لصدقه المطلق الذي لو خيِّر بين الصَّدق أو الموت لاختار الموت على أن يتخلّى عن

---

(١) العقد الفريد (٢/٢٧٥).
(٢) هشام بن العاص: انظر سيرته في طبقات ابن سعد (٤/١٩١) وأسد الغابة (٥/٩٣) والإصابة (٦/٢٨٦)، والاستيعاب (٤/١٥٣٩).
(٣) العقد الفريد (٢/٢٨٩).
(٤) طبقات ابن سعد (٤/١٩٢).
(٥) طبقات ابن سعد (٤/١٩٣).
(٦) الاستيعاب (٢/١٠٨٧) والمعارف (٢٨٤) وتهذيب الأسماء واللّغات (١/٣٤٢).

الصِّدق ولو لحظة من حياته. فقد عرض له شُرَحْبِيْل بن عمرو الغَسّاني في طريقه إلى بُصْرَى من بلاد الشام، فقال له: «اين تريد؟»، قال: «الشّام»، قال: «لعلّكَ من رُسُل محمّد؟»، قال: «نعم، أنا رسول رسولِ الله»، فأمر به، فأُوثِقَ رِباطاً، ثمّ قدّمه فضرب عنقه صبرا»[1]، فهو شهيد الصِّدق الذي هو تاج حسن الخلق وقوامه وروحه.

أما جرير بن عبد الله البَجَلِيّ، فقد كان آلفاً مألوفاً، أحبّه النبي ﷺ لحسن خُلقه، قال جرير: «ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمتُ، ولا رآني إلاّ تَبَسَّم»، رواه الشيخان وغيرهما[2].

ولمّا جالسه النبي ﷺ، بسط له رداءه، وقال: «إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه»[3].

وقد وجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مجلسه رائحة من بعض جلسائه، فقال عمر: «عزمت على صاحب هذه الرائحة إلاّ قام فتوضأ»، فقال جرير: «علينا كلّنا يا أمير المؤمنين فاعزم»، فقال عمر: «عليكم كلكم عزمتُ»، ثمّ التفت إلى جرير وقال له: «ما زلتَ سيِّداً في الجاهليّة والإسلام»[4].

وكان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: «جرير مِنّا أهل البيت»[5].

---

(١) انظر التفاصيل في: مغازي الواقدي (٧٥٥/٢ - ٧٥٦) وأسد الغابة (٣٤٢/١) والإصابة (٢٩٩/١) والاستيعاب (٢٩٨/١).

(٢) تهذيب التهذيب (٧٣/٢).

(٣) البداية والنهاية (٥٦/٨).

(٤) الاستيعاب (٢٣٨/١).

(٥) الإصابة (٢٤٣/١).

ومناقب جرير الدالة على حسن خُلقه كثيرة، ومن مُسْتَطْرَفاتِها أنّه اشترى له وكيله فرساً بثلاثمائة درهم، فرآها جرير فتَخيَّل أنّها تساوي أربعمائة، فقال لصاحبها: «أتبيعها بأربعمائة؟»، قال: «نعم»، ثم تَخيَّل أنّها تساوي خمسمائة، فقال: «أتبيعها بخمسمائة؟»، قال: «نعم»، ثمّ تخيّل أنّها تساوي ستمائة، ثم سبعمائة، ثم ثمانمائة، فاشتراها بثمانمائة[1]!.

وروى البخاري ومُسْلِم عن أَنَس بن مالك خادم النبي ﷺ، قال: «خرجت مع جرير في سفرٍ، فكان يخدمني. فقلت له: لا تفعل! فقال: إني رأيتُ الأنصار تصنع برسول الله ﷺ أشياء، آليتُ ألاَّ أصحب أحداً منهم إلاّ خدمته»، وكان جرير أكبر من أنس رضي الله عنهما[2].

أما عن حُسن أخلاق مُعَاذ بن جَبَل، فحدِّث عن البحر ولا حَرَج، كما يقول المثل العربي المشهور. بينما كان عبد الله بن مَسْعُوْد رضي الله عنه، يُحدِّث أصحابه ذات يوم، إذ قال: «إنَّ مُعَاذاً كان أُمَّةً قانتاً لله حنيفاً ولم يَكُ من المشركين»، فقال له رجل: «يا أبا عبد الرَّحمن! نَسِيْتَها؟!»، وظنَّ الرَّجل أنَّه أَوْهَمَ، فقال ابن مسعود: «هل تدرون، ما الأُمَّة؟»، قالوا: «ما الأُمَّة؟»، قال: «الذي يُعلِّم النَّاس الخير»، ثمّ قال: «هل تدرون، ما القانِت؟»، قال: «القانت المطيع لله»، وقال: «كُنّا نُشَبِّه مُعَاذاً بإبراهيم»[3]!

وكان مُعاذ يقول: اعلموا ما شئتم أن تعلموا، فلن يؤجركم الله بعلم حتى تعملوا»، وكان يقول: «تعلّموا ما شئتم أن تعلموا، فلن ينفعكم

---

(1) تهذيب الأسماء واللّغات (١/١٤٨).
(2) تهذيب الأسماء واللّغات (١/١٤٧).
(3) طبقات ابن سعد (٣/٣٤٨) وانظر حلية الأولياء (١/٢٣٠) وأسد الغابة (٤/٣٧٨) والإصابة (٦/١٠٦) والاستبصار (١٣٨) وتهذيب التهذيب (١٠/١٨٧) والبداية والنِّهاية (٧/٩٥).

الله بالعلم حتى تعملوا »[1]، إذ لا قيمة بالعلم بدون عمل، والعمل هو حسن الخُلقُ.

ولما أراد النبي ﷺ أن يبعث مُعَاذاً إلى اليمن أوصاه النبي ﷺ فقال: « يا مُعاذ! أُوصيك وصيَّة الأخ الشَّفيق، أوصيك بتقوى الله »، فذكر نحوه وزاد: « .... وَعِدِ المريض، وأسرع في حوائج الأرامل والضّعفاء، وجالس الفقراء والمساكين، وأنصف النّاس من نفسك، وقُلْ الحقّ، ولا تأخذك في الله لومَة لائم »[2]، فكانت وصيّة النبي ﷺ منهاج حياته العمليّة حتى ذهب إلى رحاب الله.

لقد كان معاذ من أحسن الناس وجْهاً، وأحسنهم خُلُقاً، وأسمحهم كفًّا[3].

وكان أبو موسى الأشعري على البصرة، فلما نُزِع عنها، لم يكن معه إلاّ ستمائة درهم عطاء عياله[4]، وكان الحسن البصري يقول: « ما أتاها - يعني البصرة - راكب خير لأهلها منه »[5].

ولما عُزل عن البصرة، سار منها إلى الكوفة، فلم يزل بها حتى أخرج أهلها عاملهم وطلبوا من الخليفة أن يستعمل أبا موسى عليهم، فاستعمله[6]، فكان أوّل أمير يختاره الناس عليهم في الإسلام، لحسن خُلُقه ومعاملته واستقامته.

لقد كان أصحاب النبي ﷺ يتميَّزون بالخُلُق الكريم، وكان سفراؤه من جُلَّةِ أصحابه عليه الصّلاة والسّلام في أخلاقهم الكريمة، إن لم يكونوا

---

(١) حلية الأولياء (١/٢٣٦).
(٢) حلية الأولياء (١/٢٤٠ - ٢٤١).
(٣) طبقات ابن سعد (٣/٥٨٧).
(٤) طبقات ابن سعد (٤/١١١).
(٥) الإصابة (٤/١٢٠).
(٦) أسد الغابة (٣/٢٤٧) و (٥/٣٠٩) والإصابة (٤/١٢٠).

من المُصْطَفَين الأخيار من الصحابة عليهم رضوان الله.

ولعلّ التّمادي في ضرب الأمثال على حُسن خُلُق سفراء النبي ﷺ سيزيد في هذه الدراسة حجماً ويضاعف صفحاتها دون ضرورة، لأن حُسن الخُلقُ في الصّحابة من المزايا التي لا تحتاج إلى دليل، ولكنّ الشّواهد التي ذُكرت تفيد القدوة والاقتداء، وما أحوج الناس إلى القدوة الحسنة في هذه الأيام.

وقديماً قالوا: «المعروف لا يُعَرَّف».

٥. الصَّبْر

الصّبر من فروض الإسلام، وهو نصف الإيمان، وقد ذكره القرآن الكريم في أكثر من ثمانين موضعاً، آمراً به: ﴿**واستعينوا بالصبر والصلاة**﴾[١]، ونهياً عن ضدِّه: ﴿**واصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل، ولا تستعجل لهم**﴾[٢]، ومحبةً لأهله: ﴿**والله يحب الصابرين**﴾[٣]، ومعيَّته تعالى لهم: ﴿**إن الله مع الصابرين**﴾[٤]، وعاقبته خير: ﴿**وإن تصبروا خير لكم**﴾[٥]، وجزاؤه عظيم: ﴿**إنما يوفى الصابرين أجرهم بغير حساب**﴾[٦]. وأهل الصّبر هم المنتفعون بالآيات والعظات: ﴿**إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور**﴾[٧]، وهو سبُب لدخول الجِنان: ﴿**سلام عليكم**

---

(١) سورة البقرة، آية ٤٥.
(٢) سورة الأحقاف، آية ٣٥.
(٣) سورة آل عمران، آية ١٤٦.
(٤) سورة البقرة، آية ١٥٣، وسورة الأنفال، آية ٤٦.
(٥) سورة النساء، آية ٢٥.
(٦) سورة الزمر، آية ١٠.
(٧) سورة إبراهيم، آية ٥.

بما صبرتم فنعم عقبي الدار﴾[١]، وبالصّبر واليقين تُنال الإمامة في الدِّين: ﴿وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾[٢].

هذا بعض ما في القرآن الكريم على الصّبر.

وفي السُنّة النَّبويَّة أحاديث كثيرة في الصّبر، منها: «ما أُعطي أحد عطاء خيراً له وأوسع من الصَّبر»[٣] و: «عجباً لأمر المؤمن، إنّ أمره كلّه خير، وليس ذلك لأحد إلاّ المؤمن، إنْ أصابته سَرَّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرّاء صبر، فكان خيراً له»[٤].

والصَّبر لغةً: الحبس، والكفّ، والتَّجلُّد، وحُسْن الاحتمال. والصَّبر عن المحبوب: حبس النَّفس عنه والصَّبر على المكروه: احتماله دون جزع. وقالوا: قتله صبراً: حبسه حتى مات. وشَهْرُ الصَّبر: شهر الصّوم لما فيه من حبس النَّفس عن الشّهوات.

والصَّبر شرعاً، هو على ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر على معصية الله، وصبر على المصائب والبلاء.

الصّبر على طاعة الله، يكون بالمحافظة عليها دوماً، والإِخلاص فيها، ووقوعها على مُقتضى الشّرع، مما يُعين على تحصيله المعرفة بالله، وحقّه على العباد، وحُسن الجزاء للمطيعين.

---

(١) سورة الرعد، آية ٢٤.

(٢) سورة السجدة، آية ٢٤.

(٣) متفق عليه، رواه أبو سعيد الخدري، انظر رياض الصالحين - باب الصبر - ط٣ - (٢٩) - مطبعة النهضة الحديثة بمكة المكرمة - ١٣٩٨هـ..

(٤) رواه مسلم، انظر رياض الصالحين (٢٩)، ورواه أحمد بن حنبل في مسنده أيضاً، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوى (٩٦/٢).

والصّبر على المعصية، يكون بهجر السيِّئات، والفرار من المعاصي، والدّوام على هذا الفرار وذلك الهجر. وممّا يُعين على تحصيل هذا الصّبر، استحضار الخوف من عذاب الله، وأعلى من هذا استحضار الحياء من الله، والمحبّة له، مع استحضار ثمرة هذا الصّبر، وهي إبقاء الإيمان وتقويته وإنماؤه، لأنّ المعصية تُنقص الإيمان أو تُضعفه أو تُكدِّره أو تُذهب نوره وبهاءه.

والصّبر على البلاء والمصائب بترك التَّسَخُّط، واحتمال المؤلم المكروه، وترك الشّكوى للناس، فإن الصبر الجميل لا يتّفق مع الشّكوى للمخلوق، ويتفق مع الشّكوى لله وحده، قال تعالى عن يعقوب عليه السلام: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾[١]، وقال عن أيوب: ﴿رب إني مسني الضر وانت أرحم الراحمين﴾[٢]، مع قوله تعالى عنه في آية أخرى: ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾[٣]. وممّا يستدعي هذا الصّبر، استحضار نِعَم الله التي لا تُعدّ ولا تحصى، فتهون على المصاب مصيبته، ويَقُلّ وقعها على نفسه، وممّا يُعين أيضاً على الصّبر على البلاء، تذكر الجزاء العظيم للصابرين[٤].

والصّبر الجميل، جزء لا يتجزأ من حُسْن الخلق، وقد خصّصنا له هذه الفقرة التي جاءت بعد فقرة: (حُسْن الخُلق)، مباشرة، للتركيز على أهمية الصّبر بالنسبة للسّفير أولاً، ولبيان الصِّلة العضوية بين حُسْن الخُلق والصَّبر.

---

(١) سورة يوسف، آية ٨٦.
(٢) سورة الأنبياء، آية ٨٣.
(٣) سورة ص، آية ٤٤.
(٤) أصول الدعوة (٢٣٥ - ٢٣٦).

وإذا كان الصّبر ضرورياً لكل إنسان، وبخاصة المسلم، فإنَّ الصَّبر للسفير المسلم أشدّ ضرورة له من غيره، لأنّه يعمل في ميدانين: ميدان نفسه، يجاهدها، ويحملها على الطّاعة، ويمنعها من المعصية. وميدان خارج نفسه، وهو ميدان الدّعوة إلى الله، وخاطبة مَنْ أُرسل إليهم في موضوعها، فيحتاج إلى قدر كبير في المجالين من الصّبر الجميل، حتى يستطيع تجاوز العقبات، وتحمّل الأذى، فإن تخلّى عن الصبر وأُصيب بالجزع، انهار، وقعد، أو انسحب من الميدان، فاستحقّ العقاب وفاته الثّواب[1].

وقد نبَّه النبي ﷺ أصحابه حول عدم الاختلاف والصّبر على تنفيذ الواجبات الملقاة على عواتقهم، فخرج على أصحابه ذات يوم بعد عُمْرَته التي صُدَّ عنها يوم الحُدَيْبِيَّة فقال: «**أيّها النّاس! إنّ الله قد بعثني رحمةً وكافة، فلا تختلفوا عليَّ كما اختلف الحواريّون على عيسى بن مريم**»، فقال أصحابه: «وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله!»، قال: «**دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما مَنْ بعثه مَبْعَثاً قريباً، فرضي وسلم، وأما مَنْ بعثه مَبْعثاً بعيداً، فكره وجهه وتثاقل**»، فبعث رسول الله ﷺ رسلاً من أصحابه، وكتب معهم كُتُباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام[2]، وما اختلف أصحاب عيسى عليه إلا من جزعهم لانّهم لا يصبرون على السّفر البعيد، أما أصحاب النبي ﷺ فلم يختلفوا عليه، لأنّهم يصبرون على السّفر البعيد وعلى غيره من الصِّعاب، فكلّ شيء بالنسبة لهم يهون ما دام فيه خدمة الإسلام والمسلمين.

لقد كان صحابة رسول الله ﷺ قِمّة في الصَّبر الجميل، فقد نجحوا

---

(١) أصول الدعوة (٢٣٧).

(٢) سيرة ابن هشام (٤/٢٧٨ - ٢٧٩).

نجاحاً باهراً في اجتياز الصعوبات والنّوائب والمصائب التي لاقتهم في حياتهم العمليّة بعد إسلامهم، إذ كانت مقاومة المشركين للإسلام والمسلمين عنيفة جداً. وكان سفراء النبي ﷺ هم صَفوة الصّابرين المحتسِبين من الصَّحابة، لذلك صبروا على ما أصابهم في سفاراتهم صبراً جميلاً، وأقبلوا على تنفيذ مهمّاتهم إقبالاً كاملاً.

ولقد هاجر جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة، فصبر على الغربة أربع عشرة سنة فيها، وصبر على محاولات مشركي قريش لإعادته وإعادة المسلمين المهاجرين إلى الحبشة من مهجرهم إلى مكّة ليصبُّوا عليهم العذاب والفتنة والتنكيل، وصبر على صعوبة الحياة في المهجر وشِدّتها، وأخيراً تكلَّل صبره الطويل بالنّجاح، فالتحق بالنبي ﷺ والمسلمين المهاجرين إلى المدينة المنوّرة، حيث استقرّ هو ومَنْ كان معه في الحبشة من المهاجرين في المدينة المنورة.

وصبر دِحْيَة بن خَلِيفَة الكَلْبِي على محاولة تبليغ هِرَقل قيصر الرُّوم الكتاب النَّبويّ، ولم يكن الوصول إلى هِرقل والاتِّصال به وتبليغه ودعوته إلى الإسلام من الأمور السهلة، ولكنه صبر صبراً جميلاً حتى حقَّق أهدافه كاملة بنجاح كبير.

وصبر عبد الله بن حُذافة السَّهميّ على محاولة تبليغ كسرى أبرويز بن هرمز ملك الفرس الكتاب النّبويّ، وكان الوصول إلى كسرى من أصعب الأمور في حينه، ولكنّه بالصّبر الجميل والإصرار الحاسم، تحقق له ما أراد.

وشهد عبد الله بعد التحاق النبي ﷺ، معارك فتح بلاد الشَّام، فأسره الرُّوم في بعض غزواته على قَيْساريَّة[١]، فقال له ملك الرُّوم:

---

(١) قيساريّة: بلد على ساحل بحر الشّام (البحر الأبيض المتوسّط)، تُعدّ من أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة ايام، وكانت في قديم الأيام من أعيان أمّهات المدن، واسعة =

«تنصَّر أُشركك في مُلكي»، فأبى فأمر به فصُلب، وأُمر برميه بالسِّهام، فلم يجزع، فأُنْزِل!

وأمر ملك الرُّوم بقدرٍ، فصُبّ فيها الماء وأُغلي عليه، وأُمر بإلقاء أسير فيها، فإذا عظامه تلوح، فأمر بإلقائه بالقدر التي تغلي إن لم يتنصّر، فلما ذهبوا به بكى[1]، فقالوا: قد جزع! قد بكى!»، فقال الملك: «ردّوه!»، فقال عبد الله: «لا ترى أني بكيتُ جزعاً ممّا تريد أن تصنع بي، ولكني بكيت حيث ليس لي إلاّ نَفْس واحدة، يُفعل بها هذا في الله!! كنتُ أحبّ أن يكون لي من الأنفس عدد كلّ شعرة فِيَّ، ثم تُسَلّط عليّ، فتفعل بي هذا!»، فقال: «تنصّر وأزَوِّجك بنتي وأقاسمك ملكي»، قال: «ما أفعل»، فقال: «قَبِّل رأسي وأُطلقك وأُطلق معك ثمانين من المسلمين»، فقال: «أما هذه، فنعم» وقَبّل عبد الله رأس ملك الرّوم، فأطلق سراحه، وأطلق معه سراح ثمانين من أسرى المسلمين فلمّا قدموا على عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، قام إليه عمر وقَبَّل رأسه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يمازحون عبد الله، فيقولون: «قَبَّلتَ رأس عِلْـــج؟!»، فيقول لهم: «أطلـــق الله بتلـــك القبلـــة ثمانين من المسلمين»[2].

ولا يمكن أن يختلف اثنان في أنّ صبر عبد الله كان صبراً جميلاً مثالياً، وكان مضرب الأمثال في صبره الجميل.

وصَبَرَ حاطب بن أبي بَلْتَعَة في حِلِّهِ وترحاله، حتى وصل إلى الإسكندريَّة، ثم صبر حتى استطاع أن يوصل الكتاب النبوي إلى

= الرقعة، طيبة البقعة، كثيرة الخير والأهل، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٥/٧ - ١٩٦)، وانظر أسد الغابة (١٤٣/٣) حول أسره في قيساريّة.

(١) الإصابة (٥٧/٤).

(٢) أسد الغابة (١٤٣/٣).

المقوقس، وصبر على مناقشة المقوقس مناقشة منطقيّة حصيفة، فتوّج صبره الجميل بإقناع المقوقس بوجهة نظره، فعاد أدراجه محملاً بهدية المقوقس النّفيسة إلى النبي ﷺ بسلام.

أما شُجاع بن وَهْب الأسدي، فقد انتظر طويلاً على باب الحارث بن أبي شَمِر الغَسَّاني، وصبر على هذا الانتظار دون كلل ولا ملل، والانتظار أحرّ من النار كما يقول المثل العربيّ المشهور. فلما قابل الحارث، ردّ عليه الحارث بالتّهديد والوعيد، ولكنّه صبر على كلّ ذلك صبراً جميلاً، حتى زالت المحنة وعاد إلى المدينة[1].

وقد صبر سَلِيط بن عمرو العامِري القُرَشِيّ على هَوْذة بن عليّ الحَنَفِيّ صبراً جميلاً، فقد كان هوذة يساوم على إسلامه، فاستعان سليط على هوذة بثُمَامة بن أُثال الذي كان قد أسلم، فلم تُفلح وساطة ثُمامة، وأصرّ هوذة على أطماعه، فلم يُسْلِم، ومات على دينه، وما جزع سليط بل صبر كما يصبر الصابرون المحتسبون[2].

وكان الصّبر الجميل في طبع عمرو بن العاص، ظهر قبل إسلامه وبعد إسلامه في مواقف كثيرة، فقد بذل محاولات لم تكلّل بالنجاح في سفارتيه إلى النّجاشي ملك الحبشة، حين أوفده مشركو قريش لرد المسلمين المهاجرين إلى أرض الحبشة من مهجرهم إلى مكّة، إلاّ أنّ سفارته النّبويّة تكلّلت بالنجاح.

كما أنّ أعماله العسكرية، وبخاصة حصار بابِلْيون أولاً، وحصار الإسكندريَّة ثانياً، تدلّ على تمتّعه بالصبر الجميل.

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٢٦١/١) وابن الأثير (٢١٣/٢) والبداية والنهاية (٢٦٨/٤) وطبقات ابن سعد (٩٤/٣ - ٩٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٦٣/١).

(٢) ابن الأثير (٢١٥/٢).

وقد صبر العَلاء الحَضْرَميّ في مواقف لا تُعدّ ولا تحصى، وخاصة في اجتياز صحراء الدهناء المخوفة على رأس المجاهدين من رجاله، وفي مصاولة المرتدين العنيفة، وفي اجتياز البحر إلى أرض الفُرس، وما كان بقادر على تحمّل ما صادف من عقبات جسام، لو لم يعالجها بما عُرف عنه من صبر جميل.

ولم يُقتل للنبي ﷺ رسول غير الحارث بن عُمَيْر الأَزدِيّ رسوله إلى ملك بُصْرَى، فقد قُتل صَبرًا[1].

ولاقى المهاجر بن أبي أُمَيَّة المخزوميّ الأَمَرَّيْن في حرب رِدّة اليمن، ولكنّه صبر وصابر ورابط، حتى كُتب له النّصر وكُتب للقادة والمجاهدين الذين ثبتوا وصبروا في ثباتهم صبراً جميلاً.

وصبر جرير بن عبد الله البَجَليّ في حرب فتح العراق، وحرب فتح بلاد الشّام، وصبر على جمع قبيلته بَجِيْلَة المشرّدة، حتى تم جمعها على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فحقّق بصبره الجميل ما كان يصبو إليه من انتصارات وآمال.

وكان صبر مُعاذ بن جَبَل على التّعلم والتّعليم وحرب الردّة وعلى الإدارة والقضاء والجباية، وأخيراً على الطّاعون الذي اجتاح فلسطين كما تجتاح النار الغابات، حتى استُشهد بالطّاعون دون أن يتخلّى عن رجاله في ساعة محنتهم، فكان سعيداً باستشهاده أكثر من سعادته ببقائه على قيد الحياة، بدليل أنه رفض عرض عمر بن الخطاب في محاولة استخراجه من منطقة الطّاعون، وذلك هو الصّبر الجميل في أروع مظاهره: الصّبر على تقبّل الموت مع رجاله، والترفع عن الحياة بعيداً عن أولئك الرّجال.

---

(١) أسد الغابة (١/٣٤٢) والاستيعاب (١/٢٩٨).

أما أبو موسى، فحديثه مع الصّبر الجميل يطول، فكلّ حياته صبر جميل، وهو أسوة حسنة للصابرين المحتسبين في كلّ زمان ومكان.

ولم يكن عمرو بن حزْم الأنصاري الخزرجيّ، بأقل صبراً من زملائه سفراء النبي ﷺ، فقد صبر على مشقّات الجهاد، وصبر على مشاكل الحياة، وصبر على الدّعوة إلى الله، وصبر على الإدارة والجباية في اليمن، وصبر على أحداث السّلام، وأدّى واجبه كاملاً في خدمة الإسلام والمسلمين.

إنّ الصبر الجميل سِمة من سِمات سفراء النبي ﷺ، وما كنتُ بحاجة إلى التدليل على صبرهم، فما أردت بذلك إقناع مَنْ لا يقتنع بأنّهم يتحلّون بتلك السِّمة، لأنني لا أتصوّر أن هناك من لا يقتنع بأن هذه السِّمة واضحة المعالم بارزة الأثر في السفراء النّبويين، ولكنني ذكرتُ ما ذكرتُ من شواهد لغرض العِبْرة والقُدوة والأُسوة، وضربُ الأمثال قد يفيد في ذلك لمن يريد أن يستفيد.

٦. الشَّجاعة

ليست الشجاعة ضرورية للمجاهدين فحسب، بل هي ضروريّة للإنسان في السّلام كما هي ضرورية له في الجهاد.

وكما يُحتمل أن يفقد الذي لا يتحلّى بالشّجاعة حياته في ميدان القتال، كذلك يُحتمل أن يفقد الذي لا يتحلّى بالشجاعة حقوقه في ميدان الحياة.

وقد كان سفراء النبي ﷺ من صَفوة الصّحابة المتميِّزين بالشجاعة لذلك أثبتوا وجودهم بنجاح في ميداني الحرب والسّلام.

وقد تحدّث التاريخ على شجاعة السُّفراء النبويين في مواجهة مَنْ

أرسلهم النبي ﷺ إليهم من ملوك وأُمراء، دون أن يخشوا في الله لومة لائم، فبلّغوا الدّعوة، وسلّموا الكُتُب النبويّة إلى الذين أُرسلت لهم، وتحدَّثوا معهم حديث الندّ للند، وأدّوا مهماتهم كما ينبغي كاملة دون خوف أو وجَل أو تردّد.

وقد تحدّثت على اتّصال سفراء النبي ﷺ بالملوك والأمراء الذين أُرسلوا إليهم بشجاعة وإقدام، بما فيه الكفاية، ولا بأس في الحديث على شجاعتهم في المجالات الأخرى، لعلّ في الحديث عليها قدوة لمن يريد أن يقتدي وأُسوة لمن يريد أن يتأسّى.

كانت شجاعة جعفر بن أبي طالب المعنويّة في مناقشة عمرو بن العاص سفير مشركي قريش إلى النّجاشي ملك الحبشة، وعرضُه تعاليم الإسلام عرضاً موضوعياً شيّقاً، ودفاعه عن حريّة الدَّعوة وحرية المسلمين المهاجرين، شجاعةً فائقة حقاً.

وعاد جعفر إلى المدينة المنوّرة بعد بقائه نحو أربعة عشر عاماً في بلاد الحبشة مهاجراً، فولاّه النبيّ ﷺ قيادة سرية مُؤتة بعد زيد بن حارثة الكَلْبِي، إذ قال عليه الصَّلاة والسّلام: «**أمير الناس زيد بن حارثة، فإن قُتِل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رَوَاحة، فإن قُتل فَلْيَرْتَضِ المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم**».

وأخذ الّلواء زيد بن حارثة، فقاتل حتى قُتل طعناً بالرِّماح.

وأخذ الّلواء جعفر بن أبي طالب، فترجّل عن فرس له شقراء، فعرقبها(١)، فكانت أوّل فرس عُرْقبت في الإسلام، وقاتل حتى استُشهد، ضربه رجل من الرّوم، فقطعه نصفين، فوُجد في أحد نصفيه

---

(١) عرقبها: قطع عرقوبها. وعرقوب الدابة في رجلها.

بضعة وثلاثون جرحاً، وَوُجد فيما أقبل من بَدَن جعفر ما بين منكبيه تسعون ضربة بين طعنة برمحٍ وضربة بسيف وفي رواية أخرى اثنتان وسبعون ضربة بسيف وطعنة برمح(١).

وكان عمرو بن أُميَّة الضَّمْرِي من رجال العرب نجدة وجرأة(٢)، وأحد أبطالهم(٣)، وكان شجاعاً(٤). ومن بطولاته، أنّ مشركي قريش صلبوا خُبَيْب بن عَدِي في ضاحية من ضواحي مكّة، فأمر النبي ﷺ عمرو بن أُميَّة أن يستنقذ جثمان الشّهيد خُبَيب من بين حُراسه، فحمل جثّة خبيب من الخشبة التي صُلب عليها، وعاد بها إلى المدينة المنوّرة.

وفي طريق عودته من مكّة إلى المدينة. قتل أحد المشركين، وقتل آخر سمعه يهجو المسلمين ولقي رسولين لقريش يتجسّسان، فقتل أحدهما وأسر الآخر. ولما قدم المدينة، أخبر رسول الله ﷺ خبره، ورسول الله ﷺ يضحك(٥).

وقد شهد دِحْيَة بن خليفة الكَلْبِيّ معركة اليرموك الحاسمة التي كانت بين المسلمين من جهة والرّوم من جهة، قائداً لكردوس من كراديس المسلمين في تلك المعركة(٦) التي كانت بقيادة خالد بن الوليد، وكان خالد هو الذي اختار قادة الكراديس من بين أشجع المسلمين وأكثرهم إقداماً وتجربة وحنكة وشجاعة.

---

(١) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٤/٣٨ - ٣٩).
(٢) تهذيب التهذيب (٨/٦).
(٣) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢٨٧).
(٤) الإصابة (٤/٢٨٥).
(٥) طبقات ابن سعد (٢/٩٣ - ٩٤) وعيون الأثر (٢/١١٢)، وانظر سيرة ابن هشام (٤/٣١٠ - ٣١٢) وأنساب الأشراف (١/٣٧٩ - ٣٨٠).
(٦) الإصابة (٢/١٦٢).

وثبات عبد الله بن حُذَافة السَّهْمي وصبره على التّهديد والوعيد الذي تعرّض له من ملك الرّوم[١]، دليل على شجاعته النادرة وصبره الجميل.

وقد أصبح بعد التحاق النبي ﷺ من قادة الفتح الإسلامي في مصر، وله فتوحات معروفة في تلك البلاد[٢].

وشهد حاطب بن أبي بَلْتَعَة غزْوَة بَدْرٍ الكبرى، وأبلى في هذه الغزوة بلاء حسنا، وأسر فيها أحد المشركين[٣]، وقتل فيها مشركاً واحداً أيضاً[٤]، كما شهد غزوة أُحُد، وكان أحد الرُّماة المذكورين في هذه الغزوة[٥]، كما شهد غزوات النبي ﷺ، وكان من أمهر الرُّماة في الصّحابة[٦]، وكان من المشهود لهم بالشّجاعة والإقدام.

وشهد شُجاع بن وَهْب غزوة بَدْرٍ الحاسمة، كما شهد مشاهد النبي ﷺ كلّها، لم يتخلّف عن مشهد من مشاهدها، بالإضافة إلى مشاهدته بعض سراياه، وكان قائداً من قادة النبي ﷺ، وأبلى في مشاهده أعظم البلاء، واستُشهد يوم اليَمَامة سنة إحدى عشرة الهجريّة[٧].

وشهد سَلِيْط بن عمرو العامِري القُرَشِي بعض مشاهد النبي ﷺ، فلما التحق النبي ﷺ، كان سَلِيْط أحد قادة أبي بكر الصِّدِّيق في حرب

---

(١) أسد الغابة (٣/١٤٣).
(٢) انظر: فتوح البلدان (٣٠٤).
(٣) مغازي الواقدي (١/١٤٠).
(٤) أنساب الأشراف (١/٣٠٢).
(٥) مغازي الواقدي (١/٢٤٣) وأنساب الأشراف (١/٣٢٣).
(٦) طبقات ابن سعد (٣/١١٤).
(٧) طبقات ابن سعد (٣/٩٥) وانظر البداية والنهاية (٦/٣٣٧) والإصابة (٣/١٩٤) وأسد الغابة (٢/٣٨٦) والاستيعاب (٢/٧٠٧).

الرِدّة، فاستُشهد في معركة اليَمَامة سنة إحدى عشرة الهجريّة[1]، بعد أن أبلى في القتال بلاء حسنا.

وشجاعة عمر بن العاص وإقدامه لا يحتاجان إلى دليل، فهو من قادة النبي ﷺ ومن قادة الفتح الإسلامي العظيم، وله بلاء في حروب الرِدَّة وفي معارك الفتوح، وفتوحاته كثيرة معروفة تدلّ على شجاعته واقدامه.

وكان للعَلاء الحَضْرَميّ جهاد مشهود تحت لواء النبي ﷺ، وفي حرب الرِدّة في منطقة البحرين، وفي الفتوح في منطقة بلاد فارس وبخاصة منطقة الأهواز، فكان في جهاده بطلاً من أبطال المجاهدين المتميِّزين بالشجاعة والاقدام.

ودفع الحارث بن عُمَير الأزدي حياته ثمناً لصدقه، فقدَّم وقُتل صبراً، ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فكان شهيد العقيدة وشهيد الصِّدق، وكان المثال الرائع للشجاعة والاقدام.

وكانت للمهاجر بن أبي أُمَيَّة المخزومي مواقف بطوليّة تدلّ على شجاعته وإقدامه في حرب الردَّة باليمن، حتى استطاع ومَنْ معه من القادة والمجاهدين استعادة الوحدة إلى ربوع اليمن السّعيد تحت ظلّ الإسلام.

أما جرير بن عبد الله البَجَليّ، فكان من قادة النبي ﷺ وسفرائه، وقد شهد حرب الرِدّة في اليمن، فكان له أثر كبير في إعادة المرتدين إلى الإسلام. وشهد فتوح العراق والشّام، وفي معركة اليرموك الحاسمة برز اسمه واحداً من الفدائيين الفرسان من المهاجرين والأنصار وهم

---

(١) طبقات ابن سعد (٢٠٣/٤) وأنساب الأشراف (٢١٩/١).

مائة فارس، اختارهم خالد بن الوليد من بين رجال جيشه في اليرموك، كلّ فارس منهم يردّ جيشاً وحده ، للتأثير في معنويات الرُّوم قُبَيْل معركة اليرموك الحاسمة.

وعاد إلى ساحة الجهاد في العراق، فقاتل مع لواء المُثَنَّى بن حارثة الشّيْبَانِي، وأبلى في قتاله بلاء حسنا.

وكان جرير على ميمنة النّاس في معركة القادسيّة الحاسمة، وكان له نصيب بارز في إحراز النصر على الفرس في تلك المعركة الحاسمة.

وشهد فتح المدائن تحت لواء سعد بن أبي وقّاص، ثم تولّى القيادة وأصبح قائداً من قادة الفتح الإسلامي، وله فتوحات في العراق وبلاد فارس معروفة.

لقد كان جرير بطلاً لامعاً من أبطال المسلمين.

وشهد مُعَاذ بن جَبَل مشاهد رسول الله ﷺ، لم يتخلّف عن أيَّ مشهد من تلك المشاهد، وأبلى في مشاهده كلّها بلاء حسناً.

وشهد حرب الرِدّة في اليمن، وكان أبرز قائد من قادة المسلمين في حرب الردّة اليمنيّة حتى استطاع إحراز النصر على المرتدين وإعادتهم إلى الإسلام من جديد.

وكان من أعزّ أمانيه أن يموت شهيداً، فمات في الطاعون، والمطعون شهيد.

وقد حاول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، استخراج أبي عُبَيْدَة بن الجرّاح ومُعَاذ بن جَبَل من المنطقة التي اجتاحها الطّاعون في فلسطين، فآثر مُعاذ أن يبقى مع رجاله في المنطقة ويموت معهم على أن يرحل عنها بنفسه دون رجاله من الموت، وهذا وحده دليل على شجاعته الفائقة، بالإضافة على دلالته إلى أمور أخرى لا تخفى على أحد.

وكان لأبي موسى الأشعري موقف مشرِّف جداً في قتله قاتل عمِّه بعد غزوة حُنَيْن وكان قاتل عمِّه من الأبطال المعروفين.

وكان له في حرب الرِدّة في اليمن مواقف مشهودة، حتى انتصر على المرتدين مع مَنْ معه من القادة والمجاهدين.

وقد أصبح أحد قادة الفتح الإسلامي على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، ففتح مناطق واسعة جداً من بلاد فارس.

وكان لشجاعته وإقدامه أعظم الأثر في انتصاراته المتوالية شرقاً وغرباً.

لقد كانت الشّجاعة في شتى صورها وأشكالها، سِمة من سمات السُّفراء النَّبويين.

٧. الحكمة

وردت كلمة: (حَكَمَ) ومشتقاتها في مائتين وعشر آيات من آيات القرآن الكريم[١]، ووردت كلمة: (الحِكْمَة) في عشرين آية منها، وكلمة: (الحكِيمْ) في سبع وتسعين آية منها.

ووردت كلمة: (الحِكْمَة) في الحديث النّبوي في عشرين حديثاً، وكلمة: (الحكِيْم) في ستّة أحاديث نبويّة[٢].

---

(١) انظر التفاصيل في: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (٢١٢ - ٢١٥) - مطبعة الشعب - القاهرة - ١٣٧٨هـ.

(٢) انظر التفاصيل في: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبويّ (٤٩١/١) - مكتبة ليدن - (١٩٣٦م).

والحِكْمَة: هي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، وهي العلم والتّفقّه، وفي التنزيل العزيز: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾[1]، وهي الكلام الذي يقلّ لفظه ويجلّ معناه.

والحكيم اسم من أسماء الله الحُسْنى، والحكيم من الحكمة، بمعنى العلم والعدل وحسن التدبير[2]، وبالرغم من كثرة ورود كلمتي: الحكمة، والحكيم، في القرآن الكريم والحديث النبوي الشّريف، فإن معنى هاتين الكلمتين مختلف عليه، فلكلّ كلمة من كلمات: الحكمة، والحكيم، التي وردت في القرآن الكريم لها معاني خاصة بها بالنسبة لورودها في الآية الكريمة وبالنسبة لرأي المفسّر، وما يقال عن ورود هاتين الكلمتين في الذّكر الحكيم وعن تفسيرها، يقال عن ورودهما في الحديث النّبويّ الشّريف وعن تفسيرهما أيضاً. والقرآن الكريم والسُنَّة النّبويّة هما لكلّ زمان ومكان، فمن الأفضل أن يبقى الباب مفتوحاً في تفسير معنى: الحكمة، والحكيم، لأن المعاني تتغيّر بالنسبة للزمان والمكان، وما يُقْبل في زمان مُعَيَّن ومكان مُعَيَّن، قد لا يُقْبَل في زمان ومكان معيّنين آخرين، ومن الحكمة أن تبقى معاني الحكمة والحكيم مرِنَةً لتصلح لكلّ زمان ولكلّ مكان ولكلّ أُمّة من الأُمم، ولكلّ جيل من أجيال تلك الأُمم.

وقد تميّز سفراء النبي ﷺ بالحكمة، فلا بدّ أن يكون السّفير مُقتنعاً، حسن التّصرف، مُتّزناً، غير متهوِّر، عاقلاً، ذكياً، حاضر البديهة، قوي الحجّة، سليم المنطق، هادىء الطبع مجرِّباً، إلى غير تلك المزايا التي تجعل من السفير حكيماً في تصرّفه، ينطق بالحكمة، ويدعو إلى الحكمة.

---

(١) سورة لقمان، آية ١٢.

(٢) القاموس الإسلامي (٢/١٢٨) - ط ١ - القاهرة - ١٣٨٦ هـ.

لقد كانت مناقشة جعفر بن أبي طالب في أرض الحبشة، لعمرو بن العاص سفير مشركي قريش إلى النجاشي، بحضور النجاشي ملك الحبشة، صورة من صور الحكمة، استطاع بها التّغلّب على عمرو، وإقناع النّجاشيّ بعدالة قَضيّته[1].

ولما قرأ المقوقس كتاب رسول الله ﷺ الذي حمله إلى حاطب بن أبي بَلْتَعَة، قال: «ما منعه إن كان نبيّاً أن يدعو عليّ فيُسَلّط عَلَيّ؟!!»، فقال حاطب: «ما منع عيسى بن مريم، أن يدعو على مَنْ أَبَى عليه أن يُفْعَل به ويُفْعَل؟!!»، فوجم المقوقس، ثم استعادها، فأعادها عليه حاطب، فسكت[2].

وسأل المقوقس حاطباً: «أخبرني عن صاحبك، أليس هو نبيّاً؟!»، قال: «بَلى»، قال: «فما له لم يَدْعُ على قومه، حيث أخرجوه من بلدته؟!»، فأجابه حاطب: «فعيسى بن مريم حين أراد قومه صلبه، لم يَدْعُ عليهم حتى رفعه الله»، قال: «أحسنتَ، أنتَ حكيمٌ، جئت من حكيم»[3].

وقد كان عمرو بن العاص حكيماً حقاً في أقواله وتصرّفاته. قيل لعمرو: «ما العقل؟»، قال: «الإِصابة بالظنّ، ومعرفة ما يكون بما قد كان»[4]. وقال: «ليس العاقل الذي يعرف الخيْرَ من الشر، إنما العاقِل الذي يعرف خير الشّرّين»[5].

---

(١) انظر التفاصيل في: سيرة ابن هشام (١/٣٥٨ - ٣٦١) وحلية الأولياء (١/١١٤ - ١١٦) وعيون الأثر (١/١١٨ - ١١٩).

(٢) فتوح مصر والمغرب (٦٥).

(٣) تهذيب الأسماء واللّغات (١/١٥١).

(٤) العقد الفريد (٢/٢٤١).

(٥) العقد الفريد (٣/١١).

وكان يقول: «اعمل لدُنياك عملَ مَنْ يعيش أبداً، واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً»(١)، وقال: «اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنّك تموتُ غداً»(٢).

وقال معاوية بن أبي سفيان يوماً لعمرو: «ما بلغ من عقلك؟»، فقال: «ما دخلت في شيء قطّ إلاّ خرجتُ منه»(٣)، وفي رواية أخرى أنّه قال: «لم أدخل في أمرٍ قط فكرهته إلاّ خرجتُ منه»، وكان يقول: «ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشرّ، ولكنّه الذي يعرف خير الشّرين»(٤).

لقد بلغ عدد سفراء النبي ﷺ خمسة عشر سفيراً، استُشهد واحد منهم فقط وهو في طريقه إلى ملك بُصْرى الذي أرسله النبي ﷺ، قبل أن يبلّغ رسالته النبويّة إلى ملك بُصْرَى.

وبلّغ أربعة عشر سفيراً من سفراء النبي ﷺ الملوك والأمراء بالرسائل النّبوية، وحقّقوا أهدافهم من سفاراتهم تحقيقاً كاملاً في التّبليغ، ثم عاد مَنْ عاد منهم سالماً إلى المدينة المنوّرة، وبقي مَن بقي منهم في البلاد التي أُرسلوا إليها، لإسلام الملوك والأمراء وإسلام غيرهم من شعوبهم ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

ولم يُسْلِم أربعة من الملوك والأمراء: ثلاثة منهم من غير العرب، وواحد منهم عربيّ، بينما أسلم الملوك والأمراء الذين أُوفد إليهم عشرة من السّفراء النبويين.

---

(١) العقد الفريد (٢٧/٣).
(٢) العقد الفريد (٢٠٢/٦).
(٣) العقد الفريد (٢٤٢/٢).
(٤) عيون الأخبار (٢٨٠/١).

وهذه النتائج إن دلّت على شيءٍ، فإنما تدلّ على نجاح السّفارات النّبويّة نجاحاً عظيماً.

وقد كان أولئك السّفراء دعاةً للإسلام كما أسلفنا، التزموا بما جاء في القرآن الكريم حول الدعاة وتصرّفهم في مجال الدّعوة: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾[1].

لقد كانت الحكمة من سمات السُّفراء النبويين، لذلك وُفِّقوا في الدّعوة ونجحوا دعاةً.

٨. سِعَة الحيلة

يجب أن يكون السّفير ذكيّ القلب، يفهم الإيماء، ويناظر الملوك على السّواء[2]، متأنّياً صبوراً، مكيناً من عقله، المخمّر لرأيه، المراجع لنفسه، الذي لا يُمضى إلاّ الرأي المتعقَّب المنَقَّح[3]، له جمال وعقل[4]، وهو كتوم[5].

وسعة الحيلة التي ترتكز أولاً وقبل كلّ شيء على الذكاء، من أهم سِمات السَّفير، ويصف العرب الرّجل الفَطِن بالحُوَّل القُلَّب، بمعنى القادر على تقليب الأمور على أوجهها المختلفة، واحتيال الحيل لإصابة الهدف، وإدراك النيّات الخفيّة التي يبيّتها المرسل إليه، والحذر من المزالق

---

(١) سورة النّحل، آية ١٢٥.

(٢) رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة - أبو علي الحسين بن محمد المعروف بابن الفرّاء (٣٥) - تحقيق د. صلاح الدين المنجد.- بيروت - ١٩٧٢.

(٣) رسل الملوك (٤٠).

(٤) رسل الملوك (٦٠).

(٥) رسل الملوك (٦١).

واتّقاء العواقب غير الحميدة. ومثل هذا الرّجل الفَطِن، يأخذ دائماً بيده زمام المبادرة، بحكم يقظته وذكائه وعلمه، وهو سريع البديهة في مواجهة ما قد يعرض له من مفاجآت غير متوقّعة، قادر على الحركة في أي اتّجاه يريد[1].

ومن مظاهر سعة الحيلة التفكير المنظّم، في معرفة الهدف، وفي توخي هذا الهدف، وتنظيم خطّة لتحقيق الهدف، وأن يضع الخطّة البديلة في حالة إخفاق الخطّة الأولى، وأن يكون كتوماً في تعيين الهدف والخطّة لتحقيقه، وتوقيت التحقيق، ومكان التحقيق، فإذا تسرّبت النيات والخطط فالنجاح مشكوك فيه، لذلك كان الكتمان ضرورياً للسّفير.

ويمكن أن نعبّر عن سعة الحيلة، بأهم مقوّماتها، وهي ألمعيّة الذكاء، والدهاء، وتوقّع الأحداث، والحساب لكلّ ما يمكن أن يحدث أو يُتوقّع حدوثه.

والحِيْلَة في اللغة: الحِذْق، وجودة النَّظر، والقدرة على دِقّة التّصرف في الأمور[2]، ورجلٌ حُوَّلٌ، ذو حِيَل، وامرأة حُوَّلَة، ويقال هو أحْوَل منك، أي أكثر حيلة. ورجلٌ حُوَّل، أي بصير بتحويل الأمور، والحوَّل، ذو التّصرف والاحتيال في الأمور[3].

وسعة الحيلة هي سعة الحِذق وجودة النّظر والقدرة على دِقّة التصرّف في الأمور، وكان سفراء النبي ﷺ يتّسمون بسمة سعة الحيلة، فكانت

---

(١) مقومات السفراء في الإسلام - حسن فتح الباب (٨٥ - ٨٦) - القاهرة - ١٣٩٠ هـ.

(٢) انظر: ترتيب القاموس المحيط (٦٤٧/١) ولسان العرب (١٩٦/١٣ - ١٩٧) ومعجم متن اللّغة (٢٠٥/٢) والوسيط (٢٠٩/١).

(٣) لسان العرب (١٩٧/١٣).

تلك السِّمة عاملاً من عوامل نجاحهم في النهوض بواجباتهم التي أُرسلوا لتحقيقها ومن أجلها.

ولعلّ أوضح دليل على تمتع السّفراء النبويين بسعة الحيلة، هو إسلام مَن أسلم من الملوك والأمراء ومَن معهم من الناس، بتوفيق الله وتسديده وهدايته.

وأبرز مَن سجّل له المؤرخون مواقف تدلّ على سعة الحيلة، هو عمرو ابن العاص، ويمكن ذكر بعض ما سجّله المؤرخون لذلك السّفير النبويّ أمثلةً على سِعة الحيلة.

كان عمرو قائد المسلمين في فلسطين، وكان الأرطبون قائد الرّوم، وذلك في أيام فتح فلسطين. وقد أراد عمرو أن يحصل على معلومات مفصّلة عن الرُّوم، فدخل على الأرطبون كأنّه مبعوث من قائد المسلمين، ولكن الأرطبون شكّ في أنّه هو القائد، فاستطاع عمرو التخلّص من الأرطبون بعد أن انكشف أمره للأرطبون، فلما سمع عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، بخديعة عمرو للأرطبون قال: «لله دَرّ عمرو!»، كما قال عنه الأرطبون: «هذا أدهى الخَلْق»(1).

ولمّا فتح عمرو قَيْسَارِيَّة(2) من أرض فلسطين، سار حتى نزل غزَّة(3)، فبعث إليه عِلْجُها: «أن أبعث إليَّ رجلاً أُكَلِّمه». وفكّر عمرو في الأمر، فقال: «ما لهذا أحد غيري».

(1) انظر التفاصيل في الطبري (٣/٦٠٥ - ٦٠٧) وابن الأثير (٢/٤٩٨)، وانظر تفاصيلها في سيرة عمرو بن العاص في: سفراء النبيﷺ.

(2) قيساريّة: بلد على ساحل بحر الشّام (البحر الأبيض المتوسط) تُعدّ من أعمال فلسطين، بينها وبين طبريّة ثلاثة أيام، وكانت قديماً من أعيان أمهات المدن، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/١٩٥).

(3) غزّة: مدينة بأقصى الشّام من ناحية مصر، وهي مدينة فلسطينية مشهورة، بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل في غربيها، وفيها مات هاشم جدّ النبيﷺ، وبها وُلد الإمام الشّافعي رحمه الله، انظر مراصد الإطلاع (٢/٩٩٣ - ٩٩٤).

وخرج عمرو حتى دخل على العِلْج، فكلّمه، فسمع كلاماً لم يسمع قطّ مثله، فقال العِلْج: «حدّثني، هل في أصحابك أحد مثلك؟!»، قال: «لا تسأل عن هذا، إني هيّن عليهم إذ بعثوا بي إليك، وعرّضوني لما عَرّضوني له، ولا يدرون ما تصنع بي!»، فأمر له بجائزة وكُسْوَة، وبعث إلى البوّاب: «إذا مرّ بك فاضرب عنقه وخُذْ ما معه».

وخرج عمرو من عنده، فمرّ برجل من نصارى غَسّان، فعرفه. فقال: «يا عمرو! قد أحسنتَ الدّخول، فأحسن الخروج»، ففطن عمرو لما أراده، فرجع. وقال له الملك: «ما ردّك إلينا؟!»، فقال: «نظرت فيما أعطيتني، فلم أجد ذلك يسع بني عمّي، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العَطِيَّة، فيكون معروفك عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد»، فقال: «صدقت! اعْجِل بهم»، وبعث إلى البوّاب: أن خَلِّ سبيله.

وخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أَمِنَ قال: لا عُدْتُ لمثلها أبداً» فلما صالحه عمرو، ودخل عليه العِلْج، قال له: «أنت هو!!!»، قال: «نعم، على ما كان من غَدْرك»[1].

وكرر عمرو هذه العملية مرة ثالثة في أيام فتح مصر[2].

وقد تسنّم سفراء النبي ﷺ في حياته وبعد التحاقه بالرّفيق الأعلى مناصب إداريّة وقياديّة وقضائية رفيعة كما هو معروف، مما يدلّ على تميّزهم بسمات رفيعة، منها سِمة: سِعة الحيلة، ولا عبرة بسكوت قسم من المؤلفين عنها، فقد سكتوا بدون قصد عن كثير من أمثالها.

---

(١) العقد الفريد (١/١٢٤ - ١٢٥).

(٢) انظر التفاصيل في: فتوح مصر والمغرب (٩٣).

٩. المَظْهَر

تميّز سفراء النبيّ ﷺ بِسِمة: رواء المَظْهَر، بالإضافة إلى تميّزهم بسمات: رواء المَخْبَر، فجمعوا رواء المظهر إلى رواء المَخْبَر، فكان مظهرهم الجميل دليلاً على مَخْبَرِهم الطّاهر، والأثر يدلّ على الأَثْير، والبَعْرة على البعير، كما يقول المثل العربيّ المشهور.

وقد حرص النبيﷺ، على اختيار سفرائه من بين أصحابه الذين تتوافر فيهم صفات شكلية جميلة إلى جانب سِماتهم العقلية والنفسيّة التي ذكرناها في تعداد: سِمات السّفراء النّبويين.

والمهمّ في الإسلام المَخْبَر لا المظهر في تقويم المسلم، فالإسلام لا يُقيم وزناً لوسامة الوجوه وبهاء الملامح، ولا يحفل باختلاف الأشكال والألوان، لأنّه دين الجوهر لا المظهر، فلا فرق بين الأبيض والأسود، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[1]، وقال عليه الصّلاة والسّلام: «**كلّكُم بنو آدم، وآدم خُلِقَ من تُراب**»[2]، وقال: «**رُبَّ أشْعَثَ أَغْبَر**[3] **ذي طِمْرَيْن**[4] **تَنْبُو عنه أعين الناس، لو أقسم على الله لأَبَرَّه**»[5]، وقال: «**إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[6].

---

(١) سورة الحجرات، آية ١٣.

(٢) رواه البزار عن حذيفة، وهو حديث حسن، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٢/١٥٨).

(٣) أغبر: غيّر الغبار لونه.

(٤) الطمران: تثنيه طِمْر، وهو الثّوب الخلق.

(٥) حديث صحيح، رواه مسلم وأحمد بن حنبل، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (١/١٢٤).

(٦) حديث صحيح، رواه مسلم وابن ماجه، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (١/١٢٤).

والواقع أنّه لا تناقض بين مبادىء الإسلام في المساواة بين الناس، وبين اشتراط سِمة المظهر في السفير، لأنّ الأمر هنا لا يتعلّق بالحقوق أو الواجبات التي يسوّي الإسلام فيها بين الناس ولا بالموازين التي يُقاس بها المسلم، ولكنّه يتعلّق بالأوضاع الوظيفيّة ومقتضياتها وبالقاعدة الإداريّة التي تقول بضرورة وضع كلّ مُسلم في المكان الذي تؤهله له طبيعته وصفاته ومؤهلاته، وهذه المبادىء لا تتنافى مع مبادىء الإسلام طالما روعيت العدالة في تطبيقها بل إنّها تتّفق مع أصول الحكم والإدارة في الإسلام، وتستند إلى المبدأ الإسلامي القائل: «كلّ مَيسّر لما خُلِق له»، وإلى المبدأ التّشريعي الأساسيّ القائل: «لا ضَرَر ولا ضِرار»[1].

إنّ من سِمات السفير، أن يكون حَسَن الرُّواء والمنظر[2]، وسِيماً قسيماً[3]، ويُستحب في السّفير تمام القَدّ، وعَبَالة الجِسم، حتى لا يكون قميئاً. وإن كان المرء بأصْغَرَيْهِ، ومخبوءاً تحت لسانه، ولكنّ الصورة تَسْبِق اللّسان، والجثمان يستر الجنان[4].

قال النبيّ ﷺ لجعفر بن أبي طالب: «**أشْبَهَ خَلْقُكَ خَلْقي، وخُلُقُكَ خُلُقيْ**»، وفي رواية أخرى: «**أشْبَهْتَ خَلْقِيْ وخُلُقِيْ**»، وفي رواية ثالثة:

---

(١) مقوّمات السفراء في الإسلام (٦٠) - حسن فتح الباب - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة - ١٣٩٠ هـ.

(٢) رسل الملوك ومَنْ يصلح للرسالة والسفارة - (٣٤) - أبو عليّ الحسين بن محمد المعروف بابن الفرّاء - تحقيق - د. صلاح المنجد - ط ٢ - بيروت - ١٩٧٢ م.

(٣) رسل الملوك (٣٥).

(٤) رسل الملوك (٤٧)، والعبالة: الضخامة وامتلاء الجسم والعبل: الممتلىء الجسم. والقميء كأمير: إذا ذلّ وصغر في الأعين، فهو قميء.

«إنّكَ شَبِيهُ خَلْقِي وخُلُقِي»(١)، فهو أحد المعدودين من المشبَّهين برسول الله ﷺ(٢).

ولم يفصِّل مَنْ كتب على جعْفر بن أبي طالب مظهره، ولكنّهم فصّلوا مظهر النبيّ ﷺ، ووَصْفُ النّبيّ ﷺ في مظهره بلغة العصر اعتماداً على كتب الحديث(٣) هو أنه: «كان النبيّ ﷺ ليس بالطويل ولا بالقصير، ولكنّه كان وسطاً، بارع الجمال، مدوّر الوجه كالقمر حين يكون بدراً أو كالشّمس، أبيض اللّون مشرّباً بحُمرة، شديدة سواد العينين، أهداب أجفانه طويلة الشعر، عظيم رؤوس العِظام مثل الركبتين والمرفقين والمنكبين والكاهل وما يليه من جسده، شعره بين السُّرَّة وما تحتها دقيق، غليظ الكفين والقدمين، شعره ليس سبطاً ولا جَعْداً، يمشي بقوّة وثبات كأنّه ينحدر من مرتفع عالٍ، يلتفتُ بكلّ رأسه، كبير الرأس، واسع الجبين، في بياض عينيه حُمرة، كثيف شعر الحواجب بدون قَرْن، أكحل العينين من غير كحل، سهل الخدّين، في عظم أنفه أحديداب، ضليع الفمّ، مفلّج الأسنان أبيضها، طويل العنق، عريض الصّدر، بعيد ما بين المنكبين، سواء البطن والصّدر، لم يُعبه عِظَم البطن، ليس في أسفل صدره وثدييه شعر، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصّدر، رحب الراحة، تبرق أسارير وجهه إذا كان مسروراً،

---

(١) أشبهت خَلْقي وخُلُقي، رواه الشيخان انظر تيسير الوصول (٢٧٥/٣)، وطبقات ابن سعد (٣٦/٤).

(٢) انظر أسماءهم في المحبّر (٤٦ - ٤٧).

(٣) انظر وصف علي بن أبي طالب للنبي ﷺ، ووصف الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما للنبي ﷺ، ووصف أنس بن مالك رضي الله عنه للنبي ﷺ، حديث الإمام أحمد بن حنبل والترمذى فى وصف النبى ﷺ، وانظر تلك الأوصاف في: ومضات من نور المصطفى ﷺ (٢٩-٣٠).

وإذا غضب ظهر الغضب على وجهه، ضخم الرأس واللّحية، شعر رأسه بين أُذنيه وعاتقه طوله إلى شحمة أذنه، حلّته غالباً بيضاء وقد تكون صفراء أو حمراء، تُوفي وليس في شعره ولحيته عشرون شعرة بيضاء، لم يخضب، طيِّب الرائحة، نظيف البدن، والثياب، إلى أبعد الحدود، مَن رآه بديهة هابه، ومَن خالطه معرفةً أحبّه[1].

وقد أشبه خَلْق جعفر خلق النبي ﷺ، فهو جميل المظهر حقاً، وصدقت زوجة جعفر وهي أسماء بنت عُمَيْس، حيث وصفته بعد استشهاده قائلة: «ما رأيت شاباً من العرب كان خيراً من جعفر»[2].

وصدقت في رثائه حين قالت:

فآليتُ لا تَنْفَكُّ نفسي حزينةً ... عليكَ ولا ينفكُّ جِلْدِيَ أَغْبَرا
فلِلَّهِ عَيْناً مَنْ رأى مِثْلَهُ فَتًى ... أكرَّ وأحْمَى في الهياجِ وأصبرا[3]

وكان دِحْيَة بن خَلِيْفَة الكَلْبِيّ جميلاً من أجمل النّاس[4]، وكان أجمل النّاس وجْهاً[5]، يُضرب به المثل في حسن الصّورة[6].

وكان عبد الله بن حُذافة السَّهْمِيّ القُرَشي يتّسم برواء المظهر، فقد ذكرنا أنّ الرّوم أسرته وأنّ ابنة ملك الرّوم رغبت به زوجاً لها، على

(١) ومضات من نور المصطفى ﷺ (٣١) - ط ٢ - القاهرة - ١٣٩٩هـ.
(٢) طبقات ابن سعد (٤/٤١).
(٣) البداية والنهاية (٤/٢٥٣).
(٤) تهذيب الأسماء واللّغات (١/١٨٥).
(٥) تهذيب التهذيب (٣/٢٠٦).
(٦) الإصابة (٢/١٦٢).

شرط اعتناقه المسيحيّة، ولكنّه رفض الوعد والوعيد، ولم يستجب لملك الرّوم، وبقي مسلماً، غير ملتفت للاغراء[١].

وكان حاطِب بن أبي بَلْتَعة حسن الجسم، خفيف اللّحية، أجنأ، ششن الأصابع[٢].

وكان شجاع بن وَهْب الأسدي رجلاً نحيفاً طِوالاً أجْنأ[٣]، وهي ملامح تدلّ على رواء مظهره.

وكان عمرو بن العاص رَبْعَة، قصير القامة، وافر الهامة، أدْعَج أبْلَج[٤]، يخضب بالسّواد[٥]، يهتمّ بملبسه ومأكله[٦]، فكان له رواء للمظهر طبيعيّ، ورواء للمظهر اصطناعيّ.

ولا نصّ على رواء مظهر العلاء الحَضْرَمِيّ، ولكنّه وأهله كانوا حلفاء بني أُميّة، وهم معروفون بالاهتمام بمظهرهم قبل الإسلام وبعده، فمن المعقول أن يقتدى الحليف بحليفه، وبخاصة وأنّهم يعيشون بتماس شديد، متعاونين في البأساء والضرّاء.

والصَّعْبَة أخت العلاء، كانت تحت أبي سُفيان بن حرب، وكان أبو سفيان سيّد قريش وقائدهم حتى يوم فتح مكّة المكرّمة في السنة الثامنة الهجريّة، فليس من المعقول أن يتزوّج الصّعبة وهي ليست قرشية ويتخلّى عن بنات قومه من قريش، إلاّ إذا كان وراء زواجه بها

---

(١) أسد الغابة (١٤٣/٣).

(٢) طبقات ابن سعد (١١٤/٣)، وأجنأ: الذي على كاهله انحناء على صدره. والششن: الغليظ الخشن، يقال: ششن الأصابع.

(٣) طبقات ابن سعد (٩٤/٣).

(٤) فتوح مصر والمغرب (١٩٠) وانظر الإصابة (٢/٥).

(٥) فتوح مصر والمغرب (٢٤١) وانظر أسد الغابة (١١٧/٤).

(٦) فتوح مصر والمغرب (١٩٠) و (٢٤١) وانظر أسد الغابة (١١٧/٤).

جمالها غير الاعتياديّ، فأغراه بها جمالها الباهر، واختارها حليلة له. فلمّا طلّقها أبو سفيان، خلف عليها عُبَيْد الله بن عُثمان التَّيْمِيّ، فولدت له طلحة بن عُبَيْد الله أحد العشرة المبشّرين بالجنّة[1]، مما يدلّ على جمالها حتى بعد أن تخلّى عنها في ريعان الشباب، فما كسدت بعد طلاقها، بل أقبل عليها أشراف قريش. وكان طلحة بن عُبَيْد الله رضي الله عنه حسن الوجه، دقيق العِرْنَين[2]، ولا يُستبعد أن يكون طلحة قد خوّل، فورث الجمال عن أُمّه وأخواله، ومنهم العلاء.

وما يقال عن العلاء، يقال عن المهاجر بن أبي أُميَّة المخزومي، فلا نَصّ على رواء مظهره، ولكنّ المصادر تنصّ على أنّ شقيقته أُمّ سَلَمَة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، كانت: «موصوفة بالجمال البارع، والعقل البالغ، والرأي الصّائب»، ولعلّ اختياره سفيراً دليل على رواء مظهره، وأنّه كان يشابه شقيقته في مظهرها ومخبرها أيضاً.

وكان جرير بن عبد الله البَجَلِيّ جميل الصّورة، وحين قدم على النبي ﷺ مُسلِماً من اليَمَن، قال النبيّ ﷺ: **«إنه يَقدم عليكم من هذا الفجّ من خير ذي يَمَن، وإنّ على وجهه مِسْحة ملك»**، فلما دخل، نظر النّاس إليه، فكان كما وصف رسول الله ﷺ، وأخبروه بذلك، فحمد الله تعالى[3].

وكان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يقول: «جرير يوسف هذه الأُمّة»، لجماله وكماله وحسن فعاله[4].

---

(١) طبقات ابن سعد (٣٥٩/٤).

(٢) طبقات ابن سعد (٢١٩/٣)، والعرنين: ما صلب من عظم الأنف.

(٣) الإصابة (٢٤١/٨).

(٤) البداية والنهاية (٥٥/٨).

(٥) البدء والتاريخ (١٠٣/٥) وانظر تهذيب الأسماء واللّغات (١٤٧/١).

وكان طويل القامة، يصل إلى سنام البعير، يخضب لحيته بزعفران بالّليل، ويغسلها إذا أصبح[1].

رآه عبد الملك بن عُمَيْر فقال: «رأيتُ جريراً، كأن وجهه شقّ قمر»[2].

وكان جرير من المتعمّين بمكّة المكرّمة، مخافة النّساء على أنفسهم من جمالهم[3].

وكان مُعَاذ بن جَبَل رجلاً طُوالاً، أبيض، حسن الثَّغر، أكحل العينين، برَّاق الثَّنايا[4]، حسن الشَّعْر، عظيم العينين[5]، جميلاً، من أفضل سادات قومه، سمحاً لا يُمْسِك[6]، أحسن النّاس وجها[7].

وكان أبو موسى الأشعري حفيف الجسم، قصيراً، أثطّ[8] اللّحية، ويبدو أنّه لم يكن جميلاً بالدرجة الكافية، ولكن مظهره كان مقبولاً على العموم، وعلى كلٍّ حال كانت سفارته إلى اليمن لا إلى دولة أجنبية كالفُرس والرُّوم، أو إلى عرب لهم صلة مباشرة ذات جذور عريقة بالفُرس والرّوم كالغساسنة في بلاد الشّام، والمناذرة في العراق، فهو عربي يَمَنيٌّ، أُرسل إلى عرب اليمن بني قومه وإلى اليمن وطنه، وأهل مكّة أدرى بشِعابها، كما يقول المثل العربيّ القديم.

---

(١) تهذيب الأسماء واللّغات (١٤٧/١).
(٢) البداية والنهاية (٥٦/٧).
(٣) المحبّر (٢٣٢).
(٤) طبقات ابن سعد (٥٩٠/٣)، وانظر الاستبصار (١٤٠).
(٥) الاستيعاب (١٤٠٣/٣).
(٦) الاستيعاب (١٤٠٤/٣).
(٧) أسد الغابة (٣٧٦/٤).
(٨) طبقات ابن سعد (١١٥/٤) والمعارف (٢٦٦)، وانظر المحبّر (٣٠٥)، والثطّ: هو الذي لا لحية له، وهو الكوسج، وهو السناط.

إنّ مظهر المرء يؤثّر في مَنْ يراه من الناس، فإذا كان مظهره مقبولاً، كان بداية طيّبة لتقبُّل ما يعرض ولتحقيق ما يستهدف. أما إذا كان مظهره بشعاً، فقد يكون ذلك بداية للاخفاق.

وصدق رسول الله عليه الصّلاة والسّلام: «**إذا أَبْرَدْتُمْ**[1] **إلي بَرِيْداً، فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم**»[2].

---

(١) أبردتم: أرسلتم رسولا.
(٢) حديث حسن، رواه البزّار، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٢٣/١).

نهاية المطاف

تلك هي مجمل سِمات سفراء النبي ﷺ، استنبطناها من سِيَرَهم ومن دراسة المؤلّفات الخاصة بالسَّفارات النَّبويّة، وضربنا على كلّ سِمة من تلك السِّمات من سِيَرَهم الأَمثال.

وهناك حافزان حملاني على تأليف هذا البحث: حافز مباشر، وحافز غير مباشر.

أما الحافز المباشر، فهو الأمل في اقتداء المسؤولين العرب والمسلمين بالنبيّ ﷺ في اختيار السُّفراء، اهتداءً بسمات السُّفراء النَّبويين، الذين كان نجاحهم في سفاراتهم النَّبويَّة واضحاً مشهودا، فنشروا الإسلام في البحرين وعُمَان وحَضْرَموت واليَمَن واليَمَامة وبلاد الحبشة، نتيجةً فورية لسفارات النبيّ ﷺ إلى تلك الأصقاع بالدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والإقناع بالحُسْنى. كما مهَّدوا لنشر الإسلام في العراق وأرض الشّام ومصر وبلاد فارس وبلاد الرُّوم، وفي كلّ موطن وصل إليه سفراء النبي ﷺ، فلم تمض سنوات معدودات على السّفارات النّبويّة إلى تلك الأصقاع، حتى جاءها نصر الله والفتح، ودخل النّاس من أهلها في دين الله أفواجاً.

كانت تلك السِّمات: الإسلام والانتماء إليه، فلا انتماء إلاّ إليه، ولا إخلاص إلاّ له، ولو خُيِّر أحدهم بين التّخلّي عن عقيدته والتّخلّي عن روحه، لاختار بدون تردّد التّخلّي عن روحه، إخلاصاً لعقيدته ودفاعاً عنها ووفاءً لها.

والسِّمة الثانية، هي الفصاحة، ليُبَيِّن هدفُه، والغاية التي جاء من أجلها، ويدافع عن الإسلام، ويردّ على المعترضين، ويناقش المتشكّكين، بمنطق واضح وبيان مُبين.

والسِّمة الثالثة، هي العلم، العلم بتعاليم الدين، والعلم بتعاليم الأديان السّائدة، والعلم بالأوضاع الاجتماعية والسياسية، والاقتصادية في بلده وفي بلد الملك المرسل إليه، والعلم بالملك الذي سيقابله والحاشية التي تحيط به، وللعلم أثره، وللعالم تأثيره، ولا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

والسِّمة الرابعة هي حُسْن الخُلُق، فهو زينة للسّفير، ومدخل لنجاحه، وسبيل إلى قلوب الذين أُرسل إليهم، ووسيلة لإعطاء انطباع متميِّز عن الذي أَرسل السفير، وعن الأُمّة التي ينتسب إليها السّفير.

ولا نجاح لسفير لا خَلاق له.

والسِّمة الخامسة هي الصَّبر الجميل، وكلّ عمل السَّفير بحاجة إلى الصّبر الجميل، وما أفلح سفير يجتاحه الجزع، فإذا جزعَ السّفير فقد خسر كلّ شيءٍ، وإذا صبر فقد يسّر لواجبه أوّل عوامل النّجاح.

والسِّمة السَّادسة الشّجاعة والاقدام، فما وُفِّق جبان في عمل عام، ولا يصلح الجبان لأيِّ عمل عام، ولا يفلح الجبان حيث أتى.

والسِّمة السّابعة هي الحِكْمَة، وهيهات أن يحقِّق الأحمق هدفه ولو كان ظاهرا، والحكيم هو الذي يحقِّق هدفه ولو كان مستعصيا، وبالحكمة تلين القلوب وتستكين النفوس، وبدونها تقسو القلوب، وتشتدّ النفوس ويصبح التّفاهم صعباً إن لم يكن مستحيلا.

والسِّمة الثامنة هي سِعة الحيلة، فذكاء القلب يفتح ما استُغلق من القلوب، وغباء القلب يغلق ما استُفتح من القلوب، والسّفير ذو الحيلة الواسعة يفهم ما يسمع ويستنبط مما يسمع، فإذا تعذّر عليه السّماع لم

يُعجزه التوصّل إلى السّماع وهو على كلّ يعود موفقاً، لا يعود إلاّ بتحقيق أهدافه كاملة غير منقوصة، مهما يصادف من مشاكل وصعوبات.

والسِّمة التَّاسعة هي المظهر الجميل، فهو القادر على استهواء القلوب القاسية واستصفاء النّفوس الصعبة، بعكس المظهر القبيح، فهو الكفيل بإدبار القلوب الّليِّنة واستكبار النفوس الهيِّنة. إنّها تجعل الصّعب سهلا، وغير الممكن ممكنا، وتُيَسِّر الأمور، وتبسِّط المعقّد، وتفتح القلوب والنفوس على مصراعيها.

وكم أتمنى، ويتمنّى كلّ عربيّ ومُسْلم، أن يضع المسؤولون العرب والمسلمون هذه السِّمات نصب أعينهم، في حالة اختيار السّفراء الذين يمثِّلون بلادهم في البلاد العربية الشَّقيقة والدول الإسلاميّة والدول الأجنبيّة، وبذلك تُرفع مكانةُ السّفراء العرب والمسلمين ومكانة السّفارات العربيّة والإسلامية في الدّاخل والخارج، وتصبح لهم مكانة في المنظّمات الدولية وبين الدول كافة في العالم.

فإن استطعتُ أن أُوجِّه أنظار المسؤولين العرب والمسلمين إلى هذه السِّمات التسع الواجب أن يتحلّى بها السُّفراء العرب والمسلمون، أُسوة بسفراء النبي ﷺ في سِماتهم المتميِّزة، فذلك غاية ما أصبو إليه وأتمناه على الله.

وإن لم أستطع أن أُوجِّه أنظار المسؤولين العرب والمسلمين إلى هذه السِّمات التّسع، أو استطعت أن أُوجِّه إليها أنظارهم فقرأوها ولم يعملوا بها، ولم يقتدوا بسمات سفراء النبي ﷺ، فقد بذلتُ جهدي وما أردتُ إلاّ الإصلاح، والتوفيق من الله سبحانه وتعالى وحده و: «**إنّما الأعمال بالنّيات، وإنما لكلّ امرىءٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومَنْ كانت هجرته إلى دُنيا يصيبها**

أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»، أخرجه الخمسة[1].

أما الحافز غير المباشر، فهو خدمة السِّيرة النبويّة، في ناحية مهمّة جداً من نواحيها، قد تَسدّ حاجةً وتملأ فراغاً في المكتبة العربيّة والإسلامية، ينبغي ألاّ يبقيان بعد اليوم بإذن الله.

وليست بي حاجة إلى أن أكشف جهودي ومنهجي في تأليف هذا البحث الذي استمرّ ثلاث سنوات، اتّصل فيها اللّيل بالنّهار، وأتوقّع أن يكتشف القارىء والدارس والباحث والناقد الجهد والمنهج، والله أسأل أن يفيد بهذا الجهد، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

والحمد لله الذي أنعم عليّ بالتفرّغ لخدمة السِّيرة النّبوية، وقادة النبي ﷺ، وسفراء النبي ﷺ، وقادة الفتح الإسلامي، والعسكرية العربية الإسلامية، فلولا تفرّغيّ الكامل لهذه الدراسات لما استطعت أن أفعل شيئاً، وما أصدق الشافعيّ رحمه الله في قولته: «لو كُلِّفتُ بشراء بَصَلَة، لما استطعتُ حلّ مَسْألَة».

والله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بُكْرَةً وأصيلا.

وصلى الله على سيدي ومولاي رسول الله، وعلى آله وأصحابه أجمعين. ورضي الله عن قادة النبي ﷺ وجنوده، وسفرائه، وكتّابه، وأُمرائه، وقضاته، وجباته، وولاته وحرّاسه وحُماته، وأولاده وبناته وزوجاته.

ورضي الله عن قادة الفتح الإسلامي وجنوده، وقادة الفكر الإسلامي وجنوده، وعن كلّ من خدم العربيّة لغةً والإسلام ديناً ويخدمها إلى يوم الدِّين بأمانة وقوّة وإخلاص لوجه الله.

وآخر دعوانا أَنْ الحمد لله ربِّ العالمين، وحسبنا الله ونِعْمَ الوكيل.

---

(١) تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرّسول ﷺ (٢٨٢/٤).

إسلام النَّجاشيّ
والاعتماد على المصادر الإسلامية في الدراسات
اللغوية والإسلاميّة
أمل و رجاء

اللواء الركن: محمود شيت خطّاب

المصادر لا المراجع

أقرأُ مقالاً بعنوان: (الرّسائل التي بعث بها النبيّ ﷺ إلى ملوك الدول المجاورة).

ولأهميّة المقال باعتباره من الدراسات الإسلاميَّة التي تتَّصل بالنبي ﷺ وبالدَّعوة إلى الإسلام، جعلته سبباً مباشراً للتَّعليق على الدراسات الإسلامية بعامة، وما يتّصل منها برسول الله ﷺ، بخاصة، فهذا البحث ليس خاصاً بالردّ على هذا المقال، ولكنّ المقال استثارني للتعليق عليه، والبحث، وما توفيقي إلاّ بالله، عليه توكّلت.

اسم النجاشي: (اصْحَمَة) - بفتح الهمزة، وإسكان الصاد، وفتح الحاء والميم - وهذا الذي وقع في رواية الإمام مُسْلِم في صحيحه هو الصواب المعروف فيه، وهكذا هو في كتب الحديث والمغازي وغيرها ووقع في مُسْنَد أبي شَيْبَة تسميه: (صَحْمَة) - بفتح الصاد وإسكان الحاء - وقال: «هكذا قال لنا يزيد، وإنما هو: صَمْحَة» - يعني بتقديم الميم على الحاء - وهذان هما شاذّان، والصواب: (أَصْحَمَة)

بالألف. قال ابن قُتَيْبَة وغيره: «ومعناه بالعربيّة: عَطِيَّة».

وقال العلماء: والنجاشي لكلِّ مَنْ مَلَكَ الحبشة، وأما: أَصْحَمَة، فهو اسم علم لهذا الملك الصّالح الذي كان في زمن النبيّ ﷺ، وأنّ كلّ مَنْ ملكَ المسلمين يُقال له: أمير المؤمنين، ومَنْ ملك الرُّوم: قَيْصَر، ومَنْ ملك الفُرس: كِسْرَى، ومَنْ ملكَ التُّرك: خاقان، ومَنْ ملكَ القبط: فرعون، ومَنْ ملكَ مصر: العزيز، ومَنْ ملكَ اليمن: تُبَّع، ومَنْ ملك حِمْيَر: القَيل - بفتح القاف، وقيل: القَيل أقلّ درجة من الملك[1].

وأعود إلى مقال الكاتب، فقد نقل المعلومات الواردة في مقاله عن (المراجع) الحديثة، وكان الأحرى به أن ينقل تلك المعلومات عن (المصادر) الإسلامية المعتمدة، لأنّ رسائل النبي ﷺ مُسْتَوْعبة في تلك (المصادر) استيعاباً كاملاً، والعود إلى المصادر أثبتُ وأدقّ، وهو اعتراف بالفضل لذويه، ويجنِّب النّاقل عن (المصادر) الشّطط التى قد تكون (المراجع) وقعت فيه بحسن نيّة أو بسوء قصد، وما أكثر سوء القصد الذي ابتُلي به كثير من الكتاب والمؤلفين المحدّثين.

وحتى (المصادر) التي اعتمدها الكاتب في هوامشه على مقاله، نقلها بالحرف الواحد عن أحد (المراجع)، وقد بلغت هوامش المقال ستّة وسبعين هامشاً، كلّها منقولة عن (المراجع) بما فيها إشاراته إلى (المصادر)، أما (المصادر) فغائبة نهائياً عن المقال.

والاقتصار على (المراجع) دون (المصادر) في الدراسات الإسلاميّة، لا مسوِّغ له، وبخاصة في مثل موضوع هذا المقال، لأنّ كثيراً من (المراجع) اختلط في صفحاتها الحق بالباطل، فمن الحرام علينا أن ننقل سموم

---

(١) النووي - شرح الإمام النووي على صحيح الإمام مسلم - (٢/٣٣٧ - ٣٣٨) - المطبعة الكستلية بالقاهرة - ١٢٨٣هـ.

الباطل إلى عقول التلاميذ والطلاّب في المعاهد والمدارس والجامعات، وإلى عقول القراء في الصحف والمجلاّت والكتب، وإلى عقول السّامعين والمشاهدين في أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية.

وليس معنى هذا، أنني أريد الاقتصاد على (المصادر) دون (المراجع)، فينبغي الاطلاع على (المراجع) إذا حوى المرجع على فكرة جديدة أو رأي جديد أو اكتشاف حقائق جديدة لأول مرة، أما إذا كان المرجع قد نقل كلّ ما حواه عن المصدر، فمن الضروري أن نعود إلى المصدر، حتى لا نفسح المجال للتحريف أو التصحيف أو سوء الفهم أو الخطأ في النقل أو النسيان أو الدس عن قصد أو عن غير قصد.

وهذا ما وقع به كاتب المقال في اعتماده على (المراجع) دون (المصادر)، إذ تورّط في إنكار إسلام النجاشي، دون أن يتحقّق من خطأ هذا الانكار وخطورته.

ترديد الدسّ والتشكيك

وقد استوقفني في مقال الكاتب، ما جاء من إنكار إسلام النجاشي، ونصّ ما ورد في المقال: «بَيْدَ أنّه يلوح لنا، أنّ القول بإسلام النجاشي مبالغة لا يمكن أن تُحمل على ما أبداه النجاشيّ من أدبٍ ومجاملة في استقبال السفارة النبويّة. ولو أسلم النجاشي يومئذٍ لكان الإسلام قد عمر الحبشة كلّها، ولكانت النّصرانية قد غاضت منها، بيد أنّ الإسلام لم ينتشر في الحبشة إلاّ بعد ذلك بعصرٍ، وكان انتشاره في الجهات الشرقية والجنوبيّة فقط».

وصاحب المقال قد نقل هذا الكلام عن أحد المراجع التي أشار إليها في هوامشه، وكان الكاتب أميناً في نقله الحرفي وفي إشارته إلى المرجع بصراحة، وقد رجعت إلى المرجع الذي نقل عنه الكاتب وأشار إليه، فوجدت النقل حرفياً، وبهذا شارك هذا الكاتب مؤلّف هذا المرجع

بمسؤولية قبول التشكيك والدسّ وترديده من جديد.

لو أن الكاتب لم يوافق على هذا التشكيك والدسّ، لما أقدم على نقله حرفياً، ولردّ عليه وفنّده، ولكنّه سكت عليه وأقرّه.

وعدت إلى المرجع الذي نقل عنه الكاتب ما نقل، فوجدتُ أنّ مؤلّف ذلك المرجع نقل هذا الدس والتشكيك عن المراجع الأجنبيّة المعروفة بعدائها للمصادر الإسلامية المعتمدة، والتي دأبت على التشكيك في تلك المصادر والتهوين من قيمتها العلمية والتاريخية، في محاولاتها المستمرة أن تصرف الناس عنها، بحجّة العلم والبحث العلمي والمناقشة الموضوعيّة وعدم التعصّب، إلى غيرها من الشعارات التي خدعوا بها العرب والمسلمين حيناً من الدهر، ولكن هذه الشعارات بريئة منهم لأنهم بعيدون عن العلم والمناقشة الموضوعية ومتعصبون حين يتّصل الأمر بالعربية لغةً والإسلام ديناً وبما يمت إلى العربيّة والإسلام من مصادر في العلوم والآداب واللّغة والتاريخ، حيث يجرّدون معاولهم للهدم والتخريب وأقلامهم للدّس والتّشكيك.

ونظرة سريعة على المراجع التي ألّفها الأجانب عن العربية لغةً والإسلام ديناً، تبرز مبلغ تعصّبهم الأعمى المقيت.

والذين يدقّقون في ثبت المراجع الأجنبية الخاصّة باللّغة العربية والدين الإسلامي بما فيه التاريخ الإسلامي، منذ بدأ الاجانب الاهتمام بالقضايا العربية والإسلامية، منذ بزغ نور الإسلام، فبدأ اهتمامه بشكل متواضع محدود، إلى بداية مدّ الاتصال بالعرب والمسلمين في الحروب الصليبية بشكل أوثق وأوسع، إلى طغيان مدّ الاتصال بالعرب والمسلمين في نهاية الحروب الصليبية التي كانت في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين، حيث تكلّلت تلك الحروب الصليبيّة بالاستعمار الغربيّ، إلى تخصيص دراسات عالية في الجامعات الأجنبيّة

الغربيّة والشرقيّة للدراسات العربية والإسلامية وتسنّم الأجانب كراسي تلك الدراسات في الجامعات الأجنبيّة، يجد أنّ مؤلفي تلك المراجع من اليهود أصبحوا يهوداً صهاينة في هذا القرن العشرين الميلادي أو من رجال الدين النصارى وبخاصة المبشرين منهم أو من عملاء الاستعمار العاملين في سلكه السياسي أو الاقتصادي أو العسكري أو العلمي أو بكلام أوضح من الجواسيس، وهؤلاء ينفّذون مخطّطاتهم التخريبية على العربية والإسلام عمداً وعن سبق إصرار وبأجر مادي أو معنوي أو بهما معا، ولهم عذرهم فهم أعداء.... فما عذر العربيّ المسلم الذي ينقل دسّهم وتشكيكهم بدون تحقيق ولاتمحيص وبغير اكتراث، كأنّ لغته ودينه لا يهمانه من قريب أو بعيد!!

لهذا يحرص المخلصون من العرب والمسلمين على العربية لغة القرآن الكريم والإسلام ديناً، ألاّ ينقل عربيّ مسلم ما يخصّ العربية والإسلام بالذّات من المراجع الأجنبية إلاّ بعد مراجعته في المصادر الإسلامية والتأكد من صوابه نقلاً وتحليلاً وتعليلاً واستنتاجاً، وألاّ ينقل من المراجع العربية إلاّ إذا تأكّد من أنّ المؤلف غير متّهم في دينه وعلمه ولا يعاني من داء الاستعمار الفكري، فقد كثر النّقل عن المراجع الأجنبيّة المريبة ونشأت ناشئة من العرب والمسلمين تأثّروا بالمستشرقين لأنهم تخرّجوا في جامعاتهم أو مؤلفاتهم وابتعدوا عن دينهم وتنكّروا للغتهم، فأصبحوا مستغربين في بلادهم، يردّدون ما يدسّه المستشرقون في مؤلفاتهم، فيخدمون أعداء العربية والإسلام خدمة صادقة من حيث يدرون أو من حيث لا يدرون.

إسلام النجاشي في المصادر الإسلامية

ورد إسلام النجاشي في كثير من المصادر الإسلامية المعتمدة، نذكر منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر: أُسد الغابة في معرفة

الصّحابة[1]، والإصابة في تمييز الصّحابة[2]، وتهذيب الأسماء واللّغات[3]، وتاريخ الرّسل والملوك[4]، والكامل في التاريخ[5]. وبالجملة فإن المصادر الإسلامية المعتمدة، تنصّ على إسلام النجاشيّ في الحديث عن سيرة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه الذي هاجر إلى الحبشة، وعمرو بن أُميّة الضّمْريّ الكِناني الذي بعثه النبيﷺ سفيراً إلى النجاشي في أرض الحبشة، وفي الحديث عن رسل النبيّﷺ في كتب السيرة النّبويّة المطهّرة وفي المصادر التاريخية الإسلاميّة المعتمدة.

واعتقد أن اعتماد المصادر الإسلامية المعتمدة التي ذكرت منها غَيضاً من فيض، أولى من الاعتماد على المراجع الأجنبية، فالطبري وابن الأثير والنّووي وابن حجر العسقلاني أصدق حديثاً وأعرف بالعربية والإسلام من بتلر وموير وميلن ودوزي، وأفهم للعلوم العربية والإسلامية وأخلص لها.

إن السكوت عن الذين يعتمدون المراجع الأجنبية بالدرجة الأولى، ويعتبرون المصادر الإسلامية المعتمدة بالدرجة الثانية في اعتمادهم عليها، لا مسوِّغ له في حال من الأحوال.

ولو اقتصر اعتماد أنصاف المثقفين على المراجع الأجنبية، لهان الخطب، ولكنّ هذا الاعتماد على المراجع الأجنبيّة يشمل أصحاب الدراسات العليا والشهادات العالية، وقد أصبح العلم يقاس بالشهادات

---

(١) ابن الأثير - أسد الغابة في معرفة الصحابة - (٨٦/٤) - طهران - ١٣٣٤ هـ.
(٢) ابن حجر العسقلاني - الإصابة في تمييز الصّحابة - (٢٤٨/١) - القاهرة ١٣٢٣ هـ.
(٣) النووي - تهذيب الأسماء واللغات - (١٤٨/١) - ط ١ - القاهرة - بلا تاريخ.
(٤) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - (٦٥٣/٢) - طبعة دار المعارف - القاهرة - ١٩٦١ م.
(٥) ابن الأثير - الكامل في التاريخ - (٢١٣/٢) - بيروت - ١٣٨٥ هـ.

ولو مع الجهل المطبق لا بالمحرومين من الشهادات ولو مع العلم الأصيل.

وأكثر هؤلاء الذين يحملون شهادات عالية دون أن يتركوا بصماتهم على اختصاصهم العلمي في كتاب أو دراسة أو بحث وحتى في مقال، يعرفون المراجع الأجنبيّة ويجهلون المصادر الإسلامية المعتمدة، وقد قرأت دراسة عن عالم عربيّ مسلم من مؤلفي السيرة النبويّة القُدامى، كتبه أستاذ دكتور ورئيس قسم التاريخ في جامعة عربية إسلاميّة، كلّ مراجعه في دراسته أجنبية، اتّهمته بالكذب والاختلاق والجهل نقلاً عن الأجانب.

واستغربت أن ينقل هذا العربي المسلم هذه الافتراءات الظالمة، فالعالم العربي المسلم أحد مؤلفي السيرة النبوية،وهو محدِّث فقيه مفسِّر لغوي وإمام من أئمة المسلمين ومن تقاتهم علماً وعملاً، فاتّصلت بالأستاذ الدكتور الذي كتب الدراسة عنه، فسألته: «ألم تطّلع على كتاب: ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي؟!»، وقد ذكرت هذا الكتاب لشهرته وشهرة مؤلّفه، فما ظننت أنّ أحداً من الطلاّب والعلماء يجهله، ولكنّي صُدمت صدمةً عنيفة حين أجابني الأستاذ الدكتور خريج الجامعات الأجنبية في التاريخ الإسلامي!!!إنّه لم يسمع بهذا الكتاب!!.

وقبل سنوات أجرت مجلة: اللّسان العربي، استفتاء مجمله: هل تصلح العربية الفصحى لغة للعلم؟ فأجاب أستاذ دكتور جامعي مجمعي: لا تصلح العربية لغة للعلم، تماماً كما يجيب أعداء العرب والمسلمين من المستشرقين والمستغربين على مثل هذا السؤال.

وصادفته في يوم من الأيام، فسألته: «هل اطّلعت على المخصّص لابن سيده؟»، فأجاب بكل بساطة: «لا».

وهكذا يتّهم العربيّ المسلم العربية لغة القرآن الكريم، بأنّها لا تصلح لغةً للعلم، وهي اللّغة الحية التي قادت العلوم قروناً طويلة، بينما جعل

اليهودي الصهيوني العبريّة، لغة تصلح للعلم، وهي اللّغة الميتة التي ما كانت في يوم من الأيام لغة علمية.

ويومها كان جوابي على استفتاء مجلّة: اللّسان العربي: «الضعف في العرب لا في العربية»، وهذا هو الواقع المرير.

وما زرت دائرة من دوائر الحكومة، إلاّ وجدت في مكتبة مدير تلك الدائرة نسخة من دائرة المعارف البريطانية.

وما سألت مديراً من مدراء تلك الدوائر الحكومية: «هل تصفّحت هذا الكتاب ولو مرة واحدة في حياتك؟».

والجواب باستمرار هو: «لا»، فلماذا ننفق أموال الدولة عبثاً في مثل هذا الكتاب مع ما فيه من الدسّ والافتراء، ثم لا نتصفّحه أبدا!.

إنّ ثقة العرب والمسلمين في المراجع الأجنبية في غير محلها، وأخشى أن يكون مصدر هذه الثقة الجهل الأعمى، حتى ولو كان هذا الجاهل يتباهى بلقب: الأستاذ الدكتور، فالعبرة ليست بالألقاب، بل بالانتاج العلمي الهادف الرّصين.

تهافت المكذّبين

اعتمد الأجانب الذين كذّبوا المصادر الإسلامية المعتمدة في إسلام النّجاشي على دليلين، لا بأس من مناقشتها بإيجاز شديد، لإثبات تهافتها وتفاهتها معاً.

فقد قالوا في دليلهم الأول، المترجم حرفياً عنهم في المرجع العربي الذي نقل عنه كاتب المقال، والترجمة واضحة لأنّ الكلمات عربيّة والأسلوب غير عربي، والأصل الأجنبي موجود: «بيد أنّه يلوح لنا أنّ القول بإسلام النّجاشي مبالغة يمكن أن تُحمل على ما أبداه النّجاشي من أدب ومجاملة في استقبال السفارة النبويّة».

وقد كان النجاشي مؤدباً ومجاملاً حقاً، ولكنّ كثيراً من الملوك غير النجاشي أبدوا أدباً رفيعاً ومجاملات في استقبال سفراء النبيّ ﷺ، فلم تذكر المصادر الإسلامية المعتمدة أنّهم أسلموا لأنّهم تأدّبوا وجاملوا، بل نصّت على إسلام قسم منهم ونصّت على بقاء قسم منهم على دينه[١]، ولم يكن للأدب والمجاملة أيّ دخل في الموضوع.

وكمثال على ذلك، فإنّ أدب المقوقس مع سفير النبيّ ﷺ لم يكن أقلّ من أدب النجاشي وأدبه في رسالته إلى النبيّ ﷺ، ومجاملة المقوقس في هديته لم تكن أقل من مجاملة النجاشي إن لم تكن أكثر منها، فقد كانت هدية المقوقس إلى النبيّ ﷺ عبارة عن جاريتين مارية وأختها، وبغلة شهباء، وحمار أشهب، وثياب من قباطي[٢] مصر، وعسل من عسل بَنْها[٣]. أما هدية النجاشي إلى النبيّ ﷺ فكانت عبارة عن: كسوة من قميص وسراويل، وعمامة، وعطَاف[٤]، أسواني من قرية يقال لها: أُسْوان، وهي آخر مدينة بمصر، وخُفّيْن ساذجين[٥].

ومن الواضح أنّ مجاملة المقوقس في هديته لم تكن أقلّ من مجاملة النجاشي، ولكنّ المصادر الإسلامية المعتمدة التي نقلنا عنها تفاصيل هديتي هذين الملكين إلى النبيّ ﷺ، ذكرت أن النجاشي قد أسلم، وأن

---

(١) انظر التفاصيل في: الطبري (٢/٦٤٤ - ٦٥٧) وابن الأثير (٢/٢١٠ - ٢١٥).

(٢) القباطي: نسيج من الكتان، به زخارف اشتهرت به مصر القديمة.

(٣) ابن عبد الحكم - فتوح مصر والمغرب - تحقيق عبد المنعم عامر - (ص ٦٩) - القاهرة - ١٩٦١ م.

(٤) العطاف: الرداء.

(٥) ابن حبيب البغدادي - المحبّر - تحقيق الدكتورة إيلزة ليختن شتيتر - بيروت - ١٣٦١ هـ، وانظر عن مدنية أسوان ما جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي (١/٢٤٨-٢٤٩).

المقوقس لم يُسلم، فقالوا: «كتب النبيّ ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط يدعوه إلى الإسلام، فلم يُسْلِم»[1] وهذا دليل على أنّ أدب النجاشي ومجاملته في استقبال السفارة النبويّة، لم يكونا وحدهما وراء النص بإسلام النجاشي الذي ورد في المصادر الإسلامية المعتمدة، فقد جامل غيره من الملوك وتأدّبوا فلم تنصّ تلك المصادر على إسلامهم، بل نصّت على أنهم لم يُسْلِموا.

أما دليل المراجع الأجنبية الثاني، الذي نقله. الساردون في ضلال الأجنبي من العرب والمسلمين، فهو قولهم: «ولو أسلم النجاشي يومئذ، لكان الإسلام قد غمر الحبشة كلّها، ولكانت النصرانية قد غاضت منها بيد أنّ الإسلام لم ينتشر إلا بعد ذلك بعصر.... »الخ.

ولم ينتشر الإسلام في أرض الحبشة بإسلام النجاشي، لأسباب كثيرة، لعلّ من أهمّها أنّ حكم النجاشي كان غير مستقر في بلاده، فقد عانى من عدّة ثورات داخلية[2]، كان المسلمون المهاجرون إلى أرض الحبشة مع النجاشي على أعدائه، وأخبار القلاقل والاضطرابات التي عانى ما عانى منها النجاشي معروفة.

كما أنّ سلطة رجال الدين المسيحي في بلاد الأحباش وعلى النصارى في أرض الحبشة كانت كبيرة ومؤثّرة، فكانوا دولة إلى جانب الدولة، ومن الطبيعي أن يحسب النّجاشي حساب رجال الدين المسيحي إذا ما دعا إلى الإسلام وعمل على نشره علناً، فليس من السّهل على رجال الدين المسيحي أن يخسروا سلطتهم العظيمة إذا أصبح الشعب الحبشيّ

---

(١) الطبري (٢/٦٤٥).

(٢) البلاذري - أنساب الأشراف - تحقيق الدكتور محمد حميد الله - (١/١٨٨ و٢٠٢ و٥٢٣ - ٥٢٤).

مسلمين، لأنّه ليس في الإسلام رجال دين بل في الإسلام علماء دين، والفرق بين الطائفتين كبير جداً، إذ ليس لعلماء الدين الإسلامي سلطة زمنية، بينما سلطة رجال الدين المسيحيين بغير حدود، والعالم في الإسلام يصبح بعلمه وعمله وإخلاصه عالم دين، بينما رجل الدين المسيحي قد يتولّى مركزه بالإرث أو بالنسب أو بدعم السلطة الزمنية، وقد يكون عالماً في المسيحيّة وقد لا يكون.

هؤلاء رجال الدين الأحباش كانت لهم سلطة واسعة ونفوذ واسع في الحكومة وفي الشعب، فإذا لم يحسب النجاشي حسابهم أو تحدّاهم في انتزاع سلطتهم وحرمانهم من نفوذهم، وبخاصة وأن للنّجاشي أعداء كثيرين يشتدّ عضدهم إذا ما أصبح رجال الدين الأحباش مع أعداء النجاشي لا معه على أعدائه، فتنقلب موازين القوى حينذاك من صالح النجاشي إلى صالح أعدائه.

ورجال الدين المسيحي (الأكليروس) قوّة ذات شأن في القديم، وحتى في العصر الحديث، فإن الكنيسة لا تزال قوّة حتى في بولونيا ذات الحكم الشيوعي وبعد إعلان الأحكام العرفية فيها بالإضافة إلى الحكم الشيوعي المسيطر ،إذ ارتفع صوت الكنيسة البولونية بعد إعلان الأحكام العرفية في شهر صفر من سنة ١٤٠٢ هـ المصادف شهر كانون الأول (ديسمبر) من سنة ١٩٨١م، كما ارتفع صوت بابا روما بمناسبة بداية السنة الجديدة ١٩٨٢م منددأ بالحكومة البولونية مؤيِّداً منظمة التضامن المعادية للحكم الشيوعي البولوني ومؤيداً الشعب البولوني.

فإذا كان الحكم الشيوعي بما عرف عنه من سيطرة نافذة وإلحاد علنيّ يخاف سلطة الكنيسة في أواخر القرن العشرين الميلادي، فلا لوم على النجاشي لخوفه سلطة الكنيسة في أواسط القرن السادس الميلادي، أي بعد أربعة عشر قرناً خلت، وكانت سلطة الكنيسة يومئذ أضعاف

أضعاف سلطتها في العصر الحديث.

وحتى لو كانت أمور النجاشي الداخلية رصينة، وسيطرته على بلاده شاملة، وأَقْدَمَ على تجاهل سلطة رجال الدين المسيحي وتحدّى نفوذهم غير مكترث بالعواقب. فإنّه ما دام قد اعتنق الإسلام، فلا بد أن يطبق تعاليمه السَّمحة التي تنصّ - كما جاء في الكتاب العزيز: ﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي**﴾[1]، وقد بقي كثير من أهل الكتاب على دينهم بعد الفتح الإسلامي في البلاد الإسلامية، كالعراق وبلاد الشّام ومصر (مثلاً) ولا يزالون على دينهم حتى اليوم، لأن الحاكم المسلم لا يجبر أحداً على اعتناق الإسلام كرها.

وهذه الحقيقة، حقيقة تسامح الإسلام - لا يفهمها كما ينبغي غير المسلمين، ولا يريدون أن يتفهّموها، فلا عجب أن يقع الأجانب في مراجعهم المريبة بهذا الخطأ الفاضح، فهم يظنون أنّ الحاكم المسلم كالحاكم المسيحيّ، في إكراه رعيّته على اعتناق الدين الذي يعتنقه، والواقع أنّ الحاكم المسيحي يُكْرِه رعيته الذين على غير دينه على اعتناق دينه قسراً، أما الحاكم المسلم فلا يكره أحداً على اعتناق الإسلام، فالحاكم المسيحي والحاكم المسلم ليسا سواء في حرية الاعتقاد، بل هما على طرفي نقيض.

ولقد استولى المسلمون على مقاليد الأندلس بالفتح، فلم يجبروا أحداً على اعتناق الإسلام كرها، فلما ضعف المسلمون واشتدّ عضد النصارى وانتزعوا الأندلس من المسلمين، أجبروا المسلمين على اعتناق المسيحيّة قسراً بالاعدام والتعذيب والسجون والمعتقلات ومحاكم التفتيش الرهيبة، كما هو مدوّن في المراجع الأجنبية، وكما هو معروف على نطاق عالميّ.

هذا هو الفرق بين الحاكم المسلم والحاكم المسيحي، وهو ما لا يستطيع

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٥٦.

غير المسلم أن يفهمه وليس من السّهل أن يتفهّمه أيضاً.

وليس هذا هو الفرق الوحيد الذي لا يفهمه الأجنبي غير المسلم ولا يجبّ أن يتفهمه فالإسلام لا يفهمه ولا يتفهمه غير المسلم، وأسرار العربية لا يفهمها ولا يتفهمّها غير العربي المسلم، فيجب أن يعرف العرب المسلمون بخاصة والمسلمون بعامة هذه الحقيقة، وينهضوا بواجبهم في تعليم الإسلام ديناً والعربية لغة أساتذةً لغير المسلمين لا طلاّباً، ورؤوساً لا أذنابا، لأنّ فاقد الشيء لا يعطيه، والذين يتصدّرون من الأجانب في الجامعات الأجنبية، ويمنحون أعلى الشهادات في الدراسات الإسلامية والعربية العليا للطّلاب العرب والمسلمين، لا يستحقون مثل هذه الشهادات ولا ينالونها من علماء المسلمين، وهؤلاء الأجانب لا يمنحون تلك الشهادات إلا بثمنٍ غالٍ هو تشويه الإسلام ديناً والعربية لغة وتعليم الطّلاب العرب والمسلمين الدّس والتشكيك في دينهم ولغتهم، ليعودوا إلى بلادهم ومعهم وسائل الجهل والهدم والتخريب لا وسائط التعليم والبناء والتعمير.

ذلك هو مبلغ تهافت محاولة الأجانب إثبات عدم إسلام النجاشي كما جاءت في المراجع الأجنبية، والذي تسرّب بالعدوى إلى المراجع الإسلامية كما يتسرب الوباء، وذلك هو مبلغ تفاهة تلك المحاولة، يفصح مبلغ حقد مؤلّفي تلك المراجع على الإسلام والمسلمين، ومبلغ تعصّبهم لليهودية والنّصرانية واخلاصهم للاستعمار القديم والجديد، فيرفضون بتعصّب وعصبيّة كلّ خبر لمصلحة الإسلام والمسلمين ويشكّكون بالمصادر الإسلامية المعتمدة، ليصفو الجوّ لمراجعهم المنحازة المتحيِّزة غير الأمينة، التي تضمّ بين دفتيها الجهل والدسّ والتّشكيك الكثير، والعلم والصّدق والتثبّت القليل: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين﴾[1].

---

(١) سورة الزخرف، آية ٧٦.

في مصادر الحديث والفقه

ولو اقتصر الأمر في تكذيب المصادر الإسلامية المعتمدة التي سبق ذكرها على جلالة قدرها، لهان الأمر على الأقل بالنسبة للمستغربين من العرب والمسلمين الذين اعانوا الأجانب وعاونوهم في الدس والتشويه والتشكيك، ولكنّ اسلام النجاشي لم يقتصر على تلك المصادر وحدها، بل شمل مصادر الحديث والفقه الإسلامي بدون استثناء.

ولا أدري هل سيبقى المستغربون في موقف المتفرّج، بعد أن وصل عبث الأجانب بأقدس مصادر المسلمين الدينيّة، أم سيكون لهم موقف آخر!!.

وأفترض أنّ هؤلاء المستغربين يجهلون أن إسلام النجاشي قد أجمعت عليه مصادر الحديث النبويّ الشريف، وأن فقهاء المسلمين في مصادر الفقه الإسلامي قد استنبطوا من إسلام النجاشي وصلاة النبيّ ﷺ صلاة الغائب وتكبيره في صلاته عليه أربع تكبيرات استنباطات في صلاة الجنازة اتبعها المسلمون منذ موت النجاشي حتى اليوم. وستبقى متّبعةً ما بقي الدين الحنيف وبقي المسلمون، إذ لا أستطيع أن أتصوّر أبداً أن يتقبّل مسلم مهما تكن درجة تلوثه بأدران الاستعمار الفكري، إقدام أجنبي حاقد على الإسلام والمسلمين وعلى مصادر الدين الإسلامي الموثوق بها، يشكّك في صحة ما ورد في كتب الحديث الصحيحة وكتب مذاهب الفقه الإسلامي، فيرفض ما يَرِدُ فيها من أحاديث صحيحة وأحكام فقهية مجمع عليها، وإلا لكان هذا المسلم ليس مسلماً حقاً بل مسلم جغرافيٌّ، من ابوين مسلمين، ومن عائلة إسلامية، ومن بيئة إسلامية، وبلاد إسلامية، ويحمل اسماً إسلامياً وجنسية إسلامية، وهذه الشكليّات مظهرية في واقعها، بدون عقيدة إسلامية سليمة، وإيمان بتعاليم الإسلام، وحميّة على هذا الدين.

وإلى هؤلاء المستغربين من العرب المسلمين ومن المسلمين كافة، أنقل لهم ما جاء عن النجاشي في كتب الحديث والفقه الإسلامي، على أمل أن استثير فيهم حميتهم الإسلامية ليقفوا الموقف المشرِّف في الدفاع عن الإسلام، وعدم الانصياع إلى دسّ الأجانب وتشكيكهم بسهولة ويسر، وعلى أمل أن يعودوا إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

فقد جاء في كتاب: (اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان): البخاري ومسلم، في باب التكبير على الجنازة حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، خرج إلى المُصَلَّى فصَفَّ بهم وكبَّر أربعاً[1].

وجاء فيه حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «نعى لنا رسول الله ﷺ النّجاشي صاحب الحبشة، اليوم الذي مات فيه، فقال: «استغفروا لأخيكم»[2].

وجاء في حديث جابر رضي الله عنه، أن النبيّ ﷺ صلّى على أصْحمة النّجاشي فكبّر أربعاً[3].

وجاء فيه كتاب: (تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرّسول ﷺ)، في الفصل الثالث في صلاة الجنازة عن أبي هريرة رضي

---

(١) أ. محمد فؤاد عبد الباقي - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - (ص ١٩٣) - الكويت - ١٣٩٧ هـ.
ب. ابن حجر العسقلاني - فتح الباري بشرح البخاري - (٩٢/٣)، (١٦٤/٣) - مطبعة بولاق بالقاهرة - ١٣٠٠ هـ.
جـ. النووي - شرح الإمام النووي على صحيح مسلم - (٣٣٧/٢) المطبعة اللستلية بالقاهرة - ١٢٨٣ هـ.

(٢) اللؤلؤ والمرجان (١٩٣) وفتح الباري (١٦٠/٣) وشرح النووي على مسلم (٣٣٧/٢).

(٣) اللؤلؤ والمرجان (١٩٣) وفتح الباري (١٦٣/٣) وشرح النووي على مسلم (٣٣٧/٢).

الله عنه قال: «نعى النبيّ ﷺ النجاشي رحمه الله في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المُصلّى فَصَفَّهم وكبّر عليه أربع تكبيرات»، أخرجه الستة[1]: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، ومالك[2]. وفي أخرى للشيخين البخاري ومسلم، وللنسائي: «نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وقال: «استغفروا لأخيكم» ولم يزد[3]. وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «كان زيد بن أَرْقم يكبِّر على جنائزنا أربعاً، وإنّه كبّر على جنازة خمساً، فسألناه؟ فقال: كان النبيّ ﷺ يُكبرها»، أخرجه الخمسة إلا البخاري[4].

وجاء في كتاب: (المنتقى من أخبار المصطفى صلى الله عليه وسلم) في: الصّلاة على الغائب بالنيّة، عن جابر أن النبيّ ﷺ صَلّى على أصْحمة النجاشي فكبَّر عليه أربعاً، وفي لفظ قال: «قد توفي اليوم رجل صالح من الحَبَشِ، فهلُمَّ فصلوا عليه»، قال: «فصلّى عليه رسول الله ﷺ، فصففنا، ونحن صفوف»، مُتفق عليها[5]، أي رواها: البخاري ومسلم وأحمد[6].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبيّ ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المُصَلّى، فصف بهم، وكبّر عليه أربع تكبيرات، رواه الجماعة[7]: البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي،

---

(١) ابن الربيع الشيباني - تيسير الوصول - تحقيق محمد حامد الفقي - (٣١٢/٢) المطبعة السلفية بمصر - ١٣٤٦هـ.
(٢) تيسير الوصول (١/١).
(٣) تيسير الوصول (٣١٢/٢).
(٤) تيسير الوصول (٣١٢/٢).
(٥) ابن تيمية - المنتقى من أخبار المصطفى ﷺ - تحقيق محمد حامد الفقي - (٨٢/٢) - المطبعة الرحمانية بمصر - ١٣٥٠هـ.
(٦) المنتقى (٣/١).
(٧) المنتقى (٨٢/٢).

والنسائي، وأبو داود، وابن ماجة[1] وفي لفظ: «نعى النجاشي لأصحابه ثم قال: (استغفروا له)، ثم خرج بأصحابه إلى المُصَلَّى، ثم قام، فصلّى بهم كما يُصَلِّي على الجنازة»، رواه أحمد[2]، وعن عِمْران بن حُصَيْن أنّ رسول الله ﷺ قال: «إن أخاكم النجاشي قد مات، فقوموا فصلّوا عليه»، قال: «فقمنا فصَففنا عليه كما نصفُّ على الميت، وصلَّينا عليه كما نصلي على الميت» رواه أحمد والنسائي والترمذي وصححه[3].

وأحاديث نعي النبيّ ﷺ للنّجاشي والصّلاة عليه صلاة الغائب، ودرجتها العالية من الصحة، أدلة قاطعة على إسلام النجاشي.

ودرجة صحة قسم منها، يكفي للدلالة عليها، أنّ البخاري ومسلم في صحيحهما، والإمام أحمد بن حنبل في مسنده، وأبا عيسى الترمذي في جامعه، وأبا عبدالرحمن النسائي في سننه، وأبا داود السجستاني في سننه، وابن ماجه القَزْويني في سننه، قد رووا تلك الأحاديث، فلا مجال للشكِّ أو التشكيك في صحتها وقوّتها.

كما أَنَّ تعبير النبيّ ﷺ في قسم من هذه الأحاديث: «استغفروا لأخيكم» يدلّ على إسلام النجاشي: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[4] وتعبيره عليه الصلاة والسلام: «قد تُوفي اليوم رجل صالح من الحَبَش...» يدلان دلالة واضحة على إسلام النجاشي، لا يشك في ذلك ولا يشكِّك به مسلم عالم.

وأعود إلى مصادر الفقه الإسلامي، فأقرأ في كتاب: (الفقه على المذاهب الأربعة)، في بحث: شروط صلاة الجِنازة: «فأما شروطها، فمنها

---

(١) المنتقى (٣/١).
(٢) المنتقى (٨٢/٢).
(٣) المنقى (٨٢/٢).
(٤) سورة الحجرات، آية ١٠.

أن يكون الميت مسلماً، فتحرم الصلاة على الكافر لقوله تعالى: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا﴾[١]... »[٢]. ومن أركان صلاة الجِنازة التكبيرات، وهي أربع تكبيرة الإحرام »[٣].

وجاء في كتاب: (المدونة الكبرى لإمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس الأصبحي) في بحث: رفع الأيدي في التكبير على الجنازة، قال الإمام مالك: «إنه ليعجبني أن يرفع يديه في التكبيرات الأربع »[٤].

وجاء في كتاب: (الأمّ)، في باب الصّلاة على الجنازة والتكبير فيها وما يُفْعل بعد كل تكبيرة: «إذا صلّى الرجل على الجنازة كبّر أربعاً، وتلك السنة »، وذكر حديث أبي هريرة: «أن النبيّ ﷺ نعى للناس النّجاشي اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المُصلّى، فصفّ بهم، وكَبّر أربع تكبيرات »[٥].

وجاء في كتاب: (القواعد النورانيّة الفقهيّة) في فصل الصلوات في الأحوال العارضة: «وكذلك الجنازة، فإن اختيارهم أنّه يكبّر عليها أربعاً، كما ثبت عن النبيّ ﷺ وأصحابه، أنّهم كانوا يفعلونه غالبا... »[٦].

---

(١) سورة التوبة، آية ٨٤.
(٢) الفقه على المذاهب الأربعة - (٢٨٠) - مطابع الشعب بالقاهرة - كتاب الشعب - بلا تاريخ.
(٣) الفقه على المذاهب الأربعة (٢٧٨).
(٤) الإمام سحنون بن سعيد التنوخي - المدونة الكبرى - (١/١٧٦) - مطبعة السعادة بالقاهرة - ١٣٢٤ هـ.
(٥) الإمام الشافعي - كتاب الأم - (١/٢٣٩) - مطبعة بولاق بالقاهرة - ١٣٢١ هـ.
(٦) ابن تيمية - القواعد النورانية الفقهية - تحقيق محمد حامد الفقي - (٨٧) - مطبعة السنة النبوية بالقاهرة - ١٣٧٠ هـ.

وجاء في كتاب: (الاختيار لتعليل المختار) في فصل الصّلاة الميِّت: «والصلاة على الجنازة أربع تكبيرات»[1].

وجاء في كتاب: (فقه الإمام الأوزاعيّ) في فصل أحكام الصّلاة على الجنازة وتشييعها: «مذهب الإمام الأُوزاعي أنّ عدد التكبيرات للصّلاة على الجنازة أربع»[2].

جاء في كتاب: (الدّراري المضيّة شرح الدرر البهيّة) في فصل الصلاة على الجنازة: «وأما التكبير أربعاً أو خمساً فلورود الأدلة بذلك، أما الأربع فثبت ثبوتاً متواتراً من طريق جماعة من الصحابة رضي الله عنهم»[3].

وجاء في كتاب: (المُحَلَّى) في مسألة التكبير على الجنازة في الصّلاة عليها: «ويكبِّر الإمام على الجنازة خمس تكبيرات لا أكثر، فإن كبَّروا أربعاً فحسن، ولا أقلّ»[4]. كما جاء في مسألة الصلاة على الميِّت الغائب: «ويُصلّى على الميِّت الغائب بإمام وجماعة، فقد صلى رسول الله ﷺ على النجاشي رضي الله عنه - ومات بأرض الحبشة - وصلى معه أصحابه عليه صفوفاً، وهذا إجماع منهم لا يجوز تعديه»[5].

وجاء في كتاب: (فقه السُّنَّة) في فصل أركان الصّلاة على الميّت:

---

(١) عبد الله بن محمود بن مودود الموصلي الحنفي - الاختيار لتعليل المختار - (٩٤/١) - مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة - ط٢ - ١٣٧٠ هـ.
(٢) الإمام الأوزاعي - فقه الإمام الأوزاعي - جمع الدكتور عبد الله محمد الجبوري - (٣١٠/١) بغداد - ١٣٩٧ هـ.
(٣) الشوكاني - الدراري المضيّة شرح الدرر البهيّة (٢٣٠/١) - ط١ - مطبعة مصر الحرة بالقاهرة - ١٣٣٨ هـ.
(٤) ابن حزم الأندلسي المحلّي - (١٢٤/٥) - المطبعة المنيرية بالقاهرة - ١٣٤٨ هـ.
(٥) المحلّى (١٦٥/٥).

«التكبيرات الأربع، لما رواه البخاري ومسلم عن جابر، أن النبي ﷺ صلّى على النجّاشي، فكبّر أربعاً. قال الترمذي: والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، يرون التكبير على الجنازة أربع تكبيرات، وهو قول: سفيان، ومالك، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحق»(١).

وجاء في فصل الصّلاة على الغائب من هذا الكتاب: «تجوز الصّلاة على الغائب في بلد آخر، سواء أكان البلد قريباً أم بعيداً فيستقبل المصلى القبلة، وينوي الصّلاة عليه، ويكبِّر ويفعل مثل ما يفعل في الصلاة على الحاضر، لما رواه الجماعة عن أبي هريرة، أنّ النبي ﷺ نعى للناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى، فصفّ أصحابه، وكبّر أربع تكبيرات»(٢).

تلك هي مجمل ما ورد في قسم محدود من مصادر الفقه الإسلامي استنباطاً من أحاديث النبي ﷺ في صلاته صلاة الغائب على النجاشيّ. ولو تركت العنان لنفسي في الاقتباس من مصادر الفقه الإسلامي حول هذا الموضوع لبَعُد الشَّوط وطال المدى، فقد اقتبستُ ما اقتبسته بشكل عفوي من كلٍّ مصدر فقهيّ وقع في يدي، فتبيّن لي بوضوح أنَّ مصادر الفقه الإسلامي عامرة بدون استثناء بالاستنباط من أحاديث النبي ﷺ في صلاة الغائب على النجاشي، ومن هذا الاستنباط. في شروط صلاة الغائب: «أن يكون الميِّت مسلماً، فتحرم الصّلاة على الكافر»، وفي التكبيرات الأربع في صلاة الجنازة، وفي الصّلاة على الغائب بإمام وجماعة، وعلى مَنْ تجوز صلاة الغائب وكيفيّة الصّلاة عليه.

---

(١) السيد سابق - فقه السنة - (٤/٨٨) - دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٣٧٣ هـ.
(٢) فقه السنة (٤/١١٠).

ولعلّ ما يمكن ملاحظته في تعبير ابن حزم الأندلسي رحمه الله، وهو مَن هو علماً وعملاً وديناً وقوّة حجّة ورجاحة عقل ورصانة منطق وسلاطة لسان أيضاً عند ذكر النجاشي وبغية وصلاة الغائب عليه قال: «صلى رسول الله ﷺ على النجّاشي رضي الله عنه»، ولن يستحق مثل هذا التعبير: رضي الله عنه، إلا المسلم الذي حسن إسلامه وأحسن في عمله وكان مؤمناً عاملاً مخلصاً في عمله لا غبار على إيمانه وعمله وإخلاصه، وخاصة مثل ابن حزم الذي لا يسبغ هذا الوصف على أحد إلا إذا كان يستحقه استحقاقاً لا مزيد عليه.

أملٌ ورجاء

ولست أشك لحظة في أنّ مؤلّف المرجع العربي، والكاتب الذي نقل عنه ما نقله ونشره في مجلة (الفيصل) السعودية يجهلان أنّ إسلام النّجاشيّ موثق في مصادر الحديث كلّها ومصادر الفقه الإسلامي بدون استثناء، وأنّهم ظنّوا - وبعض الظنّ إثم - أن النص على إسلام النجّاشي يقتصر مصادر السِّير و التاريخ، لأنّهما لو علما بأنّ إسلام النجاشي لا تختلف عليه مصادر الحديث والفقه الإسلامي لما أقدما على تكذيب إسلامه ولكان لهما شأن آخر مختلفاً جدا.

ولا لوم على الأجنبيّ غير المسلم التّشكيك بإسلام النجاشي والدّس على المصادر الإسلامية، تحقيقاً لأهدافه المعروفة المكشوفة في التشكيك والدس، ولكنني ألوم المسلم الذي يروِّج لمثل هذا التشكيك والدسّ، دون أن يعود إلى المصادر الإسلامية باحثاً محقّقاً، ليكون على بيِّنة من الأمر، فإذا تثبَّت واقتنع فإنّ واجب الأمانة يقضي عليه أن يحكيها بلفظها الذي رآه في مصدرها الإسلامي، لتكون تبعة روايتها على راويها الأول وليخرج من عهدتها.

أما النّقل من المراجع الأجنبية في القضايا الإسلامية، دون الرجوع

إلى المصادر الإسلامية المعتمدة، فخطأ فاحش لا مسوِّغ له، ولا عذر لمن يفعله، ويؤدي به إلى ما أدّى به نقل المؤلف العربي المسلم والكاتب العربي المسلم عن المراجع الأجنبية من خطأ شنيع.

ولا يفوتني هنا، أن أذكر، أنّ أمثال قضيّة إسلام النجاشي تعتبر حديثاً عن النبي ﷺ، وأنّه يجب في الحديث عنه عليه الصّلاة والسّلام تحري الصِّدق والصحّة، على قواعد أهل العلم بالحديث، خروجاً من تبعه قوله عليه الصّلاة والسّلام: « **مَنْ حَدَّثَ عني بحديث يُرى أنَّه كذب، فهو أحد الكاذبين** »[1].

والعالم حقاً هو الذي يتحرّى ويتثبّت فيما يقول ويكتب، هذا هو شعار علماء السّلف الصالح، يوم كان الناس يخافون الله، فيتحرون الصِّدق. أما اليوم، بعد تنظيم الهجمة على التراث الإسلامي والمصادر الإسلاميّة، وأصبح هذا التراث والمصادر مطوّقاً من الخارج بالمستشرقين وأضرابهم، ومن الداخل بالمستغربين وأذنابهم، فأصبح التحري والتثبّت واجباً لا محيد عنه، وبخاصة في النقل عن المراجع الأجنبية بدون استثناء وعن المراجع العربية الإسلامية إلاّ إذا كان المؤلف معروفاً بالصّلاح والاستقامة والالتزام بالدين الحنيف.

ويدعوني نقل المؤلِّف في مرجعه والكاتب في مقاله إلى حديث آخر يتّصل بسببه، فقد ازدحمت المكتبة العربيّة والإسلاميَّة في هذا القرن بالذّات، بطائفة تختلف ألوانها والغرض منها وتتّحد في الموضوع، تلك هي الكتب التي تتناول حياة النبي ﷺ وسيرته وسيرة أصحابه وعصرهم، على أسلوب من (الفنّ) أو أسلوب من رواية التاريخ، أو لون من ألوان التربية الدينية، فثمة عشرات من الكتب والمقالات لعشرات من

---

(١) رواه مسلم وابن ماجة وأحمد بن حنبل، انظر: مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (٢/٢٩٣).

الكُتَّاب، قد اتخذوا عصر النبوّة موضوعاً لحديث ذي أفانين، يختلف باختلاف من يتناولونه ذوقاً وأداءً وفنّاً، فمنها الكتاب الذي حاول كاتبه أن يجعله للتحقيق والرأي، والكتاب الذي خرج للفنِّ وإمتاع القارىء، والكتاب الذي هيأه مؤلّفه للحوار والمسرح، والكتـاب الذي أُنشىء لتصوير عبقرية، فكانت كما تصورها الكاتب لا كما كان صاحبها....

لقد قرأت هذه الكتب جميعاً، وإني لأخشى أنّ عدوى أَعْدَتْنَا من الأدب الأوروبي الغربي والشرقيّ، حين خُيِّلَ إلى كثير من كتاب العرب والمسلمين ومؤلفيهم، أننا من تاريخ عصر النبوَّة بإزاء مادةٍ يستخدمونها فيما ينشئون - للفنِّ أو للتاريخ، أو لما يريدون غير الفنّ والتاريخ - كما استخدم أدباء أوروبا وأمريكا ومؤلفوها الشرقيّون والغربيّون، أساطير الإغريق وخرافات اليونان منذ عصر مضى....

ولكن تاريخ عصر النبوة لأعز على المسلمين وأغلى....

إنّ للفنِّ حريته، ولكنه هنا في هذه الحُقبة من تاريخ الإسلام، ينبغي أن يقيّد بقيوده، حتى لا تكون حريته سبباً إلى فساد عقيدة، أو إلى مَسْخ تاريخ.

وقد ابتُلي العرب والمسلمون بطوفان من خريجي الجامعات الأجنبية الشرقيّة والغربيّة، الذين ابتُعثوا إلى تلك الجامعات بعد تخرّجهم في المدارس الاعداديّة وهم في ريعان الشباب وذروة المراهقة، ليتعلّموا في الجامعات الأجنبيّة اللغة العربية، والتاريخ الإسلامي، والشريعة الإسلاميّة!!!

ولم يكن أولئك الشباب على علم بمصادر التاريخ واللّغة والشريعة الإسلامية حديثاً وفقها، حين أُوفدوا إلى الجامعات الأجنبيّة، فبهرتهم المراجع الأجنبيّة وبهرهم الأساتذة الأجانب وأكثرهم أعداء للعربية لغةً والإسلام ديناً، ومراجعهم أساساً قائمة على الدسّ والتّشكيك، وهم لا

يعطون شهاداتهم العالية إلا بعد أن يطمئنوا اطمئناناً كاملاً إلى انحراف طلابهم وأنهم سمّموا أفكارهم وصاغوهم كما يريد الأعداء لا كما يتمنّى الأصدقاء.

ويعود طلاّب الأمس ودكاترة اليوم إلى بلادهم، وهم لا يعرفون غير المراجع الأجنبية، ويجهلون مصادرهم العربية الإسلامية ويشكّون في سلامة ما جاء فيها ويتّهمونها بالتزوير، ويطلقون عليها: الكتب الصفراء فإذا تولّوا مراكز التعليم في الجامعات العربية والإسلاميّة، بعقولهم المنحرفة وأفكارهم المسمّمة ومراجعهم الأجنبية المنحرفة الخبيثة، نقلوا انحرافهم إلى طلابهم وسمّموا عقولهم، ونقلوهم من صفوف الأصدقاء والأبناء، إلى صفوف الحاقدين والأعداء.

ولستُ أذيع سرّاً، إذا أكّدتُ أن ثمن منح الشهادات العالية للطلاّب العرب والمسلمين من بعض الأساتذة الأجانب، هو الانتماء لبعض المبادىء الهدّامة كالماسونية التي هي جزء لا يتجزأ من الصهيونية، لأنّ من أهم أهدافها إعادة بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى في القدس الشريف مسري النبي ﷺ أوّل القبلتين وثالث الحرمين، وثمنها أيضاً انحراف رسالة الطالب انحرافاً يؤدي به إلى الكفر أحياناً، فلا عجب أن نجد أكثر رسائل طلابنا بقيت سرّاً من الأسرار لم تنشر ولم يطلع عليها أحد من المسلمين منذ كُتبت ونوقشت ومُنح عليها صاحبها الشهادة العالمية حتى اليوم.

لذلك أتمنى على العربي المسلم، وأرجو من المسؤولين عن الإيفاد للخارج، ألاّ يبعثوا أحداً إلى الجامعات الأجنبية من خريجي المدارس الاعدادية أولاً، ولا يبعثوا للتخصص في الدراسات الإسلاميّة والعربية ثانياً، لأنّ الأساتذة الأجانب هناك لا يفهمون القضايا الإسلامية والعربية كما ينبغي، ولا يعلّمون طلابهم إلاّ الجهل والدس والتشكيك والانحراف.

وإذا كنّا بحاجة إلى الأجانب في الدراسات العلمية الصرفة والتطبيقيّة العليا، فلسنا بحاجة إلى الأجانب في الدراسات الإسلامية واللغوية، بل أنّ الأجانب بحاجة إلى العرب والمسلمين في هذه الدراسات.

وقد عرفنا قسماً من أساتذة الدراسات العليا الإسلامية والعربية من الأجانب في الجامعات الأجنبيّة، فوجدنا أكثرهم يحسنون الدس والتّشكيك والافتراء، ولا يحسنون فهم الإسلام ديناً والعربية لغة، وهؤلاء الذين يمنحون أعلى الشهادات العلميّة للطلّاب العرب والمسلمين، لا يستطيعون الحصول على الشهادة الابتدائية في الإسلام أو العربية من معلمي العرب والمسلمين.

وقد استُقدم أحد هؤلاء الأساتذة الأجانب من أحد طلابه النجباء، ليلقي ثلاث محاضرات في التفسير والمفسرين في جامعة من الجامعات العربية سنة ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م)، فأشاع في محاضراته الدسّ في إثارته قصّة الغرانيق، وبذر بذور التشكيك في حديثه عن الاسرائيليات في التفسير، وسبّ باسم البحث العلمي المزيّف وبطريقة مزج السم بالعسل أقدس مقدّساتنا في عقر دارنا، ونهب أموالنا على ما اقترف من آثام، ولكنّه لم يحسن قراءة آية من آيات الذكر الحكيم!!

وأملي في كل عربي ومسلم، ورجائي من المسؤولين، ألاّ يكرّروا مثل هذا الخطأ الشنيع، فما يصحّ أن يهان أقدس مقدّساتنا بأموالنا في عقر دارنا وما ينبغي، مهما تكن الأعذار والتعلاّت!!

ولعلّ من مظاهر ضعف الأساتذة العرب والمسلمين من ذوي الشهادات العالية الأجنبية في الدراسات العربيّة والإسلامية، ما نلمسه من ضعف طلاّبنا المتخرجين في تلك الجامعات، فأكثرهم لا يفرّق بين الحلال والحرام ويُفتى بغير علم ولا يُحسن كتابه سطر واحد بلا خطأ علميّ أو لغويّ أو إملائيّ، وما نلمسه من تساهل أولئك الأساتذة في منح

الشهادات العالية لكلٍّ من هبّ ودبَّ، ليأكلوا بشهادتهم لقمة العيش لا ليحملوا أمانة العلم ويُعلِّموا الناس.

وأشهد أنني رأيت طالباً في الدراسات العليا في داره، ومعه أستاذه المشرف على رسالته، ومع الأستاذ زوجه وأولاده وبناته، ورأيت الأستاذ يكتب رسالة طالبه الذي يشرف عليه، والطّالب قائم على رأسه يستحثّه ويلومه ويعنّفه على تباطئه، فلما نصبت موائد طعام الغداء تناول الطّعام الأستاذ وعائلته وأفراد عائلته، وعلمت أنّ الأستاذ المشرف يتلقّى الهدايا النقديّة والعينية من الطالب، ويطالب بها كما يطالب بها أفراد عائلته، وهي ليست هدايا بل رشاوى دون شك.

وشهدت يوم مناقشة هذا الطّالب في رسالته، فدافع الاستاذ المشرف عن ثغراتها وعيوبها دفاعاً مجيداً، وناقش الأستاذ المشرف الرسالة التي دبَّجتها براعته مع زملائه، واختلت لجنة المناقشة بضع دقائق، ثم عادوا إلى أماكنهم ليعلنوا منح الطالب شهادة الدكتوراه بدرجة الشرف الأولى!!.

ويومها تذكّرت عالم الدين الموصلي الذي تلقّى ولده الوحيد عليه العلم ثلاثين سنة، ثم رفض منحه (الإجازة) قائلاً: «أين أذهب من ربي؟! إنّه لا يستحق أن يؤجزّ»، فقارنت بين أمانة العالم بالأمس، وبين أمانة العالم اليوم، فلم أملك إلاّ الرثاء لأمتي التي تتقدّم إلى الوراء، بينما تقفز الأمم قفزاً إلى الأمام.

اني لأتمنى على الله، وأرجو من المسؤولين أن يعيدوا النظر في ملاكات الجامعات، وأن يبتروا كل عضو فاسد فيها، وهم معروفون بأسمائهم وآثارهم على كلّ حال.

لقد تحسّن التعليم كميّة ولكنّه ساء نوعيّة، والمطلوب أن يتحسّن كميّة ونوعية في آن واحد، فإن النوعيّة من العلماء الذين كانوا بين العرب

والمسلمين قبل ثلاثين سنة لا مثيل لهم في الوقت الحاضر، وقد تركوا فراغاً بعد رحيلهم فلم يستطع غيرهم أن يسدّوا هذا الفراغ.

لقد كان في مدينة الموصل قبل خمسين سنة مثلاً (١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م) ما يناهز المائة عالم من علماء الدين، من بينهم خمسة علماء يصلحون تولي منصب شيخ الأزهر بكلّ جدارة، وكان في مدينة الموصل أكثر من عشرين مدرسة علميّة في الجوامع لتعليم الدين الإسلامي واللغة العربيّة، وكانت الجوامع عامرة بالخطباء والأئمة والوعاظ.

واليوم (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م)، أُغلقت المدارس الدينية، وأقفرت الجوامع من الخطباء والأئمة والوعاظ، ولا يوجد في الموصل مَن يصلح أن يكون شيخاً في الأزهر لا شيخاً للأزهر.

ولكنّ الذين كانوا يحسنون القراءة والكتابة قبل خمسين سنة ثلاثة بالمائة من مجموع السكّان، فأصبحوا اليوم ثمانين بالمائة، وهكذا زادت الكميّة وقَلّت النوعيّة، فلا بدّ من أن يكون في التعليم خطأ مقصوداً أو غير مقصود، وأتمنى على الله، وعلى المسؤولين أن يفتّشوا عن هذا الخطأ ويصلحوه.

إن قراءة المراجع الأجنبية في الدراسات العربية والإسلامية شيءٌ، والانبهار بها وتصديق كلّ ما فيها شيء آخر، فليس في الدنيا كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إلاّ القرآن الكريم، أما الكتب الأخرى ومنها المراجع الأجنبيّة، فلا تخلو من أخطاء، ولا ينبغي الانبهار بها ولا تصديق كلّ ما فيها من غثٍّ وسمين.

والذي أتمناه على كلّ عربيّ ومسلم يقرأ تلك المراجع الأجنبية، وبخاصة ما يبحث في الدراسات الإسلامية واللّغة العربية، أن يعود إلى المصادر الإسلامية في اللغة والدين والتاريخ، ويقارن بين ما جاء في المصادر الإسلامية المعتمدة وبين ما جاء في تلك المراجع الأجنبية،

ليتبيّن الحق من الباطل، فيأخذ بالحق ويعتمده، ويرفض الباطل ويتجنّبه - على الأقل - أو يردّ على تلك المراجع الأجنبية مدافعاً عن الحق دافعاً للباطل، ويفضح عوراتها في الجهل والدسّ والتّشكيك.

أما أن يأخذ كل ما يرد في المراجع الأجنبية دون تمحيص، فهذا هو عين الخطأ الذي لا مسوِّغ له، لأن أقلام أكثر الأجانب في مؤلفاتهم غير نظيفة وتشوّه الحقائق، وبخاصة إذا كانوا من يهود أو النصارى المبشّرين أو من الملوثين بأدران الاستعمار بشكل من الأشكال.

والمؤلف العربي المسلم في كتابه، والكاتب في بحوثه ودراساته ومقالاته، مؤتمن على عقول أبناء أمّته العرب والمسلمين، فما ينبغي أن يقودهم إلى الضلال وإلى الباطل، ويلوِّث عقول القراء وقلوبهم.

والمدرِّس في مدرسته والأستاذ في جامعته مؤتمنون على عقول تلاميذهم وطلابهم، والمفروض أن يعلِّموهم ما ينفع الناس ويمكث في الأرض، لا ما يضرّ الناس ولا يستقيم مع الحق.

وكم أتمنى على كلِّ كاتب ومؤلِّف ومدرِّس وأستاذ أن يقرأ سِيَر المؤلفين الأجانب، ليجد أنّهم في الغالب كتبوا ما كتبوا لتخريب عقول العرب والمسلمين وبيوتهم أيضاً، فدسّوا وشككوا وافتروا لمصلحة أعداء العرب والمسلمين لا لمصلحة العرب والمسلمين، فكيف إذا يروِّج كاتب عربي مسلم ومؤلِّف لأفكار أمثال هؤلاء المؤلفين؟!

ذلك أمر عجيب غريب، حرصت على كشفه دفاعاً عن ديني ولغتي وتراث المسلمين المجيد، فلا يجتمع الغربيون والشرقيون على محاربة دين كالإسلام، ولا لغة كلغة القرآن الكريم، ولا تراث كتراث المسلمين، وطالما سمعنا الغربيون يردِّدون: إنّ يقظة المسلمين أخطر على الغرب من الشيوعية، وطالما سمعنا الشرقيين يرددون أن يقظة الإسلام أخطر على المعسكر الشرقي من الغرب، فهل من الإنصاف أن يوالي قسم من

أبنائنا العرب والمسلمين أعداء العرب والمسلمين، ويحققوا أهداف الأعداء التخريبيّة؟!.

والله أسأل أن يفيد بهذا البحث، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

والحمد لله ربِّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيدي ومولاي رسول الله، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

المصادر والمراجع

ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن الأثير الجزري الملقب بعزّ الدين):

١ - أسد الغابة في معرفة الصّحابة - طهران - ١٣٧٧ هـ.

٢ - تجريد أسماء الصحابة - حيدرآباد الدكن - ١٣١٥ هـ.

٣ - الكامل في التاريخ - بيروت - ١٣٨٥ هـ.

ابن تغري بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكيّ):

٤ - النجوم الزاهرة - القاهرة - ١٣٤٨ هـ.

ابن حجر (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني العسقلاني):

٥ - الإصابة في تمييز الصّحابة - القاهرة - ١٣٢٥ هـ.

٦ - تهذيب التهذيب - حيدرآباد الدكن - ١٣٢٧ هـ.

٧ - فتح الباري بشرح البخاري - بولاق - ١٣٠١ هـ.

ابن حزم الأندلسي (ابو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي):

٨ - أسماء الصحابة الرّواة وما لكل واحد منهم من العدد - ملحق بجوامع السيرة - القاهرة - بلا تاريخ.

٩ - أصحاب الفتيا من الصحابة ومَنْ بعدهم على مراتبهم من كثرة الفتيا - ملحق بجوامع السيرة - القاهرة - بلا تاريخ.
١٠ - جوامع السيرة - القاهرة - بلا تاريخ.

ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله المعروف بابن خرداذبة):

١١ - المسالك والممالك - أعادت مكتبة المثنى البغدادية طبعه في طهران - ١٩٦٣م.

ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون):

١٢ - العبر وديوان المبتدأ والخبر - بولاق - ١٢٨٤هـ.

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان):

١٣ - وفيات الأعيان - تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد - القاهرة - ١٩٤٨م.

ابن دحلان (السيد أحمد بن زيني دحلان):

١٤ - الفتوحات الإسلامية - القاهرة - ١٣٤٥هـ.

ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصريّ الزّهريّ):

١٥ - الطبقات الكبرى - بيروت - ١٣٧٦هـ.

ابن سيد الناس:

١٦ - عيون الأثر - القاهرة - ١٣٥٦هـ.

ابن عبد البر (ابو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر):

١٧ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب - تحقيق محمد علي البجاوي - القاهرة - بلا تاريخ.

١٨ - الدرر - القاهرة - ١٣٨٦ هـ.

ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر الشافعي):

١٩ - التاريخ الكبير (تهذيب ابن عساكر) - دمشق - ١٣٢٩ هـ.

ابن الفقيه (أبو بكر احمد بن إبراهيم الهمذانيّ):

٢٠ - مختصر كتاب البلدان - لايدن - ١٨٨٥ م.

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري):

٢١ - عيون الأخبار - القاهرة - ١٣٨٣ هـ.
٢٢ - المعارف - تحقيق ثروت عكاشة - ١٩٦٠ م.

ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي):

٢٣ - البداية والنهاية في التاريخ - القاهرة.
٢٤ - تفسير ابن كثير - القاهرة - ١٣٤٧ هـ.

ابن ماجه (محمد بن يزيد بن ماجه القزويني):

٢٥ - سنن ابن ماجه - القاهرة - ١٣١٣ هـ.

ابن هشام (ابو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري):

٢٦ - السيرة النبويّة - تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد - القاهرة - ١٣٥٦ هـ.

أبو الفدا (إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة):

٢٧ - تقويم البلدان - باريس - ١٨٤٠ م.
٢٨ - المختصر من أخبار البشر - القاهرة - ١٣٢٥ هـ.

أحمد بن حنبل (الإمام أحمد بن حنبل):

٢٩ - مسند الإمام أحمد بن حنبل - القاهرة - ١٣١٣ هـ.

الأصبهاني (أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني):

٣٠ - حلية الأولياء - القاهرة - ١٣٥٦ هـ.

الاصطخري (أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخريّ المعروف بالكرخيّ):

٣١ - المسالك والممالك - تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني - ١٣٨١ هـ.

البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري):

٣٢ - صحيح البخاري - بولاق - ١٣٠٠ هـ.

البشاري (المقدسي المعروف بالبشاري):

٣٣ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - لايدن - ١٩٠٦ م.

البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري):

٣٤ - أنساب الأشراف - الجزء الأول - تحقيق الدكتور محمد حميد الله - القاهرة - ١٩٥٩ م.

٣٥ - فتوح البلدان - بيروت - ١٣٧٧ هـ.

البلخّي (أبو زيد أحمد بن سهل البلخّي):

٣٦ - البدء والتاريخ - مطهر بن طاهر المقدسي - نشره كلمان هوار - باريس - ١٨٩٩ م.

الجوزيّ (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي):

٣٧ - صفة الصّفوة - حيدر آباد الدكن - ١٣٥٥ هـ.

الحلبي (علي بن برهان الدين الحلبي الشّافعي):

٣٨ - إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون (السيرة الحلبية). القاهرة - طبعة مصطفى محمد - بلا تاريخ.

حميد الله (محمد حميد الله الحيدر آبادي):

٣٩ - الوثائق السياسية - القاهرة - ط٢ - ١٣٧٦ هـ.

الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحيّ بن العماد الحنبلي):

٤٠ - شذرات الذّهب في أخبار مَنْ ذهب - القاهرة ١٣٥٠ هـ.

الخزرجي (أحمد بن عبد الله الخزرجيّ):

٤١ - خلاصة تذهيب الكمال في أسماء الرجال - القاهرة - ١٣٢٢ هـ.

خطاب (محمود شيت خطاب):

٤٢ - قادة فتح العراق والجزيرة - بيروت - ط٢ - ١٣٩٣ هـ.
٤٣ - قادة فتح فارس - بيروت - ط٣ - ١٣٩٤ هـ.
٤٤ - قادة النبيّ ﷺ - مخطوط.

خليفة بن خياط:

٤٥ - تاريخ خليفة بن خياط - تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري - النجف - ١٣٨٦ هـ.

الديار بكري (حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري):

٤٦ - تاريخ الخميس - القاهرة - ١٣٠٢ هـ.

الذّهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذّهبي):

٤٧ - تاريخ الإسلام - القاهرة - ١٣٦٨ هـ.

٤٨ - دول الإسلام - القاهرة - ١٣٦٨ هـ.
٤٩ - سير أعلام النبلاء - تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد - القاهرة - بلا تاريخ.
٥٠ - العبر - تحقيق فؤاد السيِّد - الكويت - ١٩٦١م.
٥١ - ميزان الاعتدال - القاهرة - ١٣٢٤ هـ.

الزّبيري (أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري):

٥٢ - نسب قريش - نشره لأول مرة ليڤي بروفنسال - القاهرة - بلا تاريخ.

الزّمخشري (أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر الزّمخشري):

٥٣ - تفسير الكشاف - بولاق - ط٢ - ١٣١٩ هـ.

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري):

٥٤ - تاريخ الأمم والملوك - القاهرة - ١٩٦٠م.
٥٥ - المنتخب من كتاب ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين - القاهرة - ١٣٥٨ هـ.

عبد الرحمن بن عبد الله (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعميّ السهيلي):

٥٦ - الروض الآنف (شرح السيرة النبوية لابن هشام) - القاهرة - ١٣٣٣ هـ.

العصاميّ (عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي):

٥٧ - سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي - القاهرة - ١٣٧٩ هـ.

القزويني (يحيى بن آدم القزويني):

٥٨ - آثار البلاد وأخبار العباد - بيروت - ١٣٨٠ هـ.

القلقشندي (أبو العبّاس أحمد القلقشندي):

٥٩ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا - القاهرة - ١٩١٣م.

المحب الطبري (أبو جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبري):

٦٠ - الرياض النّضرة في مناقب العشرة - القاهرة - ط٢ - ١٣٧٢ هـ.

محمد رشيد رضا:

٦١ - تفسير المنار - القاهرة - ١٣٢٥ هـ.

المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي):

٦٢ - مروج الذهب ومعادن الجوهر - تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد - القاهرة - ط٤ - ١٩٦٤م.

النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب):

٦٣ - نهاية الأرب في فنون الأدب - القاهرة - بلا تاريخ.

النووي (أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي):

٦٤ - تهذيب الأسماء واللغات - القاهرة - بلا تاريخ.
٦٥ - شرح النووي على مسلم - القاهرة - ١٢٨٣ هـ.

الواقدي (محمد بن عمر بن واقد):

٦٦ - كتاب المغازي - تحقيق الدكتور مارسدن جونس - أوكسفورد ١٩٦٦م.

ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي):

٦٧ - المشترك وضعاً والمفترق صقعاً - لايدن - ١٨٤٦م.

٦٨ - معجم البلدان - القاهرة - ١٣٢٣هـ.

فهرس الجزء الثاني

السفارات النبوية في الدراسات الحديثة ٥
في المصادر والمراجع العربية الإسلامية ٧
السيرة في دراسات المستشرقين ٥٩
١ ـ السيرة بصورة عامة ٥٩
٢ ـ السفارات والرسائل النبوية بصورة خاصة ٨٧
بين اليقين والشك ١٠٢
١ ـ عالمية الإسلام ١٠٢
٢ ـ معنويات الرسالة ١٠٩
٣ ـ التوثيق التاريخي ١١٤
٤ ـ التفاصيل الأسطورية ١١٨
٥ ـ اختلاف التوقيت ١٢٣
الرسائل النبوية المكتشفة ودراستها ١٣٢
أ ـ الرسالة النبوية إلى المقوقس ١٣٢
ب ـ الرسالة النبوية إلى المنذر بن ساوى ١٣٥
ج ـ الرسالة النبوية إلى النجاشي ١٣٦
د ـ الرسالة النبوية إلى كسرى ١٣٩
هـ ـ الرسالة النبوية إلى هرقل ١٣٩

ز ـ مصير الرسالة النبوية إلى هرقل ١٤٢
منهاج الدراسة المقترح ١٤٥
الصراع الحضاري ـ الداء والدواء ـ ١٥٣
١ ـ الجذور التاريخية للإستشراق ١٥٣
٢ ـ أهداف الاستشراق ١٦٠
سمات سفراء النبي ﷺ ١٩٧
بناء السفراء ٢٠٣
١ ـ الدعائم الثلاث ٢٠٣
٢ ـ العقيدة الإسلامية ٢٠٥
٣ ـ القدوة الحسنة ٢١٦
٤ ـ اختيار المسؤولين ٢٤١
سمات السفراء ٢٥٢
١ ـ الإسلام والإنتماء إليه ٢٥٢
٢ ـ الفصاحة ٢٥٨
٣ ـ العلم ٢٦٣
٤ ـ حسن الخلق ٢٧٨
٥ ـ الصبر ٢٨٧
٦ ـ الشجاعة ٢٩٥
٧ ـ الحكمة ٣٠١
٨ ـ سعة الحيلة ٣٠٥
٩ ـ المظهر ٣٠٩
نهاية المطاف ٣١٧
إسلام النجاشي والإعتماد على المصادر الإسلامية في الدراسات ٣٢١